الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات
الجزء الرابع

الجمهورية العربية السورية
وزارة الأوقاف
سلسلة وزارة الأوقاف التنويرية
فقه الأزمة

الإسلام
بين المفاهيم والمصطلحات

الجزء الرابع

جميع الحقوق محفوظة لوزارة الأوقاف

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

سلسلة وزارة الأوقاف التنويرية

فقه الأزمة

الإسلام بين المفاهيم والمصطلحات

الجزء الرابع

١ـ التعامل مع غير المسلمين في الشريعة الإسلامية .

٢ـ دعاة إلى الله لادعاة على أبواب جهنم .

٣ـ الإسلام بين التطرف والاعتدال .

٤ـ أفعال شرعها الإسلام وأنكرها متنطعو الوهابية .

٥ـ في سبيل النهوض بالأمة .

٦ـ الفرق الإسلامية قديماً وحديثاً .

٧ـ ممارسات بحق المرأة يرفضها الإسلام .

مقدمة الكتاب

الحمد لله ربِّ العالمين ، وأفضل الصَّلاةِ وأتمُّ التَّسليم على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد :

قال الله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت : ٣٣] . وقال الله عز وجل أيضاً : ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

فقد وضع الإسلام لمنهج الدَّعوة وسائل تُعينُ على أداء الواجب تجاه الوطن والدِّين ، وإننا ـ جميعاً ـ مُتَّفقون على أن بلادنا تَمرُّ بمرحلة مَصيريَّة ، وإنَّ هناك رَغبة جَامِحَة من الغرب في تَدمير مُقدَّرات البلاد ، وإذلال أبنائه ، وجعله رهينة للمخطَّطات والأهداف الصُّهيونيَّة والأمريكيَّة في العالم .

والإسلام بِخِطَابه المعتدل ومفهومه الشَّامل هو الذي يُقدِّم للأمَّة الإسلاميَّة الفكر السَّويَّ الذي يُمثِّلُ رُوحها ويصوغُ وُجدانها ويستنهضُ هِمم أبنائِها ، وَيُوقِظُ فِيها الطَّاقة المحرِّكة القادرة على الإبداع والعطاء . وَمِن أهمِّ الأسباب التي تُوصِلُنا إلى هذا الفكر وهذا المنهج ، العمل على توجيه أفراد الأمَّة توجيهاً واعياً سليماً ، وذلك مِن خلال فعاليَّات الخطباء على منابرهم ، والمدرِّسين الدِّينيِّين في

مساجدهم ، والأكاديميِّين في جامعاتهم ومعاهدهم . . .

ومما لا شكَّ فِيهِ أن الدَّعوة الإسلاميَّة بمراحلها جميعاً تحتاج إلى رجال مُؤَهَّلين عِلميَّاً وخُلقيَّاً لحملها وتبليغها على وجهها الصَّحيح ،وَتحتاج إلى دُعاة يَفهمون الإسلام فَهماً سَليماً ويَسْعَونَ في إيصاله إلى أبناء هذه الأمَّة بَعيداً عن التَّشويه والتَّحريف والتَّزييف والفهم الخاطىء ، مُنسجماً مع طبيعة العَصر الذي نعيش ، الممتلىء ـ كما نعلم ـ بالفتن الجسام .

كما أن الدُّعاة مُحتاجون إلى فَهمِ وَاقع أُمَّتهم وظروف عصرهم فَهماً لا غُموضَ فِيه ولا تحريف ، وبعدها يَتَلَمَّسونَ الحلول المناسبة للمشكلات الطَّارئة بما يَتلاءم مع منهج القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة والفهم الصَّحيح لنصوصهما .

فالواجب الشَّرعي يَتطلَّبُ مِنَّا اليَوم تَضافر جهود المؤسَّسات والقوى الدِّينيَّة التَّابعة لوزارة الأوقاف وغيرها من الوزارات ، من : ثانويَّات شرعيَّة ، ومعاهد متوسطة وعليا ، ومُجمَّعات دينيَّة ، وكليَّات شريعة في الجامعات السُّوريَّة . بالإضافة إلى جُهود القائمين بالشَّعائر الدِّينيَّة ؛ مِن خطباء مساجد ، ومدرِّسين دينيِّن ومفتين ، ومن فعاليَّات أخرى كالتَّدريس الدِّيني النِّسائي ، والتَّوجيه والإرشاد. . . ، وذلك بهدف إطلاق حَملة إنقاذٍ لِلفكر الإسلامي من محاولات الفكر الظَّلامي ، والتَّركيز على تصحيح المفاهيم وتوضيح حقيقة الدِّين من خلال هذه المؤسَّسات ؛ لِنَكون نَموذجاً يُحتذى في العالم العربيّ والإسلاميّ باعتبار دمشق عاصمة الحضارة الإسلاميَّة .

وعلى ضوء ما سَبق مِن مَعانٍ وأفكارٍ ، واستمراراً للسَّير قُدُماً على منهج التَّصَدِّي للفكر المنحرف والمتشدِّد ، وللتيَّارات الفكريَّة الضَّالَّة المُضِلَّة ، ومن ضَرورة تَلاحم الجُهود ، ولمِّ الشَّمل ورأبِ الصَّدع في الجسد الواحد ، ودعماً للفكر الدِّيني المعتدل ، وللوحدة الوطنيَّة التي نَعَمَت بها سوريَّة عقوداً طويلة من الزَّمن على رغم كلِّ ما يُحاك ضدَّها من مؤامرات ، وما تَتعرَّض له من فتن مُرَادُ أصحابِهَا ـ ومن يَسعون فِيها ـ تدمير كيان سوريّة ، أرضاً ، وبنية تحتيَّة ، وشعباً .

وانطلاقاً من أن الفكر الدِّيني المعتدل البنَّاء الْمُخلص هو البلسم الوحيد للجروح العميقة التي أصابت مجتمعنا وكادت تمزِّقه ، وهو القادر على جعل سوريَّة أقوى سياسيَّاً واجتماعيَّاً وثقافيَّاً وأخلاقيَّاً .

وبعد تَنَامِي فِتنة التَّكفير التي تجتاح العالم الإسلامي بِرُمَّته من شرقه إلى غربه ، حاصدة أرواح آلاف الأبرياء ، في تجاوزٍ صَريحٍ لِكل القيم الإنسانيَّة ، وانتهاك فاضح لكل الحرمات ، وتشويه غير مسبوق لصفاء الصُّورة الإسلاميَّة ، **هذه الفتنة التي يَقودها أصحاب الفكر الوهَّابيِّ لم تَطحن في تاريخها القديم والحديث إلا رِقَابَ المسلمين في اليمن والعراق والجزائر ومصر والشَّام وغيرها** ، **إنَّه فِكرٌ يُؤسِّس** لإباحة ذبح الأبرياء ، ولقتل عشوائي ، ولتفجيراتٍ بسيَّارات مُفخَّخة ، وشبَّان انتحاريِّين يَذهبون إلى الموت وهم يَظنُّون أنهم ذاهبون إلى الفردوس الأعلى مباشرة ، مع مُباركة وفتاوى شرعيَّة من علماء تَزيدُ مِن عَزمهم وتسوِّغُ إرهابهم وتُحَفِّزُ الآخرين على سلوك النَّهج الذي سَلكَهُ

الانتحاريُّون نفسه ، وما الذي حَصل في دول كثيرة كالعراق والجزائر ومصر وأفغانستان ، وكان آخرها بلدنا سوريَّة ، إلا من هذا القبيل .

لهذا ، فإنَّ علماء القطر العربيِّ السُّوريّ والقائمين بالشَّعائر الدِّينيَّة تنادوا إلى العناية بقضايا ومسائل ومحاور غاية في الأهمِّيَّة ، وإلى تهيئة المناخ الملائم لإيصالها إلى أبناء الوطن بصورتها الحقيقيَّة ، وفهمها الذي يَتَّسِقُ مع الفهم السَّليم لأحكام الإسلام ، لِمَا لِهذه القضايا من أثرٍ كَبير في إعادة الاستقرار إلى ربوع بلدنا الحبيب .

وكان مِن نَتَاجِ هذا التَّوجُّه للسَّادة العلماء في سوريَّة أن شُكِّلت اللَّجنةُ العِلميَّة الفقهيَّة في وزارة الأوقاف ، ومِن أبرزِ مَهامِّها وضع الخُطَطِ الكفيلة بالارتقاء بالمستوى الفكري والدِّيني لأبناء الوطن بما في ذلك المحافظة على الفكر الوسطي لفهم الإسلام بَعيداً عن التَّطرُّف والغلو والتَّفريق ، وبما يُعَزِّز الوحدة الوطنيَّة الرَّائدة في سوريَّة .

بالإضافة إلى تأليف بُحوث علميَّة فقهيَّة وفكريَّة إثرائيَّة ، ودراسات مُتخصِّصَةٍ حَول أفكار ومحاور دينيَّة تُؤكدُ وَسطيَّة الإسلام واعتداله ، وتَنبذ التَّشدُّد والتَّطرُّف والتَّكفير ، وستكون تلك البحوث والدِّراسات مَنهجاً عِلميَّاً مَعرفيَّاً ومَرجِعاً فِقهيَّاً وفِكريَّاً يَتزوَّدُ مِنه الخطيب والمدرِّس الدِّيني في خُطَبِه ودروسه .

وكان باكورة أعمال هذه اللَّجنة إصدار سلسلة فقه الأزمة التي أطلقنا عليها اسم (السلسلة التَّنويريَّة ـ الإسلام بين المصطلحات والمفاهيم) .

وممَّا ركَّزت عليه هذه السلسلة :

* بيان حقيقة الفكر التَّكفيري وأصحابه الَّذين يَعملون في الصُّفوف الخلفيَّة ، ويظهر عملهم هذا في عمليَّات التَّفجير والقتل الجماعيِّ ، واضعين العصابات في الواجهة ، داعمين لها من الخلف .

* اتِّخاذُ الوسطيَّة والاعتدال في الطَّرح مِنهاجاً للدَّاعية إلى الله عزَّ وجل ، وذلك من خلال خطبه ودروسه ، وابتعاده عن التَّعصُّب للرَّأي .

* الدَّعوة إلى التَّسامح والتَّواصل ، واحترام الرأي الآخر ، والاعتراف بالخطأ والرجوع عنه بشجاعة وصراحة ، والتَّرحيب بنصح النَّاصحين ، وإحسان الظَّنِّ بالآخرين .

* الانطلاق من أنَّ باب الحوار في الإسلام مَفتوح للجميع ـ ومع الجميع ـ من أجل مصلحة الوطنِ واستقلاله والشَّعبِ وأمانه ، ومرادُ الجميع الوصول إلى الحقِّ وإشاعة وجوه الخير ، بَعيداً عن المصالح والأهواء التي تُؤدِّي إلى النِّزاع والفرقة ، قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦] .

* تضافر الجُهود للتَّمسُّك بالدِّين السَّمح بعيداً عن الغلوِّ والتَّشدُّد والفكر التَّكفيريّ الذي لا جدوى منه ، ولا يَكون معه إلا المزيد والمزيد من القتل والتَّدمير بين أبناء الدِّين الواحد والوطن الواحد .

* بيان حقيقة فريضة الجهاد في الإسلام ، وكشف المفاهيم المنحرفة والمصطلحات المزيَّفة التي أطلقها الْمُغرضون تحت مسمَّى

الجهاد ، وهيَّ أبعد ما تكون عن الجهاد وعن الإسلام في شيء .

* وجوه الشبه بين أفكار التَّكفير القديمة وأفكار التَّكفير الحديثة وقرب بعضها من بعضها الآخر قائمة ومتكررة وثابتة ، وإن تَباينت في الإخراج والعبارة ، والسبب في ذلك أنَّ التَّكفير واحد في النوع ، وإن اختلف في التَّفاصيل .

* التَّحذير من الفساد والإفساد في الأرض ، وأثر منع حدوثهما في المحافظة على مُقدَّرات البلاد الاقتصاديَّة والتَّنمويَّة والبيئيَّة والثَّقافيَّة والتَّعليميَّة ، فهذه المقدَّرات ملك للجميع ، وإن تدميرها أو تعطيلها إرباك لحياتنا ، وتَضييق حقيقيّ علينا ، ومسؤوليَّة ذلك تقع على عاتقنا ، وهذا من التَّعاون على البرِّ والتَّقوى الذي أمرنا الله تعالى به .

* تأكيد مبدأ المصالحة والمناصحة والمصارحة بين المختلفين ، قال الله تعالى : ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء : ١٢٨] وقال الله عز وجل أيضاً : ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال :١] . وقال رسول الله ﷺ : (الخلق كلُّهم عيالُ الله فأحبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله)(١) .

* منهجيَّة الاحتكام في القضايا المختلف فيها إلى أهل العلم الموثوق بإيمانهم وعدالتهم ووسطيَّتهم ورسوخهم في العلم لبيان حكم الشَّرع فيها في ضوء نصوص القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة ومقاصد الشَّريعة

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير برقم (١٠٠٣٣) .

ومبادئها العامَّة ، **وتوعية النَّاس إلى ضرورة عدم الالتفات إلى الفتاوى الشَّاذَّة والتَّكفيريَّة « فتاوى القتل والإرهاب »** .

❋ أهميَّة الانطلاق في الخطاب الدِّيني من مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة المتمثِّلة بقواعد كثيرة من أهمِّها قاعدة درء المفاسد وجلب المصالح ، والقواعد الخاصَّة بمراعاة الأولويَّات .

❋ بيان حقيقة الحرب الرَّعناء التي أعلنتها إسرائيل على سوريَّة ، وجنَّدت لها بالوكالة عبيدها الأقربين وخدَّامها الأباعد القابعين وراء البحار ، وعلى رَأَسهم الفكر الوهَّابيّ التَّكفيريّ .

❋ أهميَّة بيان حقيقة الدَّعوات المغرضة الهدَّامة التي تدعو إلى تَدخُّل أجنبي سافر ودائم في شؤون بلادنا الدَّاخليَّة ، والتي تجرُّ الويلات والدَّمار ، وتجعل من سوريَّة مسرحاً لأغراض وأطماع عدوانيَّة استعماريَّة لا نجني من ورائها إلا المزيد من سفك الدِّماء البريئة ، مما ينعكس سلباً على العمل الدَّعويّ والدِّينيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ وسائر جوانب الحياة .

❋ بيان أن سلسلة التَّآمر على أرض الشَّام عموماً وسوريَّة خصوصاً مستمرَّة ، ولكن بأشكال قبيحة متنوِّعة .

❋ أهميَّة عدم استغلال الخطاب الدِّينيّ لخدمة اتِّجاهات سياسيَّة شخصيَّة ، أو فئويَّة انتمائيَّة .

❋ الانتباه إلى أن خطاب الدُّعاة أداة فاعلة في تعميق معنى الأخوَّة والوحدة بين أبناء الوطن الواحد .

* تعزيز روح الانتماء إلى الوطن ، والدِّفاع عن ثوابته وهويَّته العربيَّة .

راجين المولى عزَّ وجل أن يهيىء لهذه الأمَّة أمر رشدٍ وعزَّةٍ ومنعة ، وأن يكشف عنها الغُمَّة ، ويُفَرِّج الكَرب ، ويعيد نعمة الأمن والأمان إلى ربوع بلادنا الحبيبة عاجلاً غير آجل ، وأن يوفِّقنا إلى ما يُحبُّ ويرضى ، إنَّه على ما يشاء قدير .

والحمد لله رب العالمين

دمشق في يوم الإثنين ١٢ربيع الأول ١٤٣٥هـ

الموافق ١٣ كانون الثاني ٢٠١٤م

اللَّجنة العلميَّة الفقهيَّة في وزارة الأوقاف

التعامل مع غير المسلمين
في الشريعة الإسلامية

المحتوى

مقدمة البحث ١٧
تمهيد حول مفهوم الحَربيّ والذِّمِّيّ والمُستأمِن ١٩
أحكام أهل الذِّمَّة في الإسلام ٢٣
نماذج من الحقوق التي يَحفظها عَقدُ الذِّمَّةِ لأهل الكتاب ٢٥
إذاً. . . ما حقيقة الجزية التي تُؤخذ من الذِّمِّيِّين ؟ ٢٦
مشكلات واجتهادات تخضع لحاجة التصحيح والبيان ٢٩
أثر الفتوحات الإسلامية في رعاية حقوق أهل الكتاب ٣٢
الدولة الإسلامية وموقع غير المسلمين فيها ٤١
ليس في الإسلام أقلية أو أكثرية ٤٦
الأقنية التي تَصنع لنفسها الإرهاب ٥٥
ضوابط التعامل مع غير المسلمين ٦٠
الخاتمة ٦٨

مقدمة البحث

شرائع الإسلام ـ كلها على تنوعها ـ إنما تدور على محور واحد ، ألا وهو إقامة العدالة التامة ـ وأكاد أقول ـ المطلقة ، تدور على إقامة العدالة التي تتسامى فوق فوارق الدين ، وتتسامى فوق فوارق العرق ، وتتسامى فوق فوارق الإقليم واللون واللغة ، شرائع الإسلام كلها إنما تدور على هذا المحور ، ألم تقرؤوا أو تسمعوا قول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة : ٨] ، ألم تقرؤوا قوله عز وجل : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وقوله تعالى : ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى : ١٣] ، وقد كرر البيان الإلهي هذا المعنى في أكثر من موطن ، وفي أكثر من مناسبة .

ومن هنا فإن الإسلام لم يضق ـ في يومٍ من الأيام ـ ذرعاً بأهل الكتاب ، بل إن الدول الإسلامية المتوالية التي كانت ترعى الشريعة الإسلامية وتطبقها ـ كما أمر الله عز وجل وكما أنزل ـ كانت تحتضن أهل الكتاب وترعاهم وتبرهم ، وتذود عنهم وتتقاسم معهم الحقوق الإنسانية بالعدل وعلى السواء . وتأملوا في الفتوحات الإسلامية التي امتدت إلى بلاد الشام هذه ، وإلى مصر لم يُلْجَأ نصراني أو يهودي إلى أن يُبدل دينه هنا أو هناك ، وبقي النصارى في بلاد الشام إلى أن جاء

الفتح الإسلامي الذي طهرها من الاستعمار الروماني ، وكان الأقباط في مصر سعداء بالفتح الإسلامي الذي طهر مصر من الامبراطورية الرومانية .

وهذا ـ الذي أقوله لكم ـ إنما تحقق تحت سلطان القاعدة القائلة : « ألا لا يُفْتَنَنَّ نصراني عن نصرانيته ، ولا يُفْتَنَنَّ يهودي عن يهوديته » ، هذا المبدأ كان هو الشرعة الْمُطبَّقة خلال القرون المنصرمة كلها ، فلا يجوز في شرع الله أن يهتاج المسلمون على الكتابيين ولا الكتابيون على المسلمين لمجرد أن هؤلاء مُسلمون وأن هؤلاء كتابيون ، هكذا قرَّر كتاب الله ، وهكذا قرَّرت سنَّة رسول الله ، وهكذا قرَّر واقع الأمة الإسلامية فيما مضى ، حتى إن أهل الكتاب جاهدوا مع المسلمين ضد الغزوات الصليبية التي داهمت الشام ، كما سنرى في طيات البحث .

❊ ❊ ❊

تمهيد حول مفهوم الحَربيّ والذِّمِّيّ والمُستأمِن

مفهوم الحِرابة :

الحِرابة أو المُحارَبة : هي ظهور القصد العدواني بأدلّة واضحة ثابتة على تبييت نيّة العدوان ، أو التخطيط له أو المُباغتة العدوانية ـ وهو المعنى المتداول حتى بين الدول بعضها مع بعض ـ ، ويحقُّ للمسلمين التصدي بل البدء بالهجوم على مَن بَيَّتُوا في أنفسهم هذا القصد ، شريطة أن تستبين دلائلُه ، وذلك حسب ما يراه خليفة المسلمين أو رئيس الدولة في كل عصر .

وهذا ما كان رسول الله ﷺ يفعله في كثير من الأحيان ، يُسابق بذلك كيدَ المشركين ومَن معهم كي يُفَوِّت عليهم الفرصة ، إذ إن السرعة الخاطفة هي عصب النصر في الحرب ، وإنما يمتلك النصر فيها من امتلك فيها زِمام المبادرة ، ومِن هنا انقسم الجهاد القِتالي في حياة سيدنا رسول الله ﷺ إلى قسمين :

ـ حربٍ دفاعية ، كغزوة الخندق .

ـ حربٍ هجومية ، كغزوة مؤتة .

وتُعتَبر عامة ممتلكات الحَربيين بالنسبة للمسلمين أموالاً غير

محترَمة ، فلهم أن يستولوا عليها ويأخذوا ما امتدَّت إليه أيديهم منها ، وما وقع تحت يدهم من ذلك اعتُبِر ملكاً لهم ، وهو حكم مُتَّفَقٌ عليه عند كافة الفقهاء .

مفهوم أهل الذمة :

يطلق على رعايا الدولة الإسلامية من الكتابيين « اليهود والنصارى » اسم : « أهل الذمة » .

تعريف عقد الذمة : عقد يجعل الذِّمِّيَّ من أهلِ دار الإسلام ، فهو بالتعبير الحديث مُواطن يملك من حق « المواطنة » ما يَملكه المسلمون دُون أي تفاوت في الدرجات .

والكتابيون ومَن في حُكمهم لهم حالتان اثنتان :

الحالة الأولى : أن يُوجدوا داخل بنيان الدولة الإسلامية ، ومُقتضى عقد الذمة عندئذٍ أن يتفاعلوا مع نظام الدولة وقوانينها ، وأن يُخلِصوا في رعايةِ مَصالحها العامة ، والدفاع عن حقوقها واستقلالها كلما طاف بها خطر أو تهديد ، ولهم مقابل ذلك وُجودُهم الاجتماعي والديني الخاص بهم على قدم المساواة .

الحالة الثانية : أن يَكون وجودهم وتلاقيهم في بلدة أو مُقاطعة خَاصة بهم ، بحيث لا يُوجد في تلك البلدة أو البقعة إلا كتابيون أو مَن هم في حكمهم .

إن عقد الذمة مع هؤلاء لا يَعني أكثر من تعاقد يتم بالتراضي على ضمان اجتماعي يَسري فيما بينهم وبين الدولة الإسلامية ، يتم من

خلاله التأكيد بأن لا يتحالف هؤلاء الكتابيون مع أي فئة أو دولة مُعادية للمسلمين لضرب المسلمين أو التربص بهم .

كما يتم التزام الدولة الإسلامية بالمقابل بعدم إيذائهم في عقائدهم أو أيٍ من التزاماتهم الدينية أو أي من ممتلكاتهم وحقوقهم الإنسانية ، لا انفراداً ولا عن طريق التحالف مع أي فئة معادية لهم ، بل يتم التزام الدولة الإسلامية بالدفاع عنهم كما يدافعون عن المسلمين من رعاياهم ضد أي خطر قد يتهددهم .

مفهوم المُستأمِن :

هو مَن قَدِم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداءِ رسالةٍ أو تجارة أو طلبِ صُلحٍ أو مُهادنةٍ أو حَمْلِ جزية ، أو نحوِ ذلك من الأسباب ، فطَلب من الإمامِ أو نائبه أماناً .

وقد أمر الله بحُسْن استقباله والمحافظةِ عليه ثم إبلاغِه مأمَنَه عندما يُريد ذلك ، وقد شَرَع الله عزّ وجلّ أمانَ مِثلِ هؤلاء ليَعلَموا دينَ الله ، وتنتَشِر دعوةُ الله في عباده ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦] ، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يُعطي الأمان لمن جاءه مُسترشِداً أو في رسالة ، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش ، منهم : عروة بن مسعود ومِكْرَز بن حفص وسهيل بن عمرو ، وغيرهم واحداً بعد واحد ، يَتردَّدون في القَضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين رسولَ الله ﷺ

ما بَهَرَهُم وما لم يُشاهدوه عند مَلكٍ ولا قيصر ، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك ، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هدايةِ أكثرِهم .

* * *

أحكام أهل الذِّمَّة في الإسلام

إن الفكر الاستعماري ـ كان ولا يزال ـ يرى ـ فيما يُخَيَّل إليه ـ أن الحساسية الدينية ـ التي يُفترض أن تكون مَاثلة دائماً بين المسلمين وغيرهم ـ هي أهم نقطة ضعف لدى المسلمين يجب استغلالها وتغذيتها بالسبل الممكنة .

والإسلام يُقرر ضرورة التعامل مع أرباب الأديان الأخرى ـ ولاسيما النصرانية واليهودية ـ في تفاهم وتعاون ووئام ، وهذا هو الذي يقضي به النظام الإسلامي بالفعل ، ويُطلق على رعايا الدولة الإسلامية من الكتابيين « اليهود والنصارى » اسم : « **أهل الذمة** » .

ولا شك أن خير سبيل لتحصين الدولة الإسلامية ضِد نُقطة الضعف هذه ، هو العمل على تطهير العلاقة السارية بين المسلمين والكتابيين حيثما كانوا ، من أي حساسية قد تثير فيما بينهم اضطراباً طائفياً يَبعث على تَربُّص أي من الطرفين بالآخر ، وهذا السبيل ليس أكثر ولا أقل مِن نِظَام **عَقدِ الذِّمَةِ** الذي شرعه الله عز وجل .

وهؤلاء أيضاً لهم حالتان :

الحالة الأولى : أن يَكون بينهم وبين الدولة الإسلامية تَعايشٌ سِلميٌّ قائم على الأمن والطمأنينة بين الطرفين ، ففي هذه الحالة يَكون عَقد الذمّة بالتراضي ، أي لهم الخيار في ألا يَدخلوا مع المسلمين عَقد

الذمة ، على ألا يكونوا سَنداً لأيٍّ عَدوٍّ يَكيد للدولة الإسلامية .

أما إذا رَغب هؤلاء الكتابيون بإبرام عَقد الذِّمة مع دولة المسلمين ـ وغالباً ما يكون هذا خَوفاً من عدوٍّ يتربَّص بهم ـ فإن عقد الذمة مع هؤلاء لا يَعني أكثر من تَعاقدٍ يَتم بالتراضي على ضمان اجتماعي يَسري فيما بينهم وبين الدولة الإسلامية ، يَتم مِن خِلاله التأكيد بأن لا يَتحالف هؤلاء الكتابيون مع أي فِئة أو دَولة مُعادية للمسلمين لضرب المسلمين أو التربص بهم ، كما يتم التزام الدولة الإسلامية بالمقابل بعدم إيذائهم في عَقائدهم ، أو أي من التزاماتهم الدينية ، أو أي من ممتلكاتهم وحقوقهم الإنسانية ، لا انفراداً ولا عن طريق التحالف مع أي فئة معادية لهم ، بل يتم التزام الدولة الإسلامية بالدفاع عنهم كما يُدافعون عن المسلمين من رعاياهم ضد أي خطر قد يتهددهم .

الحالة الثانية : أن يكونوا في حالة حِرابة مع المسلمين ، فَعِندئِذٍ على المسلمين أن يصدّوا عُدوانهم ، فإذا انتهت الحرب بينهم وبين المسلمين فلا بدّ من إبرام عقد ذِمَّةٍ معهم ليستوثق المسلمون من انتهاء حالة الحِرابة هذه ، أي أن عَقد الذِّمَّةِ في هذه الحالة إجباريّ .

إذن فعقد الذمة في كل حالاته السابقة هو عَقدٌ لمصلحة الطرفَين ، وليس لمصلحة طرفٍ على حساب الآخر ، وهو الحبل المُنقِذُ الذي يَجعل الجميع يَنعُمُون بأرضهم ووطنهم تحت مِظَلة دِينٍ يَعدل ولا يتحيَّز ، يَرعى الحقوق بمقدار ما يُحَمِّل الواجبات ، ويُوَفِّر للمسلمين والكتابيين الحماية ضد أي عدو يُريد أن يخترقهم .

يقول المستشرق البريطاني برنارد لويس : « إن الغرب الذي بسط سلطانه الاستعماريّ خلال أحقاب طويلة على الكثير من بلاد العرب والمسلمين ، اتّخذ سبيله إلى ذلك في إثارة النَّعَرات الطائفية من أجل تفكيك المجتمع العربي ، ولو أنني سُئِلْتُ عن أفضل طَريقة للسيطرة على المجتمع العربي والإسلامي لَمَا وجدتُ أفضل من الطريقة التي سَلَكَها الغرب إلى ذلك ، هذه الإثارةُ عادت بالخُسران على كُلٍّ من المسلمين ومُواطنيهم أو جيراهم الآخرين » .

نماذج من الحقوق التي يَحفظها عَقدُ الذِّمَّةِ لأهل الكتاب :

١ـ عمارة الكنائس : مِنَ الْمُتفق عليه أن كَنَائسهم ومعابدهم القائمة تبقى على حالها ، بل يَجب حِمَايتها من أي يَدٍ مُعتدية ، ومن المتفق عليه ـ عند جمهور الفقهاء ـ أنَّ مَا تَهَدَّم مِنها يُعاد بناؤه وترميمه ، ولا أدلَّ على ذلك مما أقرّه الفقهاء من أن حَربيّين لو اعتدوا على منطقة من مناطق أهل الذمة فهدموا بعض كنائسهم ، فإن على ولي أمر المسلمين أن يَصُدَّ هَؤلاء الحَربيين ويقاتلهم ، فإذا انتصر المسلمون وحُرِّرت المنطقة وجب على ولي أمر المسلمين أن يُعيد كُلَّ ما تهدم من معابدهم وكنائسهم ، ويشيدها لهم من جديد .

٢ـ حرية البيع والشراء وإعلان شعائرهم الدينية : فَلا يُمنعون من بيع الخمر والخنزير والصليب وضرب الناقوس في قرية أو مَوضع ليس من أمصار المسلمين ، ولو كان فيه عدد كثير من أهل الإسلام .

❊ ❊ ❊

إذاً... ما حقيقة الجزية التي تُؤخذ من الذِّمِّيِّين ؟

الجواب : الأصل في الجزية قوله تعالى : ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] .

تعريف الجزية : هي المال الذي يُؤخذ من الكتابي فيُجزىء عن ضرورة تحمّل مَسؤوليةِ رِعايته وحمايته ، واعتباره عُضواً في المجتمع الإسلامي ، بحيث يَنَال سائر الحقوق التي يَقتضيها مبدأ التكافل الاجتماعي . وليس ثمة ما يَمنع من تسمية مدلول كلمة « الجزية » بأي اسم آخر ، كالإتاوة والضريبة والرسوم أو حتى الصدقة ، فيما ذهب إليه جمهور الفقهاء .

مقدار الجزية : إن القَدْرَ الذي يُؤخَذُ جِزيةً من أكثر أهل الذِّمَّةِ غِنىً لا يَبلغ خُمُسَ مَا يُؤخذ مِن المسلمين على وجه الزكاة ، بل هُوَ أَقَلَّ من ذلك بكثير .

معنى الصَّغَار : في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] .

إن ما نقرؤه في هذه الآية من الإلجاء إلى الجزية ونظامها بما يسميه

البيان الإلهي « **صَغاراً** » جَزاءٌ رتبه الله على الحِرابة ـ أي عِندما يَبْتَدىءُ كِتابيون عُدواناً على دولة إسلامية ـ ومعاذ الله أن يكون مُرَتَّباً على كُفر أو انتسابٍ إلى كتاب ، خاصة أن سِيَاق الآية يَدلُّ على هذا المعنى ، فقوله تعالى : (قاتلوا) من المقاتلة على وزن مفاعلة ، ولم تأت الصيغة (اقتلوا) كما قد يتبادر إلى الذهن .

ومن أبرز ما يَدل على هذا بوضوح أن هؤلاء الكتابيين إذا أغمدوا أسلحة عُدوانهم ، وأبرزوا صَفحة التعاون الإنساني المخلص ؛ انمحى الردع عنهم بكل مظاهره وذيوله ، وحلَّ محل ذلك قانون المعاملة بالمثل ، وهيمن مبدأ : « **لهم ما لنا وعليهم ما علينا** » ، وقامت شِرْعة الاحترام المتبادل ، فحرياتهم مَصونة ، ومعابدهم وأنشطتهم الدينية مَكلوءة بالحماية ضِد أي مُعتد أو متربص ، والوطن حَقٌّ مُشترك بين الجميع ، وثمار التكافل الاجتماعي لا يُعَكِّرُ صَفوَ العَدالة في توزيعها فَارِقُ عِرْقٍ أو دِين ، فلا صَغَارَ عِندئذٍ ولا هَوان .

فأهل الكتاب مُواطنون كالمسلمين تماماً داخل الدولة الإسلامية ، وكما يَجب على الدولة رعاية المسلمين وحماية حقوقهم والدفاع عنهم ضد سائر الأخطار ، يجب عليها رعاية أهل الكتاب بالشكل وبالقدر ذاته . ولما كانت الدولة الإسلامية تتقاضى من المسلمين الزكاة لتعيدها إلى الفقراء والمحتاجين منهم ، فاقتضت المساواة أن تتقاضى من أغنياء الكتابيين مِثلَ ذَلك لِتُعِيدَهُ إلى فقرائهم ، ولكن لما كانت الزكاة من أركان الإسلام الواجبة على المسلمين دون غيرهم ، سُمّي القدر الذي يُؤخذ من الكتابيين باسم الجزية ، على أن لا تُوجد ضَرورة

تَقتضي التمسك بهذا الاسم ، بل يُمكن أن يُسمى ضريبة ، بل حتى زكاة أيضاً ، إن هُم وافقوا على ذلك ، كما فَعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع نصارى نجران .

❊ ❊ ❊

مشكلات واجتهادات
تخضع لحاجة التصحيح والبيان

١ـ تَزَيُّدات مُبتَدَعة في طريقة استحصال الجزية ، كإجبار الكتابيين على تأدية الجزية وهم مُطَأطِئوا الرأس : وقد أنكر محققو الفقهاء ـ على اختلاف مذاهبهم ـ هذه التزيدات المبتَدَعة والْمُقحمة في أحكام الشرع ومبادئه ، ومنهم الإمام النووي ، فقد قال في كتابه « روضة الطالبين » بعد أن عرض لبيان كثير من هذه المُقحمات الباطلة : « هذه الهيئة المذكورة أولاً لا نَعلم لها على هذا الوجه أصلاً مُعتَمَداً ، وإنما ذَكَرَها طَائفةٌ من أصحابنا الخراسانيين ، وقال جمهور الأصحاب : « تؤخذ الجزية برفق كأخذ الدّيون » ، فالصوابُ الجزمُ بأن هذه الهيئة باطلةٌ مَردودةٌ على مَن اخترعَها ، ولم يُنقَل أن النبي ﷺ ولا أحدٌ من الخلفاء الراشدين فَعَلَ شَيئاً منها مع أخذهم الجزية » .

٢ـ ما ذكَره بعض الفقهاء من أن أهل الكتاب الذين يعيشون بين المسلمين يَنبغي أن يَكون لهم شارة : وهذا الأمر لم يَكن مَوجوداً في عصر رسول الله ﷺ ، وإنما طَرَأَت حَالةٌ سِياسِيَّةٌ في عصرِ بَعض خلفاء المسلمين ، وذلك بأن يَتَسَرَّبَ بَعض الحربيين إلى داخل أماكن أهل الذمّة ، ثم يَكيدوا من وراء سِترهم لإيقاع الفتنة بين المسلمين وبين أهل الكتاب ، فَعُولجت هذه المشكلة معالجة سياسية باتخاذ شَارةٍ

لأهل الكتاب ، وقد زالت هذه الشارة بزوال المشكلة ، فهذا الأمر داخلٌ في أحكام الإمامة ، والغاية منه حماية أهل الكتاب لا الإساءة إليهم .

٣ـ ما ذكَره بعض الفقهاء مِن أن على المسلمين أن يُلجِئوا أهل الكتاب إلى أضيق الطرق عند المشي : وهذا الأمر يَرُدُّ عليه الأحاديث الكثيرة التي أَوصَت بحسن معاملة أهل الكتاب ، ومنها ما رواه أبو ذر رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ في قوله : (**إِنَّكُم ستَفْتَحونَ أَرْضاً يُذْكَرُ فيها القِيراطُ ، فاسْتَوْصُوا بأَهْلِها خَيْراً ، فَإِنَّ لَهُم ذِمَّةً وَرَحِماً**)[1] ، وهم أقباط مصر .

كما أوصى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : « أُوْصِي الخليفةَ مِنْ بَعْدي بأَهْلِ الذِّمَّةِ خَيْراً ، أَنْ يُوفِيَ لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ ، وَأَنْ يُقاتِلَ مَنْ وَرائَهُم ، وَأَنْ لا يُكَلَّفُوا ـ أي مِن المال ـ فَوقَ طاقَتِهِم »[2] .

وروى أبو عبيد في كتاب « الأموال »[3] ، عن وُسق الرومي قال : « كنت مملوكاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان يقول لي : أَسْلِم فإنك إن أسلمت استعَنَّا بك على أمانة المسلمين ، فإنه لا ينبغي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر ، برقم : (٤٧٢٠) .

(٢) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ، كتاب الجزية ، باب الوصاة بأهل الذمة ، برقم : (١٧٤٢٧) .

(٣) كتاب « الأموال » للقاسم بن سلام ، في سنن الفيء ، باب أخذ الجزية من المجوس ، برقم : (٧٥) ، و« الأموال » لابن زنجويه ، في الفيء ووجوهه وسبيله ، باب أخذ الجزية من المجوس ، برقم : (١١٨) .

أن أستعين على أمانتهم بمن ليس منهم . قال : فَأَبَيْتُ ، فقال : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ ، قال : فلما حضرته الوفاة أعتقني وقال : اذهب حيث شئت » .

فكل ما سبق يَدل على وُجوب حُسن مُعَاملة الذِّميين ، بل نَبدَؤُهم بالتحية ونُحَيِّيهم بالتحية التي يَعرفونها فيما بينهم ، ويُسَنُّ أَن نُعَزِّيهِم في مُصابهم ونُهَنِّئُهم في أفراحهم .

٤ـ مسألة تَوَلِّيهِم الوظائف : يَدخل هذا الأمر في أحكام الإمامة ، فإذا كانت الوظيفة لا علاقة لها بجوهر الدين ، وكان الذِّمِّيُّ مُؤهَّلاً لها فلا يُوجد ما يَمنع من استعماله فيها ، كما أورد الإمام الماوردي في كتابه « الأحكام السلطانية » .

* * *

أثر الفتوحات الإسلامية
في رعاية حقوق أهل الكتاب

لمّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كان أولُ عمل قام به كتابة وثيقةٍ تنظم علاقة المسلمين فيما بينهم ، وعلاقتهم مع قبائل اليهود التي كانت تعيش في المدينة آنذاك ، وهم « بنو قينقاع وبنو النّضير وبنو قريظة » ، فاكتملت بذلك للمسلمين أركانُ الدولة الثلاثة ؛ وهي :

١ـ الأرض التي أورثهم الله إياها .

٢ـ الجماعة المسلمة التي تعيش فوق هذه الأرض .

٣ـ الدستور الذي كانت تمثّله تلك الوثيقة .

وقد نصت الوثيقة على أن اليهود أُمَّةٌ مع المسلمين ـ أي أنهم مواطنون في الدولة الإسلامية ـ ، وأنَّ على اليهود نفقتُهم ، وعلى المسلمين نفقتُهم ، وأن بينهم النصرَ على مَن حارب أهل هذه الوثيقة .

وهذا يَدُلُّ على مَدى العَدالة التي غُمِسَت بِهَا معاملةُ النبيﷺ لليهود ، ولقد كان بالإمكان أن تُؤتي هذه المسألة العادلة ثمارَها فيما بين المسلمين واليهود ، لو لم تتغلَّب على اليهود طبيعتُهم من حبٍّ للمكر والغدر والخديعة ، فما هي إلا فترةٌ وجيزةٌ حتى ضاقوا ذرعاً بما تضمَّنته بُنودُ هذه الوثيقة التي التزموا بها ، فخرجوا على الرسول ﷺ

والمسلمين بألوانٍ من الغدر ، فكان المسلمون بذلك في حِلٍّ مما التزموا به تجاههم .

ثم لما استقرّ الأمر لرسول الله ﷺ في الجزيرة العربية أخذ يُرسل بالرسائل إلى مُختَلَف ملوك ورؤساء العالم يدعوهم فيها إلى الإسلام ، ونَبذِ ما هم عليه من الأديان الباطلة ، ذلك لأن رسالته ﷺ عالمية إلى الناس كافة ، قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

فأرسل إلى هِرَقل ملك الروم ـ الذين كانوا آنذاك يستعمرون بلاد الشام ومصر ـ ، كما أرسل إلى كسرى في بلاد فارس ، وغيرهم من الملوك .

وشعر هؤلاء الملوك بخطر الدولة الإسلامية ، وبدؤوا يُخططون للوقوف في وجه هذا المدّ ، وللعدوان على الدولة الإسلامية ، فوجّه رسول الله ﷺ جيوشَ المسلمين لردّ خطر هذا العدوان .

كانت الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام وبعد ذلك لمصر والعراق تحريراً لسكّانها الأصليين من الاستعمار ، ولم تكن غزواً موجهاً ضدّ هؤلاء السكّان ، فهذه في الأصل بلادٌ عَربية وسكانها من العرب .

مصر كانت مُستعمرة لبيزنطة ، وكانت ترزح تحت نير الاستعمار البيزنطي ، وكانت الامبراطورية الرومانية قد اصطنعت الدخول في مذهب من المذاهب المسيحية لتستطيع أن تُمَكِّن لنفسها جذوراً أرسخ في تلك الأرض ، ولكي تبسط مَزيداً من السلطان على الناس هناك ، فراحت تُلزِم بقيَّةَ المذاهب بالانخراط فيه بدافعٍ من القناعة الدينية

بحسب الظاهر ، والواقع أنه من أجل فوائد سياسية ، فما إن فعلت ذلك حتى نشرت الظلم والقتل والترويع في أقطار مصر ، وكم وكم قُهِرَ المسيحيون وأوذوا وقُتِّلُوا من خلال هذه السياسة ، حتى أنه في مَجزرة واحدة قَتلت بيزنطة ـ فيما يرويه « فيكتور سحاب » ـ ما لا يَقل عن مائتي ألف من اليعاقبة ، وهم الذين يُسمون اليوم بالسريان الأرثوذكس ، هكذا كانت مصر ، ولم تتحرر ولم يتحرر أقباطها من هذا الاستعمار الخانق الظالم إلا عندما تحقق الفتح الإسلامي .

لما تحقق الفتح الإسلامي وطُهِّرَت مِصر من الاستعمار البيزنطي تنفس الأقباط الصعداء ، وعثروا على حريتهم ، وعثر كل واحد منهم على كرامته ، هل كان فيهم من قد أُكره على الإسلام ؟ أبداً ، هل كان فيهم من قد أُكره على أن يُغير دينه ؟ أبداً ، نعم لقد أظلتهم الدولة الإسلامية ، واستظلوا بظل الشريعة الإسلامية ، ولكن الشريعة الإسلامية كانت حِصناً رائعاً لكرامتهم ، كان الدرع الذي لا بديل عنه لحريتهم الفكرية والدينية ، ولعلكم تعلمون أن شاباً من أقباط مصر خاصمه ولدٌ لعمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه في فرس له ، فأوسعه ابن عمروٍ ضَرباً بِسَوط في يده ، قائلاً له : خُذها وأنا ابن الأكرمين ! فما كان من الشاب القِبطي إلا أن اتجه إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في المدينة المنورة ، وشكا إليه ما فَعل به ابن عمرو بن العاص في مِصر ، فأرسل عمر رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص أن يَأتيه مع ابنه محمد إلى المدينة ، وأكرم وفادة الشاب المصري واستبقاه عنده إلى أن وصل عمرو بن العاص وابنه إلى

المدينة . يقول أنس بن مالك راوي هذا الخبر : فوالله أنا عند عُمر ، وإذ نحن بعمرو قد أقبل ومعه ابنه ، فقال عمر : أين المصري ؟ قال : ها أنا ذا ، قال : دُونك الدُّرة فاضرب بها ابن الأكرمين ، فضربه حتى أثخنه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ، ثم قال للمصري : أجلها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه ، ثم أقبل إلى عمرو بن العاص يقول له : أبا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

فتحت **الشام** أيضاً فتحاً إسلامياً ، ولكن كيف كانت الشام وبلادها من قبل ؟ كانت هي الأخرى تَرزح تحت نير بيزنطة ، تحت نير الإمبراطورية الرومانية ، ومن المعلوم أن الشام بمدنها المتنوعة كانت إبان البعثة المحمدية خاضعة للحكم الروماني ، وفي مقدمتها القدس ، وقد سلكت بيزنطة إلى ذلك اتخاذها المسيحية ديناً رَسمياً لها في الظاهر ، غير أنها اختارت منه المذهب الذي وافق هواها ، بعد أن عَدلت فيه وغيرت كثيراً مِنه ما طاب لها ذلك .

وكان المفروض أن تقف هذه الإمبراطورية من المذاهب المسيحية الأخرى مَوقف الإسلام مِن المسيحية على أقل تقدير ، فتتعايش معها وتدافع عنها وتحميها من عوامل الاضطهاد .

ولكنها أصرت على إخفاء كل المذاهب المسيحية الأخرى التي تُخالف مَذهبها الرسمي ، وعدّت الخروج عليه خروجاً على وحدتها السياسية ، ومن ثم أخذت تسعى سعيها ابتغاء إنهاء وجود العقائد المسيحية المغايرة لعقيدتها الرسمية ، مرَّة عن طريق المجامع التي كان

يَعقدها الإمبراطور ويحضرها بنفسه ، ومرة بالتصفية الجسدية وملاحقة الرهبان ، وقد شهدت القدس من ذلك سلسلة من الفظائع التي لم ينسها التاريخ .

ولقد مُني أهل الشام بعذاب واصب من الاستعمار البيزنطي ، وكان دأبت بيزنطة أن تستثير اليهود على النصارى ، وأن تؤلب النصارى على اليهود ، وأن تسعى سعيها اللاهث ليظل القتال مستشرياً والعداوة والبغضاء مستمرين بينهما في سبيل أن ترسخ بيزنطة قدماً راسخة فوق تلك الأرض . كانت بيزنطة تستثير اليهود لتقذير المكان الذي يعتقد المسيحيون أن سيدنا عيسى قد ولد فيه لكي يتأَلَّب المسيحيون على اليهود ، ثم ما يلبث الرومان أن يؤلِّبوا النصارى على تدنيس الصخَّرة المشرَّفة التي يُقدِّسها اليهود ؛ لاستثارة مزيد من البغضاء بين هؤلاء وأولئك ، فكيف كانت النتيجة عندما شاء الله عز وجل أن تتحرر الشام من نير الاستعمار الروماني ؟

اجتمع المسلمون ورجال الدين في بيت المقدس لِيُوَقِّعُوا على صكِّ الصلح والمعاهدة ، ولكن رجال الدين المسيحي أبوا إلا أن يُوَقِّعوها بحضرة أمير المؤمنين عمر ، وأُخْبِر عمرُ رضي الله عنه بالأمر فجاء ، وبدأ عمر بن الخطاب أمير المؤمنين عندما وصل إلى القدس مُتَّجهاً إلى الصخرة المشرفة ، فوجد عليها الأتربة والأقذار الكثيرة ، فخلع رداءه وراح يُنَظِّفُ الصخرة المقدسة برداءِه ، وعندئذٍ هَبَّ كُلُّ مَن كان حول عمر فهرعوا ليسابقوه في هذا العمل القدسي ، ثم إنه اتجه إلى المكان الذي قال النصارى إن سيدنا عيسى ولد فيه ـ مكان

كنيسة القيامة ـ ، وما إن وصل إلى ذلك المكان حتى رأى القمامة والأقذار والأوساخ مُتراكمة في ذلك المكان أيضاً ، فخلع مَرَّة أخرى رداءه وراح يُنظف ذلك المكان بردائه ، ولكن الناس الذين مِن حوله ما لبثوا أن سابقوه إلى ذلك .

تأمَّلوا في العمل الذي كانت تمارسه بيزنطة من إثارة البغضاء والحرب الطائفية بين أهل الكتاب ، وما فعله الإسلام ـ ولا أقول عمر ـ مِن نَقيض ذلك ، أولئك كانوا ينفخون في نيران الحرب اللاهبة بين الإخوة أهل الكتاب ، والإسلام ـ مُتَمثلاً في شخص عمر ـ جمع الكلَّ على خط الوئام ، على صراط الحب ، على صعيد الألفة ، نظف بردائه كِلا الموضعين المعروفين ، والتاريخ ينطق بتفصيل هذا الكلام الذي أذكر لكم مُجمله .

إن عمر لم يكن يفعل ما فعله في بيت المقدس برداءه إلا بسائقٍ من رِقَّتِه ورحمته وبُعد نَظَره ، وبسائقٍ من تربيته الإسلامية ، لأنه يعلم أن دينَ الله يأمره بذلك .

وكان النصارى يعيشون أحراراً ، ولم يُكْرَه أيُّ واحدٍ منهم على أن يُغَيِّرَ دِينه ، كانت الشريعة الإسلامية تنفذ القاعدة القائلة : « ألا لا يُفْتَنَنَّ نَصرانِّي عن نصرانيَّتِه ، ولا يَهوديٌّ عن يهوديَّته » .

وقد أوصى سيدنا عمر بن الخطاب كما مر عندما قال : « أوصي الخليفة مِن بعدي بأهل الذمة خيراً ، أن يُوفي لهم بعهدهم ، وأن يُقاتِلَ من وراءهم ، وأن لا يُكلَّفوا ـ أي من المال ـ فوق طاقتهم » .

وقد أرسل عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة كتاباً جاء

فيه : ». . . وانظر مَنْ قِبَلَك مِنْ أَهْلِ الذمَّة قد كبرت سنُّه وضعُفَت قوَّته وولَّت عنه المكاسب ، فأَجْرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يُصْلِحُه. . . ، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مَرَّ بشيخٍ من أهل الذمَّة يَسأل على أبواب الناس ، فقال : « ما أنصفناك ، إن كنا قد أخذنا منك الجزية في شَبِيبَتِك ثم ضَيَّعْناكَ في كِبَرِك » ، قال : ثم أَجرى عَليه من بيت مال المسلمين ما يُصْلِحُه » .

وانتشر الإسلامُ ـ في داخل أوروبا وفي جبال الصين ـ بالأخلاق الإنسانية العجيبة الرضيَّة في أشخاص المسلمين الذين وصلوا إلى تلك البقاع دعاةً إلى الله عز وجل ، موسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وعقبة بن نافع ، وعبد الرحمن الداخل ، كلٌّ واحدٍ منهم خُلُقٌ إنسانيٌّ رائع ، تواضعٌ جمٌّ ، رحمةٌ باهرةٌ عجيبة ، محبةٌ للإنسانية ، أياً كانت أوطانها وأياً كان رجالها .

دخل البربر في دين الله عز وجل من خلال تَعَشُّقِهم لهذه الأخلاق الرضية التي وجدوها في هؤلاء الناس ، وكيف كانوا قبل ذلك ؟

كانت القُوطُ هي التي تحكم معظم بقاع إسبانيا ، وكان عملُهم مَظهراً لأسوأِ الأعمالِ الإجرامية الشنيعة ، كانت الشعوب تحت سُلطانهم مَنبوذة مَقهورة مُسْتَلَبَة الحقوق ، ولاسيَّما اليهود لم تكن لهم حقوقٌ في الدِّين ولا حقوقٌ في المعيشة والاقتصاد ، وكانوا يُجبرون على أن يَدخلوا النصرانية ، وفي يوم واحد أُجبر تسعون ألفاً منهم على التَّنصُّر .

دخل الإسلامُ وتحققت الدولة الإسلامية في الأندلس ، فتنفس

اليهود الصعداء وانتعشوا أيما انتعاش ، ونالوا حُقوقهم الإنسانية كلها ، وَلَيْتَ أن اليهود يَذكرون هذا الفضل الذي طَوَّقَ الإسلامُ به أعناقَهم ، فأبدلوا بالوفاء كيداً ولؤماً .

وهذا ما أقرَّه المنصفون من الكُتّاب الغربيين ، ومنهم « زيغريد هونكه » التي تقول في كتابها « شمسُ الله تسطع على الغرب » : « لم يعرف العالَم فاتحاً أرحم من المسلمين » .

كما يقول الدكتور « أدمون رباط » : « للمرة الأولى في التاريخ انطلَقَت دولةٌ هي دينيةٌ في مبدئها ودينيةٌ في سبب وجودها ودينيةٌ في هدفها ، ألا وهو نشر الإسلام عن طريق الجهاد بأشكاله المختلفة ، من عسكرية ومُثُلية وتبشيرية ، إلى الإقرار بأن مِن حقِّ الشعوب الخاضعة لنظامها أن تحافظ على معتقداتها وتقاليدها وتراث حياتها ، وذلك في زمن كان يَقضي المبدأ السائد فيه بإكراهِ الرعايا على اعتناق دين ملوكهم » .

ولما أطَلَّت سلسلة الغزواتُ الصليبيَّة المتتابعة مُتَّجِهةً إلى بلاد الشام ، أرسل قادةُ تلك الغزوات سراً كتباً إلى قادة المسيحيين في بلاد الشام يَسألونهم : ما القرار الذي اتخذتموه ، وها نحن قادمون إليكم ، أهو الوقوف إلى جانب بني قومكم المسلمين ، أم الوقوف إلى جانب بني دينكم الوافدين ؟ كان جواب الكل : قرارنا الذي اتخذناه هو الوقوف إلى جانب بني قومنا المسلمين ، وشهد التاريخ كيف أن المسلمين والنصارى وقفوا في خندق واحد يُواجهون الغزوات الصليبية المتسلسلة ، وظلّ عدد النصارى في بلاد الشام يُساوي عددَ

المسلمين بل يزيد ، حتى جاء الغزو الصليبي ، عندئذٍ ـ وبسائقٍ من ردَّة الفعل ضدَّه ـ زاد عددُ المسلمين ودخل مَن دخل مِن النّصارى في الإسلام .

والسؤال الأهم ، كيف كان يَعيش النصارى في بلاد الشام بعد الفتح الإسلامي ؟ كانوا يَعيشون أحراراً ، وكانوا يَعتزون بحريتهم أيما اعتزاز ، وكانوا يتمتعون بكرامة لم يَكونوا لِيَعثروا عليها إبان الاستعمار البيزنطي بشكل من الأشكال أبداً ، لم يُكره أي واحد منهم على أن يُغير دينه ، كانت الشريعة الإسلامية تُنَفذ القاعدة القائلة : « ألا لا يُفتنن نصراني عن نصرانيته ، ولا يهودي عن يهوديته » نعم .

* * *

الدولة الإسلامية وموقع غير المسلمين فيها

تتألف الدولة في عُرف القانون الدولي المعاصر من ثلاثة عناصر : « الأرض أو الإقليم ، والشعب أو الأمة ، والنظام السلطوي الذي يُرسخ كينونة الأمة وعلاقتها بالأرض » .

وقد تحققت هذه العناصر الثلاثة للمسلمين لدى هجرتهم مع رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة ، فكان ذلك إيذاناً بولادة أول دولة إسلامية .

فما هو مَوقع غير المسلمين من هذه الدولة ؟ وما مَدى تقبلها لوجودهم فيها ، وما هي الضوابط والحدود المرسومة لذلك ؟

وليكن واضحاً أننا نَعني بغير المسلمين في هذا المقام أهل الكتاب ، الذين يمثلون النصارى واليهود ، ومن ألحقهم رسول الله ﷺ بهم .

إن ما ذكرته الآن ـ من الانسجام الذي قرره الإسلام بين التكليف وحرية الاعتقاد ـ يوضح أن الدولة الإسلامية ليست حكراً للمسلمين وحدهم ، ذلك لأن النظام السلطوي الذي هو العنصر الثالث من العناصر التي تتألف منها الدولة ، مُنبثق من أحكام الإسلام ومبادئه ، وقد علمنا أن من أبرز أحكامه ومبادئه أن يترك الناس ـ في نظام معاشهم الدنيوي ـ أحراراً في أن ينقادوا أو لا ينقادوا للتكاليف

الإلهية ، على أن يَعلموا خبر العقاب الذي يَتربص بالعاصين والثواب الذي ادخره الله للطائعين .

إذن فالنظام الإسلامي الذي تأخذ به الدولة الإسلامية لا يَضيق ذرعاً بوجود غير المسلمين فيها ما داموا خاضعين لهذا النظام منسجمين معه ، ومن المعلوم أن النظام الإسلامي للدولة له مَفهوم ديني يتعامل معه المسلمون ويؤخذون به ، وله مفهوم قانوني تنظيمي مجرد يشمل المسلمين وغيرهم ، أي يتجاوب كل فريق معه حسب حاله ، إما مِن مَنطلق ديني إيماني بالإسلام وعقائده ، أو من مَنطلق قانوني اجتماعي يُؤمن بالنظام وشرعته .

والمظهر التطبيقي الذي يُجسد هذه الحقيقة على صعيد الواقع هو ما نُشاهده في واقع أول دولة إسلامية ولدت ، ثم سارت في كنف النبوة ، وبرئاسة سيدنا محمد ﷺ .

وسواء علينا أتَلَمَّسْنا هذا المظهر التطبيقي في الوثيقة التي اكتتبها رسول الله ﷺ مع ولادة تلك الدولة ـ والتي لا نجد تعبيراً لها في ظل الأنظمة الدولية الحديثة أدق من كلمة « دستور » ـ ، أو تلمسناه في مرآتها المتمثلة في واقع المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة آنذاك ، فإننا واجدون أنفسنا على كل حال أمام دولة إسلامية يُهيمن عليها النظام الإسلامي ، تتألف من مسلمين وقبائل يهودية ، مُتعايشين متآلفين في ظل النظام السلطوي المنبثق عن الشريعة الإسلامية .

إن أردنا أن ننظر إلى الوثيقة التي أشرنا إليها ، رأيناها تقول في أبرز بند من بنودها : « يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم

وللمسلمين دينهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ إلا نفسه » ، وهي نص قاطع صريح بأن دار الإسلام ـ التي هي المدينة المنورة ـ شركة عادلة بين أمة المسلمين وأمة اليهود ، وبأنه لا يَحرم مِن هذه الشركة العادلة إلا من بدأ بظلم ، وانظروا إلى أداة العموم « من » التي تَنطبق على المسلمين وغير المسلمين على حدٍ سواء ، فالظالم في هذه الدولة ـ أياً كان ـ معرض للعقاب ، ولا شك أنه هو المتسبب بذلك في حق نفسه .

ولقد اشتهى بعض المتأولين أن يتمحّلوا فيفسروا هذا البند بأن سكان المدينة كلهم من مسلمين ويهود يُشكلون أمة واحدة ، ظناً منهم بأن ذلك ادعى لتقرير المساواة وتحقيقها .

غير أن التأويل بالإضافة إلى ما فيه من التَّمحُّل الذي تأباه عبارة « أمة مع المؤمنين » يُعكر على المساواة التي تحرص عليها هذه الوثيقة فعلاً بدلاً من أن يرسخها ، ذلك لأن اعتبار اليهود في المدينة آنذاك جزءاً من الأمة الإسلامية الواحدة ، إعلام صريح بتذويب كيانهم داخل الأمة الإسلامية ، في حين أن اعتبارهم أمة مستقلة برَأسها داخل الدولة الإسلامية إقرار بكينونتهم الذاتية وشخصيتهم المستقلة عن المسلمين .

ولو تأملنا لتبين لنا أن هذا ما عناه رسول الله ﷺ بقوله : « يهود بني عوف أمة مع المؤمنين » أي مع المؤمنين الذين هم بِدَورهم أمة مستقلة أيضاً ، على أن البند الأول نَص قاطع بذلك .

فإذا استعرضنا البنود الأخرى من هذه الوثيقة رأيناها جميعاً تُؤكد

مساواة المسلمين مع غيرهم ـ اليهود ـ في الواجبات وفي الحقوق غير المنبثقة عن الفوارق الدينية .

وإن نظرنا إلى مرآة هذه الوثيقة ـ أي الواقع الذي كان يَجري آنذاك في ظل النظام الإسلامي ـ رأينا مِصداق هذا العيش المشترك القائم على المساواة في الواجبات التعاونية ، مِن دفاع عن المدينة وأهلها ضد المعتدين والمتربصين ، ومن اقتسامٍ عادلٍ للمسؤوليات الاقتصادية والنفقات المترتبة دون أن يكون لاختلاف الدين أي أثر معكر .

ويلاحظ أن هذه الشركة المتساوية في الحقوق والواجبات لم تَكن مُنبثقة عن عقد ذمَّة ، بل لم يَكن نظام ما يُسمى بالذِّميين والمستأمنين والمعاهدين قد ترسّخ بعد ، وإنما انبثقت من عموم ما تنطق به أحكام الشريعة الإسلامية في مثل قول الله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٨ ـ ٩] .

وإذا كان هذا هو حكم الله في الكتابيين الذين يُقيمون خارج الدولة الإسلامية ، وبعيداً عن دار الإسلام ، فكيف بمن يَكون مِنهم أعضاء في تلك الدولة تحتضنهم مع المسلمين دار الإسلام .

ويَعلم جميع المؤرخين أن اليهود لو بَقُوا أوفياء لتلك الشركة العادلة التي فرضها الحكم الإسلامي ونظامه ، إذن لبقي المسلمون أمناء عليها بحكم خُضوعهم لسلطان الإسلام ونظامه ، ولكنهم ضاقوا ذرعاً بتلك المساواة العادلة ، واستبدَّ بهم الحنين إلى ما تعوَّدوا عليه

من الخيانة والمكر ، فكان أن قَضَت الوثيقة التي هي الحكم بَينهم وبين المسلمين ، بإجلاء من أُجلِي مِنهم وقَتْل من قُتِل ، بعد أن قضت هي ذاتها بأن يَعيشوا سُعداء آمنين لهم ما لغيرهم وعليهم ما عليهم .

* * *

ليس في الإسلام أقلية أو أكثرية

بهذه المناسبة ألفت النظر إلى ما يلي : دأبت فئات من الباحثين في الشريعة الإسلامية اليوم على استعمال كلمة « الأقليات » تَعبيراً عن غير المسلمين في المجتمعات الإسلامية ، وهي كلمة لا وجود لها في شيء من مصادر الشريعة الإسلامية ، ولا أعلم أن في أئمة الفقهاء من استعملها من قبل ، وإنما ولدت هذه الكلمة في المجتمعات الغربية ، بصدد تصنيف درجات المواطنة هناك ، فالمواطنون من الدرجة الأولى فيها هم الكثرة الدينية أو العرقية ، ثم تأتي رتبة الأقليات الدينية والعرقية مواطنين من الدرجة الثانية ، فالكثرة والقلة فيهما هما مقياس القرب والبعد ، أو العلو والهبوط هناك . ولقد نجمت عن هذا الواقع مشكلة لا تزال تستعصي على الحل الجذري ، فقد استقر في أذهان كثير من القائمين على إدارة تلك المجتمعات أن عضواً غريباً التصق من جراء هذا الواقع بجسم المجتمعات الغربية ، استعصى على الالتئام به والاندماج فيه ، فلا أنظمتها ولا قوانينها تتسع لاستيعاب سلوكات هذا العضو الغريب ومعتقداته ، ولا أكثر الفئات والجماعات التي يتألف منها هذا العضو تقبل التخلي عن التزاماتها ومعتقداتها وترضى بالاندماج في تيار الأنظمة والقوانين المرعية في تلك المجتمعات .

وها نحن نرى اليوم الطروحات المختلفة التي يتبادها القائمون على إدارة المجتمعات الغربية مع المغتربين الذين جعلهم الواقع عُضواً

يُسمون فيها بالأقلية للوصول إلى حل سليم لا يهز شيئاً من أركان الأنظمة والقوانين ، ولا يُسيء في الوقت ذاته إلى الحقوق الإنسانية المشروعة لهذه الأقليات . ولست هنا بصدد الحديث عن هذه الطروحات ومدى جدواها ، والأكثر ضمانة لحماية الأنظمة والقوانين ولرعاية حقوق الاقليات ، وإنما بصدد بيان الفرق الكبير بين أنظمة المجتمعات الغربية وأحكام الشريعة الإسلامية في هذه المسألة التي كادت أن تصبح معضلة في هذا العصر .

غير أن هذه الكلمة بهذا القصد لا مَكان ولا معنى لها في نظام الشريعة الإسلامية ، وفي المجتمعات التي تأخذ نفسها بتعاليمها وأحكامها ، إذ أن كل من احتضنتهم دار الإسلام وأظلَّهم النظام الإسلامي الجامع ، يتمتَّعون بمعنى المواطنة في درجة واحدة ، على اختلاف أديانهم وأعراقهم ، قلُّوا أو كثُروا .

فأنت مهما نبشتَ بُطون الكتب الفقهية وأمهاتها ، فلن تعثر على تصنيف يُقَسِّمُ رعايا الدولة الإسلامية إلى مواطنين أساسيين من الدرجة الأولى ، وإلى أقليات دينية أو عرقية من الدرجة الثانية .

إن التعبير الشامل لكل من تستوعبهم دار الإسلام ، هو كلمة « رعايا » ، وهي تعني المواطنين من حيث مَسؤولية الدولة عن رعايتهم وحمايتهم ، والنظر في شؤونهم ومصالحهم . أما التعبير الذي يُقابل كلمة « الأقليات » فهو « غير المسلمين » أياً كانوا ، غير أن كلمة الأقليات هذه مرفوضة وغير موجودة في قاموس مصطلحات الشريعة الإسلامية ، لما تَحمله من دلالة غير لائقة . والجامع

المشترك بين المسلمين وغيرهم ـ أياً كان الاسم الجامع لهم والمعبر عنهم ـ هو أن دار الإسلام تشملهم جميعاً ، وأن النظام الإسلامي المتسع للمسلمين وغيرهم يسري عليهم كلهم طبقاً لقاعدة : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » . ومن ثم فإن معنى « المواطنة » التي يُعبر عنها أحياناً بكلمة « رعايا » يَشمل المسلمين وغيرهم على درجة واحدة ، من حيث نظر الدولة ومعاملتها السياسية والاجتماعية للأفراد ، دون أي ملاحظة لخصوصية كثرة أو قلة .

غير أن هذا لا ينطبق على ما قد يَشيع بين أفراد المسلمين بعضهم مع بعض من خصوصيات الأخوة والعلاقات الدينية والصلات التي تتنامى بينهم بحكم تلاقيهم على العبادات ذات النهج الواحد ، كالصلاة جماعة وصلاة الجمعة والأعياد ونحوها ، كما أن هذا لا ينطبق على ما يَشيع بين الكتابيين أنفسهم أيضاً من الخصوصيات ذاتها . إن هذه الخصوصيات التي تنبثق من دوائر الاختلافات الدينية شأنها كشأن الخصوصيات التي تنبثق من دوائر الأعراف المختلفة ، ووشائج الأرحام وصلات القرابة ، إنها موجودة ولها سلطانها في سائر المجتمعات جميعها قديماً وحديثاً ، غير أن الذي يَصهَرُهَا ويجمعها أخيراً في دائرة إنسانية شاملة ، وهو النظام الإسلامي العادل الذي يشمل الجميع بمعاملة واحدة من حيث الحقوق المرعية ، والواجبات المطلوبة وحسن الصلة ما بين الحكام والمواطنين .

إن النظامَ المُنبثق عن أحكام الشريعة الإسلامية لا تُوجد في قَاموسه كلمةُ « أقلياتٍ » قط ، ذلك لأن هذه الأحكام رُوعي في

تشريعها حَالُ كُلِّ مَن تحتضنهم دارُ الإسلام من مسلمين وغيرِهم ، وأعطت لِكُلٍّ مِنهم حُقوقه الإنسانية التي يَتمتع بها دون أي حِساب لِقِلَّةٍ أو كَثرةٍ أو مُواطنٍ أو وافد ، انطلاقاً من اهتمامِها بإنسانية الإنسان أيّاً كان دِينه أو أصلُه ، وَشِدَّةِ رحمَتِها به .

ومن هنا فلا معنى لما يسميه بعض الناس « تسامح الإسلام » مع أهل الكتاب ، لأن كلمة التسامح تعني التَّجاوُزَ عن الحقِّ على سبيل التَّفضُّل والمسامحة ، أي بمعنىً آخر أن الإسلام أعطى أهل الكتاب ما ليس مِن حقهم تجاوزاً منه وتفضُّلاً ، بينما حقيقةُ الأمر أنَّ أحكامَ أهل الذمّة كُلَّها تَنطلق مِن تَكريم الله للإنسان ، وتدور على محور واحد هو ترسيخُ ضمانات العدل في التعامل والمُعايشة بين المسلمين وأهل الكتاب في ظل المجتمع الإسلامي . فَمِن أهم مستلزمات الكرامة التي هِي ثمرةُ تَكريم الله للإنسان أَن يَربأَ بنفسه عن الوقوع تحت مِنَنِ الإحسان ومشاعر الرحمة ، وأن يَنشُد بَدلاً عن ذلك النِّدِّيَّة في التعامل وأصول العيش المشترك ، دون أن يَسريَ خلال ذلك تَفضُّلٌ من طرفٍ على طرف .

قلت : إن النظام المنبثق عن أحكام الشريعة الإسلامية لا تُوجد في قاموسه كلمة « الأقليات » قط ، وإن تاريخ المجتمعات الإسلامية التي كانت تستظل بأحكام الإسلام لم يَمر بهذه الكلمة في شيء من أطواره وتقلباته السياسية ، فما السبب ؟ وما نقطة الفَرق في هذا بين أنظمة الشريعة الإسلامية وأنظمة المجتمعات الغربية اليوم ؟

إن السبب يتمثل فيما يلي :

إن الأحكام الإسلامية المتعلقة بنظام المجتمعات الإسلامية ـ على الرغم من أن كثيراً منها لا يجوز أن يُطبق إلا في أرض إسلامية أو في دار الإسلام حسب المصطلح الفقهي ـ ليست خاصة بالمسلمين دون غيرهم ، بل روعي في تشريعها حال كل من تحتضنهم دار الإسلام من مسلمين وغيرهم ، دون تفريق بين مستوطنين ووافدين ، وبين مقيمين وسائحين ، أما المسلمون منهم فيربطهم بقوانينها وأنظمتها انتماؤهم الديني إلى جانب ضرورة انسجامهم مع نظامها الإداري والاجتماعي ، وأما غير المسلمين فتربطهم بها ضرورة التجاوب مع أنظمتها العامة التي تُعنَى برعاية الحقوق والواجبات لشرائح الناس وفئاتهم على اختلافها ، على أساس من العدالة التامة ودون أي تمييز .

ولعل في الناس من يَعْجَبُ إنْ ذَكَّرتُهم بأنه ليس في الأنظمة والقوانين الإسلامية ما يَرسم أي فَرق ، بين مستوطنين أصليين على أرض الإسلام ، ومُتَجَنِّسين طارئين عليها ، ووافدين مقيمين فيها إلى أجل ، ما دام الكلُّ يجنحون إلى السلم ، ولا يتطلَّعون في وجودهم الدائم أو الموقوت على أي عدوانٍ أو كيدٍ ، وأن النظام الواحد يَشملهم جميعاً ويرعاهم دون امتياز ولا تفريق .

وعندما يَلتقي على أرض الإسلام مِن جَرَّاءِ هذا الشمول أكثر من دين واحد ، فإن الشريعة الإسلامية تَرعى لِكُلِّ ذي دينٍ حَقَّه في ممارسته ، دُون أي ظُلمٍ أو اضطهاد ، ضمن دائرة النظام الإداري العادل والشامل لمصلحة الجميع .

وبوسعنا أن نتبين في الدولة الإسلامية الأولى التي أقامها

رسول الله ﷺ في المدينة المنورة أبرز نموذج تطبيقي لهذه الحقيقة الهامة التي يَنبغي أن نَتبيّنها ، فإن المجتمع الذي تكوَّنت منه تلك الدولة لم يَعرف في أي عهد من عهوده ما يُسمى اليوم « أكثرية وأقلية » ، بل ظَلَّ يَحتضن الكُلَّ على أنهم رعايا للدولة الإسلامية الفتية ، ولقد تألفت تلك الرعايا من غالبية مسلمة ، ومن قِلَّة من القبائل اليهودية ، فما نبذت الدولة الإسلامية الدين المخالف ، ولم تَحْرِم أصحابه من الحقوق التي تمتعت بها الغالبية المسلمة ، بل نَصَّ نِظام تِلك الدولة على أنَّ اليَهود يَتمتَّعون بِدينهم وحقوقهم الإنسانية كاملة ، كالمسلمين سواء بسواء .

وإليكم النص الذي يُشكل جُزءاً مِن دستور أملاه رسول الله ﷺ ، وكان هو المعمول به : « يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، إلا من ظلم أو أثم ، فإنه لا يُوتِغُ ـ أي يُهْلِكُ ـ إلا نفسه » .

ويقول في بند آخر مُؤكداً أن أبواب الدولة الإسلامية مَفتوحة للمقبلين إليها أياً كانوا ، وللنازحين عنها أياً كانوا دون تفريق : « مَن خَرج من المدينة فهو آمن ، ومن قعد فيها فهو آمن » .

ولقد سَارت سِلسلة الدول الإسلامية فِيما بَعدُ على هذا النهج ، لا تستبدل به ولا تحيد عنه ، ولم يزدها اتساعها وتراميها في الآفاق إلا رُسوخاً على هذا النهج ، والدليل على ذلك أنَّ البلاد التي دخلت في الفتح الإسلامي ـ كمصر والشام والعراق ـ لم يُكرَه أحدٌ من أهلها على الدخول في الإسلام ، فبقي ما يُقارب نِصف أهل الشام على

نصرانيتهم ، وظل كَثيرٌ من أقباط مصر على دينهم ، وكذلك الشَّأنُ في بلاد فارس ، لم يُفتن نَصرانيٌّ منهم عن نصرانيته ولا يهودي عن يهوديته ، وأظلَّهُم جَميعاً نظام المجتمع الإسلامي ، تُرعَى فِيهم العدالة التامة دُون أي حساب لقلَّة أو كثْرَةٍ أو مواطن أو وافد ، وإنما سرى الإسلام فيما بعد بالتدريج وبشكل ذاتي على عقولهم يقيناً ، ثم إلى قلوبهم حُباً دون أي إلزام مادي أو أدبي .

ودعوني أضعكم أمام مَشهدٍ مِن مئات المشاهد التي تُبرز غِيَاب كتلتي الأكثرية والأقلية داخل تيار العدالة الاجتماعية الراسخة التي تتعالى على الانتماءات الدينية والعرقية في ظِلِّ الحُكمِ الإسلامي(١) :

ففي مَشهد يُنتَصَفُ فِيه مِن ظالم هو « جَبَلَةُ بنُ الأَيْهَم » مَلِكٌ مِنْ ملوك الغساسنة ، أقبل من الشام إلى المدينة مُسلماً ، فاستقبله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وأكرم وِفادَته ، ثم أراد عمر الحجَّ فخرج جَبَلَةُ معه ، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وَطِىءَ إزاره رجلٌ من بني فزارة ، فانحلَّ ، فرفع جَبَلَةُ يده فهشم أنف الفزاري ، فشكا الفزاري أَمْرَه إلى عمر ، فبعث إلى جَبَلَةُ فأتاه ، فقال : ما هذا ؟ قال : إنه تعمَّد حلَّ إزاري ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف . فقال له عمر : قد أقررت بذلك ! فإما أن تُرضي الرجل وإما أن أقيده منك . قال : وما تصنع بي ؟ قال : آمر بهشم أنفك كما فعلت . فاستمهله جَبَلَةُ تلك الليلة ليرى رأيه في الأمر فأمهله ، فلما انتشرت

(١) وسبق أيضاً في هذا البحث مشهد آخر ، وهو قصة ابن عمرو بن العاص مع الشاب القبطي وموقف سيدنا عمر رضي الله عنه .

العتمة وهدأت الحركة ولى جَبَلَةُ عائداً إلى القسطنطينية مرتداً إلى نصرانيته . ثم إنه ندم على ارتداده وتركه الإسلام ، وكان كُلَّما اهتاج به الندم تَغنى باكياً بأبيات له يقول فيها :

تنصّرتِ الأشرافُ من عارِ لطمةٍ ... وما كان فيها لو صبرتُ لها ضرر
تكنفنـــي فيهـــا لجـــاج ونخـــوة ... وبِعْتُ بها العينَ الصحيحةَ بالعَوَر
فيا ليت أمي لم تلِدني وليتني ... رجَعْتُ إلى القول الذي قاله لي عمر
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومي ذاهبَ السمع والبصر

ذلك هو حال المجتمع الإسلامي عندما كان مكلوءاً برعاية الشريعة الإسلامية ، الكثرة الظالمة فيه قليلة حتى يُنتصف منها ، والقلة المظلومة فيه كثيرة حتى يُنتصف لها ، دون أي تفريق بين من ينتسب فيه بجنسية إلى الأرض والوطن ، ووافد إليها غريب ، ومقيم فيها لمصلحة أو رزق .

ومع ذلك فها أنتم تَرَون كيف أنَّ محور الطغيان في العالم يُجرِّد اليوم أمضى أسلحة الإرهاب فتكاً ؛ في حرب مُعْلَنَةٍ على الإسلام الذي هذا هو قانونه وتاريخه وشأنه ، وقد مهَّد أقطاب هذا المحور لحربهم هذه بأكذوبة لم أجد في قاموس الجرائم أشنع منها ، إنها جريمة الكذب المتعمَّد على التاريخ ! وهل التاريخ إلا لسان الدهر وعقله ؟ إنها الأكذوبة التي وضعت الدهر كلَّه في قفص الاتهام ، لا بل في زاوية التجريم ، وذلك عندما أعلن الطغيان الأمريكي أن الإسلام دين الإرهاب .

ويقيناً أن الإسلام لو كان مجموعة أفكارٍ أَنتجَتْها أمةٌ من الناس لكان في هذه الحرب الْمُعْلَنة عليه ما يَقضي عليه اليوم ، ولكن المستقبل القريب سيؤكد الحقيقة التي يَعرفها كل ذي دِراية عقلية حرة ، وهي أن الإسلام ليس إلا وَحيُ الله إلى عباده في الأرض ، ومِن ثمَّ فلن تَغيب شَمسه ولن يَخبو نوره .

❊ ❊ ❊

الأقنية التي تَصنع لنفسها الإرهاب(١)

لم أتردد يوماً ما في أن إشعال وقود الاحتكاكات الطائفية أخطر ما يمكن أن يُزهِقَ وَحدة الأمة ، وأن يَحشو ضَمائر أفرادها وفئاتها بدخان الضغينة والأحقاد ، ولربما كان عليَّ أن أوضح المعنى المراد بـ « الاحتكاكات الطائفية » قبل أن أمضي في بيان هذا الخطر الذى يجب أن نكون جميعاً على بيّنة منه .

إن المراد به تسليط مشاعر العصبية الدينية لتغدو أداة انتقاص ، ومن ثم سلاح هجوم على ذوي المذاهب والانتماءات الدينية الأخرى ، وكلمة « العصبية » تعني الاستجابة لحظ النفس بدلاً من الانقياد لحكم العقل وضوابطه .

إن استخدام العصبية الدينية أداةً في هذا المضمار شَيء يُحَذِّرُ مِنه الدِّين وَدِيَّانُهُ قبل كل شيء ، فهو في حَقيقته خُروج على الدِّين ذاته ، وإن بَدا لدى النظرة السطحية أنه خِدمة للدين ودفاع عنه ، وهذا

---

(١) مقال كتبه العلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى لصحيفة مصرية ، يتحدَّث فيها عن قناة مصرية تبشيرية جعلت من القرآن الكريم غرضاً لها ، وسمحت لِقِسٍّ مَصري يَضع القرآن وينال منه ، ويزرع الشبهات الموهومة في عُقول المشاهدين . وفي هذا المقال حثٌّ للطرف الآخر على كبح جِماح المتطرِّفين من قِبَلِهم كما هو الحال في طَرَف المسلمين ، والوقوف في وجه السلوكات التي تُؤدي إلى التطرف وردود الأفعال من سائر الأطراف .

التحذير هو المراد بالاستثناء في قوله تعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت : ٤٦] ، وهو المراد بما أملاه القرآن على الرسول ﷺ في مجال محاورته مع أهل الكتاب ، بأن يقول لهم : ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ : ٢٤] ، وبأن يقول لهم : ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف : ٨١] ، أي سأسبقكم عندئذ إلى عبادته .

ثم إن العقيدة الإسلامية بحدّ ذاتها لا تترك في نفس المسلم ثغرة تدخل منها مشاعر العصبية الدينية ضد أهل الكتاب ، إذ إن الإسلام ليس دِيناً سماوياً يُقارع أو يُنافس دِيناً سماوياً آخر ، وإنما هو الدِّينُ الجامع الذى يَحتضن ضَرورة الإيمان بنبوة سائر الرسل والأنبياء الذين خلوا من قبل ، ويتبنَى ضَرورة الإيمان بكل ما بُعِثُوا به من صحف وكتب ، وفي مُقدمتها الإيمان بنبوة ورسالة كل من سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام ، وبما بُعث به كل منهما ، بل إن الإيمان بالقرآن لا يَتم إلا بالإيمان بذلك كله .

وانطلاقاً من هذا اليقين الإيماني ـ الذي يجب أن يصطبغ به كل مسلم صَادق وعى حقيقة إسلامه ـ يتبين لنا المنهج الذي ينبغي أن يَنضبط به كل مَن ألزم نفسه بواجب التعريف بالإسلام والدعوة إليه .

إنه المنهج الذى بَصَّرنا به كتاب الله عز وجل وسار عليه ﷺ من استثارة العقل الإنساني للوقوف على الدلائل التي تدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والجزاء الذى أعدَّه الله للمُصلحين والْمُفسدين من عباده ، دون أي تجريح أو تسفيه لمن قادَتْه

العصبية إلى الإعراض وإيثار ما درج عليه الآباء والأجداد ، وإن في الطريقة المثلى التي استقبل بها رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران وأنزلهم ضيوفاً في مسجده لَتجسيداً لهذا المنهج القرآني ، ونموذجاً أخلاقياً رائعاً يدعو المسلمين جميعاً إلى اتباعه والاقتداء به في ذلك في كل زمان ومكان .

وانضباطاً بهذا المنهج القرآني والنبوي الأمثل ، كان المسلمون ـ ولا يزالون ـ إلى اليوم يحصرون نشاطاتهم الدعوية في مجال التعريف بالإسلام والدعوة إليه ضمن دائرة لا يتجاوزونها ، هي الكشف عن حقيقة الإسلام ممثلاً في عقائده وشرائعه وأخلاقه ، سواء تمَّ ذلك في ندوات أو مؤتمرات أو محاضرات ، أو جُنِّدت لذلك أقنية تلفزيونية أو إذاعات مَسموعة .

أجل ، فأنا لا أعلم أن في المسلمين مَن سَخَّرُوا مَنابر الدعوة إلى الإسلام ـ أياً كان نوع هذه المنابر ـ لتسفيه أفكار الكتابيين والنيل من عقائدهم ، ووضع إنجيلهم تحت مَجهر الهجوم والنقد ، ورسم الخطط المصطنعة لإلجاء النصارى إلى الافتتان عن نصرانيتهم ، أو لإلجاء اليهود إلى الافتتان عن يهوديتهم .

نعم ، إنني لا أعلم ـ إلى هذه الساعة ـ أن في المسلمين ـ في عصرنا هذا أو من قبل ـ من سَخَّروا أجهزة الدعوة ـ على اختلافها ـ لشيء من هذا القبيل ، وكيف يتأتى لهم التورط في هذا الجنوح ، وهم جميعاً مُشبَعُون بالقاعدة الشرعية القائلة : « ألا لا يُفْتَتَنَّ نصراني عن نصرانيته ، ولا يهودي عن يهوديته » .

وبالجملة ، فإن تاريخ الأنشطة الإسلامية الدعوية لم تمارَس فيه يوماً ما الأعمالُ التبشيرية على النحو الذى هو معروف اليوم .

إننا بهذه الاستجابة لما يَأمرنا به قرآننا المنزّل من عند الله ، نُغلق باب التطرف والإرهاب في وجوه الوالجين إليه ، ونَغرس في أفئدتهم زهور الوُدِّ ورياحين التواصل والقربى ، بدلاً مما قد يَتسرب إليها من مشاعر الضغينة والبغضاء .

ولكن أليس عجيباً أن يثلِجَّ أولئك الذين يُطْلِقون زَفرات أحقادهم علينا نحن المسلمين ـ من خلال كاميراتهم المصوِّرة وضِمن جُدرانهم الأربعة ـ على فتح أبواب التطرف والإرهاب الْمُشْرَعة إليهم ، في الوقت الذي نَسعى فيه نحن إلى سدها في وجه من يُريدون اقتحامها إليهم ؟! .

أليس عجيباً أن ننسج بأخلاقنا التي يُوصينا بها قرآننا حِصن الوقاية لهم ضِدَّ الْمَشَاعِر المهتاجة ، ثم ننظر وإذا بهم يُمَزِّقون النسيج كله ، ويهدمون الحصن من سائر أطرافه ، مؤثرين شراء الإرهاب بلواعج الضغائن والأحقاد ؟! .

أما نحن المسلمين الذين أكرمهم الله بالإخلاص لدينه وصدق العبودية لذاته ، فلسوف نظل عند قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت : ٣٤] .

لسوف نحرس مواقع الحاقدين ضد الإرهاب الذي يصنعونه ، ونرد عنها غائلة الساخطين لدينهم والمتطرفين في سلوكهم ، سنقوم

بهذا المبدأ الأخلاقي الذي يدعونا إليه كتاب الله ، والذي أخذ علينا به الميثاق الذي قبلناه ووقّعنا عليه ، ما وسعنا ذلك .

فإن أفلت الأمر من اليد فإلى الله المشتكى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

* * *

ضوابط التعامل مع غير المسلمين[(١)]

وهذه عشرة ضوابط في الشريعة المطهرة يُمكن مِن خِلالها اتضاح مَفهوم المعايشة :

الأول : عدم الإكراه على الدين :

قال الله سبحانه تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، والدعوة إلى الدين وبيان محاسنه ليس إكراهاً عليه ؛ فالإكراه ممنوع مَنهي عنه ، والثاني مَفروض ومن أعظم مهمات المسلمين .

وفرْقٌ أيضاً بين الإكراه على الدِّين ، وبين رَدِّ عُدوانِ مَن صَدَّ عَنه ومنعَ تبيينه بالحجَّة والبرهان ؛ فهذا يُقاتل عند تعَيُنِ القتال ، وفي حقه جاء : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٣] ، وَسَنَّ العقوبات على مَن أتى مشيناً من التصرفات لا يَتعارض مع : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ .

الثاني : حفظ حُرمة الدماء والأموال والأعراض :

قال تعالى : ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ

(١) المقال للدكتور محمد ياسر القضماني لخص فيها كلمةً للعلامة الحبيب عمر بن حفيظ ، والمقال منقول من موقع « نسيم الشام » .

أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ ﴾ [المائدة :٣٢] ، وجاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : (من قتل مُعاهداً لم يرح رائحة الجنة ؛ وإنَ ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً)[١] .

فعلى أساس صيانة الأنفس والأموال والأعراض يَجب أن تَقوم العلاقة بين جميع فئات الناس وطوائفهم .

الثالث : إقامة العدل والقسط في الحُكم بين جميع الطوائف :

فلا تحمل العاطفة ولا الشنآن ـ أي البغض ـ على إجحاف في حكم ولا إحقاق باطل ولا إبطال حق ، قال تعالى : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء :٥٨] ، وقال جل وعلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة :٨] ، وقصة سباق مصري مع ابنٍ لعمرو بن العاص ، وكيف ضربه ابن عمرو لَمَّا سُبق ، وعاذ المصري بعمر بن الخطاب في المدينة المنورة ، فطلبَ عمر من عمرو أن يأتي المدينة مع ابنه ، وطالب المصريَّ أن يَضع السَّوط على صَلعه عمرو ، وقولة عُمر لعمرو : « مُذْ كم تعبَّدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، هذا شاهد من شواهد العدل الإسلامي وقيامه بالقسط .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم ، برقم : (٣٠١١).

الرابع : البرّ والقسط وإحسان المعاملة :

البرّ والقسط وإحسان المعاملة مَشروعات مَوروثات من هدي رسول الله ﷺ ، وفي سورة الممتحنة تفصيل بديع لذلك ، منها : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة :٨] ، وفيها حصر النَّهي عن الولاء في صِنْفٍ مَخصوصٍ جندوا قواهم للعدوان والظلم والصد عن سبيل الله في قوله : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة : ٩] .

ومن رَبْطِ الآيات يتبين أن المراد بمثل آية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة :٧٣] ونظائرهاـ ، صِنفٌ مخصوص من الذين جَنَّدُوا طاقاتهم وقواهم للظلم والاعتداء على الغير ومصادرة الحريات ونشر الفساد ، وإذا تعيَّن قتال المعتدي فهناك جملة من الآداب ، فمن الآثار :

ما رُويَ عن أبي عمران الجوني أن أبا بكر رضي الله عنه بعث يزيد بن أبي سفيان إلى الشام ، فمشى معه يُشيِّعه ، قال يَزيد بن أبي سفيان : إني أكره أن تكون ماشياً وأنا راكب ، قال : فقال إنك خرجت غازياً في سبيل الله ، وإني أحتسب في مَشيي هذا معك ، ثم أوصاه فقال : « لا تقتلوا صبياً ولا امرأةً ولا شيخاً كبيراً ولا مريضاً

ولا راهباً ، ولا تقطعوا مُثْمراً ولا تخرِّبوا عامراً ، ولا تَذبحوا بَعيراً ولا بَقرةً إلا لِمَأْكَلٍ ، ولا تُغرقوا نَخْلاً ولا تُحرِّقوه »(١) .

فهذه الأخلاق النبوية تتعلَّق بالْمُعتدين الْمُفسدين ، فكيف بغيرهم؟!.

الخامس : احترام العهود والمواثيق والبعد عن الغدر والخيانة :

قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة :٤] ، وفي السيرة النبوية لابن هشام ، لما جاء أبو جندل إلى النبي ﷺ بعد أن عقد صلح الحديبية مع مشركي مكة ، فقال له : يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك عَهداً وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم . وفي ظِلِّ التزام كُلٍّ بعهوده واتفاقاته يَستقر الوضع وتنشأ الثقة ، ويسير سيل تبادل المصالح والمنافع .

السادس : التفريق بين من يمكن التعامل معه وبين من يتفاحش عدوانه وإصراره ولا يؤمن شره :

وقد استأجر رسول الله ﷺ مع أبي بكر في الهجرة مُشركاً يَدُلُّهم على الطريق يُؤمَن جانبه .

وفي بدر قال النبي ﷺ لأصحابه يوم التقى الجمعان : (قد عرفت

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ، كتاب السِّيَر ، باب ترك قتل من لا قتال فيه من الرهبان والكبير وغيرهما ، برقم : (١٦٨٨٧) .

رجالاً من بني هاشم وغيرهم أُخرجوا إكراهاً ، فمن لَقي مِنكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لَقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه أُخرج كرهاً) .

وقد دخل مع رجوعه من الطائف في جوار المطعم بن عدي ، ودخل أبو بكر في جوار ابن الدغنّه .

السابع : التفريق بين أخذ علوم الحرف واللغات والهندسة والاجتماعيات والرياضيات

والصناعات والماديات بأنواعها ، وبين ما له تعلق بالإيمان والشريعة والدين :

فالأول يُؤخذ مِن كلِّ مُتقن له مَطلع فيه من غير ترك واجب ، ولا وقوعٍ في مُحَرَّمٍ ، فَيُمكن تبادل المعلومات فيه بين مختلف الطوائف .

والثاني لا يُؤخذ إلا عَن أهله بسنده إلى مصدره ومنبعه ، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : أخرج أحمد وابن أبي شيبة(١) والبزّار ، من حديث جابر أن عمر رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه فغضب وقال : (لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، كتاب الأدب ، باب من كره النظر في كتب أهل الكتاب ، برقم : (٢٥٨٨١) ، وأخرجه أحمد بن حنبل في مسنده ، مسند بني هاشم ، مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، (١٤٨٩٠) .

بباطل فتصدقوا به ، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا اتباعي) .

وروى مسلم في مقدِّمة صحيحه ، عن الإمام محمد بن سيرين قال : « إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم » .

الثامن : حفظ المعروف لأهله ومكافأتهم والوفاء لهم :

وقد قال النبي ﷺ في أسرى بدر ـ كما في البخاري ـ : (لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له)(١) ، وذلك أنه كان من أشد من قام في نقض الصحيفة أيام حبسوه وقومه في الشِعْب ، وأجار النبي ﷺ عند رُجوعه من الطائف كما تقدم .

ويؤكد القيام بهذا الواجب ـ في حِفظ المعروف ـ مَبدأُ تَرك العصبية ، ما جاء في سنن أبي داود عن جبير بن مُطعم أن رسول الله ﷺ قال : (ليس مِنَّا مَن دعا إلى عصبية ، وليس مِنَّا مَن قاتل على عصبية ، وليس مِنَّا مَن مات على عصبية)(٢) .

التاسع : ترك الجدال العقيم وحَصْرُه في التي هي أحسن :

مما يُزعزع العيش المشترك السليم التولع بكثرة الجدال وإثارة البلبلة وكثرة الْمِراء والانتقاد ، وقد نَهتنا الشريعة عن الجدال إلا مع الالتزام فيه بالتي هي أحسن ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب ما مَنَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على الأسارى ، برقم : (٢٩٨٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في العصبية ، برقم : (٤٤٧٧) .

﴿ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت :٤٦] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل :١٢٥] .

ومما يُعين على ترك الجدال أن المسؤولية في البلاغ وحسن البيان لا السيطرة ، ولا أن ننصب أنفسنا وكلاء على الناس في بواطنهم ومقاصدهم ، ولا في تولي حِسابهم ومجازاتهم على أعمالهم ، وقد يَبدو شيء من ذلك في أسلوب بَعض المتكلِّمين باسم الدين ، ويلتبس عليهم أن ذلك من الغيرة على الدين والنصرة للحق .

العاشر : فتح المجال للباحثين عن الحقيقة وتيسير السبيل لهم :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦] ، قال ابن كثير : يقول الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه : « وإن أحدٌ من المشركين ـ الذين أمرتك بقتالهم وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ـ استجارك ـ أي استأمنك ـ فأجبه إلى مطلبه حتى يسمع كلام الله ـ أي القرآن ـ تقرؤه عليه وتذكر له شيئاً من أمر الدين ، تقيم به عليه حجة الله ، ثم أبلغه مأمنه أي ، وهو آمن مستمر الأمان حتى يَرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ ؛ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دِين الله وتنتشر دعوة الله في عباده .

وبعد :

فهذه جمل مباركات من سيدي الداعية **الحبيب عمر بن حفيظ** ـ عميد دار المصطفى للدراسات الإسلامية بمدينة تريم في حضرموت

اليمن ـ وقد انتفعنا بها ، أمتع الله به دائماً .

أقول : فإذا كُنَّا نُؤمر بما أمرنا به ـ مما مر معنا ـ مع غير المسلمين ، مع مَن يُخالفنا في الاعتقاد والأصول ، فما بالنا لا نُحسن التعامل مع مَن يُشاركنا الاتجاه إلى القبلة ؟

رأينا أن المشرك المهدور الدم إن استجار بنا أجرناه ، ونحن لا ننسى دعوته وإسماعه ما لعلَّه أن يكون سبباً في هدايته ودلالته ، وهو كلام ربّنا وربّه وهادينا وهاديه ! .

لماذا لا نُحسن التحاور مع الموافق في كثير من الأحيان ، مع أننا مدعوون أن نُجادل الكفار بالتي هي أحسن ؟! .

لماذا لا يسع بعضنا بعضاً في الفروع العملية ، فإذا خالف أحدنا الآخر أثّمه أو ضلّله ، ولربما لم يتورع عن إخراجه من الدائرة المنجية ! ؟ .

لماذا . . . لماذا ؟ أسئلة كثيرة ، وشؤون نُعاني منها ، أحسِبُ أن هذه الأسس والضوابط للتعايش مع الآخر إن راجعناها وتمكنّا من محاسبة أنفسنا على أساسها ، ستجعل فينا الحياء أن نُسيءَ لْمُعَاهد مُتأدب مُراعٍ للعهود ، فضلاً عن أن نُسيء لِمُوحد .

وفقنا الله وسدّدنا لما يحب ويرضى ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

❊ ❊ ❊

الخاتمة[١]

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة : ٨] .

أقول الآن ـ لهؤلاء الذين يتخوَّفون من كلمة الإسلام ـ أقول لهؤلاء الذين يتخيلون أن شريعة الإسلام تعني الظلم الذي قد يقع على غير المسلمين ، الإسلام يستلزم أن يكون غير المسلمين مُواطنين من الدرجة الثانية ، أقول لهم : **ادرسوا الإسلام قبل أن تتهموا الشريعة بهذا ، الإسلام لا يَعرف هذا الذي تقولون ، الدولة الإسلامية التي تتجلى بشرعة الإسلام إنما تدور ـ كما قلت لكم ـ على محور العدالة التي تتسامى فوق الأعراق ، فوق فوارق الأديان ، فوق فوارق اللغات ، فوق فوارق الألوان كلها . المسلم يتفيأ ظلال الشريعة الإسلامية ويُرَحِّبُ بِها تَفاعلاً مع عقيدته الإيمانية والدينية ، أما غير المسلم فيستقبل الشريعة الإسلامية لأنها جزء من تراثه ، لأنها جزء لا يتجزأ من حضارته العربية ، أَوَلَيْستِ الشريعة الإسلامية التي هي تُراثٌ إلى جَانب كَونها دِيناً أولى بنا مِن أن نتقمم قوانين نأتي بها من هنا وهناك ، نأتي بها ونستذل أنفسنا لِنَتَقَمَّمَها من شرق أو من غرب . شريعة الإسلام تراثنا ، وهي أيضاً دين لمن كان قد تمسك بالإسلام ،**

---

(١) من خطبة للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى ، بتاريخ : ١٦/ ٣/ ٢٠١٢م .

فمن كان مسلماً فإنه سعيد بأن يُطبق شريعة الله جل جلاله لأنه مسلم ، ومن كان غير مسلم فإنه يعتز ويسعد بتحقيق التمسك بشريعة الإسلام ، لأنها جزء من تراثه ولأنها جزء من حضارته .

وبعد ، فإذا كان الإسلام هو الذي كفَّ يد العبث اليهودي بالمسيحية ، وكفَّ يد العبث المسيحي الروماني باليهودية ، وما بَين صَخرة القُدس وقيامته ، وهو الذي حرَّرها وما حولها من تسلُّط الرومان وطغيانهم ، ثم بَسط فوق الشام كلها رواق الأمن والطمأنينة ، ومدَّ فيها ظلال الألفة والمحبة والعدل والمساواة ، ساريةً بين سائر الفئات والمذاهب والجماعات ، فبأي حقٍّ يُنتزع من الإسلام شَرف هذه الرعاية الإنسانية ، ويُقطع ما بينه وبين مَهمته القدسية في حماية الحقوق وتحقيق مبادىء العدل والمساواة ؟

ألا إن الذين يَضيقون اليوم ذرعاً بالإسلام وأهله فوق هذه الأرض المقدَّسة ، إنما يَضيقون ذرعاً بما كان ولا يزال يُحقِّقه من العدل بعد الظلم والألفة بعد الخصام والمساواة بعد التسلط ! .

فعلى من يتبرَّم اليوم بالإسلام وحقوقه ، ألا يُخفي تَبرُّمه بالقيم الإنسانية كلها ، وأن يُعلن عن شوقه وحنينه إلى الطغيان والفساد والاستبداد .

❊ ❊ ❊

دُعَاةٌ إلى اللهِ
لا دُعَاةٌ عَلَى أَبوَابِ جَهَنَّم

المحتوى

مقدمة البحث ٧٣
السنن العامة في الدعوة إلى الدين ٧٤
الصفات التي يجب أن يتحَلَّى بها الداعي إلى الله عزّ وجلّ ٨٠
آثار يحققها الحب في مسلك الدعوة إلى الله ٨٧
دُعاةٌ فَتَّانُون ومُتَطَرِفُون حَمقَى ٩٦
كيف يجب أن تكون علاقة الدعاة مع ولي الأمر ؟ ١٠٣
كيف السبيل لإيجاد الصلة بين العالم وولي الأمر للقيام بالواجب ؟ . ١٠٨
آداب النصيحة لوليّ الأمر ١١٠
الفرق بين الحركية الإسلامية والدعوة إلى الله ١١٥
ضَابِط الخُروج عَلَى الحَاكِم ١٢٢
عُلَمَاءُ السُّلطَة ١٢٥
ما هي خطورة من يُسمَّون بـ « علماء السلطة » على الإسلام ؟ . ١٢٨
مسؤولية الدعاة في الفتن ١٣٠
موقف العلماء الربانيين في الفتن ١٤٠
فوائد من فتنة ابن الأشعث ١٤٧
موقف الحسن البصري من الفتنة ١٥٥
الخاتمة ١٥٨

مقدمة البحث

الدعوة إلى الله تعالى عن طريق تعريف الناس بدلائل ربوبيّته وبهوياتهم عبيداً مملوكين لله وتبصيرهم بأحكام دينه شكل من أقدس أشكال التعاون الذي حضَّ عليه بيان الله تعالى في قوله : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة : ٢] .

فقد شاء الله تعالى أن يجعل عباده متفاوتين في القدُرات ؛ ففيهم العالِم وفيهم الجاهل ، وفيهم الملتزم بأوامر الله تعالى وفيهم الشارد عن صراطه ، وجعل ضريبة الهِداية التي أكرم بها طائفةً من عباده أن يعودوا بهذه الهداية إلى التائهين الشاردين ، ونبَّهَهم إلى هذا الواجب الذي أناطَه في أعناقهم وألزمَهم النهوضَ به في مواضع كثيرة من كتابه العزيز ، قال الله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، وقال الله عز وجل : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت ٣٣] .

❊ ❊ ❊

السنن العامة في الدعوة إلى الدين

١) **الوفاء** : الوفاء للحق والقيام على أمره ومواجهة الناس أجمعين به من أولى الخصال التي يحيا بها الدعاة إلى الله تعالى ، وتعد صِبغةً لازمة لسلوكهم ، بل جزءاً خطيراً من كيانهم ، فهُم ـ على بُعد الشُّقَّة بينهم وبين الضائقين بهم ، وعلى وحشة القطيعة وطول الخلاف ـ يظلون ثابتين على دعواتهم ، يشرحون أصولها بدقة ، ويبيّنون حدودها بأمانة ، ولا يتلوّن الحق في رسالاتهم لرغبة أو رهبة .

إن الداعية يعيش في الحق الذي شرّفه الله تعالى به مثلما يعيش الناس في أنوار الضّحوة الكبرى ، فهو بأشعته وحدها يهتدي ، وعلى ضوئها يسير .

ومن ثَمَّ فمن المستحيل أن يخشى عُرفاً سائداً أو تقاليد مقررة ، إذا كان هذا أو ذاك ضد ما يعرف من الحق .

ومن المستحيل أن يتملّق الجماهير أو يطلب رضاها ، كيف وهو يَرى العامّة مرضى ، وفي يده هو دواؤهم ؟ ويَراهم قاصرين وعنده وحده العلم الذي يرفع مستواهم ؟

ومن المستحيل أن يَتهيّب في ذات الله بطشَ سلطان ، فهو يُوقن بأن الحياة والموت والرزق والأجل والخَفْض والرّفع والأمن والقلق ، ترجع حتماً إلى مالك الملك جلّ شأنه .

فالمفروض أن الداعية العارف بالله قد بلغ من منازل الإيمان مَنزلةً تجعل رجاءه في الله تعالى وحده يسبق كل رغبةٍ إلى مخلوق ، كما تجعل خشيته لله أسرع إلى فؤاده من أي رهبة تخامر نفسه أمام ذي سلطان .

ومن المستحيل أن يغرّه طمعٌ أو يجرّه هوى ، أو تغريه رغبة أو تُدنيه رهبة ، فإنَّ شأن الرسالة التي انتصب لأدائها فوق هذه الوساوس جميعاً .

وربما سألتَ : ما العُدّة في هذا النضال ؟

وما الوسائل التي تعتمد عليها الدعوة في بلوغ أهدافها ؟

الجواب : أن الدين لا يُتذرّع في الوصول إلى غاياته إلا بطرقها نفسها ، وتدرك طبيعة هذه الطرق من قول الله عز وجل لنبيه ﷺ : ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : ٦٠] .

فالمثابرة على الدعوة والاستعانة على وعثاء الطريق بطول الصبر وحسن التأسّي وصدق الاعتماد على الله وتفاني الداعية نفسه في حقيقة رسالته هو طريق النجاح[١] .

٢) **الإخلاص** : الإخلاص فريضة على كل عابد ، وهو في محرابه الخاص يتعامل مع ربه فحسب ، فإذا اتصل الأمر بالدعاة فهو فريضة آكد وعقدة أوثق ، واتساع نطاق العمل واشتباكه مع أحوال الناس

(١) من كتاب « دراسات في الدعوة والدعاة » للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى .

ورضاهم وسخطهم وقوتهم وضعفهم يجعل الداعية أحرص على استدامة ذكر الله ومطالعة وجهه ، حتى لا يضلّ الغاية ولا يَحيد عن النهج في زحمة الحياة .

بَيدَ أننا نلحظ ـ آسفين ـ أن ميدان الدعوة إلى الله تعالى غَصَّ بأقوام يجعلون وجه ربهم آخِرَ ما يُراعى ويُرغَب ، كأنّ الأمر لا يعدو أن يكون حِرفةً تَدرُّ ربحاً قليلاً أو كثيراً .

فالدعاة إلى الله تعالى يَجب أن يَأخذوا طريقهم إلى الله نقياً نظيفاً ، فليأخذوا نصيبهم من الدنيا دون تزيّدٍ أو جشع ولا استشراف ، فإذا كان ذلك على حساب ذرة من رسالتهم فليجعلوه دَبْر آذانهم ومواطىءَ أقدامهم ، وليجعلوا علائقهم بالناس على قاعدة الحب في الله والبغض في الله ، فلا يُؤثروا شارداً لقربه ، ولا يُقصوا صالحاً لوحشة منه أو ضيق به . وعلى الدعاة أن يُنَقِّبوا في خبايا أنفسهم ، فلا يجعلوا للهوى سبيلاً عليهم .

هناك من يَنقد الآخرين للتشفي ، وهناك من يَحمدهم للصداقة ، وهناك من يُجسّم الصغائر لفلان ويقف خطيباً ضده ، ومن يُغضي الطّرْف عن العظائم لفلان ويغلق فمه عنه . وتلك جميعاً أحوال يشينها الخبث ويشدّها سوء القصد ، ولا شيء فيها لله جلّ شأنه .

إن العمل الخالص الطيب ـ ولا يقبل الله إلا طيباً ـ هو الذي يقوم به صاحبه بدوافع اليقين المحض وابتغاء وجه الله تعالى ، دون اكتراث برضى أو سخط ، ودون تحرٍّ لإجابة رغبة أو كبح رغبة .

٣) الدعوة إلى الله تقوم على النصيحة الطوعية لا على الأمر القسري[١] : فيجب أن تقف عند حدود التعريف والتذكير والنصح ، فلا يجوز للداعي أن يتجاوز بها إلى درجة الإكراه والإلزام . وكم أكَّدَ البيان الإلهي هذه الحقيقة لرسول الله ﷺ ، وكررها بأساليب شتى ، من ذلك قولُ الله عزَّ وجلّ : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية : ٢١-٢٤] ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد : ٤٠] ، ومن ذلك قولهُ تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٩٩] .

فالداعي إلى الله يستطيع أن يُرغم اللسان ، ولكنه لا يستطيع أن يدخل إلى قلب المَدعوّ فيُرغمه على الإيمان . ولو أنه خوَّفه بالسلاح فنطق بالشهادة ، فالله تعالى لا يقبل منه ذلك ، يقول النبي ﷺ : (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صوَرِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلوبِكُمْ وَأَعْمالِكُمْ)[٢] .

وهذا هو معنى قول الله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، فـ (لا) هنا ليست ناهية ، بل هي نافية لجنس الإكراه ، أي حتى ولو

---

(١) من كتاب « الجهاد في الإسلام » للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى ، الطبعة الثامنة .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله ، برقم : (٢٥٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

أردتم إكراه الناس على الدين لا يتَأتّى لكم ذلك لأن قلوبهم بيد الله ، والجملة هنا خبريّةٌ وليست إنشائية .

إن التكليف الذي خاطب الله تعالى به عباده لا تتأتى الاستجابة والانصياع له إلا في تربة حرية التصرف إذ يملكها الإنسان ، أي إلا لدى شعوره بأنه متمكن من أن يفعل أو لا يفعل ما طُلِب منه .

ومهمة الداعي إلى الله هي أن يُبصِّر الناسَ بهوياتهم ، وبأنهم مُكلّفون من قِبل الله تعالى بأداء مهامّ محددة في نطاق اليقين والاعتقاد أولاً ، وفي نطاق التعامل والسلوك ثانياً ، ثم يتركهم أحراراً في اتخاذ القرار الذي يشاؤون من حيث الاستجابة وعدمها لهذا التكليف ، على أن يُنَبَّهوا إلى الجزاء الذي وعد أو توعّد الله عز وجل به عباده المكلّفين .

ذلك أنهم لو حُمِلوا قَسراً على الالتزام بالتكليفات الاعتقادية أو السلوكية ، وسيقوا إليها دون اختيارٍ منهم ، لَسَقَطَ معنى الابتلاء في تكليف الله تعالى لهم ، ولما استحقوا على ما قد سيقوا إليه أي مثوبة أو أجر ، وهو مُنافٍ للنهج الذي أقام الله عز وجل التكليف عليه .

انظر إلى قول الله تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود : ٢٨] .

وكأن البيان الإلهي يُعَلّم الدّعاة إلى الله تعالى ـ وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ ـ هذه الحقيقة ويبصّرهم بالنهج الذي ينبغي أن يسلكوه في دعوتهم وإرشادهم الناس إلى الحق الذي يجب أن يتبعوه ، من

خلال البيانات والآيات التالية : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : ٢٩] .

٤) **مخاطبة العقول** : عن طريق الحجة والبرهان ، ودعوتها إلى اليقين بعقائد الإسلام ، ومخاطبة الوجدان عن طريق منهاج التزكية النفسية للوصول إلى الالتزام بسلوك الإسلام ، ولن ينجح الداعي في ذلك إلا بعد أن يبدأ فيزكي نفسه من أوضارها وأمراضها جهد استطاعته[1] .

❊ ❊ ❊

(١) من كتاب « هكذا فلندع إلى الإسلام » للعلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى . أعيدت طباعته في دار الفقيه ٢٠٠٨م .

الصفات التي يجب أن يتحَلَّى بها الداعي إلى الله عزّ وجلّ

١ـ أن يتحلى بدين الله عقيدةً وخلقاً وسلوكاً : يُغذِّي قلبه خلال ذلك بأسباب الرغبة في ثواب الله والرهبة من عقابه ، والمراقبة الدائمة له .

ومن أعجب النقائض في دين الله ودنيا الناس أن هناك نفراً ممن يتسمَّون بالدعاة يحسبون أن ما يقولونه لغيرهم من علم ، إنما هو أمر يخص المخاطَبين فحسب ، وقد يعني الناس أجمعين إلا إياهم .

٢ـ العلم : فالشريعة الإسلامية لا تُجيز لإنسانٍ أن يَعِظَ الناسَ موعظةً عاطفيةً وجدانيةً فارغةً من العلم ، ولا يُشتَرَط أن يكون مُطَّلِعاً على كلّ علوم الإسلام ، بل يَكفيه أن يكون خبيراً في الأمر الذي يُريد أن يُحاور الناس فيه .

٣ـ على الداعي إلى الله أن لا يسمح لنفسه أن يَجعل من الدعوة إلى الله مُتَّكأً لغيبة أي إنسان ، ولا وسيلة لفتنة ، ولا مجالاً لفضح من سترهم الله سبحانه وتعالى في معاصيهم ، فما ينبغي للداعي إلى الله عزّ وجل أن يُعلن عن أسماء سترها الله سبحانه ، وما ينبغي أن يَجمع بين الدعوة إلى ربه ـ وهو أمرٌ يأمرنا الله عزّ وجل به ـ وبين الغيبة التي ينهانا الله سبحانه وتعالى عنها .

وقد كان سيّدنا رسول الله ﷺ أوّل الدعاة وسيّدهم ، فما كان يرفعُ ستراً ، وما كان يفضحُ أمراً ، وما كان يذكر العصاة بأسمائهم ، وإنّما كان من هديه عليه الصلاة والسلام أن يقول : ما بال أقوامٍ يفعلون كذا ، ما بال أناسٍ يفعلون كيتَ وكيت[١] .

٤ـ أن يكون محيطاً بالخطط التي يضعها الأعداء ضد الإسلام والمسلمين : فأحقُّ الناس بالفطنة رجالُ الدعوة الذين يتبعون الأنبياء ويقومون على رسالاتهم .

والأمة الإسلامية اليوم مبتلاة بأعداء من بني جلدتنا ، تربَّوا على موائد الاستعمار العالمي ، وحكموا على الأمور بمنطقه ، وهم يترقبون تصرفاً أحمقَ من بعض المؤمنين ليجتاحوا حقيقةَ الإيمان كلَّها ، والشعار الذي يرفعونه محاربة التطرّف ، والغاية التي يَنشدونها محوُ الإسلام ذاتِه .

فعلى الدعاة أن يرعَوا الحكمة في مجال الدعوة ، وألا يمكّنوا خصومَ الإسلام من النَّيل منه بسبب حماسٍ طائش ، وأن يكون خطابهم جامعاً لا مفرّقاً ، ولْيكن الهدف الأولَ بناء العقائد والأخلاق

---

(١) أَخْرجَ أَبو داود ، عَنْ عائِشَةَ رَضيَ اللهُ عَنْها قالَتْ : كانَ النَّبيُّ ﷺ إِذا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ الشَّيْءُ لَمْ يَقُلْ : ما بالُ فُلانٍ يَقولُ ؟ وَلَكِنْ يَقولُ : ما بالُ أَقْوامٍ يَقولونَ كَذا وَكَذا ؟ أخرجه داود في سننه ، كتاب الأَدَب ، باب في حُسنِ العشْرة ، برقم : (٤٧٨٨) . وفي رواية الخرائطي : عَنْ عائِشَةَ رَضيَ اللهُ عَنْها قالَتْ : كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ إذا بَلَغَهُ عَنِ قَوْم شَيْءٌ قال : . . . الحديث ، مَكارِم الأَخْلاقِ للخرائطي ، باب ما يُستحَبُّ لِلْمَرْءِ إِذا بلَغَه عنْ رَجُلٍ شَيْءٌ أَنْ يُعْرِّضَ ، برقم : (٧١١) .

والعبادات . أما الخلافات الفقهية فلا صلةَ لها بميدان الدّعوة ، ولا بقاعدة الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر .

أما وجهات النظر المختلفة فتُعرَض بسماحة وهدوء ، إذ لا عداوةَ بين إمامٍ وإمام ، ولا معركةَ بين مذهب ومذهب ، والأَولى أن يعود بالجماهير إلى دوائر الأخلاق التي استهانوا بها ، وإلى جذور الإيمان التي نأَوا عنها[١] .

٥ـ أن يوقظ الداعي في قلبه محبة الله ورسوله ﷺ : وذلك بالإكثار من الذكر والدعاء ، والتضرع والبكاء ، والاستغفار في الأسحار ، وتلاوة القرآن ، وحراسة دائمة للقلب ألا تسيطر عليه الأهواء ، والالتجاءِ إلى الله تعالى في جوف الليل أن يأخذه من نفسه ويجعله لا يرى إلا المُكَوِّن ، عندئذٍ يأتيه التجلي الرباني ويزول غَبَش الكراهية مما بينه وبين الناس ، فيَنفذ كلامه إلى قلوبهم[٢] .

صحيح أن العلم بحقائق الإسلام هو مادة الدعوة إليه وأداة التعريف به من حيث الظاهر ـ وهذا الظاهر لا بدّ منه قطعاً ـ ولكنَّ تمتُّعَ المسلمِ بالجذوة الكافية من محبة الله ورسوله ﷺ هو الأداة التي لا بدّ منها من حيث باطن الأمر ، بل هو سرّ نجاح الداعي في دعوته .

(١) انظر كتاب « الحق المرّ » الجزء الخامس للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى (بتصرف) .

(٢) انظر كتاب « الحب في القرآن » للعلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى .

وتتجلى حاجة كل من يلاحق الكافرين أو الملحدين ـ بالتعريف بالإسلام والردّ على الشبهات التي يتمسَّك بها محترفو الغزو الفكري ـ إلى أن يكون محصَّناً بحصن الحب من جانبين اثنين :

الجانب الأول : ما ينبغي أن نعلمه جميعاً من أن الكلمات البليغة والرصينة التي ينتقيها الداعي إلى الإسلام ـ وما تحمله من معانٍ علمية دقيقة كان قد وعاها وتبصّر بها ـ ليست هي التي تُدخِل قبس الهداية في نفس التائه أو الفاسق أو الملحد ، وإنما الذي يُدخل ذلك في نفسه ما تحمله تلك الكلمات من لوعة الحب وحرارة الوجدان . ذلك لأن الكلمات التي تقرع الآذان إن كانت لا تحمل أكثر من معانيها الفكرية أو العلمية ينتهي ويتبدّد جَرْسُها داخل الصّماخ ، وتستقر في تجاويف الدماغ ، أما النفس التي تقود الكيان فلا يصل إليها من تلك الكلمات ومعانيها شيء ، فالمشاعر هي التي تلمس المشاعر ومن ثم تخاطبها ، والشّجى هو الذي يبعث الشجى ، وهذا هو معنى المثل القائل : « ليست النائحة كالثّكلى » .

روى سفيان بن عيينة ـ وكان من أكثر الملازمين للفضيل بن عياض ـ أنه دخل مع جَمع من العلماء على الرشيد استجابةً لدعوة وُجِّهَت إليهم ، قال : « ودخل الفضيل بعدنا جميعاً ، مُقنِّعاً رأسَه بردائه ، فلما اطمأنّ به المجلس قال لي : يا سفيان ، أيُّهم أمير المؤمنين ؟ فقلت : هذا ، وأومأتُ إليه ، فنظر الفضيل إليه قائلاً : يا حَسَن الوَجْه ، أَنْتَ الذي أَمْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ والعِبادِ بيَدِكَ وفي عُنُقِك ؟! لَقَدْ

تَقلَّدتَ أَمْراً عَظيماً ! فاسْتَعْبَرَ الرَّشيدُ باكياً »[١] .

إنها لوعة الحب ورحلة الحزن هي التي انطوت عليها الكلمات القليلة والبسيطة التي خاطب بها الفضيل الرشيد ، فبقيت الكلمات حبيسة داخل أذنه وسَرَت مشاعر اللوعة والحزن من الفضيل إلى حيث المشاعر الكامنة في نفس الرشيد ، فاستعبر وتأثر باكياً لتلك الكلمات .

أما الجانب الثاني من حاجة الداعي إلى الله والمعرِّف بدينه إلى التحصّن بحصن الحب ، فيتجلى في حماية الله له عن طريق هذا الحب من كيد الكائدين الذين يواجههم بالأدلة العلمية التي لا مفرّ من الإذعان لها ، فيفرّون من المواجهة التي لا قِبل لهم بها ولا قدرةَ لهم على دحضها إلى نصْب المكايد له والعمل على جذبه إلى عثرات النفس ، وزجِّه في مزالق الأهواء والمُشتهَيات .

إن محترفي الغزو الفكري دأبهم أن يبعثوا بشبُهاتهم المصطنعة إلى الأذهان من بعيد ، دون أن يورّطوا أنفسهم في لقاءاتِ جدلٍ مع العلماء من المسلمين . ولكنّ دأبهم ـ إن أُلجِئوا إلى المواجهة ولم يستطيعوا العبث بعقولهم ـ أن يعملوا على شراء نفوسهم ، فإن كان الدعاة الذين يواجهونهم محصّنين بوقاية الحب إلى جانب التمتّع بالعلم ، ذهبت جهودهم كلها سدى ، ولم يستطيعوا أن ينالوا من أنفسهم أي منال . أما إن كانوا من الصِّنف الذي يتاجر بالأقوال ويتباهى بالأفكار ، مع انطواءِ كلٍّ منهم على نفسٍ استعمرتها محبّةُ الدّنيا بكل ما تفور به من

---

(١) ينظر كتاب « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » ، (٨/ ١٠٥) .

شهواتٍ وأهواء وأموال ، فما أيسر أن يتصيَّد محترفو الغزو الفكري كلاً منهم ، واحداً إثر آخر ، يقودونه إلى حيث يشاؤون من زمام النفس بعد أن عزَّتْ وتأبَّت عليهم مَقادة العقل .

وما أكثرَ الذين سيقوا من أزِمَة نفوسهم إلى ما لا يملكون رجوعاً عنه ، وبقيت معارفهم الدينية وحُجَجهم الإسلامية حبيسة في زوايا عقولهم ، كما تبقى الأسلحة جاثمةً في أماكنها لتواجهَ الصّدأ ، ولِتستعصيَ على الأيدي التي نسيت استعمالها .

ولقد أنبأَنا البيان الإلهي في القرآن بهذه الحقيقة من خلال عرضٍ بلاغيٍّ مُوجَزٍ أخّاذ لقصة ذاك الذي اعتزّ بعلومه الكثيرة الواسعة ، ونسي أن يُحَصِّن نفسه بحصن الوجدان الإيماني المتمثّل في محبة الله تعالى ، إذ تهيمن على النفس فتطرد منها محبة الأغيار .

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن اسمه « بلعام بن باعوراء » ، فلم تُفده علومه الكثيرة أمام نفسه المندلقة على الدنيا ومفاتنها ، فانحطّ إلى الدّون استجابةً لنفسه ، وعجز عن أن يَرتفع إلى الأعلى استجابة لعقله وعلومه .

أنصت إلى هذا الذي يَقوله بيان الله تعالى عنه : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ـ١٧٦] .

قال مالك بن دينار : بُعث بلعام بن باعوراء إلى مَلِكِ مَدْيَن ليدعوه

إلى الإيمان ، فأعطاه الملك من المال ما أسكَرَه ، وأقطعَه من الأرض ما أبطرَه ، فنسي ما أرسله موسى إليه من أجله ، وترك دينه واتّبَع ما عليه مَلِكُ مَدين[١] .

* * *

(١) انظر الجامع لحكام القرآن للقرطبي ، ٩/ ٣٨٣ وما بعدها ، طبعة مؤسسة الرسالة .

آثار يحققها الحب في مسلك الدعوة إلى الله

١ـ أول هذه الآثار هو غِياب أي أهمية أو قيمة أو مركز عن فكر هذا الإنسان في حق نفسه ، فمحبة العبد لله عزّ وجلّ تجعله صغيراً في حق نفسه وتريه ضآلته بل سوءَه أمام ما يُلاحقه من حقوق حبّه لله تعالى ، والمُحب ينظر في هذه الحالة إلى الآخرين فيرى أنهم جميعاً أفضل منه وأقلّ منه تقصيراً في جنْب الله عز وجل ، وربما كان في هؤلاء الذين يَعتقد في حقهم هذه المزية مَن هُم مُريدون أو تلامذةٌ له .

تأمّل في هذه الحالة ، حالةِ الحب التي كان الإمام الشيخ أحمد الرفاعي يتمتع بها ، وانظر كيف كانت تَحمله على الشعور بالحزن الشديد لتقصيره وعلى اليقين بأن كل الذين يَغْشَون مجالسه من أصحابه ومريديه خيرٌ منه ، تأمّل في كلماته هذه : « أيْ سادة ، أنا لسْتُ بشيخ ، لَسْتُ بمقدَّمٍ على هذا الجمع ، لسْتُ بواعظ ، لسْتُ بمعلّم ، حُشِرتُ مع فرعونَ وهامان إن خَطَر لي أني شيخ على أحدٍ من خلق الله ، إلا أن يتغمدّني الله برحمته فأكون كآحاد المسلمين » . ويقول قدّس الله روحه : « كل الفقراء ورجال هذه الطائفة خيرٌ مني ، أنا أُحيمدُ اللاش ، أنا لاش اللاش » .

وإن بوسعك ـ وقد تبين لك حال المرشدين الصادقين مع مريديهم وتلامذتهم من خلال هذا المرشد الرباني الكبير سيدي الشيخ أحمد الرفاعي ـ أقول : بوسعك أن تعلم مَدى بُعدِ كَثيرٍ مِن الناس الذين

يُمارسون أعمال التوجيه والإرشاد اليوم عن المنهج التربوي والإسلامي السليم .

إنهم يسلكون مع مريديهم نقيض ما رأينا من مسلك وحال سيدي الشيخ أحمد الرفاعي مع أصحابه ومريديه ، بل إنه مسلك مناقض لحال سائر العلماء الربانيين وأولياء الله المقربين مع تلاميذهم ومريديهم ، وإنهم لَكَثرةٌ من الرجال والنساء في هذا العصر .

وإنَّه ليُخيّل إليك أن ما يُمارسه أحدهم من أعمال التوجيه والإرشاد إن هو إلا سَعي لغرس اليقين بالمكانة الباسقة التي يَتمتع بها عند الله تعالى في أفئدة المريدين بكل الوسائل ، لعلك تظن أن مِن أخطرها ما يَفعله أكثرهم من حمل المريدين على تقبيل الأيدي ، والقيام للشيخ عند القدوم ، وما يتبع ذلك من بعض المظاهر المشابهة ، غير أن ثمة ما هو أخطر من هذه المظاهر بكثير .

إن فيهم من يُوهم مُريديه بأن الله عز وجل قد أطلعه على سرائرهم وعلى أحوالهم التي يتقلّبون بها في بيوتهم أو في الأسواق والمحالّ ، ويغلب أن يكون هذا في صفوف جماعات النساء .

تدخل إحداهنَّ في الموعد المحدد للقاء مريداتها أو تلميذاتها كي يَتلقّين منها الموعظة أو الدرس الذي هنّ منه على ميعاد ، وتنظر الفتيات في وجه الشيخة المرشدة وإذا بالسّخط يتبدّى على قسائم وجهها ، وتُمضي الشيخة تجتَرُّ سخطها لبضع دقائق في صمت ، ثم إنها تُفاجىءُ الفتيات بما لم يَكن متوقعاً ، تَنظر إليهن قائلة : إن هنالك معصية أو معاصي تَلوح لها ، ظُلَلُها قاتمةٌ تهيمن على المكان ، وإن

صدرها لمنقبضٌ لذلك ، ومن ثم فهي لا تستطيع البقاء معهن في هذا الجو ، وما هو إلا أن تُدير ظهرها إليهن ذاهبة ! .

أما الفتيات فلا تَسَل عن الذُّعرِ الذي يَجتاحُ مَشاعرهن ، ولا سيّما أن المرشدة قد سبق أنْ غَرسَت في أفئدتهن الثقة التامة بها ، وبأنها إنما تتلقى مشاعرها إلهاماً من عند الله ، فتستغرق كل واحدة منهنّ في التفكير في المعصية التي اجترحتها ، وتستعين بالذاكرة والخيال لمعرفة هذا الذي تجهله من أمر نفسها في حين أن المرشدة قد كشفته وعلِمتْه ، وتتحول التخيلات التي تفرضها المسكينة على نفسها في كثير من الأحيان إلى قلق نفسي ، ثم إلى اضطراب فَمَرضٍ نَفسي خَطير ! .

فماذا نقول عن هذا النهج الذي يمارسه بعضهم اليوم مع تلامذتهم أو مريديهم ؟ .

إنه أولاً : انحرافٌ عن جادة العبودية الضارعة لله تعالى ، وهو انحرافٌ يُنْبِىءُ عن فراغ القلب من محبة الله عز وجل ، وانشغاله بمحبة الأغيار ، ومنها الاعتداد بالذات وإيهام المريدين أو المريدات أن الشيخ يتبوّأُ منزلةَ القرب من الله تعالى ، ويتمتّع بالكشف الذي أكرمه الله عز وجل به .

وما أكثر ما تراه من اتساع الفرق وعِظَم البوْن بين ما قد وجدتَ من حال سيدي العالم الرباني الجليل الشيخ أحمد الرفاعي ، وبين ما تراه اليوم من تَسَلّق بعض المربّين والمربّيات إلى مركز الولاية والقرب من الله ، ولا سيّما أمام المريدين والمريدات .

وإنه ثانياً : يعقب هذه النتيجة اللاتربوية الخطيرة في نفوس التلميذات والمريدات ، وإنها لنتيجة مناقضة لِما قد تتطلع إليه رغبة المرشد أو المرشدة من حمل المريدين والمريدات على المبالغة في مراقبة النفس ومحاسبتها ، إن الوسيلة غير شرعية ، والنتيجة التي تأتي على أعقابها نتيجةٌ نفسيةٌ خطيرةٌ لا علاقةَ لها بالهدف المرسوم قط .

ولكن دعْكَ من هذا الأثر النفسي السيّىء ونتائجه ، وانظر إلى المعنى الذي يوحي به هذا التصرّف ، إنه يوحي إلى المريد بأن المرشد بَصيرٌ بسريرته خبيرٌ بالخفيّ من أوضاعه ، إذ إنه يتمتع بصفاء روحي يُورثه الكشف ، ويرفع عنه الحُجُب ، ويعري أمامه الحقائق .

فمتى كان المرشدون الربانيون بدءاً من الرسل والأنبياء يُوحون إلى أتباعهم هذه الدعوى ، ويزجُّونهم في هذا القلق المُهلِك ؟

إن المرشد كلما ازداد معرفةً بالله تعالى وتقرّباً منه ازداد اتّهاماً لنفسه وشعوراً بتقصيره وخوفاً من عواقب هذا التقصير ، ومن ثم فإنه يُوقن بأن الفتح الذي يكرمه الله به إذ يجلس إلى مريديه إنما هو ببركتهم ، وبأن الضيق والانغلاق الذي ينتابه إنما مَرَدُّه إلى سوء حاله ، وهو لا يرى في عمله الإرشادي إلا وظيفةً أقامه الله عليها .

ومصدر الخطأ الذي يقع فيه بَعضهم ما يَظنّونه من أن مَهمّة الإرشاد ـ إذ يَنهض بها أحدهم ـ دليلٌ على أنه يَتبوّأ بذلك مَكانةً متميّزةً عن الآخرين عند الله تعالى . وإنه لَظَنٌّ باطل ، بل إنه لخطأ قتّال ! .

النهوض بمهام الدعوة ليس أكثر من وظيفةٍ يُسخّر الله تعالى للقيام

بها مَن يشاء ، وربما كانت الحكمة من اختيار من يَشاء لها ابتلاءً ، وربما كانت تَربيةً وتهذيباً للمرشد الداعي ، أكثر من أن تكون نصيحةً للناس الذين يرشدهم ! .

وكم من مُرشد ضَلَّ مِن خِلال فتنة الإرشاد ، واهتدى مُريدوه من خلال الحق الذي تَفَتَّحت عقولهم لإدراكه وتهيأت قلوبهم لمحبّته ، ولا أشكّ أن في المرشدين من سيدخلهم الله عز وجل في شفاعة بعض مريديهم .

٢ـ الأثر الثاني من آثار محبة الله عز وجل هو الأدب مع عباد الله جميعاً ، والشعور بقدرٍ مشتركٍ من الحب لهم ، مما يَجعل دَعوته تنبعث من شعور غامرٍ بالشفقة عليهم والرحمة بهم ، على اختلاف نِحَلهم ومِللهم ومشاربهم واتجاهاتهم ، كي لا يَقعوا غَداً في آلامٍ كَاوية من الندامة التي لا تُغنيهم شيئاً ، فإن رب العالمين جل جلاله ما دعا عباده إلى دينه هذا إلا رحمة بهم وحباً لإسعادهم ، فأولى بالداعي إلى الله ـ وهو جندي يدعو الناس بدعوته ـ ألا تدفعه إلى ذلك إلا الرحمة والشفقة والغيرة عليهم ، فهيهات أن يكون الإنسان ناصحاً إذا كان مُبغضاً لمن ينصح .

ولعلك تقول : أما الأدب مع المؤمنين بالله ورسوله فالسبب الحامل عليه بَيّنٌ ، ولكن ما المسوّغ لحب الضالين من الكافرين والملحدين ؟

والجواب هو :

أولاً : وجوب التفريق بين شخص العاصي والمعصية التي تلبّس

بها ، أما المعصية فيجب الشعور بكراهَتها والتحذير منها والنهي عنها ، وأما الشخص الذي تلبّس بالمعصية فيجب الشعور بالشفقة عليه ، ولا تكون الشفقة إلا نتيجةً للحبّ ، فمن لم يكن في قلبك حب له لا يمكن أن تشعر بالشفقة عليه .

ولذلك أدلةٌ كثيرة منها قوله ﷺ : (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسه)[١] ، فالأخوة الإنسانية السارية علاقتها بينك وبين من ثبت له هذا الوصف هي السبب لهذا الذي يدعوك رسول الله ﷺ للتحقّق به .

ولا يحملنّك الوهم على أن تقيد كلمة (أخيه) في الحديث المذكور بالإسلام ، فإن مثل هذا التقييد الفضولي الذي لا دليل عليه من كلام رسول الله ﷺ مَحضُ افتئات عليه ﷺ .

ثانياً : مثل هذا الحديث في الدلالة على ما ذكرتُه لك قوله ﷺ في الحديث الآخر : (الدّينُ النَّصيحَة)[٢] ، وقد أوضح عليه الصلاة والسلام أن ممن ينبغي أن تتوجه إليهم بالنصيحة أئمة المسلمين وعامّتهم ، وربما كان في أئمة المسلمين فَسَقَةٌ وعُصاة وجانحون عن سبيل الحق ، والاحتمال ذاته واردٌ بالنسبة إلى عامة المسلمين ، غير

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه مايحب لنفسه ، برقم : (١٣) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ، برقم : (٤٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، بابُ بَيانِ أَنَّ الدّينَ النَّصيحَة ، برقم : (٥٥) ، عَنْ تَميمٍ الدّاريِّ رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : (الدّينُ النَّصيحَة) قُلْنا : لِمَنْ ؟ قال : (للهِ وَلِكِتابِهِ وَلِرَسولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمينَ وَعامَّتِهِم) .

أنهم جميعاً مشمولون بالعموم الوارد في قوله ﷺ : (وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمينَ وَعامَّتِهِم) ، وإذا كان توجيه النصيحة إليهم من الدين فإن مما لا خلاف فيه أن النصيحة أولى ثمرات الحب .

وأنت تعلم أن انتماء الإنسان ـ أياً كان ـ بنَسَب العبودية إلى الله عزّ وجلّ مَناطُ تَكريمٍ له وحفاوةٍ به ، وهذا يستدعي أن يكون الصادق في محبته لله تعالى مُحباً لكل من يَنتسبون إلى الله بهذا الانتماء .

ألا ترى أن من أحبّ شخصاً ما حبّاً حقيقياً أخذ بمجامع قلبه يحب كلَّ من وما له انتماءٌ إليه أو علاقةٌ به ؟

كذلك محبة الإنسان لله عزّ وجلّ من أبرز آثارها ومستلزماتها محبة كلِّ مَن حدّثنا الله عزّ وجلّ عن انتسابهم إليه بالعبودية له ، وكلِّ من أنبأَنا عن خلقه لهم بيده وأنه بثّ فيهم من روحه .

ثم إنك تعلم أن محبّتهم تستلزم الأدب معهم ، بأن تكون لطيفاً بهم ليّناً معهم ، مُقدّراً أنهم ربما أصبحوا في المآل خيراً منك .

وكل هذا مما دعا الله تعالى إليه رسوله محمّداً ﷺ في التعامل مع قومه سواءً المشركين وغيرهم ، ألم يقل له : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وهذا لا يتعارض مع ما هو مُقرَّرٌ من ضرورة البُغض في الله ، لأنه لا يَعني أن تكون في نفس المسلم أيّ كراهية للشخص بالذّات ، بل

يتّجه البُغض إلى المعصية التي تلبَّس بها أو الكفر الذي أصرّ عليه ، وهذا في حقيقته ليس إلا معنىً من معاني الشفقة على شخص العاصي ، وهذا ما عَناهُ سيدنا لوط على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام ، عندما قال لقومه فيما رواه ربُّه عنه : ﴿ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٨] ، فالداعي طبيب والمَدعوّ مريض ، والطبيب لا يكون طبيباً ناجحاً إلا إذا اندفع إلى تطبيب مريضه بدافع من الشفقة والرحمة .

إن علينا أن نَعترف أن الذي تناله نفوسنا وأهواؤنا مما نسميه البغض في الله أكثر جِداً مما نُقدمه إلى الله تعالى باسم هذا البُغض ذاتِه ، ولْنعترف أن هذه هي الآفة الكبرى في حياة الداعين إلى الله عز وجل اليوم .

وللنظر إلى ما يقوله الإمام الغزالي رحمه الله في هذا الصدد : «. . . وكل ذلك بشفقةٍ ولطف من غير عنف وغضب ، بل ينظر إليه نظرَ المُترَحِّم عليه ، ويرى إقدامه على المعصية مصيبةً على نفسه ، إذِ المسلمون كنفسٍ واحدة .

وهنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها فإنها مُربكة ، وهي أن العالِم يَرى عند التعريف عِزَّ نَفسه بالعلم وذُلَّ غيره بالجهل ، فربما يُقصد بِالتعريف الإدلال وإظهار التَّمييز بشرف العِلم ، وإذلال صاحبه بالنسبة إلى خسة الجهل ، فإن كان الباعث هذا فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر الذي يعترض عليه » .

ثالثاً : ما نعرفه من معاملة رسول الله ﷺ مع المشركين ، بل مع مَن كانوا يُعادُونَه منهم ، مِن ذلك مَوقفه ﷺ مِن مُشركي مكة يوم

دخلها منتصراً فاتحاً ، ألم يَقل لهم مُفاجِئاً : (ما ترون أني صانع بكم ؟) ، قالوا : « أخٌ كريم وابن أخٍ كريم » ، قال : (اذهبوا فأنتم الطلقاء)[١] .

٣ـ الأثر الثالث من آثار محبة الإنسان لمولاه وخالقه جلّ جلاله ، أن الحب يَحمله على أن يُهدر حَظَّ نَفسه في سبيل مَا يَراه مِن وجوبِ دَعوة الآخَرين إلى الله تعالى وتعريفهم بدينه ، وألا يَستثمر شَيئاً من أعمال الدعوة إلى الله عز وجل لمغانمه ورغائبه الدنيوية .

إن حُبه لله تعالى يدفعه إلى الشعور بأنه خادمٌ لدين الله عزّ وجلّ ، قائمٌ بوظيفةٍ أقامه الله فيها هي التعريف بدينه ، وتحبيبُه إلى قلوب الناس ، وبذل كل ما يملك من طاقةٍ مَعنوية وقُدُرات وممتلكات مادية في حراسة دِينه وتعبيد السبل أمام الناس إلى معرفته والاهتداء به .

وصَفوة القول أن الدعوة إلى الله عِبادة بل عبودية ضارعة لله تعالى ، يَتجه بها الداعي إلى عقول الناس وقلوبهم ، لإقناع الأُولى بالحق ، وتطهير الثانية من الأدران والآفات ، وإنما يَنهَض المجتمع الإسلامي على عُقولٍ تُؤمِن بالحق وتذعن له ، وقلوبٍ اتجهت إلى الله تعالى بالخوف منه والحب له .

* * *

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ، باب فتح مكة حرسها الله تعالى ، برقم : (١٨٠٥٥) .

دُعاةٌ فَتَّانُون ومُتَطَرِفُون حَمقَى(١)

مع أن أعداء الإسلام في هذا العصر أقوياء ، ومع استمتاعهم بمقادير كبيرة من العلم والدهاء ، ومع أنهم أحرزوا ضدنا انتصارات كبيرة في أكثر من ميدان ، مع هذا كله فلستُ أخافُهم على ديننا قَدرَ ما أخافُ على هذا الدين من مُتحدِّثٍ جَاهل ، أو مُنافقٍ عَليمِ اللسان ، أو سِياسي يتخذ إلهَهُ هَواه .

ولأتناول الآن المحدّثين الجُهَال ، فإن قُصورهم فتح علينا أبواب شرور كثيرة .

آفةُ المتحدثين في الإسلام أنهم يَستقبلون الْمَرويَّات التَّافِهَة وأذهانهم خَالية أو فَقيرة مِنَ الوَعي بتوجيهات القرآن الكريم وهو دستور الإسلام .

ولا يَجوز لِفَقيهٍ أَن يَتناولَ السُّنن الصِّحاح وهو جاهل بالقرآن نفسه ، فكيف بما هُوَ دُون الصحيح من تلك المَرويات ؟

والسُّنَّةُ أساسها ما تواتر ثم ما صَحّ ، أما المرويات الضعيفة ـ وما أكثرها ـ فَلها شَأنٌ آخر ، يعرفه الراسخون في العلم .

وقد وَقعُ في يَدي كتابٌ يُوزَّع في بعض العواصم الإسلامية ،

(١) انظر كتاب « الدعوة الإسلامية في القرن الحالي » للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى .

ويتأثر به الكثيرون ، وجدت على غلافه ثلاثة أسماء لعلماء لهم مناصب مهمة ، وطالعتُ الكتاب فاستغربت ما حَوى من صور رديئة للإسلام وتعاليمه في قَضيةٍ اجتماعية كبيرة الشأن .

هل صَحيحٌ أن بَيت المسلم سِجن ، وأن الزوجة دَاخله مُتَّهَمَة إلى الأبد ، وأنَّ أنواعَ الحِيطَةِ تُتَّخَذُ لِمَنعها من الإثم ؟! .

كذلك يقول الكِتاب ، فقد جاءت هذه العبارات به تحت عنوان : « نظام سَليم لحياة المرأة يَتجَلى في الحجاب » : قال علي رضي الله عنه : ألا تستحون ، ألا تغارون ؟ يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال تنظر إليهم وينظرون إليها !! وكان الصحابة رضي عنهم يَسُدُّون النوافذ وثُقُوبَ الجدران لئلا تَطَّلع منها النساء على الرجال أو الرجال على النساء ! .

وقد رأى معاذ بن جبل رضي الله عنه زوجته تَطلع في كوة فضربها ، وأقرّه النبي ﷺ .

وكان علي رضي الله عنه يقول : « اكفُفْ أبصارهَن بالحجاب ، فإن شدة الحجاب عليهن خير من الارتياب ، فإن استطعت ألا يَعرفن غيرك فافعل ! فالحجاب حِصن حَصين للمرأة يَمنع عنها الشكوك والأوهام ، وَلُزومُها بيتَها خَيرٌ وأسلم عاقبة . . . » .

نقول : هذا الكلام كله هُراء ، ولا تَصح نِسبته لا إلى رسول الله ﷺ ولا إلى أصحابه ، والمَرويات التي يَعتمد عليها هذا الكتاب ظَاهرةُ المخالَفة لما تواتر من خروج النساء إلى المسجد من الفجر إلى العشاء يَريْنَ الرجال ويَراهُن الرجال ، ولكن مع غَضّ البصر

كما أمر الله ورسوله ، فإن الإسلام لم يأمر بعدم النظر وإنما أمر بغض البصر .

وقد تَصوَّرتُ المشرفين على هذا الكتاب في مَواقف تستحق الدراسة ، لقد روى البخاري[1] أن صحابية أحبّت أن تكون مع المجاهدين في البحر ، تَركب الأسطول وتقاتل في سبيل الله ، وطلبت من رسول الله ﷺ أن يَدعو الله بذلك ، فأجابها وطمأنها وبشّرها .

ولو كان مُؤلّفُ الكتاب حاضراً لقال لها : ما لك يا امرأة وهذا العمل ؟ وما تكلُّفُكِ أمراً لا تحسنينه ؟ امكُثي في بيتكِ ولا تكوني من العُصاة .

إن هذا النوع من المتحدّثين عن الإسلام يصدّ عن سبيل الله ، وقد عرفتُ أنهم يقلدون مذهب ابن حنبل ، وأحمد بن حنبل بَريءٌ من هذا المسلك ، وهو لا يقول أن وجه المرأة عورة ، ذُكر ذلك في المغني لابن قدامة ، وكذلك رأى أئمة المذاهب المتبوعة أبو حنيفة ومالك .

إنه غريبٌ ألا يَعرف الحنابلة مَذهبَهم ، أليس الجهل عيباً ؟ قد

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ رُكوبِ البَحْر ، برقم : (٢٨٩٤) ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : حَدَّثَتْني أُمُّ حَرام رضي الله عنها : أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ ـ من القَيْلولَةِ ـ يَوْماً في بَيْتِها ، فاسْتَيْقَظَ وَهوَ يَضْحَك ، قالَتْ : يا رَسولَ اللهِ ما يُضْحِكُكَ ؟ قالَ : (عَجِبْتُ مِنْ قَوْم مِنْ أُمَّتي يَرْكَبونَ البَحْرَ كالْمُلوكِ عَلَى الأَسِرَّة) ، فَقُلْتُ : يا رَسولَ الله ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ ، فَقالَ : (أَنْتِ مِنْهُم) ، ثُمَّ نامَ فاسْتَيْقَظَ وَهوَ يَضْحَك ، فَقالَ مِثْلَ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا ، قُلْتُ : يا رَسولَ الله ، ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُم ، فَيَقولُ : (أَنْتِ مِنَ الأَوَّلين) ، فَتَزَوَّجَ بِها عُبادَةُ بْنُ الصّامِتِ رضي الله عنه ، فَخَرَجَ بِها إِلَى الغَزْو ، فَلَمّا رَجَعَتْ قُرِّبَتْ دابَّةٌ لِتَرْكَبَها ، فَوَقَعَتْ ، فانْدَقَّتْ عُنُقُها .

يَقولون : نحن نَعرف المذهب ولكنّا نَرى الميل إلى وُجهة نظر أخرى !

نقول : لِيَكُن ، لكم ذلك على ألا تعيبوا من يُردِّد فِقهَ إمامكم ويأخذ به ، فليس ابن حنبل مُتّهماً في نُصحه للأمة وإخلاصه للدين ، فكيف إذا كان فقهُه في هذه القضية فِقه جمهرة العلماء ! .

فقه السنّة لا يُلزِم ، وفقهُ المذاهب لا يُلزِم ، إذن ما الذي يُلزِم ؟ تَفكيرُ المتشائمين وهواةِ جمعِ التّوافه ؟ .

وينقل الكتاب الذي بين أيدينا كلاماً عن حكم سماع الغناء والموسيقى ، فيذكر هذه العبارات :

قال ﷺ : (إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بَعَثني هُدًى ورَحْمَةً لِلْعالَمين وأَمَرَني بِمَحْقِ الْمَعازِفِ والْمَزامِيرِ والأَوْثانِ والصُّلُبِ وأَمْرِ الجاهِلِيَةِ)[1] . وقال ﷺ أيضاً : (أُمرتُ بِهَدْمِ الطَّبْلِ والْمِزْمار)[2] .

وقال بعض العلماء : إن استماع الملاهي والتّلذّذَ بها معصيةٌ توجب الفسق ، وتُردُّ به الشهادة ! . وأبلغُ من ذلك في الزّجر قول أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله : « إن السماع فسقٌ والتّلذّذَ به كفرٌ » .

نقول :

هذه المرويّات كلها مَرفوضة ، فالأحاديث لا نَصيب لها من

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده ، برقم : (١٢١٥) ، عن أبي أمامة رضي الله عنه ، وفي سنده علي بن يزيد بن أبي هلال الألهاني متفق على تضعيفه ، وقال الدارقطني وغيره : متروك الحديث .

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس ، برقم : (١٦٠٨) ، وتمامه في فوائده (٩٣) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي سنده من لا يُعرف .

الصِّحّة ، وتَفسيق المسلمين أو تَكفيرهم لسماع مِزمار أو نحوه كلامٌ فارغ .

وما رواه البخاري يُفيد إباحة السماع والتّلذّذَ في مناسبات مُعينة كالأعياد والأعراس . . .

وإرسال الأحكام الشرعية بهذه الطريقة يَضرّ الإسلام ولا يَنفعه ، وقبل ذلك هو جور على الحقيقة الدينية .

ما على هؤلاء الإخوة لو دَرَسُوا النصوص الواردة ، ومَيَّزوا صَحيحَها من سَقيمِها ، واستوعبوا وجهات النظر في فِقهها ؟

إن القول بأن شيئاً ما منكَر يحتاج إلى نصوص قاطعة ، فإذا انعدم القاطع ورُوِيَت آثار محتمِلة الدّلالة وتشعّبت وجهات النظر في الفهم فقد أصبح الأمر قَضية فقهية عادية ، وأصبح الميل مع وجهة نظرٍ مَا مَذهباً من مذاهب الإسلام .

والذي يزعم أن رأيَه هو الدين وأن رأيَ غيره خارجٌ عن الإسلام رَجلٌ أحمق لا يَنبغي أن يَشتغِلَ بالدعوة إلى الإسلام .

مع كُرهي لأعداء الإسلام وخبرتي بأساليبهم في كيده ، أُعلن أن المتطرفين البُلْهَ يُعطونهم فُرَصاً شَتَّى للنّيل مِنهُ وإلحاق الهزائم به في شتى الميادين[1] .

لقيَني يَوماً أحد الشباب ، ونظر إِلَيَّ بِمَقْتٍ ظَاهرٍ وقال لي : رأيتُ صُورتك على بعض كتبك . قلت : وأنا كذلك رأيتُها ، وضَعَها الناشر

(١) انظر كتاب « الحق المر » للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى .

على غير مَشورةٍ مِنِّي ، ولو سألني الرأيَ ما وَافقتُه ، فلما رأيتها لم أكترثْ ولم أكتئبْ ، لا شيءَ هنالك . قال : أليس التصوير حراماً ؟ قُلت بِبُرود : لا ! قال : لقد مَزَّقتُ الكتاب ، وتواصَيْنا بالتنفير منه ومنك . قلت : قَرَّتْ بكم عيونُ أعداء الإسلام ، ما يَطلبون غير هذا .

وقال آخر لي : مَا رأيك في ختم القرآن بجملة « صدق الله العظيم » .

قُلتُ : كان المؤمنون في الأمور المهمّة أو الشؤون التي تَبغَتُهم يقولون ذلك : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] ، وفي موضع آخر : ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُۗ . . . ﴾ [آل عمران : ٩٥] ، وأرجو أن يكون القارىء شَاعراً بِرَوعة القرآن وجلال هُداه وقوة إعجازه ، فيقول الكلمة من قلبه . فقال : ليس هُناك أمرٌ بها . قلتُ : ولا نَهيٌ عنها . قال : إنك تستهين بالبِدع . قُلتُ : بل أزدري الاشتغال بالتّوافه ! إن الرجل الذي تَطِنُّ حَوله ذُبَابة فيطلب النجدة لمواجهتها رَجلٌ أحمق ، ومِثلُ هذا يَفِرُّ إذا هَاجمَه غُراب ! .

واستَتْلَيْتُ أقول وأنا غاضب : في عَالَمٍ تآمَرَ كُبراؤُه على اغتيال ضُعفائه ، وجُهّالُه على وَأدِ علمائه ، وعجَزَتُه على اغتصاب أزِمَّتِه وامتلاكِ قِيادته ؛ تُريدُ شُغلي بهذا الغُثاء الذي مَلأ أذهانكم ؟! .

إن ساسةَ العَالم أَحكموا خُطَّتَهُم لِخنق الإسلام ونسف ركائز الإيمان ، وقد توغَّلُوا في أرض الإسلام يَبغُون الإجهاز عليه ، وأنتم على شفا الهلاك تُريدون شُغل الأمة بخلافٍ فِقهيٍّ في فروع العبادة ، أو

خِلافٍ لَفظيٍّ في فَهم كلمة ؟ ما أنتم ؟! إنكم ذُرِّيَةُ الخوارج في هذا الزمان الهازل ! .

أَين مَعَاقدُ الإيمان وفضائل الأخلاق وعزائم الأمور ؟ أين أولو الألباب ؟ إنني أنصح الدُّعاة والمربّين مُذَكِّرَاً بالحديث : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعاليَ الأُمورِ وَيَكْرَهُ سَفْسافَها)[١] .

* * *

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في المعجم الأوسط ، برقم : (٣٠٠٥) ، عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السّاعِديّ رضي الله عنه . وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، في كتاب الإيمان من طريقين برقم : (١٣٨ ـ ١٣٩) بلفظ : (إِنَّ اللهَ كَريْمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ ، وَمَعاليَ الأَخْلاقِ وَيَبْغَضُ سَفْسافَها) وقال : هذا حديث صحيح الإسنادين جميعاً ، ولم يخرجاه .

كيف يجب أن تكون علاقة الدعاة مع ولي الأمر ؟

علماء الشريعة الموثوقون الربانيون من أمثال الإمام الرازي وحجة الإسلام الإمام الغزالي والإمام النووي ؛ يضبطون علاقة العلماء بوُلاة أمور المسلمين بالقواعد التالية :

طاعة وَلي الأمر في غير معصية ، وهذا الحكم ليس خاصاً بعالم الدين بل هو عام للناس جميعاً ، إذ عليهم جميعاً طاعة ولي الأمر ما لم يَأمرهم بمعصية ، فَعِندئذٍ لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق .

ولكن مما يَنبغي مَعرفته هو أن المعصية التي لا يُطاع فيها ولي الأمر هِي التي يَكون وِزْرُها على المأمور ، فإذا كان وزرها على الآمر فقط ـ أي على ولي الأمر ـ فعلى المأمور أن يُطيعه ، ومثال ذلك أن يَطلب ولي الأمر مَاله أو يَأخذ منه قطعةَ أرض دون وجه حق ، فتنفيذ هذا الأمر فيه معصيةٌ يَعود وبالها على الآمر ، أما المأمور فلا إثم عليه ، لذا يَجب عليه طاعة ولي الأمر فيه .

أما إذا كانت المعصية التي أمره بها مما يَعود وَبالُه على المأمور كَأَنْ يَأمره بشرب الخمر أو ارتكاب الفاحشة أو اقتناصِ مَالِ زَيدٍ مِن الناس ، فَعِندئذ لا طاعة له .

لما خرج الملك الظاهر لقتال التتار بالشام طلب فتاوى العلماء بأنه

يَجوز أخذ مَالٍ من الرعية ليستنصر به على قتال العدو ، فكتب له فقهاء الشام بذلك ، وقَتَلَ خَلقاً مِن العُلماء كثيراً بسبب إفتائهم له بعدم الجواز ، فقال : هل بَقي أحد ؟ فقالوا : نعم ، بقي الشيخ محيي الدين النواوي ، فطلبه فامتنع وقال : لا ، فقال : ما سبب امتناعك ؟ فقال : سمعت أن عندك ألف مملوك كلهم عنده حِياصةٌ مِن ذهب ، وعندك مئتا جارية لكل جارية حَقٌّ من الحُليّ ، فإذا أنفقتَ ذلك كُلَّه وبقيَتْ مماليكُك بالبنود الصوف بدلاً عن الحياصات الذهب وبقيت الجواري بثيابهن دون الحُلي ، ولم يَبق في بيت المال شيء من نَقدٍ ومَتاعٍ وأرضٍ ، أَفتيتُكَ بأخذ المال من الرعية ، وإنما يُستعان على الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى ، واتّباع أثر نبيه ﷺ .

فغضب السلطان من كلامه وقال : اخرج من بلدي ـ يعني دمشق ـ ، فقال : السمع والطاعة ، وخرج إلى نوى[١] .

فالإمام النووي لم يُفتِ الملك الظاهر بأخذ مال الرعية دون وَجه حَقٍّ لأنَّ في ذلك معصيةٌ لله تعالى ، ولكنَّه لما أمره الملك بالخروج من دمشق قال : « السمع والطاعة » ، مما دَلَّ على وجوب طاعة ولي الأمر في غير معصية ، ولو كان ظالماً .

أن يَتجنّب طَرْقَ باب وليّ الأمر إذا لم يُدْعَ إليه .

يَجب على العالم أن يَستجيبَ لدعوة ولي الأمر إذا دعاه ، يَقول الله

(١) انظر سلسلة أعلام المسلمين « الإمام النووي » لـ « عبد الغني الدقر » .

تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء : ٥٩] ، فالإمام أو الحاكم إذا استَدعى أَيّاً مِن الناس إلى مَجلسه أو مُلاقاته وَجبت الاستجابة ، وعليه أن يَلتَزمَ في استجابته بآداب الإسلام ونهجه .

أَن يَجعل العالمُ مِنَ اللِّقاءِ بوليِّ الأَمرِ وِعَاءً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولِنُصح وَليِّ الأمر فيما يَلمَحُهُ مِن تَقصيرٍ أو مُنكرٍ بالأسلوب الذي يَأمُرُ اللهُ سُبحانَهُ وَتَعالى بِه ، فَنَصِيحَةُ الحاكم مِن أَجَلِّ القُرُبات إلى الله عز وجل ، على أن تَكون صَافيةً عن شوائب الطمع في مَغنم أو الفرار من مَغرم ، وأن تَكون في غاية الحِكمة واللِّين ، وَقَد ذَكر العُلماءُ هَذه الآداب ، ومن أبرزهم الإمام الغزالي في كتاب الإحياء : »... قد ذَكرنا دَرجات الأمر بالمعروف ، وأن أوله التعريف ، وثانيه الوعظ ، وثالثه التخشين في القول ، ورابِعُه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة . والجائزُ ـ من جملة ذلك مع السلاطين ـ الرتبتان الأَوليان ، وهما التعريف والوعظ ، وأما المنع بالقهر فليس ذلك لآحاد الرعية مع السلطان ، فإن ذلك يُحرِّكُ الفِتنة ويُهَيِّجُ الشَّر... وكان ابن أبي شميلة يُوصَف بالعقل والأدب ، فدخل على عبد الملك بن مروان ، فقال له عبد الملك : تكلَّمْ ، قال : بم أتكلَّم ؟ وقد عَلمتُ أن كُلَّ كَلامٍ تَكلَّمَ به المُتكلمُ عليه وبالٌ إلا ما كان لله تعالى . فبكى عبد الملك ثم قال : يرحمك الله ، لم يَزل الناس يَتواعظون ويتواصَون ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين : إن الناس في القيامة لا يَنجون مِن غُصَصِ مَرارتِها ومُعاينةِ الرَّدى فيها إلا

مَن أَرضى الله بسخط نفسه . فبكى عبد الملك ثم قال : لا جَرَم لأجعلنَّ هذه الكلمات مِثَالاً نُصبَ عَيني ما عشت »[١] .

الدعاء لولي الأمر بالتوفيق لما يُرضي الله عزّ وجلّ ، وأن يَزيده الله إيماناً به وتعظيماً لحُرماته ، وهذا ما كان عليه علماء المسلمين وسلفنا الصالح .

وإن عَجَبي لا يَنقَضِي من إخوةٍ يَظلُّون يُرسلون إِليَّ الاستنكار تَلو الاستنكار من الدعاء لِوَلِي أمر المؤمنين ، بحجّةِ أنهم لا يُحبّونَه أو مُتضايقون مِنه !

وأنا أقول لهؤلاء الإخوة : أرأيتم إلى سفينةٍ عليها مِئاتُ الأشخاص يقودهم رُبَّانُها في بحرٍ مائج ، والأمواج تتقاذفهم يميناً وشمالاً ، هل مِن عاقلٍ لا يَدعو لهذا الرُّبَّان أن يَحميه الله من الخطأ ، وإلا سنهلك كلُّنا ؟ .

ولي أمر المؤمنين هو رُبَّانُ سَفينة المجتمع إن أحبَبْتَه أم لم تحبَّه ، هذا الإنسان وَلاَّه اللهُ أُمورنا شئنا أم أبَينا ، فما علاقة مَحبّته بالدعاء له ! .

كان الإمام مالك رضي الله عنه شَديدَ الحرص على الدعاء لولي الأمر ، وكان هذا شَأن التابعين كلهم ، وكان الفضيل بن عياض لا يَألو جُهداً في الدعاء لهارون الرشيد ، وهو القائل : « لو أن لي

(١) انظر كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي .

دعوةً مستجابةً لصَيَّرتُها للإمام » . قيل له : وكيف ذلك يا أبا عليّ ؟ قال : « متى صَيَّرْتُها في نفسي لم تَجُزْني ، ومتى صَيَّرْتُها في الإمام فإصلاحُ الإمام إصلاحُ العباد والبلاد » .

* * *

كيف السبيل لإيجاد الصلة بين العالم وولي الأمر للقيام بالواجب ؟

علماء المسلمين مُكلَّفون بإقامة الإسلام كُلٌّ ضِمنَ دَائرته ، في الأسواق التي يَسيرون فيها ، في الأندية التي يَغشَونها ، فإن رَأَوا مُنكراً عليهم أن يَسعَوا جَاهدين لإزالته واجتثاثه ، وإن رَأَوا مَعروفاً مُهمَلاً لدى الناس يَسعَون لإحيائه ، وإذا جلس مَجلس وَعْظٍ في مَسجدٍ أو خُطبةِ جُمعة فَعليه أن يَطرق الموضوع الذي يُناسبُ حَالَ هؤلاء الناس الذين يُخاطبهم ، فالشرع يَقول لنا : لكل مقام مقال . وعِندما يَجد العالم نفسه واقفاً بين أناسٍ فيهم العامل والفلاح وصغار الكسَبة والتجار ، وفيهم أصحاب رؤوس الأموال ؛ إذاً ينبغي أن يُذِّكرُهم بنقائصهم ، وبالأخطاء التي يقعون فيها ، ولا يَنبغي في ذلك المقام أن يُوجّه النصيحة لأولي الأمر .

وليس على العَالِم أبداً أن يَتطلَّع لمعرفة ما يَحدث في قُصورِ الأُمراء وَمَدى تَطبيقهم لأوامرِ الله فيها ، ولكنه إذا عَلِمَ يَقيناً بِمُنكرٍ يُمارسه وَليُّ أَمرِ الْمُؤمنين أو غَيرُهُ من الْمَسؤولين ، فَعليه أن يَسعى جَاهداً لِنُصحه ودعوته إلى الالتزام بأمر الله ، إمَّا بإرسال رِسَالَةٍ له إن عَلِمَ أنَّ ذَلك يُفيد ، فإذا لم يَجِد سَبيلاً لذلك وغلب على ظَنّه أنه إنْ طَرَق بَابَ الأمير يَستطيع إزَالَةَ هَذَا الْمُنكَرِ فَعليه أن يَطلُبَ لِقَاءَهُ بالوسائل الممكنة ، فإذا تَحققت له فُرصةٌ ووجد نفسه في مَجلسٍ أَمامَهُ فِيهِ بَعض

المسؤولين أو بعض الممثلين للدولة أياً كانوا وأياً كانت مُستوياتهم إذاً يَجب عليه في هذه الحال أن يَتَوَجَّهَ بِالنصح إليهم ، فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويُذَكِّرُهُم بالانحراف إن كان هنالك انحراف ، وبالتوبة التي يَنبغي أن يعودوا بها إلى الله عز وجل .

فإن لم يَستطع الوصولَ إِليهم فلا يُكَلِّفُ الله نفساً إلا وسعها .

* * *

آداب النصيحة لوليّ الأمر

أن تكون النصيحة بأسلوب مُضَمَّخٍ بالحب والغيرة والشفقة ، وقد أخطأ البعض في فهم حديث رسول الله ﷺ : (أَفْضَلُ الْجِهادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطانٍ جائِرٍ ، أَوْ أَميرٍ جائِرٍ)(١) ، فتوهَّم أنَّ كلمةَ الحقِّ هذه يَنبغي أن تكونَ بِنَوعٍ من الشِّدَّةِ أو التَّوبِيخ ، ولكن الحقيقة هي عكسُ ذَلك تماماً . وليستْ كلمة (عند سلطان جائر) دَالَّة على أنه ينبغي أن تكون هذه الكلمة بقسوة كما يَظنُّ البَعض ، أبداً ، فالباري جل جلاله قَال لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه : ٤٤] .

وقد ذَكرنا آنفاً قصة الإمام النووي مع الملك الظاهر ، وفيها أن الملك أمر الإمام بالخروج من دمشق لَمَّا أبى أن يُفتيه بأخذ مال الرعية ، فأطاعه الإمامُ وخرج إلى نوى ، ولما رَأى النَّووي أن المواجهة لم تُجْدِ نفعاً عَمَدَ إلى الكتابةِ إلى الملك الظاهر بأسلوب فيه ترغيب وترهيب ، أسلوبِ الناصح الذي يَخشى عليه عاقبةَ أمره ، ويَخشى ضياع حقوق الناس ، جاء في هذه الرسالة : « وقد أوجب الله على المكلفين نصيحةَ السلطان ـ أعزّ الله أنصاره ـ ونصيحة عامة

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب الأمر والنهي ، برقم : (٤٣٤٤) . وأخرجه الترمذي في صحيحه ، بابُ ما جَاءَ أَفْضَلُ الجِهادِ كَلِمَةَ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطانٍ جائِرٍ ، برقم : (٢١٧٤) ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

المسلمين ، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (الـدِّيـنُ النَّصيحَـةُ ، للهِ وَلِكِتـابِـهِ وَلِـرَسـولِـهِ وَلأَئِمَّـةِ الْمُسْلِميـنَ وَعامَّتِهِم)[١] ومن نصيحة السلطان ـ وفقه الله لطاعته ، وتولاه بكرامته ـ أن يُنهى عن الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام ، وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان ـ أعزّ الله أنصاره ـ ، فقد أقامه الله لنصرة الدين ، والذَّبِّ عن المسلمين ، وأذلّ له الأعداء من جميع الطوائف ، وفتح عليه الفتوحات المشهورة في المدّة اليسيرة ، وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يُحب العمل بالشرع ويوصي نوّابه به ، فهو أولى مَن عمِلَ به ، ولو رأى السلطانُ ما يَلحقُ الناس من الشدائد لاشتدَّ حزنه عليهم ، ولكن لا تُنهى الأمور إليه على وجهها . . . »[٢] .

أن ينصحه إذا كان عنده ، فإذا خرج فعليه أن يَفطِمَ فَمَهُ عن الحديث عما دارَ في ذلك المجلس ، ولا يجوز له أن يتكلَّم بما قد وفقه الله عز وجل له أمام الناس ، فيجلس هنا وهنا وهناك ليُحدِّثهم عما قد فَعل ، وعن الجهاد الذي قد وُفِّقَ إليه أبداً ، وإن فعل ذلك فهو دليلٌ على أنه يُعاني من نوعٍ من النِّفاق والرياء ، بل يَجب أن يَسكت ويَدَّخرَ هذا الذي وفقه الله عزّ وجل إليه ليوم الحسرة ، يوم يقوم الناس لربِّ العالمين .

كما ورد عن رسول الله ﷺ النهي عن الإنكار على السلطان جَهْرَةً

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، بابُ بَيانِ أَنَّ الدّينَ النَّصيحَة ، برقم : (٥٥) ، عَنْ تَميمٍ الدّاريِّ رضي الله عنه .

(٢) من سلسلة أعلام المسلمين « الإمام النووي » لـ « عبد الغني الدقر » .

بحيث يُؤَدِّي إلى خَرْقِ هيبَتِه[١] ، فَعَنْ عياضِ بنِ غَنْمٍ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قالَ : (مَنْ كانَتْ عِنْدَهُ نَصيحَةٌ لِذي سُلْطانٍ فَلا يُكَلِّمْهُ بها عَلانيَةً ، وَلْيَأْخُذْ بيَدِهِ فَلْيَخْلُ به ، فَإِنْ قَبِلَها قَبِلَها ، وَإِلا كانَ قَدْ أَدَّى الذي عَلَيْهِ والذي لَه)[٢] . وللتِّرمذيِّ وحسَّنه مِنْ حَديثِ أَبي بَكْرَةَ رضي الله عنه قال : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (مَنْ أَهانَ سُلْطانَ اللهِ في الأَرْضِ أَهانَهُ الله)[٣] .

وكثيرٌ من الدُّعاة يَغيب عنهم هذا الأدب الذي يذكره العلماء المسلمون فيما يتعلَّق بالعلاقة بين الدُّعاة والحكام ، فحديثُ (كَلِمَة حَقٍّ عِنْدَ سُلْطانٍ جائِر) يفهمونه ويطبقونه : « كَلِمَة حَقٍّ على سُلْطانٍ جائِر »أو « في غيابِ سُلْطانٍ جائِر » ، والحقيقة أنه لا يجوز أن نَتَّخِذ من هذا الحديث سبباً لغيبة الحاكم ، كَأَنْ يصعد المنبر ويقول :

(١) انظر كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ، برقم : (١٥٣٣٣) . وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم ، ذِكْر عياضِ بنِ غَنْم الأشعري رضي الله عنه ، برقم : (٥٢٣٦) . وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ، في كتاب القسامة ، باب النصيحة لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، برقم : (١٥٤٩٨) . وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ، برقم : (١٤٨٢٦) . وغيرهم . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/٢٢٩ : في الصحيح طرف منه. . . ، رواه أحمد ورجاله ثقات ، إلا أَني لم أجد لشريح من عياض وهشام سماعاً وإن كان تابعياً . وقال أبو الحسن السندي : قوله (من أراد أن ينصح لسلطان بأمر) أي نصيحة السلطان ينبغي أن تكونَ في السِّرِّ لا بين الخلق .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الفتن ، برقم : (٢٢٢٤) .

« الحكّام هكذا شأنهم يظلمون ، يرتكبون . . . » ، ولكنَّ الحكام لا يسمعون ما يحكي للناس ، والنبي ﷺ لم يقل : « كَلِمَة حَقٍّ في غيابِ سُلْطانٍ جائِر » أو « على سُلْطانٍ جائِر » وإنما قال : (عند) ، أي تجلس إليه وتنصحه ، ومن أراد أن يُظهر بطولته فلْيُظهرها أمام الله عز وجلّ لا أَمام المخلوقين .

كان الفُضيل بن عياض رحمه الله تعالى إذا جَمَعه مَجلسٌ مع الرشيد لم يَألُ جُهداً في نُصحه ووعْظِه ، مع الاستغناء الدائم عمّا في يده ، فإذا غاب عنه وضَمَّه مَجلسٌ من العلماء أو عامّة الناس ، لم يتجمّل بالحديث عن شيءٍ من مواقفه معه ، ولم يَأذَن لأحدٍ بأن يغتابه ، وهو القائل في مجلسٍ من هذا القبيل : « ما لَكم وللملوك أيها الناس ! . . . ما أعظمَ مِنَّتَهُم عليكم أنْ تَركوا لكم طريق الآخرة . . . فاركبوا طريقَ الآخرة إلى الله . . . ، تَعيبونهم بالدنيا ثم تزاحمونهم عليها ! . . . ما ينبغي للعالِم أن يرضى بهذا لنفسه » .

وهذا هو شأن الإخلاص لوجه الله عزّ وجلّ في السلوك والدعوة ، وعلى هذا النهج لا بُدَّ أن يلتقيَ المخلصون لوجهه . . . لا يُصانعون الحُكّامَ ابتغاء مصالحهم الدنيوية ، ولا يُصانعون الناسَ ابتغاء المحافظة على سمعتهم ، جُرَآءُ في دين الله ، نُصحاءُ للملوك والسلاطين ! . . . وبهذا السرّ الرباني تَسري نصائحُ هذه النُّخبةِ إلى أفئدةِ الملوكِ والحُكَّام بالفائدة والتأثير ، ولكن تقصير العلماء هو الذي تَسبَّب بتقصير أئمة المسلمين ، فلو أنّ عالماً ـ كالإمام الغزالي أو محيي الدين النووي ـ كان مَوجوداً في هذا العصر يُخاطب أولياء أمور

المسلمين ، لطأطؤوا له الرأس ودانوا له ، لأنهم سَيَرَون فيه مَظهرَ الخضوع لسلطان الربوبية والإخلاص لوجه الله[(١)] .

مخاطبة ولي الأمر بما يتَّفق مع منزلته التي يتبوَّؤها ، رُوي عن عائِشَةَ رضي الله تعالى عنها أَنَّها قالَتْ : (أَمَرَنا رَسولُ اللهِ ﷺ أَنْ نُنَزِّلَ النَّاسَ مَنازِلَهُم)[(٢)] . والنبي ﷺ عندما بدأ يُرسل الرسائل إلى ملوك العالم كان يَسأل عن لَقب كُلٍّ واحدٍ منهم ، لكي تكون الرسالة مُتوَّجةً به ، فأرسل إلى هرقل الروم مخاطباً إياه بـ (عظيم الروم) ، مما دَلَّ على وجوب مخاطبة الأمراء بأَلقابهم .

* * *

---

(١) من كتاب « شخصيات استوقفتني » للعلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى .

(٢) أورده مسلم معلقاً في مقدمة صحيحه ، وأخرجه أبو داود في سننه ، باب في تنزيل الناس منازلهم ، برقم : (٤٨٤٢) .

الفرق بين الحركية الإسلامية والدعوة إلى الله

جوهر الدعوة إلى الله تعالى لَونٌ من أجلّ ألوان العبادة التي يَتقرّب بها الإنسان المؤمن إلى الله عز وجلّ ، بل هو ممارسة لأسمى معاني العبودية الضارعة له .

إذن فهو ليس وظيفةً حركيةً من جنس الوظائف الحركية التي يُمارسها أصحاب المذاهب أو رجال الأحزاب الأخرى ، إذ يتنافسون في سباق لاهِثٍ إلى فَرض أَنظمتهم ثم سلطانهم على المجتمع الذي يعيشون فيه ، بقطع النظر عن حال الأخلاق الشخصية وواقع التربية الفردية وخط السلوك .

الداعي إلى الله بحق يجيشُ وقودُ الدعوة بين جوانحه في ضرام الحقيقة الربانية القائلة : (لأَنْ يَهْديَ اللهُ بِكَ رَجُلاً واحِدًا ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَم)[١] ، فهو يتَّجه بأَمل الهداية إلى الأفئدة والعقول ، ويتعلق منهُ الطمع بعد ذلك برضا علام الغيوب ، وينتظر من حصاد دعوته تربيةً قويمة تشيعُ بينَ الأفراد ، واستقامة على الخُلُق السليم والسلوك الرشيد في علاقة ما بينهم على كل المستويات .

أما الْمُتحرِّك سعياً إلى نصرة جماعته أو حزبه ، فهو إنما يتجه بهم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ فَضْلِ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ رَجُل ، برقم : (٣٠٠٩) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب من فضائل علي بن أبي طالب ، برقم : (٢٤٠٦) .

في حركة تكتيكية إلى مقاليد الحكم ، ومن ثمَّ فهو أبعد ما يكون عن الاهتمام بإصلاح القلوب وإقناع العقول وتهذيب النفوس ، وإنما همّه ـ بل كلُّ همّه ـ محصورٌ في أن يُقتنع الناس بضرورة إبلاغه إلى سدة الحكم والقيادة ، ليُريَهم كيف يُفَجِّر لهم من نظامه الذي ينادي به جَنَّةً تَزخَر بأَمواج السعادة للجميع .

وبوسعك أن تُلاحظ لتعلم أن أكثر الدُّعاة الإسلاميين قد أُصيبوا بعدوى هؤلاء الحزبيين من أصحاب المذاهب والأنظمة الدنيوية المختلفة ، ومن ثم فهم ينهجون نهجهم ويتكتكون على طريقتهم ، ويصورون من أنفسهم في أذهان الآخرين واحدةً من الجماعات أو الأحزاب التي تتزاحم سعياً وسبقاً إلى مقاليد الحكم ! .

فانظر كيف تتقطع الجسور منذ أول يوم بين هؤلاء الدعاة الإسلاميين وبين أندادهم الداعين إلى أنظمة وأفكار أخرى .

إنهم يتحوَّلون إلى حزبٍ مُزاحمٍ مُنافسٍ في نَظر هؤلاء الآخرين ، ذلك لأنهم فَرضوا من أنفسهم جماعة تُزاحمهم وتُسابقهم إلى كراسي الحكم ليس إلا .

وهكذا يَجعل الإسلاميون من أنفسهم خُصوماً وأنداداً لتلك الأحزاب والفئات الأخرى من أول يوم ، فكيف وبأي دافع تتهيأ منهم النفوس للإصغاء إلى دعوة هؤلاء الإسلاميين الذين ينافسونهم ويسابقونهم إلى عواطف الجماهير سعياً منهم عن طريق ذلك إلى الحكم ؟! هذا إن وجد هؤلاء الدعاة وقتاً لمحاورتهم ودعوتهم إلى الله تعالى ، وأغلب الوقت أن الوقت لديهم أضيق من أن يتَّسِع لذلك .

لا أعتقد أنَّ في المنطق ما يُوحي بأي استجابة لمثل هذه الدعوة من أُناسٍ اختاروا لأَنْفُسهم هذا المناخ ، بل لا أعتقد أن في المنطق ما يُوحي بأي استعدادٍ نَفسي لدى الآخرين للثِّقة بإِخلاص هذا الصنف من الدعاة .

ومحالٌ أن تجتمع محبة الله تعالى مع استثمار أعمال الدعوة إلى الله للمصالح الشخصية والمغانم المادية ، إنهما من دون ريب نقيضان إن وُجد أحدهما غاب الآخر .

فإذا رأيت من يتخذ من أنشطة أعماله الدّعوية دعامةً إلى مركز يسعى لِتَبَوُّئِه ، أو مصدراً من مصادر رزقه ، أو أداةً لِمَغنمٍ سياسيّ يَحلم به ويجاهد في سبيله ، فاعلم أنَّ قَلبه مشغولٌ عن الله تعالى بأحلامه ورغائبه الدُّنيوية ، وإنْ هو رفع بين الناس شعار الغيرة على الإسلام ، وأهداف الدفاع عن شرائعه والعمل على رفع دعائمه وتحكيم موازينه .

وأغلب الظن أن جهود هؤلاء الناس لن تأتي بطائل ، وأن حركاتهم الناشطة وألسنتهم المُعرِّفة والدّاعية لن تُقرِّب الناس الذين يحاورونهم إلى الالتزام بالدِّين شروى نقير ، ذلك لأن الذي يُدخِل قبس الهداية في القلوب حَالُ الدّاعي لا لسانُه .

أجل فإن الذي أقبل إلي مسرعاً يُنَافِسُنِي الوصولَ إلى مَغنم لا يُمكن أن أثِقَ بِه في أي نصيحة يَزعُمُ أَنَّه يتقدم بها إليّ ، وأغلب الظن أن نصيحتَه لن تُترَجم في ذهني إلا إلى خديعة مقنّعة وتكتيك سياسي مُبرمج ! .

ومن هنا يَشيعُ في أوساط الحزبيين الآخرين اتهام الإسلاميين الحركيين باستغلال الشعارات الإسلامية التي من شأنها أن تهيّج الجماهير للوصول إلى الحكم ، ولا سيّما وهم يرون أنفسهم فقراء إلى تلك الشعارات ذات التأثير السحري على عواطف الناس .

في الثمانينات من القرن الماضي دُعيتُ من قِبَل بعض المسؤولين الكبار إلى أن أنشىء حزباً إسلامياً ليكون من أحزاب الجبهة الوطنية التقدمية ، فقلت : أما ضمانات النجاح فأنا أضمن ذلك ، وأنا أعلم أنَّني لو أعلنتُ أنني سأُنْشىء حزباً إسلامياً لن يَقلَّ عدد الداخلين فيه عن المليون خلال شهر واحد ، لكن ماذا أكون قد صنعت للإسلام ، أسَأتُ أم أَحسنت ؟

الجواب : أنني سوف أُسيءُ لأسباب عدّة منها :

أولاً : عندما يكون لي كرسي سادس أو خامس مثلاً في الجبهة الوطنية التقدمية ، فمعنى ذلك أن المجتمع السوري تقاسَمَتْه هذه الأحزابُ الخمسة ، ونصيبُ الإسلام منه الخُمُس أو السُّدُس ، ولكنَّ الإسلامَ ليس إصبعاً خامساً بين هذه الأصابع ، الإسلام هو المِعصَم الذي يجمع ، إذا أردتُّ أن أجلسَ على كرسي أصبحتُ قسيماً ، فأكون قد أسأتُ للإسلام .

ثانياً : عندما أُنشىء هذا الحزب سأجد من حَولي أُناساً دَخلوا فيه يُحيطون بي يُحَذِّرونني ويَمدحونني . . . الخ ، سأجد بأن علاقتي بهذه الجماعة أصبحت هي البديل عن قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، ولسوف أجد أن علاقتي مع هؤلاء الإخوة

تعلو فوق علاقاتي مع بقية الناس ، فكيف ألقى الله تعالى ؟! ربما يكون أناسٌ بعيدون عن هذا الحزب أفضل بكثير من كل هؤلاء الأعضاء .

ثالثاً : هنالك سياسيون حرفيون مِهَنيّون يُريدون أن يَصلوا إلى أمانيهم مِن أقصر طريق ، عندما يَجدون أن هُنالك حزباً إسلامياً له مزية لا تتمتع بها بقية الأحزاب ، من ليبراليين ، شيوعيين ، اشتراكيين... الخ ، وهي أنه يستحوذ على العاطفة الإسلامية للمجتمع ، فعندما أخاطب الناس بأنني مسلم وأريد أن أطبق الإسلام ، سأجد عشرات بل مئات الناس يفسحون لي المجال ويتَبَنَّونَ وُصولي إلى الحكم ، هؤلاء السياسيون المحترفون يسيل لعابُهم ، وسرعان ما يأتي الواحد منهم فيُطْلِق لحيةً ويُظهر التَّمَسُّك بالدين والغيرة على الإسلام ، ويسجد ويضغط عند سجوده ليُحدِثَ عَلامةَ سجودٍ على جبهته ، فأنا ما أدراني بحقيقته ؟ النتيجةُ أنني سأجد أن ظهري أصبح مَطيَّةً لهؤلاء الناس الذين رَكِبوا الإسلام عن طريقي ، فلما وصلوا إلى الحكم تنكَّروا لي .

هذا واقعٌ وليس خيالاً ، لا يوجد حزب إسلامي إلا وخمسون بالمائة منه أو أكثر من الحرفيين الذين دخلوا في هذا الحزب لأنَّهم وجدوا أن الطريق معبد إلى أمانيّهم السياسية المختلفة التي يريدون الوصول إليها .

رابعاً : عملُ الدعوة إلى الله عز وجل لا يُكَمِّله النشاط السياسي ، بل يلغيه وينسخُه ، لأنني عندما أقوم بعمل سياسي لا أستطيع أن أُقنع

رئيسَ الدولة أو المسؤول بأنني أنصحه لله ، عندما يجد أنني أُناكِبُه العمل وأسابقه في الهدف ويسيل لعابي على الكرسي الذي يجلس عليه ، كيف يصدّقني ؟ .

لكن عندما يعلم أنني زاهدٌ في كرسيِّه وإنما أطمع في عقله عندئذ يُمكن أن يَستجيب لي .

وقد أثبتت التجربة أن مُشاركةَ الأحزاب الدينية في الأنشطة السياسية لا تعود بالخير على الدعوة الإسلامية ، وإن بدا في أول الأمر أن لها فائدة ، إلا أن هذه الفائدة هي فائدة في الظاهر أما الواقع الملموس فهو يثبت عكس ذلك تماماً .

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله : أنظر بِريبةٍ شديدة فيمن لا صياحَ لهم إلا طلبُ الحكم ، وأخاف أن يقع مُستقبل الإسلام بين أيديهم ، فيكتنفَ الظلام مستقبل الإسلام .

هناك أعمالٌ ثقيلةٌ خطيرةٌ يجب أن يُباشرها الإسلاميون فوراً لإصلاح أمتهم وتهيئتِها لغدٍ أشرف. . . أشعر بالجزع عندما أرى أخلاق الكذب والخيانة والغدر وخسّة الخصومة تشيع هنا وهناك ، أليست هذه أركانَ النفاق ؟ فكيف يبقى معها الإسلام ؟ .

فبم نُفَسِّرُ تَقاعسَنا في محو هذه الخلائق الرديئة ؟ وكيف يَستقيم ـ مع وجودها ـ حماسنا للدعوة إلى الإسلام ؟

إن انتظارَ الحُكم ليس العملَ الصالحَ الذي ينضمُّ إلى الإيمان وتتمُّ به النجاة ، إن هذا الانتظار يُمكن فَهمه عندما يَكونُ في حاشية

الشعور ، على أن يكونَ في بؤرة الشعور العملُ العاجل المتاح في أي مَجال لخدمة الإسلام في أي ميدان ، وما أكثر الميادين الظمأى إلى عاملين مخلصين ناشطين. . .

أصارح بأنني مُرتابٌ في أفئدةِ مُقاتلين من أجل الحكم ، بل مُرتابٌ في قُدُراتهم وخبراتهم ، وأخشى إذا وقعت مَقاليدُ الحكم في أيديهم أن يُصاب الإسلام بما لا طاقةَ له به ! .

هل عَجَزةُ اليوم سيكونون المقتدرين غداً ؟ اللهم احرس الإسلام من هؤلاء الأصدقاء .

ونجاحُ الدُّعاة في نشر الإخلاص والمرحمة والتعاون والنظام والنظافة والنشاط والإيثار شيء لا يُقَدَّرُ بثمن ، وهذه الأخلاق هي المهاد الحقيقي لكي يَقوم مِن تِلقاءِ نفسه حُكمٌ صالح ، فلطالما قَرَّرنا أن الحكم صُورةٌ صادقةٌ للشعب نفسه(١) .

فالإسلام الدعويُّ هو المطلوب ، وما يُسمَّىٰ بالإسلام السياسي هو المرفوض .

* * *

---

(١) انظر كتاب « الحق المرّ » للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى .

ضَابِط الخُروج عَلَى الحَاكِم

عنْ عُبادَةَ بْنِ الصّامِتِ رضي الله عنه قالَ : (دَعانا رَسولُ اللهِ ﷺ فَبايَعْناهُ ، فَكانَ فيما أَخَذَ عَلَيْنا : أَنْ بايَعَنا عَلَى السَّمْعِ والطّاعَةِ ، في مَنْشَطِنا وَمَكْرَهِنا ، وَعُسْرِنا وَيُسْرِنا ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنا ، وَأَنْ لا نُنازِعَ الأَمْرَ أَهْلَه) ، قالَ : (إِلاّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَواحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فيهِ بُرْهان)[1] .

قوله : (وَأَثَرَةٍ عَلَيْنا) : والمراد أن طاعتهم لِمَن يتولَّى عليهم لا تتوقَّف على إيصالهم حقوقهم ، بل عليهم الطاعة ولو منعوهم حقَّهم .

قوله : (وَأَنْ لا نُنازِعَ الأَمْرَ أَهْلَه) : أي الملك والإمارة ، زاد أحمد[2] في رواية : (وَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ لَك)[3] ، فلا تعمل بذلك الظنِّ ، بل اسمع وأطع ، إلى أن يصل إليك بغير خروج عن الطاعة .

قوله : (إِلاّ أَنْ تَرَوْا كُفْراً بَواحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فيهِ بُرْهان) : أي نَصُّ آية أو خبرٌ صريحٌ لا يَحتمل التأويل ، ومقتضاه : أنه لا يجوز

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ قَوْلِ النَّبيِّ ﷺ : (سَتَرَوْنَ بَعْدي أُمورًا تُنْكِرونَها) ، برقم : (٧٠٥٦) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، برقم : (١٧٠٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، برقم : (٢٢٧٣٥) .

(٣) أي وإن رأى أن له في الأمر حقّاً .

الخروج عليهم ما دام فِعلهم يَحتمل التأويل .

قال النووي : المراد بالكفر هنا المعصية ، ومعنى الحديث : لا تُنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تَروا مِنهم مُنكراً مُحقَّقاً تَعلمونَهُ مِن قواعد الإسلام ، فإذا رأيتُم ذلك فأنكروا عليهم ، وقولوا بالحقِّ حيثما كنتم ، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين ، وإن كانوا فسقة ظالمين .

قال النووي : وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرتُه ، وأجمع أهل السنة أنه لا يَنعزل السلطان بالفسق ، وأما الوجه المذكور ـ في كتب الفقه ـ لبعض أصحابنا : أنه يَنْعَزِل ، وحُكي عن المعتزلة أيضاً ، فَغَلطٌ مِن قائلِه مخالفٌ للإجماع .

قال العلماء : وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتَّب على ذلك من الفتن ، وإراقة الدماء ، وفساد ذات البين ، فتكون المفسدة في عَزله أكثر منها في بقائه .

وقال جماهير أهل السنة ـ من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين ـ : لا يَنعزل بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق ، ولا يُخلع ولا يجوز الخروج عليه بذلك ، بل يجب وعظه وتخويفه ؛ للأحاديث الواردة في ذلك . قال القاضي : وقد ادَّعى أبو بكر بن مجاهد في هذا الإجماع ، وقد ردَّ عليه بعضهم هذا بقيام الحسين وابن الزبير وأهل المدينة على بني أمية ، وبقيام جماعة عظيمة من التابعين والصدر الأول على الحجاج مع ابن الأشعث ، وتأوَّل هذا القائل قوله : (ألا ننازع الأمر أهله) في أئمة العدل . وحُجَّة الجمهور : أن قيامهم على

الحجاج ليس لمجرَّد الفسق ، بل لما غيَّر من الشرع ، وظاهَرَ من الكفر . قال القاضي : وقيل إن هذا الخلاف كان أولاً ، ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم . والله أعلم) .

* * *

عُلَمَاءُ السُّلطَة

هو مصطَلحٌ جديدٌ صار متداولاً حديثاً ، ويوجد في تراثنا الإسلامي تَعبيرٌ أشمل منه هو « علماء السّوء » ، يقول أحدهم :

يَا عُلَمَاءَ السّوءِ يا مِلحَ البَلَدْ   مَا يُصلحُ المِلْحُ إذا المِلحُ فَسَدْ

وَيُقصَد بهم العلماء الذين لم يلتزموا بمُقتضى علومهم التي انتهلوها ، وشرَدوا عن الانضباط باختصاصهم العلمي ، فاتَّخذوا العلم تُكأةً للدنيا وأداة للكَسب والمغانم ونحوِ ذلك ، بقطع النظر عن الصلة بالسلطان أو الحاكم .

أما تعبير « علماء السلطة » فهو أضيق ، ويُقصَد به العلماء الذين أخضعوا علومهم لخدمة السلطان أو وليّ الأمر ، ممن وضعوا نُصبَ أعينهم مغانمَ ومبتَغَياتٍ سياسية ونحو ذلك ، وعزّ عليهم أن يجدوا سبيلاً للوصول إليها إلا سبيل العلم ، فاتخذوا من علومهم وسيلةً لدى السلطان بإفتائه بما ينشرح له صدره .

فإذا وَجَدَ أَحدُهم أَنَّ وَليَّ الأمر يرى إباحة أمرٍ ما ، يفتي فوراً بأنه مباح ، وإذا رآه يضيق صدره بأمر أفتى بحُرمَته ولو كان ذلك الأمر مباحاً في أصول الشريعة الإسلامية .

هذه الحالة التي يَتَّصفُ بِها فعلاً بعض العلماء هي ما يُعبَّر عنه اليوم بـ « علماء السلطة » .

والأمثلة على ذلك في واقعنا اليوم كثيرة ـ للأسف ـ منها :

بالأمس كانت تصريحات بعض هؤلاء العلماء مظهراً للحماسة ضد العدو المغتصب للأرض والحقوق ، الطاردِ للناس من بيوتهم وأوطانهم « إسرائيل » ، سمعناهم يتداعون لقتال العدو المغتصب ، ورأيناهم يُلِحُّون على الأمة الإسلامية بضرورة التلاقي صفاً واحداً على قتاله ، ونظرنا اليوم وإذا بهم يُعلنون حِلفاً خَفيّاً أو مُعلَناً معه ، وأصغينا السمع وانتظرنا أن نسمع منهم ما يُذكرنا بموقفهم قبل سنوات ، ولكننا لم نسمع منهم إلا النقيض ، بل صاروا هم اليوم يجلسون مع الحاخامات ويتبادلون معهم الرأي .

كم وكم سمعنا منهم تذكيراً بأحاديث رسول الله ﷺ التي تأمر بعدم الخروج على الحاكم : قالَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمانِ رضي الله عنهما : قُلْتُ : يا رَسولَ الله ، إِنّا كُنَّا بِشَرٍّ ، فَجاءَ اللهُ بِخَيْرٍ ، فَنَحْنُ فيهِ ، فَهَلْ مِنْ وَراءِ هَذا الْخَيْرِ شَرٌّ ؟ قالَ : (نَعَمْ) ، قُلْتُ : هَلْ وَراءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ ؟ قالَ : (نَعَمْ) ، قُلْتُ : فَهَلْ وَراءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ ؟ قالَ : (نَعَمْ) ، قُلْتُ : كَيْفَ ؟ قالَ : (يَكونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لا يَهْتَدونَ بِهُداي ، وَلا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتي ، وَسَيَقومُ فيهِمْ رِجالٌ قُلوبُهُمْ قُلوبُ الشَّياطينِ في جُثْمانِ إِنْسٍ) ، قالَ : قُلْتُ : كَيْفَ أَصْنَعُ يا رَسولَ الله ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ ؟ قالَ : (تَسْمَعُ وَتُطيعُ لِلأَميرِ ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ ، وَأُخِذَ مالُكَ ، فاسْمَعْ وَأَطِعْ)(١) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، بابُ الأَمْرِ بِلُزومِ الْجَماعَةِ عِنْدَ ظُهورِ الْفِتَنِ وتحذير الدعاة إلى الكفر ، برقم : (١٨٤٧) .

ويُذَكِّرون بأنه لا يَجوز الخروج عليه ما دام لم يُعلن الكُفرَ البَواح ، ونظرنا إليهم وإذا هم اليوم يَحكمون على الحُكَّام بالكفر ، ويحكمون عليهم بالشرود الكلي عن صراط الله سبحانه وتعالى ، ويُحرِّضون الناس على الخروج عليهم ، ثم يجعلون هذا الحُكم خاصّاً ببلاد دون أخرى !! فهل يمكن أن نجد إسلاماً سياسيّاً يُمَزَّق فيه الإسلام أكثر من هذا ؟

بالأمس كانوا يُحذِّرون من بدعة التكفير ويعلنون خلافَهم مع التكفيريين ، اليوم هم أنفسُهم يكفِّرون الناس .

الرِّبَا كانوا إلى الأمس القريب يقولون إنه حرام أياً كانت النسبة ومهما كان ، اليوم نجد أنهم يقولون : إذا كانت النسبة ٤٪ فهو ليس حراماً ، ويبررون ذلك بأن هذه النسبة مقابل التضخم .

* * *

ما هي خطورة من يُسمَّون بـ « علماء السلطة » على الإسلام ؟

تكمن الخطورة في سلوك هؤلاء في أنهم يُجنِّدون أنفسهم ـ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ـ لتنفيذ خُطةٍ تَهدف إلى نَزْعِ صفة السماوية عن الشريعة الإسلامية ، هذه الخطة مَوجودة ولكنها تَطورت من حال إلى حال ، فالفشل لدى التجربة الأولى اقتضى الدخول في تجربة ثانية ، ثم الدخول في تجربة ثالثة ، وما يَهُمُّنَا هو الحديث عن التجربة الثالثة التي يتم تنفيذها اليوم ، وتتمثل باختصار في دَفعِ من يُمكن السيطرةُ عليهم من علماء الشريعة وفقهائها وتجنيدهم للفَتوى وبيان الأحكام ، لكن على ألا تكون هذه الأحكام مرتبطةً بنصوص أو بمراجع أو أئمّة ، بحجّةِ أن الشريعة الإسلامية صالحةٌ لكلّ زمان ومكان ، وبحجَّة القاعدة القائلة « حيثما وجدت المصلحة فثَمَّ شرع الله » فوُجِدَ مَن تجاوَبَ مَعهم ، إما بغباء وجهل أو بسوء نية ، فأطلق لسانه بالفتاوى دون الانضباط بالضوابط التي ذكرناها ، فإذا بالفتاوى التي لا تَنتمي إلى جِذع الإسلام تتكاثر هنا وهناك .

أبطال هذه التجربة الثالثة يُريدون أن يُبرهنوا للعالم أن الإسلام ليس عبارةً عن أحكام مُنزلة من السماء وَحْيَاً على الرسل والأنبياء ، بل هو عبارة عن مجموعة أفكار لفقهاء ، هذه المجموعة تكاثرت ثم تكاثرت ، فأصبحت فِقهاً عَامّاً اصطبغ بالصبغة الدينية ، وبهذا يتبخر

الإسلام فلا داعي أن نَربط هذه الأحكام بعقيدة .

الخطر الآخر أن هذه الفتاوى التي أُعِدَّت أشبه ما تكون بالقنابل الموقوتة ، ولا سيما فتاوى التكفير ، وتحليل ما كان محرماً ، وتحريم ما كان حلالاً ، هذه الفتاوى تمزق المجتمع وتجعله أنكاثاً ، وتجعلُ المجتمع المتآخي بعضه يتربص ببعض ، هذا من أخطر ما يُمكن أن نَتصوره .

يقود هذه الحملة شخص اسمه « محمد أركون » ، وهو رئيس الدراسة الإسلامية في جامعة « السوربون » جزائري ملحد ، وكان يتقاضى فوق مُرتَّبه المتميز كرئيس لكرسي الإسلاميات في جامعة « السوربون » رِشوَةً كبيرة جِداً لعمله الذي كانت فرنسا تَرى أنه نجح فيه نجاحاً كبيراً في هذا الصدد ، وهو الذي كان يَطرح النظرية القائلة : « يجب أن نُعيد النظر في الإيمان بوجود الله عزَّ وجل » .

* * *

مسؤولية الدعاة في الفتن

الفتنة : هي كل حَالة يغيب فيها سلطان العدل ، ويُفلت فيها زمامه ، وينجرف فيها الناس إلى التهارج والقتل دون ضوابط ولا اختيار ، وكل الفتن ذات درجة واحدة في الخطورة وتسبب الهلاك .

وهي تتلخص في عدوان المسلمين بعضهم على بعض ، فكلُّ ما حدثنا عنه رسول الله ﷺ من الفتن وأنواعها يتلخَّص في هذا الأمر ، عدوان المسلمين بعضهم على بعض ، وأحاديث الفتنة كثيرة جداً ، وكلها يدور على هذا المعنى .

تأملوا مثلاً فيما يَرويه حُذَيْفَةُ بْنُ اليَمانِ رضي الله عنه ، عنْ رَسولِ اللهِ ﷺ أَنَّه قالَ : (والذي نَفْسي بيَدِهِ لاَ تَقومُ السّاعَةُ حَتَّى تَقْتُلوا إِمامَكُمْ ، وَتَجْتَلِدوا بِأَسْيافِكُمْ ، وَيَرِثَ دُنْياكُمْ شِرارُكُم)[١] .

ها نحن نرى كيف أن نيران الفتن تنقدح اليوم في جنبات الأرض ، حتى إن هذه الفتن أصبحت الرصيد الأوحد للأخبار الإذاعية التي تتلقاها الآذان أو تتلقاها الأبصار ، التي ما تَفتؤ تتحدث عن الإنسانية المهيضة المكلومة في جنبات الأرض ! .

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن ، بابُ ما جاءَ في الأَمْرِ بِالمَعْروفِ والنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ (٢١٧٠) وابن ماجه في الفتن ، باب أشراط الساعة (٤٠٤٣) ، قال الترمذي : هَذا حَديثٌ حَسَنٌ .

حقيقة يَنبغي أولاً أن نَتبيَّنها ثم يَنبغي أن نَعلم أن هذه الفِتن لا تأتي مُصادفة ولا تَسوقها رياح العشوائية ، وإنما هِي نَتيجةُ خُطَطٍ يَرسمها العدو المشترك بين يدي استلاب الحقوق والقضاء على الأوطان واستلاب الثروات المتنوعة على اختلافها والقضاء على بقايا الحضارة الإنسانية المثلى التي تتملكها أمتنا .

إن هذا العدو المشترك ينفخ في نيران هذه الفتنة بعد أن نفخ فيها طويلاً في بغداد وفي فلسطين وفي أماكن أخرى .

وإذا تَبَيَّنَ لنا هذا المعنى فإن بوسعنا أن نُدرك أن الأمة تملك السلاح الذي تحصن به نفسها وتغلق باب الفتنة ، وتحيل بين هذا العدو المشترك والوصول إلى ما يَبتغيه من تَحويل علاقات الود بين الإخوة إلى بغضاء ، من تحويل علاقات التعاون إلى تدابر وشقاق .

ما الدواء ؟

الدواء هو فيما يرويه عَلِيٌّ رضي الله عنه قالَ : أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (أَلَا إِنَّها سَتكونُ فِتْنَة) فَقُلْتُ : ما الْمَخْرَجُ مِنْها يَا رَسولَ اللهِ ؟ قالَ : (كِتابُ اللهِ ، فيهِ نَبأُ ما قَبْلَكُمْ ، وَخَبَرُ ما بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ ، وَهوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْلِ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ ، وَمَنْ ابْتَغى الهُدى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ الله)[1] .

لقد أَلَّفَ الإسلامُ بَين قبيلتين طالما كانتا متحاربتين ، هما الأوس

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ القُرْآنِ ، برقم : (٢٩٠٦) .

والخزرج ، تحوَّلتا إِلى مثالٍ لِلودِّ والتعاون والوحدة ، ولكن اليهود ضَاقوا ذَرْعاً بهذا ، فأقبل رجل اسمه شاس بن قيس يُحاول أن يُؤَلِّب الأوس على الخزرج والخزرج على الأوس في أُمور وطريقة من الخبث كانت ولا تزال هي رأسمال هذه الفئة إلى أن تقوم الساعة ، فَنَسي ـ لِدَقَائقَ ـ هؤلاء الإخوة الذي وحدهم الإسلام هذه النعمة ، واهتاجت ـ لدقائق معدودة ـ عوامل البغضاء فيما بينهم ، ولكن كتاب الله عز وجل سرعان ما ذَوَّبَ هذا الشعور فيهم ، وأعادهم إلى هذه النعمة ، فأقبلوا يتعانقون ، وأقبل الواحد منهم يَعتذر لأخيه ، ونزل قول الله عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٠٠ ـ ١٠١] إلى أن قال : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[آل عمران : ١٠٣] .

ما أشبه الليلة بالبارحة ، ما الفرق بين ذلك الرعيل الأول ، وبيننا نحن المسلمين في هذا العصر ، الوسائل التي كانت تستعمل بالأمس للإيقاع ولإثارة براكين الفتنة هي ذاتها التي تستثار اليوم ، فلماذا استطاع أولئك أن يتساموا فوقها ؟ ولماذا عجزنا نحن عن ذلك ؟ سلوا أنفسكم هذا السؤال تعلمون الجواب ؟

إن الذي ينجي هذه الأمة من الفتن ومن ثم ينجيها من الدمار والهلاك إنما هو الرجوع إلى وصايا كتاب الله عز وجل ، يقول لنا

كتاب الله عز وجل إن هنالك ثلاث دوائر ، كل دائرة تقي مَن فيها من الفتن أياً كانت :

ـ **الدائرة الأولى** : دائرة الأمة الإسلامية ، فعلى المسلمين مهما اختلفت مذاهبهم وتعددت فرقهم أن يجتمعوا تحت مظلة الإسلام ، وأن يذيبوا فوارق ما بينهم ، فتبتعد عنهم الفتنة .

ـ **الدائرة التي تليها** : « وهي أوسع من الأولى » دائرة الأديان المتعددة التي تلتقي عند جذع من الدين الواحد : فعلى الذين فرقتهم الأديان السماوية المتعددة ـ ولكنها تنتمي إلى جذع واحد ـ أن يجعلوا من هذا الجذع الجامع وقاية لهم ضد كل فرقة وفتنة ؛ لئِن تعدد الدين في حياتهم وفي سلوكاتهم فليذكروا أن الجذع والمصدر واحد . فهذه هي الدائرة الثانية .

ـ **الدائرة الثالثة** : هي الدائرة الإنسانية ، فإن كان في الأمة من لا ينتمي إلى إسلام ولا إلى دين ولا شيءٍ آخر ، وهو يَعيش بين ظهراني هذه الأمة ؛ فليعلم أنه ينتمي إلى دائرة واسعة جداً هي الإنسانية التي قدس الله سبحانه وتعالى حقوقها أيما تقديس ، ونبهنا بيان الله عز وجل إلى ضرورة رعايتها عندما عبَّر عنها بالأسرة الإنسانية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] ، الأرحام أي الرحم الإنساني .

وقد بيَّنَ لنا رسول الله ﷺ سُبُلَ مُعالجة الفتن ، وما كان أصحابه رضوان الله عليهم بحاجة مباشِرة إلى ذلك ، ولكنها الرحمة النبوية إذ

كان يَشعر بها المصطفى عليه الصلاة والسلام لتلك الأجيال الآتية من بعده ، فلم يَكن يَدَّخر لتلك الأجيال من وصاياه شيئاً ، ولم يكن يألُ جُهداً في أن ينبهها ويحذرها ويرفدها .

عنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمانِ رضي الله عنه قالَ : كانَ النَّاسُ يَسْأَلونَ رَسولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْخَيْر ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخافَةَ أَنْ يُدْرِكَني ، فَقُلْتُ : يا رَسولَ الله ، إِنَّا كُنَّا في جاهِلِيَّةٍ وَشَرّ ، فَجاءَنا اللهُ بِهَذا الْخَيْر ، فَهَلْ بَعْدَ هَذا الْخَيْرِ شَرّ ؟ قالَ : (نعَم) ، فَقُلْتُ : هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْر ؟ قالَ : (نعَمْ ، وَفيهِ دَخَن) ، قُلْتُ : وَما دَخَنُه ؟ قالَ : (قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتي ، وَيَهْدونَ بِغَيْرِ هَدْيي ، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِر) ، فَقُلْتُ : هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرّ ؟ قالَ : (نعَمْ ، دُعاةٌ عَلَى أَبْوابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجابَهُمْ إِلَيْها قَذَفوهُ فيها) ، فَقُلْتُ : يا رَسولَ الله ، صِفْهُمْ لَنا ، قالَ : (نعَمْ ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنا ، وَيَتَكَلَّمونَ بِأَلْسِنَتِنا) ، قُلْتُ : يا رَسولَ الله ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَني ذَلك ؟ قالَ : (تَلْزَمُ جَماعَةَ الْمُسْلِمينَ وَإِمامَهُم) ، فَقُلْتُ : فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَماعَةٌ وَلا إِمام ؟ قالَ : (فاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّها ، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِك)[1] .

وقال عليه الصلاة والسلام : (يوشِكَ أَنْ يَكونَ خَيْرَ مالِ الرَّجُلِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ عَلاَماتِ النُّبوَّةِ في الإِسْلاَم ، برقم : (٣٦٠٦) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، برقم : (١٨٤٧) .

غَنَمٌ يَتْبَعُ بِها شَعَفَ الجِبالِ وَمَواقِعَ القَطْرِ ، يَفِرُّ بِدينِهِ مِنَ الفِتَنِ)[١] أي يعتزل بها عن الناس .

وعنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (سَتكونُ فِتَنٌ ، القاعِدُ فيها خَيْرٌ مِنَ القائِمِ ، والقائِمُ فيها خَيْرٌ مِنَ الماشي ، والماشي فيها خَيْرٌ مِنَ السَّاعي ، وَمَنْ يُشْرِفْ لَها تَسْتَشْرِفْهُ ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ)[٢] .

وفي رواية أكثر تفصيلاً يرويها مسلمٌ[٣] عَنْ أَبي بَكْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : (إِنَّها سَتكونُ فِتَنٌ ، أَلا ثُمَّ تَكونُ فِتْنَةٌ ، الْقاعِدُ فيها خَيْرٌ مِنَ الْماشي فيها ، والْماشي فيها خَيْرٌ مِنَ السّاعي إِلَيْها . أَلا ، فَإِذا نَزَلَتْ أَوْ وَقَعَتْ ، فَمَنْ كانَ لَهُ إِبِلٌ فَلْيَلْحَقْ بِإِبِلِه ، وَمَنْ كانَتْ لَهُ غَنَمٌ فَلْيَلْحَقْ بِغَنَمِه ، وَمَنْ كانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَلْحَقْ بِأَرْضِه) قالَ : فَقالَ رَجُلٌ : يا رَسولَ اللهِ أَرَأَيْتَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِبِلٌ وَلا غَنَمٌ وَلا أَرْضٌ ؟ قالَ : (يَعْمِدُ إِلَى سَيْفِهِ فَيَدُقُّ عَلَى حَدِّهِ بِحَجَر) ـ كِنايَةً عنْ أَنْ لا يَخوضَ غِمارَ تِلْكَ الفِتَنِ هاهنا أَو هاهنا ـ (ثُمَّ لِيَنْجُ إِنِ اسْتَطاعَ النَّجاءَ ، اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ؟ اللهُمَّ هَلْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ خَيْرُ مالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِها شَعَفَ الجِبال ، برقم : (٣٣٠٠) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ عَلاَماتِ النُّبوَّةِ في الإِسْلاَم ، برقم : (٣٦٠١) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب نزول الفتن كمواقع القطر ، برقم : (٢٨٨٦) . ومعنى : (يُشرِفُ لَهَا) أي يتعرَّض لها ويتطلَّع إليها . ومعنى : (تستشرفه) أي تغلبه وتهلكه . ومعنى : (ملجأً ومعاذًا) المراد اعتزال الفتن والابتعاد عنها .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، بابُ نُزولِ الْفِتَنِ كَمَواقِعِ الْقَطْر ، برقم : (٢٨٨٧) .

بَلَّغتُ ؟) قالَ : فَقالَ رَجُلٌ : يا رَسولَ اللهِ ، أَرَأَيْتَ إِنْ أُكْرِهْتُ حَتَّى يُنْطَلَقَ بي إِلَى أَحَدِ الصَّفَّيْنِ ، أَوْ إِحْدَى الْفِئَتَيْنِ ، فَضَرَبَني رَجُلٌ بِسَيْفِهِ ، أَوْ يَجيءُ سَهْمٌ فَيَقْتُلُني ؟ قالَ : (يَبوءُ بِإِثْمِهِ وَإِثْمِكَ ، وَيَكونُ مِنْ أَصْحابِ النَّار) .

وصحَّ عنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قالَ : (إذا رَأَيْتَ شُحًّا مُطاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجابَ كُلِّ ذي رَأْيٍ بِرَأْيِه ، فَعَلَيْكَ - يَعْني - بِنَفْسِكَ ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوامَّ . . .)[1] .

هذه طائفة يسيرة من وصايا رسول الله ﷺ التي أسداها بسائقٍ من حُبِّه ورحمته لهذه الأمة ، يُعلِّمُنَا فيها السبيل والمَخلص من الفتن المختلفة التي شاء الله عز وجل أن يُبتَلى الناسُ بها ، لاسيما إذا قربت الساعة .

ولماذا يوصي رسول الله ﷺ بذلك ؟ ولماذا يُسميها رسول الله ﷺ فتناً ؟ ولماذا لم تكن هذه الوصية من حظِّ أصحابه ؟ ولماذا لم يأمر أصحابه أن يثلموا سيوفهم ويكسروا حدها ؟ لماذا ؟

لأن النبي عليه الصلاة والسلام يَتحدَّث عن نوع من المصائب والفتن ، هي التي يُسميها رسول الله ﷺ فتناً بالمعنى الدقيق ، إذا شاء الرجل أن يَتخلَّص منها بسبيلٍ زَجَّهُ السبيلُ إلى شرٍّ منه ، وإذا شاء أن

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب الأمر والنهي ، برقم : (٤٣٤١) . وأخرجه الترمذي في سننه ، باب ومن سورة المائدة ، برقم : (٣٠٥٨) وقال : هذا حديث حسن غريب . وأخرجه ابن ماجه في سننه ، بابُ قَوْلِهِ : ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ ، برقم : (٤٠١٤) عنْ أَبي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنيِّ رضي الله عنه .

يلقى سبيلاً أخرى ليتخلَّص من تلك الفتن زُجَّ به إلى شرٍّ منه ، يُريد أن يتخلَّص من الفتنة فلا يَرى سَبيلاً مُصَفَّى سَائغاً يُرضي الله ورسوله ، ولا يَرى طريقاً يَستطيع أن يَطمئنَّ أنه طريقُ آمِن سالكٌ يُرضي اللهَ عزّ وجل إن وضع ميزان الله فقط نصب عينيه ، فماذا يصنع وقد ادلهمّت السُّبُل وتعقَّدت الأسباب ، وتداخل بعضها ببعض ولا يمكن أن تتداخل ولا أن تتعقد إلا للأسباب التي وصفها رسول الله ﷺ : (إِذا رَأَيْتَ شُحًّا مُطاعًا ، وَهَوًى مُتَّبَعًا ، وَدُنْيا مُؤْثَرَةً ، وَإِعْجابَ كُلِّ ذي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ. . .)[1] ، هنا تتشابك السُّبُل ، وهنا تتداخل الوسائل ، فلا يحاول الإنسان أن يفرَّ من بلاء إلا ويقع في شرٍّ منه ، مع أنه لم يفر من بلائه الأول ، فما السبيل ؟ السبيل ما قال رسول الله ﷺ .

ومن عجب أن بعض الناس إذا ذُكِّروا بهذه الأحاديث الصحيحة التي بلغ مجموعها مبلغ التواتر المعنوي ، فهي ليست أحاديث آحاد ، لم يَرض أن يَسمعها بل ربما اشمَأَزَّ مِن ذِكْرِها ووصف الذاكرين لها والدَّاعين إليها بالسلبية ، وهي كلام رسول الله ﷺ ، تُرى أكانت هذه الوصايا سلبية لو أنها كانت موجهة إلى فردٍ مُعيَّنٍ ، أو كانت موجهةً إلى عشرة من بين المئات ، أي إلى قلةٍ ، ولكن رسول الله ﷺ يرسلها وصية إلى كل فرد فردٍ من المسلمين جميعاً ، فتصوَّروا لو أنَّ كلَّ فردٍ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب الأمر والنهي ، برقم : (٤٣٤١) . وأخرجه الترمذي في سننه ، باب ومن سورة المائدة ، برقم : (٣٠٥٨) وقال : هذا حديث حسن غريب . وأخرجه ابن ماجه في سننه ، برقم : (٤٠١٤) عنْ أَبي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنيِّ رضي الله عنه .

فردٍ من المسلمين التزمَ خاصَّةَ نفسِه ، وكان حَارساً أميناً على سيفه ، وكان قواماً لحدود الله عز وجل على زوجه وأولاده ومن يلوذون به ، وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر حيثما ارتحل وحيثما حلَّ ، لو أن المسلمين جميعاً كانوا هكذا إذاً لذابت الفتنة في خير نارٍ لا يمكن أن تذيبها نارٌ أخرى ، لو أن المسلمين جميعاً كانوا بهذا الشكل لاضمحلّت العُقَد ولاستبَانت السُّبُل .

وقلت لكم مرة : إن هذا أحدثَ طريقةٍ تربويةٍ يتحدَّث عنها المربّون بالنسبة للمعلمين في مدارسهم ، يقول أحدهم : إذا دخل المعلم قاعة الدرس فوجد أن الطلاب جميعاً في صياح وفي ضجيج لا يُمكن أن تستبين فيها كلمات مُتكلِّم ، هذا يصيح من هنا وذاك يصيح من هنا ، حتى إن العُرفاء عندما يُريدون يَصيحون فيهم يَزيدون إلى الضجيج ضجيجاً ، ما هو أحسن سبيلٍ سريعٍ من أجل إعادة هذه القاعة إلى الهدوء والطمأنينة ؟ أن يُنبههم المعلمُ إلى النقطة التالية ، يدعو كل واحد منهم إلى أن يُسكت نفسه وأن لا يكون أحد مسؤولاً عن الآخر ، لأن الضَّجّةَ ما قامت إلا لأنَّ كُلَّ فَردٍ يتحمَّل المسؤولية عن الآخرين ، فضجت القاعة كلها بصياح الموجهين ، ولكن إذا طُبِّقَ هذا المبدأ التربوي الذي دعانا إليه معلمنا وحبيبنا رسول الله ﷺ وأسكت كلُّ واحدٍ نفسه في اللحظة الواحدة ترى أن القاعة عادت إلى هدوئها وأمنها .

رسول الله ﷺ مرة أخرى قال : (أَلاَ إِنَّها سَتكونُ فِتْنَة) ، فَقالَ سيدنا علي رضي الله عنه : ما الْمَخْرَجُ مِنْها يا رَسولَ اللهِ ؟ قالَ :

(كِتابُ الله)[١] . وقال ﷺ : (إِنّي قَدْ خَلَّفْتُ فيكُمْ ما لَنْ تَضِلّوا بَعْدَهُما ما أَخَذْتُمْ بِهِما ـ أَوْ عَمِلْتُمْ بِهِما ـ كِتابُ اللهِ وَسُنَّتي ، وَلَنْ يَفْتَرِقا حَتَّى يَرِدا عَلَيَّ الْحَوْض)[٢] .

فالْزموا كتاب الله سبحانه وتعالى ، والْزموا سنة رسول الله ﷺ يخرجنا الله عز وجل من مأزق هذه الفتن ، هذا مع الرضا والتسليم بأن قضاء الله عز وجل جارٍ لا ريب فيه ، ومع ضرورة أن نقول في كل صباح إذا أصبحنا وفي كل مساء إذا أمسينا : « رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً » .

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، بابُ ما جاءَ في فَضْلِ القُرْآن ، برقم : (٢٩٠٦) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، كتاب العلم ، برقم : (٢٨٨) . وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى ، بابُ ما يَقْضي بِهِ الْقاضي ، (١٠/ ١٩٤) وغيرهما .

موقف العلماء الربانيين في الفتن

فتنة ابن الأشعث :

أول هذه المواقف التي سنذكرها هو موقف الحسن البصري في فتنة ابن الأشعث ، وهي من الفتن التي هزَّت الأمة الإسلامية ، وكادت تطيح بالخلافة زمن بني أمية ؛ فتنة عبد الرحمن بن الأشعث ، وكان ابتداؤها سنة إحدى وثمانين .

قال الحافظ ابن كثير : وكان سبب هذه الفتنة أن ابن الأشعث كان الحجاج يُبغضه ، وكان هو يفهم ذلك ، ويُضمر للحجاج السوء وزوال الملك عنه ، ثم إن الحجاج بن يوسف نائب الخليفة عبد الملك بن مروان على العراق جهَّز جيشاً من البصرة والكوفة وغيرهما لقتال رتبيل الكافر ملك الترك ، الذي آذى أهل الإسلام وقتل فئات منهم ، وأمّر الحجاج على ذلك الجيش ابن الأشعث ، مع أنه كان يُبغضه ـ كما تقدَّم ـ حتى إنه كان يقول : ما رأيته قط حتى هممت بقتله . ودخل ابن الأشعث يوماً على الحجاج وعنده عامر الشعبي ، فقال الحجاج : انظر إلى مشيته !! والله لقد هممت أن أضرب عنقه . فأخبر الشعبيُّ ابنَ الأشعث بما قال الحجاج ، فقال ابن الأشعث : وأنا والله لأجهدنّ أن أُزيله عن سلطانه إن طال بي البقاء .

فسار ذلك الجيش بإمرة ابن الأشعث ، حتى وطىء أرض رتبيل ، ففتح مدناً كثيرة ، وغَنِمَ أموالاً كثيرة ، وسبى خلقاً من الكفار ،

ورتبيل ملك الكفار يَهرب منهم من مدينة لأخرى .

ثم إن ابن الأشعث رأى لأصحابه أن يُوقفوا القتال ، حتى يَتَقَوَّوا إلى العام المقبل ، ولتستقرَّ الأمور في البلاد التي فتحوها .

فكتب إليه الحجاج يأمره بالاستمرار في القتال ، ويذمُّه ويُعيِّره بالنكول عن الحرب ، فغضب ابن الأشعث ، ثم سَعى في تأليب الناس على الحجاج . وقام والد ابن الأشعث ـ وكان شاعراً خطيباً ـ فقال : إن مثل الحجاج في هذا الأمر ومثلنا كما قال القائل : « احمل عبدك على الفرس ، فإن هلك هلك ، وإن نجا فلك » إنكم إن ظفرتم كان ذلك زيادة في سلطان الحجاج ، وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء .

ثم قال : اخلعوا عدو الله الحجاج ، ولم يذكر خلع الخليفة ، اخلعوا عدو الله الحجاج وبايعوا لأميركم عبد الرحمن بن الأشعث ، فإني أُشهدكم أني أول خالع للحجاج . فقال الناس من كلِّ جانبٍ : خلعنا عدو الله الحجاج ـ وكانوا يبغضونه ـ ، ووثبوا إلى ابن الأشعث فبايعوه ، ولم يذكروا خلع الخليفة .

وبعد بيعة الفتنة تلك تبدَّلت الأمور ، ووقع ما لم يكن في الحسبان ، فقد انصرف ابن الأشعث عن قتال الترك الكفرة ، وسار بجيشه المفتون مُقبلاً إلى الحجاج ليقاتله ويأخذ منه العراق ، فلما تَوسَّطوا في الطريق قالوا : إنَّ خَلْعَنَا للحجاجِ خَلْعٌ لابن مروان ، فخلعوا أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، وجَدَّدوا البيعة لابن الأشعث ، فبايعوه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وخلع أئمة الضلالة وجهاد الملحدين .

فلما بلغ الحجاج ما صنعوا مِن خَلْعِه وخَلْعِ أمير المؤمنين ، كَتَب إلى الخليفة بذلك يُعلِمه ، ويستعجله في بعثه الجنود إليه ، فانزعج الخليفة واهتم وسعى الناصحون المصلحون في درء الفتنة .

فكتب المهلب بن أبي صفرة إلى ابن الأشعث يُحَذِّره ، وينهاه عن الخروج على إمامه وقال : « إنك يا ابن الأشعث قد وَضعت رِجلك في ركابٍ طويل ، أَبْقِ على أمة محمد ﷺ ، الله الله !! ! انظر لنفسك فلا تُهلكها ، ودماء المسلمين فلا تسفكها ، والجماعة فلا تُفرقها ، والبيعة فلا تنكثها ، فإن قلتَ أخاف الناس على نفسي ، فالله أَحقُّ أَنْ تَخافه من الناس ، فلا تُعرِّضها لله في سفك دمٍ أو استحلال محرم ، والسلام عليك » .

ثم أخذ الخليفة عبد الملك في تجهيز الجنود في نصرة الحجاج في قتاله الخارجين على الجماعة ، وجعل المفتونون يَلتفُّون على ابن الأشعث من كل جانب ، حتى قيل إنه سَار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل ! .

حتى دخلوا البصرة ، فخطب ابن الأشعث وبايعهم ، وبايعوه على خَلع الخليفة ونائبه الحجاج بن يوسف ، وقال لهم ابن الأشعث : « ليس الحجاج بشيءٍ ، ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك الخليفة لنقاتله ، ووافقه على خلعهما جميع من بالبصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب » .

قال الحافظ ابن كثير : وتفاقم الأمرُ وكَثُرَ مُتابع ابن الأشعث على

ذلك ، واشتد الحال وتفرقت الكلمة جداً ، وعَظُم الخطب واتسع الخرق ا .هـ .

ثم التقى جيش الخليفة وجيش ابن الأشعث ، فقال القراء الذين خلعوا البيعة : أيها الناس قاتلوا عن دينكم ودنياكم .

وقال عامر الشعبي ـ وكان من الأئمة ولكن ابن الأشعث فتَنَهُ ـ قال : قاتلوهم على جورهم ، واستغلالهم الضعفاء ، وإماتتهم الصلاة .

ثم بدأَ القتال ، ما بين كرّ وفرّ ، يَقتتل الناس كُلَّ يَوم قتالاً شديداً ، حتى أُصيب من رؤوس الناس خلقٌ كثير ، واستمر هذا الحال مُدَّة طويلة ، ثم كتب الخليفة إلى ابن الأشعث ومن معه يقول : « إن كان يُرضيكم مِني عَزلُ الحجاجِ خَلعْتُه ، وأبقيتُ عليكم أُعطياتِكم ، وليخيَّر ابن الأشعث أي بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت .

فلما بلغ ذلك ابن الأشعث خَطَبَ الناس وندبهم إلى قبول ما عَرَضَهُ عليهم أمير المؤمنين مِن عَزل الحجاج وإبقاء الأعطيات ، فثار الناس من كل جانب ، وقالوا : والله لا نقبل ذلك ، نحن أكثر عدداً وعدة .

ثم جَدَّدوا خلع الخليفة عبد الملك واتفقوا على ذلك كلهم ، واستمر القتال بين الفئتين مائة يوم وثلاثة أيام على ما قاله ابن الأثير ، وصبر جيش الخليفة بقيادة الحجاج ـ بالحرب ـ فأمر بالحملة على كتيبة القراء الذين خلعوا الخليفة ، لأن الناس كانوا تبعاً لهم ، وهم الذين يُحرضونهم على القتال ، والناس يَقتدون بهم ، فحمل جيش الحجاج عليهم ، فقتل منهم خَلقاً كثيراً ، وبعدها انهزم ابن الأشعث ومن

معه ، فلحقهم جيش الحجاج يَقتلون ويأسرون ، وهرب ابن الأشعث ومعه جمع قليل من الناس ، فأرسل الحجاجُ خَلفه جَيشاً كثيفاً ليقتلوه ويأسروه ، فَفَرَّ ابن الأشعث حتى دخل هو ومن معه إلى بلاد رُتبيل الكافر ـ ملك الترك ـ ، فأكرمه وأنزله عنده وأمنه وعظمه كيداً للمسلمين .

هرب ابن الأشعث بعد أن أثار فتنة أَهلكت الحرث والنسل ، فقُتِلَ مِن أتباعه مَن قُتِل ، وأُسِر كثيرٌ منهم ، فَقَتلهم الحجاج بن يوسف ، وهرب مَن بَقي مِنهم ، ومِنهم عامر الشعبي الإمام الثقة ، فأمر الحجاج أن يُؤتى بالشعبي ، فَجِيء به حتى دخل على الحجاج . قال الشعبي : فسَلَّمت عليه بالإمرة ، ثم قلت : أيها الأمير ، إن الناس قَد أَمروني أن أعتذر إليك بِغَير ما يَعلم الله أنه الحق ، ووالله لا أقول في هذا المقام إلا الحق ، قد والله تَمرَّدنا عليك وحَرَّضنا ، وَجَهدنا كل الجهد ، فما كُنَّا بالأتقياء البررة ، ولا بالأشقياء الفجرة ، لقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا ، فإن سطوت فبذنوبنا ، وما جرت إليك أيدينا ، وإن عفوت عنا فبحلمك ، وبعد فالحجَّةُ لك علينا .

فقال الحجاج لما رأى اعترافه وإقراره : أنت يا شعبي أحب إلي ممن يَدخل علينا يَقطر سَيفه من دمائنا ، ثم يَقول ما فعلت ولا شهدت ، قد أمنت عندنا يا شعبي . ثم قال : يا شَعبي كيف وجدت الناس بعدنا يا شعبي ؟ ـ وكان الحجاج يُكرمه قبل دخوله في الفتنة ـ فقال الشعبي مُخبراً عن حاله بَعد مُفارقته للجماعة : أصلح الله الأمير ؛ قد اكتحلتُ بعدك السهر ، واستوعَرتُ السهول ،

واستجلستُ الخوف ، واستحليتُ الهمَّ ، وفَقدتُ صالحَ الإخوان ، ولم أَجد من الأمير خلَفاً ! فقال الحجاج : انصرف يا شعبي ، فانصرفَ آمناً .

ثم شرع الحجاج في تتبع أصحاب ابن الأشعث ، فقتلهم مثنى وفرادى ، حَتى قِيل إنه قتل مِنهم بَين يَديه مائة ألف وثلاثين ألفاً !! ! مِنهم محمد بن سعد بن أبي وقاص ، وجماعات من السادات ، حتى كان آخرهم سعيد بن جبير رحمه الله تعالى .

وكان ممن تَبِعَ ابن الأشعث طَائفة من الأعيان منهم : مسلم بن يسار ، وأبو الجوزاء ، وأبو المنهال الرياحي ، ومالك بن دينار ، والحسن البصري رحمه الله . وذلك أنه قيل لابن الأشعث : إنْ سرَّك أن يُقتلوا حولك كما قُتلوا حول جمل عائشة ، فأَخْرِجِ الحسنَ ، فأرسلَ إليه ، فأكرهَه .

وعن ابن عون قال : « استبطأ الناسُ أيام ابن الأشعث ؛ فقالوا له : أَخْرِجْ هذا الشيخ ـ يعني الحسن ـ قال ابنُ عون : فنظرتُ إليه بين الجسرين ، وعليه عمامةٌ سوداء . قال : فغفلوا عنه ، فألقى نفسه في بعض تلك الأنهار ، حتى نجا منهم ، وكاد يَومئذٍ أن يهلك » .

وكان ممن خرج أيضاً : سعيد بن جبير ، وابن أبي لَيلى الفقيه ، وطلحة بن مصرف ، وعطاء بن السائب ، وغيرهم .

قال أيوب : فما منهم من أحد صُرِع مع ابن الأشعث إلا رَغب عن مَصْرَعِه ، ولا نجا أحد منهم إلا حَمِدَ اللهَ أن سَلَّمه ! .

ثم إن الحجاج كَتب إلى رُتْبيل مَلك التُّرك الذي لَجأ إليه ابن الأشعث ، أرسل إليه يقول : » والله الذي لا إله إلا هو ، لَئِن لم تَبعث إلي بابن الأشعث لأبعثن إليك بألف ألف مُقاتل ولأخربنّها « .

فلما تحقَّق الوعيد من الحجاج استشار في ذلك بَعض الأمراء فأشاروا عليه بتسليم ابن الأشعث قبل أن يُخرب الحجاج دِيارَه ، ويأخذ عامة أمصاره ، فعند ذلك غَدَرَ رُتْبيلُ بابنِ الأَشْعَث فَقَبضَ عليه وعلى ثلاثين من أتباعه ، فَقَيَّدَهُم بالأصفاد وَبَعثهم مع رُسل الحجاج إليه . فلما كانُوا ببعض الطريق بِمَكَانٍ يُقال له « الرخج » صَعِدَ ابن الأشعث وهو مُقيد بالحديد إلى سطح قصر ، ومعه رَجلٌ مُوكَّلٌ به لِئَلا يَفِرَّ ، فَأَلقى ابن الأشعث بنفسه من ذلك القصر ، وسقط معه المُوكَّلُ به فَمَاتَا جَميعاً ، فَعَمَدَ الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاحتزَّه ، وقتل من معه من أصحابه ، وبعث برُؤوسهم إلى الحجاج ، فَأَمَرَ فَطِيْفَ برأس ابن الأشعث في العراق ، ثم بعثه إلى أمير المؤمنين عبد الملك فطيْفَ به في الشام ، ثم بَعث به إلى أخيه عبد العزيز بِمصر فَطِيْفَ بِرأسه هناك ، ثم دُفن .

قال الحافظ ابن كثير : والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بَايعوه بالإمارة ، كَيف يَعمدون إلى خليفة قد بُويع له بالإمارة على المسلمين مِن سِنين ، فَيعزلونه وهو من صليبة قريش ، ويبايعون لرجل هندي بيعة لم يَتفق عليها أهل الحل والعقد ؟! .

ولهذا لمّا كانت هذه زَلَّةٌ وَفَلَتَةٌ نَشأ بِسَببها شَرٌّ كثير ، هلك فيه خلق كثير ، فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعون . ا .هـ .

ذكر ابن الأثير في تاريخه : أَن رَجلاً من الأنصار جاء إلى عمر بن عبد العزيز فَقال : أنا ابن فلان بن فلان ، قُتل جدي يوم بدر ، وقُتل جدي فلان يَوم أحد ، وجعل يَذكر مَنَاقِبَ سَلفه ، فنظر عمر إلى جَلِيسه فقال : هذه المناقب والله ، لا يوم الجماجم ويوم راهط ، من الخروج وحمل السلاح على المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين .

إن فتنة ابن الأشعث كانت فتنة عظيمة فَرقت الكلمة ، وقُتل فيها أكثر من مئة ألف مسلم ، وفي هذه الحادثة فوائد منها :

أولها : أن للفتن في أولِ نُشوئها لَذة وحلاوة تَستهوي كثيراً من الناس ، إلا مَن عصمه الله ونَجَّاه ، وقد خَرج كَثير من القراء مع ابن الأشعث ، فَضلاً عن عامة الناس ، كان كلامهم في أول الفِتن قَوياً ومهيجاً ، تَكلم مُتكلِّموهم وأبدع خطباؤهم في التحريض على قتال جند الخليفة .

قال أبو البختري : أيها الناس قاتلوهم على دينكم ودنياكم ، فوالله لئن ظهروا عليكم لَيُفْسِدُنَّ عليكم دينكم ، وليَلُنَّ على دنياكم .

قال عامر الشعبي : أيها الناس قاتلوهم ، ولا يأخذْكم حرج من قتالهم ، واللهِ ما أعلم على بسيط الأرض أعملَ بظلمٍ ولا أعملَ بجورٍ منهم ، وقال سعيد بن جبير نحو ذلك .

ووالله لو كانوا يَعلمون ما سَتَؤُول الأمور إليه لَمَا قالوا ما قالوا ، ولكنها الفِتَنُ تَعمى فيها الأبصار .

ثانياً : إذا وقعت الفتن فإن ضحاياها الأبرار والفجار ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

ذكر ابن الأثير في تاريخه : أن الحجّاج لما غلب جيش ابن الأشعث أخذ يُبايع الناس وكان ظالماً ، وكان لا يُبايع أحداً إلا قال له : اشهد على نفسك أنك كفرت ، يعني بنقضك البيعة وحملك السلاح ، فإن قال : نعم بايعه ، وإلا قتله . فأتاه رجل من خثعم كان معتزلاً للناس كلهم ، فسأله الحجاج عن حاله فأخبره باعتزاله ، قال الحجاج ، بل أنت مُتّربصٌ بِنَا ، أتشهد أنك كافر ؟ قال الرجل : بئس الرجل أنا ، أَعبُدُ اللهَ ثمانين سنة ، ثم أشهد على نفسي بالكفر . قال الحجاج : أقتلُك إذاً ؟ قال الرجل : وإن قَتَلتَني . فقتله الحجاج ، ولم يَبق أحدٌ مِن أهل الشام والعراق إلا رحمه ، وحزن لقتله .

ثالثاً : إذا وَلَّت الفتنة مُدبرة ، عند ذلك يَندم مَن دَخل فيها ، لِمَا يَراه مِنَ الفَسَادِ والشَّرِّ الذي نَتَجَ عَنها ، واستمع إلى أهلها وقد جيء بهم حتى أوقفوا بين يدي الحجاج بن يوسف . ها هو فيروز بن الحصين أُسِرَ فأُتيَ به إلى الحجاج ، فقال له : أبا عثمان !! مَا أخرجك مع هؤلاء ، فوالله ما لحمك من لحومهم ولا دمك من دمائهم ؟ فقال : أيها الأمير فِتنَةٌ عَمَّتْ ، فأمر به الحجاج فَضُربت عُنقه .

ثم دعا الحجاج بعمر بن موسى فجيء به مُوثقاً ، فَعَنَّفَه الحجاج فاعتذر ، وقال : أصلح الله الأمير ! كانت فِتنة شَملت البرّ والفاجر ،

فدخلنا فيها ، فقد أمكنك الله مِنا ، فَإِن عَفَوتَ فَبِفَضلِك ، وإن عاقبت ظلمت مُذنبين . فقال الحجاج : أما إنها شملت البر والفاجر ، فقد كذبت ، ولكنها شملت الفاجر وعوفيَ منها الأبرار ، وأما إقرارك فعسى أن يَنفعك ، فرجى له الناس السلامة ، لكن الحجاج أمر به فَضُرِبَت عُنقُه .

ثم دعا الحجاج بالهلضام بن نعيم فقال : ما أخرجك مع ابن الأشعث ؟ وما الذي أَمَّلْت ؟ فقال الرجل : أَمَّلْتُ أن يَملك ابن الأشعث فَيُوَلِّيَني العراق كما ولاك عبد الملك ، فقتله الحجاج .

ثم دعا بأعشى همدان ـ وقد تبع ابن الأشعث ، وعمل الشعرَ في التحريض على قتال الخليفة ، فلما دخل على الحجاج أنشد يعتذر :

أَبَى اللهُ إلا أن يُتَمِّمَ نُورَه ... وَيُطفِىء نَارَ الفَاسِقِينَ فتَخمدا
فقَتلاهمُ قتلى ضلالٍ وفتنة ... وجيشهمُ أمسى ذليلاً ممردا
فما لبثَ الحجّاج أنْ سلَّ سيفَه ... علينا فولى جيشنا وتبدّدا
جنود أميرِ المؤمنين وخيلُه ... وسلطانُه أمسى عزيزاً مؤيّداً
ليهنأ أميرُ المؤمنين ظهورَه ... لى أمةٍ كانوا سُعاةٍ وحُسَّدا
نزلوا يشتكون البغيَ من أُمرائهم ... وكانوا همُ أبغى البُغاةِ وأعنَدا

فقال الحجاج : والله يا عدو الله لا نحمدك ، وقد قُلتَ في الفتنة ما قلت ، وحَرَّضتَ الناس علينا ، فضُربت عُنقه وأُلحق بأصحابه .

رابعاً : إذا وقعت الفتنة سَعى أهلها في استدراج بَعض الخَوَاصِّ

إليهم ليحتجّوا بهم عند العامة ، وقد قيل لابن الأشعث : إذا أردت أن يُقاتل الناس حولك كما قاتلوا حول هودج عائشة فأَخْرِج الحسن البصري معك ، فأَخْرَجَه . وخرج مع ابن الأشعث بعض الأئمة ، كسعيد بن جبير ، ومالك بن دينار ، وغيرهما ، ففُتِنَ الناسُ والمعصوم من عصمه الله .

ولهذا كان النبي ﷺ يَستعيذ بالله من الفِتَنِ ، ويأمر بذلك في كل صلاة ، لأن بَعضها يَجعل الحليم حيراناً ، ذلك أن أهل الفتنة يُزَيِّنُون فِعلهم بكثرة مُوَافِقِيهِم ، فابن الأشعث قاتل معه أكثر من مئة وخمسين ألفاً ، وتَبعه جماعة من السَّادات ، لكن فِعلهم لم يكن مَرضياً ، إذ هو خلاف النصوص الآمرة بالجماعة والصبر ، الناهية عن الخروج والفرقة والمنازعة .

قال أيوب : ما مِنهُم مِن أحد صُرع مع ابن الأشعث إلا رَغِبَ عَن مَصرعه ، ولا نَجَا مَن نَجا مِنهم إلا حَمِدَ الله وسلمه .

قال الإمام ابن بَطة العكبري في التحذير والاغترار بالكثرة : والناس في زماننا أسراب كالطير يتبع بعضهم بعضاً ! لو ظهر فيهم من يَدعي النبوة ـ مع عِلمهم بأن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء ـ أو مَن يَدعي الربوبية ، لوجد على ذلك أتباعاً وأشياعاً .

خامساً : أن عَاقبة الفِتَنِ وَخِيمَة ، ومآل أهلها الخسران ، فَها هو ابنُ الأشعث خَرج على جيش إسلامي مُجاهداً في سبيل الله ، ثم صار رأساً في الفتنة ، فترك قِتَالَ الكُفَّارِ وَهَجَمَ على أهل الإسلام !!وقُتِل بسببه جمعٌ كثير ، واضطربت الأمور وكَثُر الشر ، ثم آلت بِهِ الحَال أن

يَلجأ إلى مَلِكِ الكُفَّارِ الذي كان يُقاتله بالأمس ، ففرح به الكافر وأكرمه إغاظة للمسلمين .

وهكذا الفتن تَقُود صَاحِبها إلى ما لا يريد ، وليت ابن الأشعث وقف عند هذا لكان هيناً ، وما هو وربي بهَين ، لقد غَدَرَ بِهِ الْمَلِك الكافر ، وأرسله مُوثَّقاً إلى الحجاج ، فأُسْقِط في يده ، فلما كان ببعض الطريق صعد قصراً فألقى نفسه فمات ، فمن كان يَظن أنَّ نِهايته تكون كذلك .

سادساً : لقد ألبس ابن الأشعث فِتنته هذه لِبَاسَ الشَّرع ، وأَوهَمَهُم أنها إنكار للمنكر ونصرة للدين ، لكن الباطن خلاف ذلك ، قد ذَكَرَ ابن الأثير أن الحَجَّاج كان يُبغض ابن الأشعث ، ويقول : ما رأيته قط إلا وَأَرَدتُ قَتله ، وهو يعلم ذلك ، وكان يُهَدِّدُ ويقول : وأنا والله لأجهدن أن أُزيل الحجاج عن سلطانه إن طال بي البقاء . وَنَصَّ ابنُ كثيرٍ على أن سبب تلك الفِتنة كُرهُ ابنِ الأشعث للحجاج ، ثُمَّ جَمعَ حَوله مَن يُبغضون الحجاج ، فانظروا كيف استغل كُره الناس لِيَثأر مِنه ويُنَكِّد عليه !! .

ولهذا فَمَن دعا إلى مُفارقة الجماعة وإثارة الفتنة فهو صَاحب هَوىً ، مَريض قلب ، مُخالف للسُّنّة ، وإن ظهر فِعله ذلك في صورة إنكار للمنكر .

سابعاً : إذا وقعت الفتنة ، فَإِنَّ أَوَّلَ مَن يَصطلي بِنَارِهَا مَن أَوقدها ، فتنقلب الأمور عليهم ، ويتسلَّط الجُهّال من أتباعهم حتى يكون الأمر والنهي عليهم .

وقد كتب الخليفة إلى ابن الأشعث في عَزل الحجاج وتوليته مكانه ، وبقاء أعطيات الناس ، فمال إلى ذلك ابن الأشعث ، فخطب الناس وقال : اقبلوا ما عرض عليكم ، وأنتم أعزّاء أقوياء ، فوثب الجُهال مِن كل مكان يقولون : لا والله لا نَقبل ، نَحن أكثر منهم عدداً وعدَّة ، وأعادوا خَلع الخليفة ثانية ، وبايعوا ابن الأشعث ، فانصاع لأمرهم ووافقهم حتى آل أمره إلى ما آل إليه .

ثامناً : من فارق الجماعة ودخل في الفتنة فهو في غربة ووحشة ، ومآله أن يتخلى عنه أحبابه وأعوانه ، ها هو الشعبي يَصف حاله بعد أن خَلع البَيعة ودخل مع ابن الأشعث : فقدتُ صالحَ الإخوان ، ولم أجد من الأمير خَلَفَاً .

من أجل ذلك كان الأئمة يَحرصون على الاجتماع زمن الفتن ، يَقول حنبل : اجتمع فقهاء بغداد في ولاية الواثق إلى أبي عبد الله ـ يعني الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ـ يقولون له : إن الأمر تفاقم وفشا ـ يعنون إظهار القول بخلق القرآن ـ ولا نرضى بإمرته ولا سلطانه ، فناظرهم الإمام أحمد في ذلك وقال : عليكم بالإنكار في قلوبكم ، ولا تَخلعوا يداً من طاعة ، لا تشقوا عصا المسلمين ، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم ، وانظروا في عاقبة أمركم ، واصبروا حتى يَستريح بَرٌّ ويُستراح من فاجر ، وقال لهم : ليس هذا ـ يعني نزع أيديهم من طاعتهم ـ صواباً ، هذا خلاف الآثار . ا .هـ .

الإمام أحمد يقول هذا ، وقد آذاه السلطان وجلده وسجنه ، ثم

منعه من لُقيا الناس ، لكن أهل السنة أهلُ عدل واجتماع ومتابعةٍ للنصوص يَرجون ما عند الله تعالى .

وآخرها : أن هذه الفتنة تدل على أهمية التمسك بالآداب الشرعية زمن الفتن : وهي :

الحذر من الفتن ، وعدم الاستشراف لها واعتزال أهلها .

الحلم والرفق ، فلا تَعجل في قبول الأخبار والأفكار والآراء ، والحكم على الناس تخطئةً وتصويباً ، فما كان الرفق في شيء إلا زانه ، وما نزع من شيء إلا شانه .

لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ، والحذر من التفرق ، لقول حُذيفَةَ رضي الله عنه لَمّا ذَكَرَ لهُ النَّبيُّ ﷺ الفِتَن ، قالَ : فَما تَأْمُرَني إِنْ أَدْرَكَني ذَلِك ؟ فَقال : (تَلْزَمُ جَماعَةَ الْمُسْلِمينَ وَإِمامَهُم)[١] .

الالتفاف حول جمهور العلماء ، والحذر من التفرق عنهم ومنازعتهم ، والصدور عن آرائهم والاستجابة لنصحهم ، ووالله ، وتالله ، وبالله ، إن أول باب يَلج الرجل منه إلى الفتنة الطعن بالعلماء ، والاستبداد بالرأي دونهم ، ومن رأيتموه يَقدح في علمائنا فاعلموا أنه مفتون .

أن الفتن إذا وقعت فما كل ما يُعلم يقال ، وليت بعض الناس يتركون الأمور العظام للعلماء الكبار حفاظاً على اجتماع الكلمة ، لأنَّ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ عَلاَماتِ النُّبوَّةِ في الإِسْلاَم ، برقم : (٣٦٠٦) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، برقم : (١٨٤٧) .

مَردَّ الناس في آخر أمرهم للعلماء ، فمن كان عنده رأي فليعرضه عليهم ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾[1] [النساء : ٨٣] .

نضيف إلى ما ذكر أعلاه ما ورد عن ندم الناس لأنهم لم يَستمعوا إلى نُصح الحسن البصري الذي أمرهم بترك قتال الحجاج :

لقد ثبت مرويّاً بإسناد صَحيح من طريق الإمام أحمد بن حنبل ، ومحمد بن إسماعيل البخاري : ندم كثير من الناس على عدم الأخذ بِنُصح الحسن البصريِّ زمن فتنة ابن الأشعث ، وَتَرْكِ قتالِ الحجّاج الحاكم الظالم ، قالوا : « يا ليتنا كُنَّا أَطَعْناهُ ، يا لَيتَنا كُنّا أَطَعْناه » .

رَوي البخاري في « التاريخ الكبير »[2] قال : وقال لنا موسى بن إسماعيل ، وفي « التاريخ الأوسط »[3] قال : حدثنا موسى بن إسماعيل ، عن جعفر قال : حدثنا مالك بن دينار ، قال : لقيت معبداً الجهني بمكة بعد فتنة ابن الأشعث وهو جريح ، وقد قاتل في المواطن كلها ، فقال : لقيت الفقهاء والناس ، لم أرَ مثل الحسن ، يا ليتنا أطعناه ! كأنه نادم على قتال الحجاج .

* * *

(١) كل ما سبق عن فتنة ابن الأشعث من خطبةِ جمعة للشيخ « سلطان العيد » .
(٢) (٧/ ٣٣٩) .
(٣) (٢/ ١٠٧٥ ـ رقم : ٨٦٧) .

موقف الحسن البصري من الفتنة

كان الحسن البصري مُعارضاً للخروج على الحجَاج مع ابن الأشعث ، **ولكنَهم ما زالوا به حتى أكرهوه على الخروج معهم ، ثم نَجَاه الله عز وجل بفضله ورحمته** ، وكاد أن يَهلك ، وهذه جملة من أخباره تُنبىء بذلك :

« عن سُليمان بن علي الربعي قال : لما كانت الفتنة ـ فتنة ابن الأشعث ـ إذ قاتل الحجاجَ بن يوسف ، انطلق عقبةُ بن عبد الغافر وأبو الجوزاء وعبدُ الله بن غالب في نظرائهم ، فدخلوا على الحسن ، فقالوا : يا أبا سعيد ، ما تقول في قتال هذا الطاغية ، الذي سفك الدم الحرام ، وأخذ المال الحرام ، وترك الصلاة ، وفعل وفعل ؟ ـ قال : وذكروا من فِعل الحجاج ـ قال : فقال الحسن : أرى أن لا تُقاتلوه ؛ فإنَها إن تَكُ عُقوبةً مِن الله فما أنتم برَادِي عقوبة الله بأسيافكم ، وإن يَكن بلاءً ، فاصبروا حتى يحكمَ الله وهو خيرُ الحاكمين . قال : فخرجوا من عنده وهم يقولون : نُطيع هذا العلج ! قال : وهم قَومٌ عرب . قال : وخرجوا مع ابن الأشعث ، قال : فقُتِلوا جميعاً » .

وعن الحسن قال : « لو أنَ النَاس إذا ابتُلوا من قِبَل سُلطانهم صَبروا ما لبثوا أن يُفرج عنهم ، ولكنهم يَجزَعُون إلى السيف فيوكلون إليه ، فوالله ما جاؤوا بيوم خيراً قط » .

مكانة الحسن البصري :

عن خالد بن رياح الهذلي أنَ أنس بن مالك رضي الله عنه سُئِلَ عن مسألة ، قال : « عليكم بمولانا الحسن فَسَلوه ، فقالوا : يا أبا حمزة نسألك وتقول سَلوا مولانا الحسن ! فقال : إنَا سَمِعْنا وسمع ، فحَفِظ ونَسيْنا »[١] .

وعن علي بن زيد قال : « أدركتُ عروة بن الزبير ويحيى بن جَعدة والقاسم فَلم أر فِيهم مِثل الحسن ، ولو أنَ الحسن أدرك أصحاب النبي ﷺ وهو رَجل لاحتاجوا إلى رأيه »[٢] .

وذكره المزي في تهذيبه ، والذهبي في سيره[٣] بلفظ : « . . . ولو أدرك أصحابَ رسول الله ﷺ ، وله مثل أسنانهم ما تقدَموه » .

وعن ابن عون قال : « كان مسلم بن يسار أرفعَ عند أهل البصرة من الحسن ، حتى خَفَّ مع ابن الأشعث ، فلم يَزل في عُلوٍ منها بعد ، وسقط الآخر » .

من أقوال الحسن البصري :

قال الحسن : « اعلمْ ـ عافاك الله ـ أنَ جَورَ الملوك نِقمةٌ من نِقُمِ الله تعالى ، ونِقَمُ الله لا تُلاقى بالسيوف ، وإنَما تُتَّقى وتُستدفَع

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٩/ ١٧٦) .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٩/ ١٦٢) ، ويعقوب بن سفيان الفسوي في المعرفة والتاريخ (٢/ ٣٢٣) .

(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي (٦/ ١١٠) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٥٧٤) .

بالدعاء والتوبة والإنابة والإقلاع عن الذنوب ، إنَ نِقمَ الله متى لقيت بالسيف كانت أقطع ، ولقد حدّثني مالك بن دينار أنَ الحجاج كان يقول : « اعلموا أنكم كُلَّما أَحْدَثْتُم ذنباً أَحدَث الله في سلطانكم عقوبة » ، ولقد حُدِثْتُ أَنَّ قَائلاً قال للحجّاج : « إنَك تفعل بأمة رسول الله ﷺ كَيت وكَيت » فقال : « أجل ، إنَما أنا نقمةٌ على أهل العراق ، لَمَّا أَحدثوا في دينهم ما أَحْدثوا ، وتركوا من شرائع نبيهم ﷺ ما تركوا » .

❊ ❊ ❊

الخاتمة

وبعد فنحن اليوم أمام واقع مُؤلم للأمة الإسلامية هذه صورته[(١)] :

الجماعات العاملة في الحقل الإسلامي غَارقةٌ في الخلافات الفرعية والمجادلات المذهبية ، ناسيةً أن التجمع ضِدَّها كلّها قد تم لِمَحوِ الإسلام عقيدةً وشريعة ، والإجهاز على تاريخه القديم والحديث ، وأنه لا يَجوز أن يَرتفع صَوتٌ يَشغل عن هذه المعركة المصيرية .

إن عاطفة التَّديُّن أُصيبت في صَميمها ، وَحَلَّ مَحلَّها جَدلٌ بَاردٌ في بعض القضايا ، والدِّينُ عندما يَتحول إلى جَدلٍ وتهارشٍ على المظاهر الفارغة فسوف ينتهي حتماً ، لأن الدينَ هو القلبُ العامر ، وليس الفمَ الهادر .

هُناك شُيوخٌ على عُقولهم أغلاق وفي قلوبهم قسوة ، يَتَعصَّبون للقليل الذي يعرفون ، ويتنكّرون للقليل الذي يَجهلون .

وقد خرج هؤلاء من أرضهم ، وانساحوا في العالم الإسلامي ، فكانوا بَلاءً يُوشك أن يَقضي على الصَّحوة الإسلامية الناجحة ، وكانوا بِفقههم المحدود وَراء تكوين فِرَقِ التَّكفير والهجرة ، وجماعات الجهاد والإنقاذ ، فإذا الصَّفُّ الوَاحدُ يَنشَقُّ أنصافاً وأعشاراً .

---

(١) انظر كتاب « الحق المر » للشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى .

هذا يُقاتل من أجل النقاب والجلباب القصير .

وهذا يُقاتل من أجل أن تَكون وظيفةُ المرأة مَحصورةً في الولادة .

وهذا يُقاتل لمحو المذاهب الفقهية .

وهذا يُعلن حَرباً على الأشاعرة .

وهذا وهذا . . . فماذا كانت العاقبة ؟

انهدام البناء وشماتة الأعداء .

نَظراً إلى أَنَّ الكَثرة الغَالبة من هؤلاء المسلمين الذين أَصبحوا يُسَمَّون إسلاميين ، لا يَملكون من زاد العلم والثقافة ما يُساوي القَدْر الذي يَتمتعون به من حرارة العاطفة والوجدان ، ونظراً إلى عدم وجود مَرجعيةٍ واحدة أمامهم يَثقون بها جميعاً ، فَقد كان لا بُدَّ لأُولئك المسلمين الغَيارى بعواطفهم المُتَفَلِّتة عن ضوابط العلم أن يَختلفوا فيما بينهم ، وَمِن ثَمَّ فَقد كان لا بُدَّ أن تتحوّل الجماعة الإسلامية الواحدة إلى جماعات شتّى ، نداؤها واحد ، وأفهامُها وقناعاتها مُتعدِّدةٌ متضاربة ، ثم كان لا بُدَّ للعاطفة التي لا تَتقيّد بالعلم أن تُمَدَّ على أعين أصحابها غَاشيةً مِن النظرة السوداوية إلى حكّام المسلمين ، بل إلى الكثير من عَامّة المسلمين أنفسهم ، فَتَقُود أصحابها إلى التكفير أو التفسيق ، وَتُجَرِّئَهم على الغُلوّ والتطرّف وإثارة الفتن باسم الجهاد[١] .

---

(١) انظر كتاب « قضايا ساخنة » للعلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى .

إننا في وقت نُواجه فيه عدواً لا يَتربص لا بِسُنِّيٍّ ولا بِشِيعِيّ ، وإنما يتربص بهذا الجذع الواحد الذي هو الإسلام ،كم وكم حَاول العدو الإسرائيلي أثناء حرب لبنان الأخيرة ـ عام ٢٠٠٦م ـ أن يَجعل مَشاعر العالم الإسلامي الْمُتوهِّجَة تَبرد وَيَبرد لَظَاهَا مِن خلال إطلاق شَائعات بِأَنَّ هذا النصر مَا هُوَ إلا مؤامرة شيعية ، هَذا حَصل وكانت هُنالك أوراق يَتِمُّ إِسقاطها في أحياء في لبنان تتضمن هذا الكلام .

يقول برنارد لويس في كتابه : « الشرق الأوسط والغرب » (The Middle And the West East) :

« إن التغريب في المنطقة العربية أدى إلى تفكيكها وتجزيئها ، وإن هذا التفكيك السياسي واكبه تفكيك اجتماعي وثقافي ، والواقع أن إلحاق المنطقة بالغرب لم يَكن مُمكناً إلا مِن طريق تفكيكها وتجزيئها ، عن طريق إثارة الفتن الطائفية ، وافتعال أسباب الخصومات والعنف » .

ثم قال : « ولا شك أن مَن يَسعى إلى هذا يُحزنه مَشهد السلام بين الطوائف ، ويُسعده اندلاع التقاتل بينها ، ولعل مَن يَستبعد دور الغرب في إشعال فَتيل هذا التقاتل ، واحدٌ من اثنين ، خادع أو مخدوع » .

أصدر مجلس الأمن القومي الأمريكي ـ عام ١٩٩١م ـ تقريراً يَتحدث في نصفه الأول عن خطورة هجوم الإسلام على المجتمعات الغربية بشَطرَيها الأوروبي والأمريكي ، وخطرِه على الحضارة الغربية والأمريكية والأوروبية ، ويدلِّل على ذلك .

ويذكر في الشَّطر الثّاني العلاجاتِ والوسائلَ التي تَقي المجتمع الغربي من هذا « الأخطبوط » ، ويتكون هذا العلاج من عدّة بنود :

١ـ إثارة التَّناقضات في العقيدة الإسلاميّة .

٢ـ تأليب المسلمين بعضِهم على بعضٍ فَيُحاربَ بعضُهم بعضاً .

٣ـ تحويل العَمالة الإسلامية في الخليج إلى عَمالَةٍ آسيوية غيرِ مسلمة .

الإسلام دين عقائد وأخلاق وتقاليد ذكية صارمة ، وقد تَآمَرَتْ ظُروفٌ كثيرةٌ على تَوهِين العقائد ، وتخريب الأخلاق والتقاليد ، حتى أمسَتْ الأمة الإسلامية مُلتقىً لمفاسدَ مُهلكة ، وتأخّرت في ميادين لا حصر لها ، ويَقتضي هذا اتّجاه الجهود لإصلاح الأمة أولاً قبل الاشتباك مع النظم الحاكمة ، وإثارة فِتنةٍ ضَرُّها أكبر من نفعها .

إن الأمة الإسلامية تُواجه أياماً كالحةً وأعداءً مَكرةً مَهرة ، فهل نَلقاهم برجالنا الواعين ، أم نضع زمامنا في أيدي الرّعاع وأعشار المتعلمين ليقودونا إلى الهاوية ؟

* * *

الإِسلَامُ بَينَ التَّطَرُّفِ وَالاعتِدَالِ

المحتوى

مقدمة البحث ١٦٥
خطر التَّطرُّف على الإسلام ١٧٠
الإرهاب بين صناعته وسماسرته ١٧٧
متى يكون الجهاد عُنفاً ؟ ١٧٧
شركات أمريكية لتصنيع وتصدير الإرهاب ١٨٧
كيف نحمي المجتمعات العربية من التطرّف ؟ ٢٠١
الوسطية في الاعتقاد والسلوك هي الحل الوحيد لمشكلة التَّطرُّف ٢٠٣
أصل الوسطية في اللغة والمراد بها ٢٠٣
وسطية الإسلام في الفروع والأحكام السلوكية ٢١٣
الخاتمة (الأخلاق) ٢٣١

مقدمة البحث

إن مما يلفت النظر حقاً أن الناس الذين يعيشون غرباء عن الإسلام وعن دياره كلَّما ازدادت نفوسهم استئناساً بالإسلام وكلما ازدادت عقولهم إقبالاً إليه وتأَمُّلاً فيه واقتناعاً بمبادئه ازدادت عداوة أعداء هذا الدين شراسة وفَاحَ المزيد من رائحة الضغينة والحقد والكراهية عليه في نفوسهم . ولقد حَدَا بِهم ذلك إلى أَنْ يَطوُّروا الوسائل التقليدية التي كانوا يَستعينون بها للوقوف في وجه المدِّ الإسلامي الذي شاءه الله سبحانه وتعالى ، لم تَعد وسيلتهم اليوم كما كانت ـ إرساليات تبشيرية ، شكوكاً تُبَثُّ في عقائد الإسلام ومبادئه. . . ـ ، وإنما اصطُنِعَ لذلك سلاحٌ جديدٌ ربما رأَوْا أنَّه أمضى سلاحٍ وأيسرُ ما يُمكن أن يُتَّخّذَ من سبيل للقضاء على خطر الإسلام ومدِّه .

يصطنعون في ديارهم التَّطرُّف ويصطنعون الإرهاب ـ وما أكثر معاملهما هناك ـ ثم إنهم يُصدرون كُلاًّ منهما إلى ربوع عالمنا العربي والإسلامي ، ثم يُلْصِقونَ كُلَّاً مِنهما بالإسلام من خلال نِسبة مُختلقة مُصطنعة ، فيقولون : التَّطرُّف الإسلامي ، الإرهاب الإسلامي . وينتشر هذان الشعاران هنا وهناك أملاً في أَنْ تُؤْمِنَ عُقولُ المسلمين ، وفي أَنْ تُؤْمِن عقولُ شُعوبهم ، بأنَّ الإسلام إِنَّما هو مَعينُ الإرهاب ، وأنه مَعينُ التَّطرُّف والغلو ، فهل الإسلام كذلك ؟؟!!

أمَّا دستور الإسلام الذي هو القرآن فما رَأَيْتُ فيه إلاَّ مَا يُحذِّر من

الغلو والتَّطرُّف والإرهاب الإجرامي ، ولقد نَشَّأ القرآنُ رسولَ الله ﷺ في ظلِّ الرحمة ، في ظلِّ المسامحة ، ألم يقل كتاب الله عز وجل لرسوله ﷺ : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾[آل عمران : ١٥٩] .

وهذا الكلام الموجَّه إلى رسوله ﷺ ليس خاصَّاً بمعاملته بالمسلمين فقط ، بل بكلِّ من قد أُرْسِلَ إليه ، أليس كتاب الله عز وجل هو الذي أرسى موازين العدالة المطلقة مُتحرِّرةً من العصبية للعرق ، مُتحرِّرةً من العصبية للمذهب ، مُتحرِّرةً من العصبية للدين ؟! .

ألم يقل : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ [المائدة : ٨] .

ألم يُدافع كتاب الله عز وجل من خلال عَشرِ آياتٍ عَن يَهوديٍّ ظُلِم عِندما أُلْصِقَتْ به تهمة سرقة ، وقد كان بَريئاً منها ، وقد كان السارق مُسلماً من ضعاف الإيمان والإسلام ؟! صُدِّرَتْ هذه الآيات بقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾(١) [النساء : ١٠٥] .

هذا هو الدستور ، وبهذا ينطق ، ولئن كان هناك من يُحارب التَّطرُّف ومن يُمزِّق الإرهاب الإجرامي ، فلن تَجد في العالم كلِّه ولا في التاريخ القصي والقريب مِثل كِتَابِ الله سبحانه وتعالى يُحارب

(١) ينظر سبب نزول هذه الآية عند الترمذي في سننه ، باب ومن سورة النساء ، برقم : (٣٠٣٦) .

التَّطرُّف ويُمزِّق الإرهاب الإجرامي .

محمد رسول الله ﷺ ـ الذي نَشَّأَهُ الله على عَينه في ظِلال الرحمة والمسامحة والوسطية ـ هو الذي كان يُعامل الناس جميعاً بما ظهر منهم ، ولم يَكن يَخترق ظاهراً إلى باطن ، لم يَكن يَتحسَّسُ البواطن ليُغْمِضَ عينيه عن الظواهر ، هذا هو قدوتنا بعد ذلك الدستور الذي حَدَّثتُكم عنه .

أفتجدون في شيء من سيرته ﷺ رائحة تطرف ؟! أفتجدون في شيء من سيرته ﷺ رائحةً لغلوٍّ ، رائحةً لإِرْهابٍ يا عباد الله ؟! .

تعالَّوْا وانظروا بعد هذا إلى سيرة أصحاب رسول الله ﷺ الذين استظلوا بمظلة الشريعة الإسلامية تلك التي اعتُصِرت من كتاب الله ومن سنَّةِ وسيرة رسول الله ﷺ ، كيف كانت حياته ! .

نشأَتْ كما تعلمون بعد رسول الله ﷺ فِرقٌ إسلامية شاردة عن المنهج الأمثل الذي يدعو إليه كتاب الله عز وجل ، جَهَمِيةٌ ومُرجِئةٌ ومعتزلةٌ. . . وآخرون ، أصغوا السمع جيداً يا عباد الله ، وتأملوا هل تجدون في أصحاب رسول الله ﷺ مَن كَفَّرَ واحداً من هؤلاء ؟! هل تجدون كلمة التكفير فَاحت رائحتها هنا أو هنا أو هناك في وجوه هؤلاء الذين شَرَدُوا عَمَّا كان عليه السلف الصالح أهل السنة والجماعة ؟ .

لا نعلم ـ وقد دَرَسنَا التاريخ ووعيناه ونَقَّبنَا دخائله ـ لا نعلم أنَّ في أصحابِ رسول الله ﷺ مَن كَفَّرَ أيّاً من هذه الفرق .

هل تجدون إلا المسامحة ؟ هل تجدون في كلِّ ما يُمكِن أَنْ تتأَمَّلوه

في حياة أصحاب رسول الله ﷺ رائحةً لتطرُّفٍ ، رائحة لإرهابٍ ، هل تجدون ؟ لن تَعثروا على ذلك قط .

هذا هو إسلامنا مُتَمثِّلاً في دستوره الأمثل مُتمثِّلاً في سيرته ﷺ ، هل تجدون إلا اللُّطْف ؟ هل تجدون إلا نقيض إلا ما قد يُتَّهم به الإسلام ومن ثمَّ المسلمون ؟! .

أقول بعد هذا : تُرى لو كان هذا السلاح الجديد الذي يُستخدم اليوم للقضاء على الإسلام ولخنقه في ربوعه ـ في ربوع الإسلام ـ لو كان هذا السلاح مِن شأنه أن يكون ناجحاً ينبغي أن يتجلَّى نجاحُه في ربوع تلك البلاد قَبل أَنْ يَتجلَّى نجاحُه في ربوعنا ، فهل نَجح هذا السلاح بالوقوف في وَجه المدِّ الإسلامي الزاخر في ربوع الغرب بشطريه الأوروبي والأمريكي ؟ .

لماذا يَعتنق في كل عام آلاف الناس في ربوع الغرب دينَ الله عز وجل الإسلام ؟! وإنّي لأعلم أنَّ الذين يَدخلون الإسلام سِرّاً أكثر ممن يَعتنقونه جهراً ، لماذا لا يُخْدَعون بهذه القالة ؟! لماذا لا تخدعهم تهمة التَّطرُّف التي تُلْصَقُ بالإسلام والمسلمين ، لماذا ؟ ومِن ثم لماذا هذا الخوف الذي يَستبدُّ بأفئدةِ القائمين بأُمورِ الغرب ، إنْ في أوروبا أو في أمريكا ؟ أيُّ بُعبُع هذا الذي يَظهر لهم من الإسلام ، الإسلام يدعو إلى السلم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] .

تلك هي رسالته ، الإسلام يُصَحِّح الحضارة عندما تفسد ، يُقَوِّمها عندما تعوَّج ، هذا هو إسلامنا ، عندما يُتَّهم اليوم بالتَّطرُّف أو

بالإرهاب ، وعندما أُصْغي السمع إلى مَسؤولٍ فَرنسي ـ يُعْلِن كما لم يُعلن من قبل عداءه العجيب الشديد للإسلام وتَوَعُّده للإسلام والمسلمين من خلال ما يَتَّهِم به الإسلام من التَّطرُّف والإرهاب ـ فإنني أقول لكم ـ وهي كلمتي الأخيرة التي أرجو أن نعتصر منها العبرة والدرس الواجبين ـ : إن هذا الذي يقولونه عن الإسلام يعلمون أنهم كاذبون فيه ، وإن عملاءَ لهم هم الذي يُلصقون هذا بذاك ، يلصقون التَّطرُّف الذي يُصَدِّرونه إلينا من هناك بالإسلام ثم يَنسبونه إليه قائلين التَّطرُّف الإسلامي ، يُلصقون الإرهاب بالإسلام ثم إنهم يَختلقون نِسبةً إليه فيقولون الإرهاب الإسلامي . وأنا أقول لإخواننا وأبناء عمومتنا : أيها الإخوة مَصيرنا واحد ، إسلامنا هو المظلة التي نستظل بها ، ديننا إنما هو هويتنا ، عبوديتنا لله سبحانه وتعالى . تعالوا نعد إلى أمن وطمأنينة هذا الدين ، تعالوا نُعلن عن عبوديتنا لله عز وجل ، تعالوا نَدخل جميعاً تحت ظل قول الله عز وجل : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ [الحجرات : ١٠] ، قرارٌ وأمر ، أما القرار فقوله عز وجل : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ، وأما الأمر فقوله عز وجل : ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ .

* * *

خطر التَّطرُّف على الإسلام

لا ريب أن السِّلم هو مَطمح آمال المجتمعات الإنسانية كلها ، إذ هو المناخ الذي يتحقق فيه الأمن وتشيع فيه الطمأنينة .

ولكن السِّلم ليس شيئاً يصنعه الإنسان ، أو عملاً يُمارسه ، وإنما هو رَغبة في النفس ومَقصدٌ من أهم مقاصد الإنسان ، وإنما سَبيل الإنسان إلى تَحقيق رَغباته والوصول إلى مَقاصده ، أن يَبحث عن الأسباب الموصلة إلى تلك الرغبات والمقاصد ، فَيُمارسها ويَعكف على إنجازها .

فما هو السبب السلوكي الموصل إلى السِّلم ؟

ما هي الوسيلة التي إنْ تَمَّتْ مُمارستها تَحقَّقت في المجتمع الإنساني حقيقة السِّلم ؟

لا توجد إلا وسيلة واحدة لبلوغ هذا المقصد ، إنه ممارسة العدالة في علاقة الإنسان مع الإنسان . ومن الواضح أن هذه الممارسة لا تتأَتَّى من شخصٍ واحد ، إذ هي علاقة سلوكية تسري ما بين الأشخاص ، تتلخَّص في عدم العدوان على حقوق الآخرين ، وعدم التقصير في النهوض بالواجبات المرعية تجاه الآخرين ، وإِنَّما يتمُّ ذلك بسلوكات نوعية متبادلة .

إذن فالعدل هو الوسيلة السلوكية المتبادلة التي تُوصل المجتمع

إلى مناخ السلم ، ومِن ثم تُحقِّق في حياة أفراده الأمن والطمأنينة ، وإذا غاب العدل غاب معه الطريق الموصل إلى السِّلْم .

ولما كان القرآن الذي هو خطاب الله الموجه إلى عباده جميعاً ، يَتضمَّن دَعوةً مُلِحَّةً إلى سلوك السبيل المؤدي إلى واحة السلم ، وذلك في مِثل قول الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] ، فقد ركَّز في تعريفه للسبيل المؤدي إليه تركيزاً كبيراً مُؤكداً على ضرورة ممارسة العدل في العلاقات الإنسانية جمعاء ، بل إنه يَأمر النَّاس باللجوء إلى هذا الميزان في كل الأحوال ومع الآخرين أياً كانوا ، وأياً كان نوع العلاقة معهم .

تأمَّلوا في حرارة هذه التوصيات وتأكيد الأمر بها بمختلف الأساليب :

ـ ﴿ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

ـ ﴿ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

ـ ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾ [النساء : ٥٨] .

ـ ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾[النحل : ٩٠] .

ـ ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[الحجرات : ٩] .

إن هذه الأوامر المتكرِّرة بأساليبها المتنوعة ـ والموجهة إلى الناس جميعاً للانضباط بموازين العدل ـ ليس إلا تفسيراً لكلمة (ادْخُلُوا) في

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة : ٢٠٨] ، إنها بيان للمدخل الذي لا بدَّ منه ولا بديل عنه سبيلاً إلى السلم .

وإذ قد ذكرنا معنى العدالة قبل قليل ، وهو باختصار شديد : رعاية الحقوق والواجبات ، فمن اليسير إذن أن نَعلم أن التَّطرُّف هو الجنوح عن هذه الرعاية ، فكأن العدل هو الطريق الآمن العريض الذي تتلاقى على السير فيه الأسرة الإنسانية جمعاء ، والتَّطرُّف هو الجنوح عنه شارداً ذات اليمين أو ذات اليسار ، ولا ريب أن هذا الجنوح إذ يبتعد بصاحبه عن صراط العدل ، لا بدَّ أن يَزُجَّه في لون من ألوان الظلم ، إذ هما نقيضان ، إن غَاب أحدهما حلَّ الآخر مكانه ، وإذا وقع الظلم انقدحت مِن جَرَّاء ذلك شرارة الفتن ، وما هو إلا أن تَعصف رياحها برواق السلم وتقضي عليه .

إذن على كل مَن يَنشد السلم أن يُبرهن على صدق بَحثه عنه بتَوَخِّي العدالة والسهر على حمايتها وحراسة موازينها ، بل إننا لا نَشك أنَّ كلَّ مَن استهان بموازين العدل ، وضَحَّى بحقوق الآخرين في سبيل مصالحه ورغائبه الذاتية ، فهو عَدُوٌّ للسلام مَاضٍ في طريق القضاء عليه ، سواء كان فرداً من الناس أو ممثلاً لدولة .

والآن. . . وعلى ضوء ما قد تم بيانه ، نستطيع أن نُبرِزَ مَعنى « الإرهاب » ، هذا المعنى الذي ظل مخبوءاً عن الكلمة المعبرة عنه ، على الرغم من إلحاح كثير من الدول والمجتمعات الإنسانية ، على الذين فَاجَئُوا العالم بهذا المصطلح ، واتخذوا مِنه فَتيلاً لإشعال نار

الحروب ، أن يكشفوا للعالم المعنى الخفي الذي يقصدونه به .

أقول : على ضوء هذا الذي تم بيانه نستطيع أن نبرز معنى « الإرهاب » من تلافيف الخفاء : « إنه كل جُهد يَهدف إلى العَبث بميزان العدالة ويُلِحُ على اغتصاب الحقوق انتصاراً للذّات واعتماداً على مبررات القوة التي لا يَتمتع بها الآخرون » .

فكيف السبيل إلى حماية الطريق إلى السلام أن لا يُنسَفَ بأسلحة الإرهاب ، فتحجز المجتمعات الإنسانية أو أكثرها من السلام الذي تنشده ، إذ يَقوم بينها وبينه بَرزخ من القَطيعة وفَجوة عميقة مما أحدثته يد الإرهاب .

السبيل إلى ذلك اتِّباع القانون الذي أخَذَنا به بيانُ الله القائل : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

وبعبارة أخرى : السبيل إلى ذلك الضَّربُ على أيدي المتربصين بالسلام ، وإنما يكون الضرب على أيديهم بإنزال العقاب المكافىء لجريمتهم ، وإنه لَلسِّياجُ الذي لا بُدَّ منه لحماية السلام .

ولم تَرِد في القرآن ألفاظُ الجِهَاد والقتال ، إلا تعبيراً عن هذا المبدأ ، وليس فيه آية تدعو إلى الجهاد أو القتال ، إلا ضِدَّ مَن يُصِرُّون على إبعاد موازين العدالة عن الطريق إلى تحقيق رعوناتهم وإلى بسط سلطان بَغيهم على الآخرين ، فإذا أقلع البُغَاةُ عن بَغيهم وجنحوا إلى السلم ، وجب الكف عنهم ومدّ يد التعاون معهم على حراسة السلام وتعبيد الطريق إليه .

يبدو هذا جلياً في قوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

ونتَبيَّنُهُ جَلياً أيضاً في قوله عز وجل : ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] .

ومن كان دَأبه أن يَتَتَبَّعَ كَلمات القتال والجهاد في القرآن ، وأن يحصي أعدادها ، ثم يَقطعها عن المناسبات والجمل التي أُحيطت بها ، ليتأتى له أن يَزعم أن القرآن قَاموسٌ إرهابي يُصدر إلى الناس أوامر القتل والبغي والجهاد ، فَمُشكلته أنه يُعمي عَينيه عن ألفاظ العفو والصفح واللطف والعدل والقسط التي يَفيض بها القرآن الكريم ، وهي لو أحصاها لبلغت أضعاف ما يَتَتَبَّعُهُ مِن ألفاظ القتال والجهاد ، على أن الألفاظ ـ أياً كانت ـ عندما تَكون مُفردات في القاموس ، لم تُستعمل بَعدُ للتعبير بها عن حكم أو قرار ، فهي كالمادة الخَام قَابلة لأن تُوَجَّه إلى أي غَرض أو استصناع ، وما لم يَتِمَّ إدخالها في طور الاستصناع والاستعمال فهي إذن لَيست أكثر مِن مُجَرَّدِ قَابليات لأي توجيه أو صنع .

على أن العَدالة إن غَابت وحَلَّ مَحلها الظلم ، فإن مِن الممكن أن تَهتاج لَوَاعج الظلم في نفس المظلوم ، فَيقضى على بعض البُرَآء في طريق انتقامه من الظالم ، ولكن مَرَدَّ هَذا التصرف إلى الثورة التي يُحدِثُهَا الظلم في نفس المظلوم ، وقد نهى القرآن عن ذلك ، وأمر المظلوم أن لا يُسرف في الثأر أو الانتقام لنفسه ، بِحيث يُزهق مع حياة

المجرم الذي ظلمه أرواح حَاشيته مِن البُرَآء ، ألم يقل : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء : ٣٣] .

ولواعج الثأر من شأن الطبيعة الإنسانية عندما يَستشري الظلم في المجتمع ، ويعتد القوي فيه بقوته إلى درجة أن يجعل منها بَديلاً عن القانون وتفسيراً للحق ، وهذه اللواعج تَجتاح اليوم المجتمعات الغربية أكثر مما هي موجودة في مجتمعاتنا الإسلامية ، وأياً كان الأمر فإن الشريعة الإسلامية تُلجمها بِلجام التربية الدينية التي تتلقى غذاءها من عوامل الخوف من الله والاستسلام لحكمه وسلطانه ، وإنا لنعلم أن في قوى الشر ما يَستثير هذه اللواعج في نفوس المظلومين ، لِتدفعهم إلى تجاوزات تَتخطى حدود الشرائع والقوانين ، كي تُلصق بهم تهمة الإرهاب ، فيعثر المخططون لاستلاب الحقوق واستلاب الأوطان على المبررات الشكلية لذلك ، وإنَّ في أرشيف الذاكرة لنماذج ومستمسكات كثيرة لذلك .

يَطيب لي أخيراً أن أَختم حديثي هذا بسؤال أرجو أن أتلقى إجابة شافية عليه : في عام ١٩٧٦م رفع « وليم كليفورد » مدير معهد علم الإجرام في استراليا تقريراً عن سلسلة مؤتمرات عَقدتها المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة ، المنبثقة عن الجامعة العربية ، إلى هيئة الأمم المتحدة التي كانت قد أرسلته إليها بصفة مراقب ، تضمن التقرير ما خُلاصته لفت نظر الدول الغربية إلى احتمال ظهور ما سماه « يقظة إسلامية جادة » في الدول العربية ، فإذا قُرِنَ ذلك بما يَملكه

بَعض هذه الدول من ينابيع النفط ، فإن من الراجح أن اجتماع هاتين القوتين سَيُشَكِّلُ خَطراً حقيقياً على الحضارة الغربية ، ثم يُوصي التقرير بِنَاءً على ذلك بأن تضع الدول الغربية أيديها بالطرق الممكنة على ينابيع النفط بأسرع وقت .

إن الملاحظ أن التقرير الذي بلغ ثلاثين صفحة لم تَرِد فِيه كلمة « الإرهاب » على الإطلاق ، ولم تَكن استراتيجية السياسة الغربية تَستعمل هذا المصطلح بعد .

فما السبب في أن لَصِيقة « الإرهاب » هذه إنما تَم العُثور عليها ثم لَصقها بالإسلام والمسلمين ، بعد تلقي المؤسسات الغربية المعنيّة لهذا التقرير الذي يَنصح الدول الغربية باستلاب يَنابيع النفط من أصحابه ، والعمل على مَنع « يقظة إسلامية جادة » يُمكن أن تَنبعث عما قريب .

هل للعالم العربي والإسلامي أن يَتلقى جَواباً شافياً عن هذا السؤال مِن المصادر التي تَلقت تَقرير « وليم كليفورد » ثم عَكفت على دراسته ووضعه مَوضع التنفيذ ؟

* * *

الإرهاب بين صناعته وسماسرته

متى يكون الجهاد عُنفاً ؟

من عجيب المفارقات أن يُعَدَّ تطاول الإنسان على جاره بحجة أن له مَصالح كامنة في عُمق داره سياسة مصالح ، وأن يعد دفاع هذا الجار عن حقِّه وسعيه بالوسائل الممكنة إلى حماية حقوقه وممتلكاته الشرعية فيها جوراً وتطرفاً وإرهاباً. . . ! .

منذ أن وضعت الحرب الباردة أوزارها وأمريكا ماضية في تعبيد الطريق إلى مصالحها عبر العالم ، على حساب ما للآخرين من حريات وحقوق ، إنها تُخاطب العالم بمنطق عجيب يقول : يجب مُقاومة العنف أينما وجد ، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لحماية مصالحها الاستراتيجية ! .

والترجمة الخفية الكامنة في تلافيف هذا المنطق هي : يجب أن تَشُقَّ أمريكا الطريق إلى مصالحها حيثما وجدت ، وكل نِضَال يَصدر من الذين تَتعارض حقوقهم وحرياتهم مع مصالحها إرهاب تَجب مُقاومته والقضاء عليه .

إن مَنطق رِعاية المصالح من طرف واحد ، لَيس لَه إلا تَرجمة واحدة ، هي أن المصلحة والحق لا يُوجدان إلا حَيث تُوجد القُوة .

وإن بوسعنا أن ندرك وجود هذا المنطق من خلال سياسة الواقع

الذي يَفرض نفسه ، ولا شك أن من العَسير جِداً محاولة تَنسيق هذا الواقع مع ما يُسمى برعاية حقوق الإنسان وقدسية الدفاع عن الذات .

ففي غِمار هذا الواقع الذي تَفرضه سياسة القوة تختلط الأوراق ، فيسمى الإرهاب والعنف المتطرف نضالاً ونظاماً ، ويُسمى النضال والنظام اللذان يرعيان الحقوق إرهاباً وعنفاً. . . ! .

إن الولايات المتحدة الأمريكية تملك باسم النضال والنظام المجَنَّدين لرعاية المصالح ، أن تمضي في حصارها لكوبا إلى ما لا نهاية له ، ولن يكون لدفاع كوبا عن نفسها ومصالحها وحرية اختيارها إلا اسم واحد هو التَّطرُّف والإرهاب .

والولايات المتحدة كانت مُحقّة يَوم سَدَّدت إلى البرازيل الضربة القاضية ، عندما تَبين أنها تَسير في طريق الانتعاش والازدهار ، إذ إن ازدهار الآخرين ـ ولا سيما على أرض أمريكا ـ هو عَين الإرهاب المهدد لمصالحها ، وما الدور الذي لَعبه « كيسنجر » في انتخابات الرئاسة في البرازيل آنذاك عن الأذهان ببعيد .

والولايات المتحدة مُحقَّة عندما سَددت بالأمس الضربة ذاتها إلى نمور آسيا ، إن هذه الضربة ليست في منطقها إلا ممارسة لما يَقتضيه النظام في سبيل المصالح ، على حين أن ازدهار تلك المناطق ـ كغيرها من المناطق الأخرى ـ عُنف مُتطرف يَتهددها ! .

والولايات المتحدة لا تَفعل إلا ما يَقتضيه النظام العالمي الحر ،

عِندما تَحشو جِوار السودان من سائر الأنحاء بأسلحة الدمار ، وتُلهبُ تِلك الساحة الواسعة بِلَظى الحرب كلما خَبت نَارها وبَرد أُوارها ، لأن ازدهار السودان ـ بالخير القديم على أرضها والذخر الجديد في باطنها ، مع النهج الذي اختارته بمحضِ حريتها ـ إرهاب مُتطرف يُهدد مَصالحها ! .

وهي مُحقَّة أيضاً ، ولا تَفعل إلا ما هو واجبها في رعاية النظام العالمي الجديد ، نظام ما بعد الحرب الباردة ، أو ما يسمى اليوم بالعولمة ، عندما تُوغِرُ قَلب الصديق هنا في الخليج على صديقه الجار ، ثم تُغري الواحد منهما بالآخر ، ثم تَفرض من نفسها الحكم العدل والولي الشفوق ، فتحشو ساحة ما بين الإخوة والجيران بالأسلحة المدمرة المتنوعة ، وتُحَمِّلُهم أوقاراً من أثمانها الباهظة مَشفوعة بما يتبعها من ضَريبة الغيرة على الأمن وحرارة الدفاع والسهر على الحقوق ! .

والولايات المتحدة ليست إلا حامي أمنٍ ورسول سلام ، عندما تُفصِّلُ مع اسرائيل ـ ومِنْ ورائها الصهيونية العالمية ـ ثَوباً للسلام في هذه المنطقة على قدر مصالح هذا الثنائي ، ولا تدري أيهما التابع والمتبوع ، فإن شكى الطرف العربي أن هذا الثوب لا تَبقى مِنه أي فضلة لتغطية شيء من حقوقه هو الآخر ، وناشدَ رسولَ السلام رِعايةَ العدل ، سَجَّلَ اسمه على الفَور في قائمة دُول الإرهاب ، ووجهت إليه تُهمة الوقوف في وجه عملية السلام ! .

لقد أعلن مُستشار الرئيس السابق « كلينتون » لشؤون الأمن القومي

« المستر أنطوني لينك » أن أمريكا ستقف في وجه أعمال الإرهاب الهادفة إلى وقف عملية السلام في الشرق الأوسط ، ولكن ها هي ذي إسرائيل تقف في وجه هذه العملية مُستعينة بكل أنواع التَّطرُّف والإرهاب دون أن ينالها شيء من نتائج هذا التهديد ، وها هو ذا الطرف العربي يَنشد السلام العادل الذي يُعطي لكل ذي حق حقه ، ويُمتع المنطقة كلها بِظلالٍ من الطمأنينة والأمن ، فلا يَنعت ذلك إلا بالتَّطرُّف والإرهاب .

وفي كلمة تَحدَّث فيها « روبرت بيليترو » مساعد وزير الخارجية الأمريكية الأسبق ، عن الإسلام ، وذلك في ٢٧ أيار / مايو عام ١٩٩٤م ، قال : « إن الولايات المتحدة تَحترم الإسلام بِصفته إحدى ديانات العالم ، لكنها تَرفض أهداف ونشاطات المتطرِّفين » .

إن المصالح الأمريكية هي المقياس دَائماً لكلِّ شيء ! وإنَّا إذا أسقطنا عن الاعتبار الإسلام التراثي أو الانتمائي الفارغ من المضمون ، والذي مِن شَأنه أن يَتحوَّل إلى وِعاءٍ لاستيعاب الحضارة الغربية بشكلٍ كَيفي ، ولاحظنا بَدلاً عَنه الإسلام الأيديولوجي ، ومن ثم السلوكي والحضاري الملتزم ، فَلا شَكَّ أنَّ مِن شأنه أن يُحِدَّ مِن مَساحة الهيمنة الغربية ، بل الأمريكية على العالم ، إذن فلا شك أن هذا الإسلام هُوَ التَّطرُّف بذاته .

تلك هي صورة مُصغرة عن سياسة الأمر الواقع الذي تَفرضه أمريكا سعياً وراء الهيمنة على العالم ، غير أن لهذه الصورة تتمة ، لا يَتَسَنَّى العثور عليها إلا من خلال التقارير الخفية التي تتسرَّب من مكاتب

مجلس الأمن القومي الأمريكي ، أو مِن خِزانات الـ « سي آي إي » ، أو أقنية الديمقراطية الخفية والسارية حَصراً بين الكونغرس والبيت الأبيض .

إن هذه الجهات تَعلم أن إضفاء صِفتي الإرهاب والتَّطرُّف على كل مَا يُمكن أن يَقف في وجه المصالح الأمريكية في أي مكان من العالم ، لا سيما مَنطقة الشرق الأوسط ، لا بُدَّ أن يُثير حفيظة الناس الذين تتبدد حقوقهم في هذا السبيل . وتَعلم أن النَّتيجة الطبيعية لذلك هي أن يُطالب هؤلاء الناس بحقوقهم ، فإن لم يَجدوا آذاناً صَاغية تَلتفت إليهم بالتقدير والإنصاف ، فلا بَديل عِندئذ إلا المقاومة التي هِي شِرعة سائر المظلومين .

فهذه النتائج الطبيعية المتوقعة ، كانت ولا تزال محل دراسة واهتمام في المحافل السرية الخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية ، والخُطة المرسومة لِصَدِّ هذه النتائج وإبعادها عن المصالح الأمريكية هي العمل بِكل الوَسَائل الممكنة على أن تَتَفَجَّرَ هَذه المقاومة فِيما بَين الهَائِجين أنفسهم ، وَبِذلك يَتَنَفَّسُ الضَغطُ وَيَهدَأُ الغَليان .

إن العُنف الذِي نَراه اليَوم مُهتاجاً في حركة دَائرية عَائدة على الذات داخل مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، مِن تَأَلُّب بعض الإسلاميين على حكامهم ، ومن ثم تَأَلُّب حُكّامهم عليهم ، وتَأَلُّب الإسلاميين بعضهم على بعض ، إنما هو في حقيقته واحدة من عمليات التنفيس لمقاومة كانت مُتَوَجِّهة في أصلها إلى سياسة الإرهاب العالمي الذي تَقوده أمريكا والصهيونية العالمية في سبيل مَصالحهما ، إلا أن الذي يَجري

الآن هُوَ إخمادهما عن طريق مَا يَتِمُّ مِن دَفعها إلى التآكل الذاتي .

أجل . . . فَإِنَّ هذا الذي يُسمى اليوم بالتَّطرُّف الإسلامي ـ والذي يَبعث رجاله على اتخاذ الإرهاب الأداة الأولى لنشر الإسلام وتحضير فاعليته ـ إنما هو مِن صُنع السياسة الأمريكية ذاتها ، وهو الجزء الْمُتمم والضَّامِن لِنجاح سِياسة فَرض الأمر الواقع التي تُحاول أن تَقودَ مِن خِلاله العالم ، وليست التَّصريحات التي يُدلي بها زعماء هذه السياسة ـ والتي يُعبِّرون من خلالها عن تَبَرُّمِهم بهذا التَّطرُّف وتخوفهم منه ـ إلا غِطاءً للخُطط الخفية التي يَجب ألا تَنشط إلا تحت عناوين مُنَاقضة لها .

يقول تقريرٌ لمجلس الأمن القومي الأمريكي صدر في شهر مارس من عام ١٩٩١م ، بعد أن تَحدَّث عن الإسلام وخُطورته على مصالح الغرب ـ أي مصالح أمريكا ـ ، وعن ضرورة اتخاذ السبل الكفيلة بِدَرءِ خَطره : « لإيقاف التأثير المتزايد للإسلام والمشكلة الفلسطينية يَجب إشغال المسلمين بتناقضات ، لِيُحارب كل منهم الآخر ، وللقضاء على قوتهم ، كما يَجب خَلق عَداوات بين التيارات الإسلامية » .

ونشرت مجلة الشؤون الخارجية « foreign affairs » ـ لسان حال وزارة الخارجية ـ مَقالاً ضَافِياً في عدد تشرين الثاني لعام ١٩٩٢م عن خطر الإسلام ، وبيان أفضل الطرق لتفاديه والقضاء عليه ، وأفضل الطرق لذلك ـ فيما انتهى إليه المقال ـ هو تَقطيع جُسور التضامن والتعاون بين شعوب المنطقة وحكامها ، بِحَيث يَسودها القلق والاضطراب ، وتنأى عن الهدوء والاستقرار .

إذن ، فإن هذه التناقضات ـ التي تَقدح زِنَادَ البَغضاء والكيد والعنف دَاخل المجتمعات العربية والإسلامية ـ من صُنع الخطط الأمريكية ، وليست صَيحات الحذر مِنها والاستنكار لها إلا مِن قبيل التَّغطِيَة والإيهام .

وبعد ، فإن مُصيبة الأُمَّتَين العربية والإسلامية لا تَكمن في الإرهاب الْمُقَنَّع الذي تَغزُو به أمريكا هذه الأمة حمايةً لمصالحها المزروعة في كلِ مكان من العالم ، وإنما تَتمثل في أمرين مُتَمَازِجَين هُما : ضُمور الوعي السياسي ، والتفكك الأخلاقي ، اللذان يُمسك الغَرب الأمريكي مِنهُمَا بِأغلى ورقتين يَلعب بهما .

إن في الإسلاميين اليوم مِن تَعوزهم الرؤية السياسية الثاقبة ، على الرغم من أنهم يأبون إلا أن يخوضوا غمار العمل السياسي ، ويعوزهم الإخلاص لوجه الله عز وجل ، على الرغم من أنهم باسم الإسلام يتحركون وفي سبيله يعملون ، ومن هنا يُستَدْرجون إلى التَّطرُّف والعنف في التعامل مع أبناء دينهم وجلدتهم باسم الجهاد الإسلامي المقدس ، بدلاً من أن يتوجهوا بجهادهم المقدس إلى ذلك الذي يُمعن في اغتصاب حقوقهم واستلاب ثرواتهم .

أما عن كفاح القَادة ونِضَالهم أو جِهادهم المتطاولين ، فأَحسب أنه لم يعد خافياً على ذي بصيرة أن وحدة الأمة هي الأساس الذي لا بُدَّ منه لِكُلِّ كِفاح ، وهو الشرط الذي لا بُدَّ أن تُضيع سائر الجهود من دونه سدى .

إن النِّضَال أو الجِهاد الذي تُمارسه دول أو فئات متدابرة أو

متناثرة ، لن يَكون مآله ـ مهما كان مشروعاً ـ إلا إلى اضطراب وخسران ، ولن يَكتسب في تَيار الإعلام الغربي المهيمن إلا اسم التَّطرُّف والإرهاب ، على حِين يَظل الإرهاب الغَربي الذي يُلاحق ويُظلم ، مُقَنَّعاً باسم حماية الأمن والنظام العالميين .

ولكن الجهاد المشروع ذاته عندما تنهض به أمة ذات قيادة واحدة حقيقية ، وتضامن استراتيجي راسخ ، لن يَكون مآله إلا الفوز والنصر ، ولن يتماسك عليه إلا اسم الكفاح أو الجهاد ، ولن يلتصق به إلا وصف الدفاع عن الحق ، مهما حاول الآخرون أن يَصبُغُوه بِسِمات ونعوتٍ أخرى ، على حين يُعرى الموقف الغربي عندئذ ، ويتجلى لكل ذي بصيرة أنه هو الذِي يُمعِنُ في صُنع الإرهاب وتصديره .

وأنا أعلم أن في الناس مَن يُذَكِّرُنِي بِصُعوبة عَودة هذه الأمة إلى حِمى وَحدتها الدابرة ، وربما يُحاول أن يُؤكد بأن هذه العودة غَدت من قبيل المستحيلات .

وأقول بحقٍّ : إن عِصابة مَن أقوى وأعتى ـ قطاع الطرق ـ بوسعها أن تُغلق فَم الطريق على مجموعة من الإخوة أو الأصدقاء الْمُتَوَادِّين والمتآلفين ، وأن تُجَرِّدهم مِن كُلِّ مَا بِحَوزتهم من الأموال ، وتُعَرِّيهم مِن كل ما يَتجملُّون أو يَتَستَّرون به من الثياب ، ولكنها لا تَستطيع مَهما حاولت ، أن تُحيل مودة ما بينهم إلى عداوة ، أو أن تَقطع ما هو مَوجود بينهم من صلة التضامن والقربى . . . ، إنها تستطيع أن تستلب ما هو مَوجود ومرئي أمامها على الساحة ، ولكنها لا تَستطيع أن تَصل

إلى ما هو مَخبوء في طوايا القلوب .

وإذا رَأينا في الظاهر أن عَدواً فرَّق بين أَخوين وأَحال مَودتهما إلى خصام ، فإن التفسير الوحيد لذلك أن هَذا العَدو اكتشف وُجود ما هو أغلى من تلك الْمَودَّة في قلب كل منهما أو في قلب أحدهما ، كالمال أو الزعامة أو شهوة من هذه الشهوات ، فوضع العدوّ يده من ذلك على ورقة ثمينة ، وراح بها وما يزال ، حتى استطاع أن يُبدِّد مشاعر الودِّ والقربى في قلبي الأخوين بقوة من سلطان المحبة الأقوى والكامنة في قلبيهما أو قلب أحدهما .

ويرحم الله ذاك الذي خَلَّدَ هذه الحقيقة التي لا تتبدل في المثل التالي : « وقعت قطعة فأس في بستان ، فذعرت الأشجار من هذا العدو المداهم ، ولكن شَجرة كبيرة تَقَادَمت عليها السنون طمأنتهم قائلة : لن تَستطيع هذه الحديدة أن تَنال من أيٍّ مِنكم بأذى ، إلا تَبرع غُصن منكم بأي يكون مَقبضاً لها » .

ولكن بَقي أن نُجيب عن سُؤالٍ يَقول : فإذا تناثرت الاتجاهات وتسابقت مشاعر الأثرة بدلاً من الإيثار إلى النفوس ، وتبددت القلوب بين الأهواء المتناقضة ، فما المحور الجَاذب الذي يُمكن أن يَتغلَّب على سائر المشاعر والأهواء المتناقضة ، وأن يُعيد القلوب إلى الْمَعين الواحد ، بعيداً عن السواقي المفرقة . . . ؟ .

إن الجواب مَعروف ، والحديث عنه ذو شجون ، ولكن الخَوض فيه يُقصِينَا عَمَّا نَحن بصدده ، وحَسبنا أن نُلمح إليه مِن خِلال الإصغاء إلى قول الله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ

نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

* * *

شركات أمريكية لتصنيع وتصدير الإرهاب

سوف يتسلسل حَديثنا من خلال بيان النقاط التالية :

أولاً : من أين يَنبثق الإرهاب الذي يَعنِيه الغَرب ويتظاهر بالتخوف منه ، وأين يُخطط له ؟

ثانياً : مَا هِي الدَّوافع إلى ترويج الغرب للإرهاب وتصديره إلى عالمنا العربي والإسلامي ، ثم مُلاحقته على أرضنا .

ثالثاً : ما الإرهاب الذي تَعنِيه الدوائر الغربية الأمريكية ؟ وما المعنى الذي تَشمله كلمة الإرهاب في اللغة والعُرف ؟ وما مَوقف الشريعة الإسلامية ومَوازين العدالة الإنسانية منه ؟

رابعاً : جَريمة إسقاط « إرهاب البَغي » على الجِهاد الذي شرعه الله ، وذلك مِن خِلال بَيَان مَعنى الجهاد في الشريعة الإسلامية ، وعرض الدلائل العلمية على ذلك .

خامساً : الواقع التَطبيقي الذي يُبرز الوجه الإنساني والعدالة الاجتماعية ، من خلال الفتوحات وواقع المجتمعات الإسلامية .

سادساً : الحركة السياسية الإسلامية في الوطن العربي « عواملها ، ما لها ، ما عليها » .

النقطة الأولى :

بكلمة بسيطة واضحة ، وبقرار لا مجال للريبة فيه أقول : إن الإرهاب بالمعنى الذي يَتحدَّث عنه الإعلام الغربي ، إنما تَمَّ ويتم طَبخه وإنضاجه في دوائر غَربية مُعينة ، ثم إنه يُصَدَّر إلى العالم العربي أولاً ، وسائر العالم الإسلامي ثانياً للتنفيذ ، ولِيَكن واضحاً أنني حِيثما قلت « الدوائر الغربية » فإنما أَعني ـ على الغالب ـ الدوائر الأمريكية .

وقد تَزايد الاهتمام بالتخطيط له ثم طبخه ثم تصديره إلينا ، عقب سقوط الاتحاد السوفياتي ، واختيار « الدوائر الغربية » عَدوَّها الجديد الذي يَنبغي أن تُنَاصبه العداء بعد زوال الاتحاد السوفياتي ، وهو كما تعلمون الإسلام .

ما الدليل على هذا الذي أقول ؟

سأعرض طائفةً يَسيرةً من أدلَّةٍ كثيرة على ذلك :

أولاً : أعود فأقول مرة أخرى : نَشرت مجلة الشؤون الخارجية الأمريكية « foreign Affairs » مقالاً ضافياً في عدد تشرين الثاني لعام ١٩٩٢م ، عن خطر الإسلام وأفضل الطرق لتفاديه والقضاء عليه ، وأفضل الطرق إلى ذلك ـ فيما انتهى إليه المقال ـ تقطيع جسور التواصل والتضامن بين الدول العربية ، التي هي المصدر الأول للخطر الإسلامي ، ثم العمل على إيجاد أكبر قدر من التشاكس بين المنطقة وحكامها ، بحيث يَهتاج فيما بَينها العنف ويَسودها القلق والاضطراب .

ثانياً : يقول « برنارد لويس » في كتابه « الشرق الأوسط والغرب »

(the Middle East And the West) « إن التغريب في المنطقة العربية أدى إلى تفكيكها وتجزيئها ، وإن هذا التفكيك السياسي واكبه تفكيك اجتماعي وثقافي ، والواقع أن إلحاق المنطقة بالغرب لم يَكن مُمكناً إلا مِن طَريق تَفكيكها وتجزيئها ، عن طريق إثارة الفتن الطائفية ، وافتعال أسباب الخصومات والعنف » .

ثم قال : « ولا شك أنَّ مَن يَسعى إلى هذا يُحزنه مَشهد السلام بين الطوائف ، ويُسعده اندلاع التقاتل بينها ، ولعل مَن يَستبعد دور الغرب في إشعال فتيل هذا التقاتل ، واحدٌ من اثنين : خَادعٌ أو مَخدوع » .

ثالثاً : أكرر وأُذكِّر بما أصدره مجلس الأمن القومي الأمريكي في نهاية عام ١٩٩١م ، من التقرير الذي يتحدَّث عن خطر الإسلام على المجتمع الغربي وضرورة القضاء عليه ، ثم وَضع عَشرة بُنود تقريباً كمشروع يَطلب تنفيذه على هذا الخطر :

البند الأول : هو إثارة التناقضات في الفكر الإسلامي .

البند الثاني : تأليب المسلمين بَعضهم على بعض بكل السبل الممكنة .

البند الثالث : تحويل العمالة العربية الإسلامية في الخَليج إلى عمالة آسيوية . . . إلخ .

النقطة الثانية :

وهي التساؤل عن العوامل القديمة والجديدة التي تَدفع الدوائر

الغَربية إلى التخطيط للإرهاب ثم لِطبخه وتهيىء أسبابه ، ثم لِتصديره إلى عالمنا العربي والإسلامي .

وأقول في الجواب عن هذا التساؤل : استقر في دِماغ الإدارة الأمريكية ـ منذ غياب الاتحاد السوفياتي عدوّها التقليدي ـ أنها بحاجة ـ أي السياسة الأمريكية ـ إلى عدّو بَديل ، إذ وُجِدَ على مَسرح السياسة العالمية مَن أقنع ذلك الدماغ بأن المصالح الأمريكية لا تَزدهر ولا تتنامى شبكتها في العالم إلا مِن خلال اصطفاء عَدوٍّ تُمارس مِن خِلالِ مُعَادَاته سُبل طُموحاتها .

شَركاتُها العِملاقة وفي مقدمتها تِلك التي تُنتجُ الأَسلحة المتطورة ، وتَصطَنِعُ الوسائل الرهيبة لتسويقها واستهلاكها ، لا بُدَّ مِن سَبيلٍ لهيمنتها على الأسواق العالمية ، وخير سَبيل وأقصره إلى ذلك ـ فيما يَراه دِماغُ السياسة الأمريكية ـ فتح أنفاق الحروب ، واتخاذها شرايين تَسري مِن خلالها دماء المصالح الأمريكية .

وكان لا بُدَّ أن يَقع الاختيار على الإسلام بديلاً عن العدو التقليدي الذي انقضى عهده ، ولكن لماذا وقع الاختيار على الإسلام دون غيره ؟

وقع الاختيار عليه لعاملين اثنين :

أولهما : تَزايد انتشار الإسلام في المجتمعات الغربية بشكل ذاتي ، وتقبل العقلية الغربية مبادىء الإسلام ومعتقداته ، وتأثرها بالكثير من أخلاقياته ، وهو الأمر الذي نَبَّهَ القيادات الغربية إلى خطر الإسلام على الحضارة الغربية .

ثانيهما : تقارير كَثيرة تَقَدَّم بها مُراقبون غَربيون إلى دَوَائِر غَربية مُتخصصة ، تتحدَّث عن احتمال ظهور يَقظة إسلامية حقيقية ، تَدفع المسلمين إلى تجاوز علاقاتهم التقليدية بالإسلام ، وتنهض بهم إلى تطبيقه قيماً وشرعة ونظاماً ، لَعلَّ مِن أهمها وأخطرها ما سبق ذكره ، وهو التقرير الذي رفعه « وليم كليفورد » أستاذ علم الإجرام ومدير معهد علوم الإجرام في استراليا ، الذي أوفدته هيئة الأمم المتحدة إلى سلسلة مؤتمرات عقدتها المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضدّ الجريمة ، والتابعة للجامعة العربية في أواخر السبعينات من القرن الفائت ، أوفدته مراقباً وممثلاً لها .

وكان أن تَطارح المؤتمرون آنذاك فِكرة العَودة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية لمعالجة الجريمة والتضييق من أخطارها ، فأثار ذلك الطرح العَرضي العَابر ما يُشبه الذُّعر في نفس ذلك المراقب ، ورفع إلى هيئة الأمم المتحدة ـ وإلى كثير من الدوائر الغربية المتخصصِّة ـ تقريراً مُطولاً يَبلغ مَا يُقارب ثلاثين صفحة ، يقرع فيها أجراس الخطر على مسامع المسؤولين الغربيين .

وفي الختام يَنصح تقريرٌ غربيٌّ بالعمل بكل الوسائل الممكنة على أن يَضع يَده على ينابيع النفط هذه ، وأن يَحول دون ما يسميه « انبعاثاً إسلامياً جادّاً » يُمكن أن يَتحقَّق في أي حين .

فهذان العاملان هُما السبب في اختيار الغَرب الأمريكي الإسلام دُون غيره عَدواً جَديداً يُمارس من خلال بَطشه ومعاداته له تمرير مَصالحه المختلفة وطموحاته التي لا حدّ لها .

أما العامل الجديد الذي لا يَزيد عُمُره على عامين ، فَيتمثَّل في الهياج الخفي الذي يَسري في كيان الصهيونية العالمية ، مِن جَرَّاء المشروع الذي وَصلته أنباؤه ، وهو سَعْيُ الدول الأوروبية والآسيوية إلى بناء ما يُسمونه الجسر الأوروبي الآسيوي بينهما ، فمن المعلوم أن آسيا تلعب دوراً رئيسياً لإنجاز هذا المشروع ، وهو تأسيس نظام اقتصادي « أورو ـ آسيوي » ، يَحلّ محل الانهيار المالي الذي يُهدد العالم وفي مقدمته أمريكا .

يقول « لندون لاروش » أحد الذين تَرشحوا للرئاسة الأمريكية في محاضرة له ألقيت عبر الانترنت يوم ٢٠٠١/٦/٢٤م : إن القوى الإسرائيلية في الخارج والتي يُمثلها بشكل نموذجي « زبيغينو بريجنسكي » سَتحضِّر لحربٍ في الشرق الأوسط لمنع الدول الأوروبية والآسيوية من بناء هذا الجسر البري بينهما ، والذي مِن شَأنه أن يُزيح هَيمنة الصهيونية العالمية على الاقتصاد العالمي والنظام النقدي ، ويَنبغي أن تُطلق حَرباً دِينية ثم تَستَجِرُّ إليها أوروبا، وبذلك يتلاشى هذا المشروع في ضرام تلك الحرب المستعرة.

فما هو الدور الأمريكي ؟

هو تنفيذ ما تُوحي به الدوائر الصهيونية لتأزيم الأمور وإشعال فتيل الحرب ، والشرارة ـ التي لا بُدَّ منها لذلك ـ إنما هِي إلباس الشرق الأوسط ـ على حين غرَّة ودون سابق توقع ـ كسوة الإرهاب ، وإنما يتأَتَّى ذلك عن طريق ربطه بالإسلام الذي يُعدّ الشرق الأوسط المعين الأول له .

إن هذا الذي تُخطِّط له الدوائر الصهيونية ـ كما قد خَططت مِن قبل للحرب العالمية الأولى بمعونة بريطانيا التي كانت هي الظاهرة على مسرح الأحداث ـ لم يَعُد خَفياً ولا مَجهولاً في المجتمعات الأمريكية ذَات الثقافة المتميزة ، والسؤال الذي يَتطارحه الجميع هناك : إلى أي مدى ستندفع أمريكا في هذه المغامرة الرهيبة ؟

إذن هذا هو العامل الثاني ـ وهو عامل جديد ـ لاصطفاء الإسلام عدوّاً جديداً لأمريكا بعد رحيل الاتحاد السوفياتي .

والآن : ما الإرهاب الذي تَعنيه أمريكا من خلال تهديداتها التي فاجأت بها العالم في هذه السنوات الأخيرة على غير توقع ؟

إن الإرهاب الذي تَعنيه أمريكا هو كل جُهد أو مَشروع أو فِكر يتعارض مع مصالحها أو مع ما تحسبه أنه من مصالحها الذاتية ، دُون أي نَظَرٍ إلى ما قَد تَتطلبه حُقوق الآخرين ، ونظراً إلى أن الخطة « الأورو ـ آسيوية » تُنَاقض مصالحها ، فينبغي دعم الدوائر الصهيونية في السعي إلى إشعال حرب في الشرق الأوسط تتكفل بالقضاء على تلك الخطة ، ونظراً إلى أن الوقود الوحيد لإشعال هذه الحرب هو لصق أكذوبة الإرهاب بالإسلام الذي إليه يَنتمي سُكان هذه المنطقة ، إذن فيجب قرع طُبول الحرب على أساسها ومن مَنطلق الاتهام بها .

ولكن فلنتساءل : ما شأن الإسلام والإرهاب ، وما علاقة كل منهما بالآخر ؟

وقبل أن نجيب عن هذا السؤال ، لا بدَّ أن أَذَكِّر بما هو بدهي ، من

أن الإسلام ليس مُكلفاً بالخضوع للمصطلح الأمريكي لكلمة الإرهاب ، ومِن ثم فإن الإسلام ليس مِن شأنه أن يكون الحارس الأمين لمصالح أمريكا في العالم .

ولكن مَاذا عن أولئك الذين يَشُدُّون الغَرب إلى الشرق فَيَنعِتُون الجهاد القتالي الذي شرعه الله عز وجل لحماية الحقوق وردع العدوان ، بالإرهاب ؟

إن الجهاد في الشريعة الإسلامية ـ في كلمة جامعة ـ ليس أكثر من العين الساهرة التي تحرس حقوق الأمة ، وآية ذلك أن المسلمين عاشوا في مكة مع رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً يَتعرضون لأصناف من الاستهانة والإيذاء ، دون أن يُؤذن لهم بالجهاد ، إذ لم تَكن لهم فيها حقوق يُقاتلون دونها ، فلما هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وتحقق للمسلمين فيها أرض ووطن ، وقامت لهم عليها دولة ، وظهر لهم في ظلها نظام سلطوي ، كان لا بُدَّ لهم في سبيل لحماية حقوقهم هذه من أي عدو مُتربص هنالك ، ومن أجل هذه الحاجة شرع الله الجهاد .

أما في مكة فلم يكن للمسلمين فيها وراء العقيدة التي يدعون إليها ويحاورون في سبيلها أي حق ثابت ينهضون لحراسته ويقاتلون في سبيله إن اقتضى الأمر ، ومن ثم لم يكن للجهاد القتالي أي موجب ، بل لقد علمنا أن النبي ﷺ ما كان يَستقبل عُدوان المشركين له إلا بمزيد من الشفقة عليهم والرحمة لهم. . . ! فما حَرَّكَ لِسانه بكلام قَاس لهم أو بِدُعاء عليهم ، حتى في أحلك الساعات وأقسى الظروف التي مرت

به وبالمسلمين في تلك السنوات الطوال التي أمضوها في مكة .

إذن فالجهاد لم يُشرع لإرغام الناس على الإسلام ـ كما يَحلو لبعض المفتئتين من مُحترفي الغزو الفكري أن يقولوا ـ ومتى كان الإسلام الذي يُساق الإنسان إليه كُرهاً إسلاماً مَقبولاً عند الله ؟ إذن لاستوى المنافق والمؤمن في ميزان الله عز وجل ، وأنى يكون ذلك ؟

لقد شهد تاريخ الفتوحات الإسلامية التي كانت بقيادة رسول الله ﷺ ، ثم التي كانت بقيادة الخلفاء من بعده ، أنه ما مِن غَزوة عُقِد لِواؤها إلا وكانت رداً على عدوان واقع أو مُتوقع ، أي عُدوان خَفي يُخطط له ، ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً فلم يُرغم مشركاً على الإسلام ، ولم يستقبل من المبايعين له إلا من سَاقته إليه قدماه طوعاً ، وحسبكم في بيان هذه الحقيقة التي تعتز بها الإنسانية أيما اعتزاز ، هذا البيان الإلهي القائل : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة : ٦] .

فليس على رئيس الدولة أن يَستقبل غير المسلمين أياً كانوا وأن يرحب بهم فقط في دار الإسلام ، بل عليه أيضاً أن يُحقق لكل منهم مَظلةَ أمنٍ تَحميه من كل سوء خلال وجوده فيها ، كما أنّ عليه أن يَتكَفَّل بإعادته ـ مسلماً أو غير مسلم ـ إلى مأمنه الذي وفد إليه منه ! .

وما من بُقعة سَعدت بالفتح الإسلامي إلا وكانت صُورة رائعة لتعايش سعيد ما بين المسلمين وغيرهم أياً كانوا ، تَشهد على ذلك مصر والعراق وبلاد الشام وغيرها ، ولم يَكن ذلك التعايش نَتيجة

لسياسة ارتآها القادة والحكام ، ولكنه كان ولا يَزال حكماً نافذاً مِن أحكام الشريعة الإسلامية في كل زمان ومكان .

ولما تَوجهت الجيوش الصليبية غُزاةً إلى بلاد الشام ، أرسل قادة تلك الجيوش سِراً رَسائل إلى النصارى الموجودين بين ظهراني المسلمين ـ وكانوا لا يَقِلُّون عن الثلث ـ يَسألونهم عن قرارهم الذي اتخذوه ، أهو الوقوف إلى جانب بَني قَومهم المسلمين ، أم الوقوف إلى جانب بني دينهم الوافدين ؟ فكان جَوابهم : بل نتخذ مواقفنا إلى جانب بني قومنا . وشهد التاريخ كيف وقف المسلمون والنصارى يوم ذاك في خندق واحد لردّ غائلة الصليبيين ! .

ولقد أحصى المؤرخون عدد الذين قُتلوا ـ مِن مُسلمين وغيرهم ـ في الغزوات التي قامت بين الفريقين من السنة الثانية إلى التاسعة للهجرة ، فكان عددهم (١٠١٨) شخصاً ، ثم إن المؤرخين اليوم أحصوا عدد القتلى في الحرب العالمية الأولى التي أوقد نيرانها كُلٌّ مِن بَريطانيا والصهيونية العالمية ، من عام ١٩١٤م إلى عام ١٩١٨م ، فكان عددهم بـ (٨ ، ٥٣٨ ، ٣١٥) قتيلاً ، و(٢١) مليون جريحاً ، و(٧) مليون أسيراً ومفقوداً .

ألا ؛ فلتضحك الدنيا اليوم ضحكَ ذهول قاتل من هذا الذي تراه العين ولا يُصَدِّقه العقل : وحوشٌ تتقوقع تَحت سيما « ملائكة الحب والسلام » ، وقيم ربانية تَنزلت رَحمة للأسرة الإنسانية جمعاء ، تُنعت من قبل تلك الوحوش بالإرهاب ! .

إذن هذا هو الجهاد في شرع الله وحكمه ، معناه وضابطه اليوم هو

معناه وضابطه بالأمس : حراسة لحقوق الأمة أن لا يَسطو عليها باغ ، ولا يطمع في النيل منها طامع ، وحراسة الحقوق أياً كان سبيلها الذي لا بُدَّ منه أمرٌ مقدَّس ، لا لأنها حرب تَشفي الغليل ، ولكن لأنها خدمةٌ إنسانيةٌ للأسرة الإنسانية جمعاء ، ومن ثم فقد كان الحارس لحقوقها شهيداً إن أُريق دمه على هذا الطريق ، بشهادةٍ من رسول الله ﷺ القائل : (مَنْ قُتِلَ دونَ مالِهِ فَهوَ شَهيدٌ ، وَمَنْ قُتِلَ دونَ أَهْلِهِ ، أَوْ دونَ دَمِهِ ، أَوْ دونَ دِينِهِ فَهوَ شَهيد)[1]) .

ومن أسمج ما يَشمئز منه المنطق أن يَكون وقوف الدوائر الغربية في وجه الدنيا كلها من أجل مصالحها المشروعة وغير المشروعة عَملاً مُؤيداً ومبرراً ، ثم لا يَكون دِفَاع المستضعفين عن حقوقهم المسلوبة مُؤيداً ولا مبروراً ! .

وبعد ؛ أفتظنون أن هذه الحقيقة ـ التي فَرغنا من بيانها مُعززةً بأضعاف الأدلة والوثائق التي ذكرتها ـ يمكن أن تُثني الإدارة الأمريكية عن خطتها الرامية إلى إلهاب الشرق الأوسط بنيران حرب دينية تُستَجَرُّ إليها أوروبا ؟ إن من السذاجة أن نظن أن ذلك ، سيُحكَم إلصاق أكذوبة « الإرهاب » بنا نحن المسلمين شاءت أم لم تشأ الحقيقة ذلك ، لأنها الوقود الذي لا بُدَّ مِنه لإشعال نيران الفتنة ثم الحرب .

بقي أن نقول : إن شيئاً واحداً يُعكر صفو الحقيقة التي أكَّدناها بمزيد من الأدلة القاطعة والوثائق الناطقة ، إنه التَّطرُّف الذي يَبدو في

---

(١) أخرجه بهذه السياقة أبو داود في سننه ، باب في قتل اللصوص ، برقم : (٤٧٧٢) عن سعيد بن زيد رضي الله عنه ، وأصله في الصحيحين .

تصرفات بعض من يَعُدُّون أنفسهم جماعات إسلامية ، كالذي جَرى في الجزائر ، والذي يَجري أحياناً في مصر ، والذي سمعنا نماذج عنه في اليمن ، وما يجري في سورية ، وبتعبير آخر : إنه النَّهج الْمُتطرِّف الذي نَراه فيما يُسمى اليوم بالإسلام السياسي .

فما موجب هذا التَّطرُّف من هؤلاء الناس بعد الذي تَبيَّن لنا جميعاً من أن الإسلام لا يُقِرُّ شيئاً من هذا الغلو ، ويَبرأ من قَبوله سُلوكاً فَضلاً عن تسميته جهاداً ؟

نعتقد أن الجواب عن هذا السؤال مَاثِلٌ فِي أَذهاننا جميعاً ، بَعد الذي ذَكرناهُ لَكم عن الأدلة والوثائق الناطقة بأن هذا النوع من التَّطرُّف أو الإرهاب يُطبخ ويُحضّر في الدوائر الغربية ، ثم يُصَدَّر إلينا للتنفيذ . من منا يَجهل أن في بريطانيا ـ بل في لندن بالذات ـ نُخبة مُتميزة من قادة التَّطرُّف والإرهاب ، يُديرون عملياتهم الإرهابية باسم الإسلام من هناك ، ويُوحُون إلى جنودهم وصنائعهم في البلاد العربية التي تَطولها مَساعيهم كيفية تنفيذها ، وبريطانيا تَعلم ذلك وتقدم لأولئك الأشخاص كلَّ عَوْنٍ وتَحميهم من كل سوء .

غير أَنَّا لكي نَكون دقيقين في بيان الأمور وتحليلها ، يجب أن نَتذكر ما هو مُقَرَّرٌ وثَابتٌ مِن أن الدوائر الغربية لا تملك لتنفيذها خُططها وأهدافها ـ التي تحدثنا عنها ـ أن تُوجد فينا مَعدوماً ، وإنما هي تَبحث دائماً عما هو مَوجود مما يُناسب أهدافها ، فتُسَخِّرُه وتُوجِّهه لمصالحها .

أما الدوائر الغربية المراقبة ، فقد رأت في هذا الواقع بُغيَتَها ،

ووقعت ـ من هذا المناخ الذي وصفته لكم على كنزٍ ثمين ـ ورأت فيه المجال الرَّحب لِتَحقيق وصايا المجلس القومي الأمريكي ، وفي مقدمتها ضَرورة تَأليب المسلمين بعضهم على بعض ، وإثارة التناقضات في الفكر الإسلامي ، فما كان منها إلا أن بَذلت كل ما تملك ـ وما تزال ـ في سبيل تذليل السبل أمام تطرف الجماعات الإسلامية ، وبَعثِ مَزيد من عوامل الهياج النفسي لديها للتألب على قادتها وحكامها ، وأنا أَعلم أن هَذه الدوائر لا تَتردد في دَسِّ عُملاء لها بين تلك الجماعات ، دُرِّبوا على التظاهر بالحماس الديني والتَّزَيِّي بِالزِّيِّ الإسلامي التقليدي المفضل ، وإطلاق اللحى الوافرة ، وإتقان تلاوة القرآن ، لِيَبعثوا مَزيداً من الهياج النفسي وعوامل الإثارة على الآخرين بحجة التكفير أو التبديع أو التفسيق ، وكم كَشف مُسلمون نَاشطون في مراكز إسلامية أو في مساجد لهم ـ في جهات مختلفة من أوروبا وأمريكا ـ أُناساً مَدسوسين من هذا القبيل .

وبعد ؛ فإن كل هذا الذي تم بيانه ـ من خلال الأدلة والوثائق التي عَرضناها ـ لن يَكون له جدوى على صعيد الواقع إلا في حالة واحدة لا ثانيَ لها ، هِي أن تُرى هذه الأمة وقد اتحدت اتحاداً حقيقياً على مُستوى قادتها أولاً ، وعلى مستوى فئاتها وجماعاتها ثانياً .

ففي مَناخ هذه الوحدة الاستراتيجية الراسخة ، تُستنبت الحقائق التي تم بيانها مُعَزَّزَة بالبراهين الراسخة والوثائق الدامغة ، وتتجلى ثمراتها ، ويَضعها العالم في مَركز التَّصدِيق مِن كِيَانِه ثم التقدير لها ثانياً .

أما إن ظل هذا التفرق ـ بل هذا التشرذم ـ مستمراً ، فَلَسوف تَبقى أُكذوبة الإرهاب مُلتصقة بنا ، وَلَسوف يَظل مَعنى الجهاد في الإسلام المعنى المزيف الذي يختاره له مُحترفو الغزو الفكري . ومهما صاح صائحون ، وكتب كاتبون ، وأعلن ناشرون ، يكشفون عن الزيف ، ويُبرزون وجه الحق ، فَلَسوف يَختفي ويضيع ذلك كله في تلافيف الخلافات والصراعات الخفية والظاهرة المستحكمة ، ولَن يَطفوَ عندئذ على السطح إلا الزَّيف الذي تَسمعون ، ولن تَسمعوا مِن أوصاف الضياء الإسلامي الذي يَحتضن كل مَعاني العدل والإنسانية والمساواة والمواساة إلا نَقَائِضَها الحادّة زُوراً وكَيداً وافتراءً .

فإن عجزنا عن إقناع أمتنا هذه بأن ترتفع عن وهدة التشرذم المهين إلى السدة التي ارتضاها الله لها ، وَحدة وتضامناً واعتصاماً حَقيقياً بحبله المتين ، فليس أمامنا إلا باب واحد نَطرقه ، هو باب الالتجاء إلى الله بضراعة وتبتل وصدق ، وأَعظِمْ بِه مِن مَلجأ ومَلاَذ .

هذا إن وُجد اللائذون واللاجئون الذين يَقرعون هذا الباب العالي بانكسار وصدق ـ ولعلهم موجودون وأرجو أن يكونوا كثيرين ـ يَملؤون رَحبَ عالمنا الإسلامي .

❋ ❋ ❋

كيف نحمي المجتمعات العربية من التطرّف ؟

إن النظام الإسلامي هو الذي تتألّق فيه العدالة بين المسلمين وغيرهم ، لأنه يَحتضن بنظامه وشرعته حُرية الفكر والمعتقد احتضانَ النِّدّ للنِّدّ ، ويدافع عن حقوق المسلمين وغير المسلمين ، ويرعى جُسور المودَّة الواصلة بين الجميع دون أن يَجنح إلى جهةٍ على حساب أخرى ، فالأحكام الإسلامية المُتعلّقة بنظام المجتمعات الإسلامية رُوعي في تشريعها حَالُ كُلِّ مَن تحتضنهم دارُ الإسلام ـ من مسلمين وغيرِهم ـ دون تفريقٍ بين مُستوطنين ووافدين ، وبين مقيمين وسائحين ، والدليل على ذلك أن البلاد التي دَخلت في الفتح الإسلامي لم يُكرَه أحدٌ من أهلها على دخول الإسلام .

فبعد أن طُرِدَ المستعمر الروماني من بلاد الشام ، تنفَّس النصارى الصعداء ، وعثروا على حريتهم بعد أن فقدوها ردحاً طويلاً من الزمن ، وكتابُ الصُّلح الذي كتبه سيدنا عمر مع أهل الشام ينصُّ على ألاّ يُفتَتَنَّ نصراني عن نصرانيّته ولا يهوديٌّ عن يهوديَّته .

وظلّ عدد النصارى إلى الحروب الصليبية يُساوي عدد المسلمين بَل يَزيد في كثير من الأحيان ، لماذا ؟ لأن الإسلام الذي احتضن المذاهب الأخرى لم يَرفع لِواء حُرية الفكر والمعتقد فقط ، بل رفع

اللواء ودافع عن هذه الحرية أيضاً .

فالحصن الذي يَقِي أيَّ مُجتمع مِن المجتمعات مِن التَّطرُّف الديني إنما هُوَ حِصن الدِّين الوَاعي المنبثق عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما أجمعت عليه الأمة .

ولا نَقصد بالدّولة الإسلامية هُنا أن تُطَبِّق كل المبادىء الإسلامية ، فَتَرجُمَ الزاني و. . . إلخ ، وإنما الدولة الإسلامية التي تَلتزم جُهد الاستطاعة بأحكام الشريعة الإسلامية ، وتقول ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وتَسعى خَالصةَ النية لإزالة العقبات أمام تطبيق بقية الأحكام ، فهي دَولة مَدَنِيَّةٌ إسلامية .

أما محاربة الدين والعمل على اجتثاثه من المجتمع ، وإبعاد سلطان الدين عن المجتمع الإسلامي مُتمثلاً في الحكم والإدارة ، فهو الذي يَفتح أبواب التَّطرُّف والغُلوّ ، ولقد عَلم الناسُ جميعاً ـ من خلال التجربة ، ومن خلال النظر إلى العالم القاصي والداني المحيط بنا ـ أن المجتمعات النائية عن الوعي الإسلامي الحقيقي هي التي تَذهب ضَحية التَّطرُّف والغلو التكفيري .

* * *

الوسطية في الاعتقاد والسلوك هي الحل الوحيد لمشكلة التَّطرُّف

إن الحديث عن الوسطية حديث عن أبرز سمة وأخص مزية وصف الله عز وجل بها هذه الأمة بعبارة واضحة صريحة في آية من محكم كتابه ، وهي قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، فما المراد بهذه الوسطية التي امتن الله بها علينا ، ونحن جيل من أجيال هذه الأمة التي أكرمها الله بشرف الانتساب إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ ؟ وما هي مَظاهرها التي تبرز بل تنضبط وتتحدد فيها ؟ ومن أين بَرزت قيمتها حتى أضفت على الأمة الإسلامية جمعاء هذه القيمة الكبرى التي نَوَّهَ بها القرآن ، وميزها بها عن سائر الأمم والجماعات الأخرى ؟ .

أصل الوسطية في اللغة والمراد بها :

يقول علماء اللغة العربية : وسط الشيء ما بين طرفيه ، فهو اسم لما بين طرفي الشيء ، كقولهم : قبضت وسط الحبل ، وكسرت وسط الرمح ، وجلست وسط الدار ، ولما كان أفضل أجزاء الشيء قلبه ولبه البعيدين عن طرفيه وأطرافه ، فقد كان وسط الشيء أفضل

ما فيه ، وينسحب هذا على الأشياء المادية ، كما ينطبق على الأمور المعنوية .

أما الأشياء المادية فمن المعلوم أن قيمتها الصافية إنما تكمن في لبابها ، وكلما ابتعدت عن اللباب مُقترباً إلى الأطراف ابتعدت عن صفاء جوهره ، وواجهك منه المزيج الخارجي المتسلل إليه .

وأما الأمور المعنوية فَلبابها ما يَقضي به العقل ويُقرره العلم ، وأي ابتعاد عن هذا اللباب يُوقع الإنسان في فَلَكِ الأوهام الفكرية أو الرعونات النفسية ، والشأن فيها أن تَزُجَّ بِصاحبها إلى أحد طرفي الإفراط أو التفريط . وهذا اللُّباب ـ الذي تُحَدِّه دائماً دائرة العقل والعلم ـ هو المعني بكلمة « العدل » في كل الأحوال وبالنسبة إلى سائر القضايا .

وهذا هو المعني بكلمة « الوسط » في قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة : ١٤٣] ، أي أمة عادلة في منهجها الفكري وقانونها السلوكي .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه ، عَنْ رَسولُ اللهِ ﷺ في تَفْسيرِ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قالَ : عَدْلاً[1] .

وهذا الوصف إنما هو في أصله للإسلام الذي شَرَّف الله به عباده جميعاً ، وحَصَّنَ به عقولهم من غلواء الإفراط والتفريط في فهم الأشياء والتعامل مع الحياة ، ولكن كثيراً من الأمم السابقة شَتَّتْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة ، برقم : (٧٣٤٩) .

بِفِكرها وسلوكها عن هذا الحصن ، فكان أن وقعت في براثن الإفراط أو التفريط .

فاليهود مثلاً ، وقعوا في عُسْف التقصير والإساءة في حق أنبيائهم ، مِن تَكذيب أو تقتيل ، كما قد أخبر عنهم الله عز وجل .

أما هَذه الأمة ، فقد حماها الله عز وجل في مَجموعها مِن التَعَسُّفِ وهذا الغلو ولطف بها ، إذ وفقها للتشبث بالعدل الذي هو لباب العقل وثمرة العلم ، فلم تنحرف نحو شذوذ من الإفراط أو التفريط .

ولا يزال البيان الإلهي يذكرنا بهذا الفضل العظيم ، ويأمرنا أن ندعوه في كل ركعة من صلاة بأن يُثَبِّتَنا على هذا المنهج العدل الذي عُرِفنَا به وحَبَّبَهُ إلينا ، وألا يدعنا نحيد عنه حَيدةَ تِلك الأمم التائهة الأخرى ، فهذا هو معنى خطابنا لله عز وجل في كل صلاة : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ـ٧] .

وإذ قد ثبت أن هذا الدين هو المنهج العدل واللُّباب الذي يتفاعل معه يقين العقل وقرار العلم دون جُنوح إلى أي إفراط أو تفريط ، فلا بُدَّ أن تتجلى حَقيقة هذا العَدل الذي يَتَّسِمُ بِه في كل من أصوله الاعتقادية أو أحكامه السلوكية .

ولنبدأ بإيضاح هذه الحقيقة في المبادىء والأصول الاعتقادية ، إذ هي المنطلق والأساس ، ومنها تتفرع سائر الأحكام والآداب السلوكية على اختلافها وتنوعها .

ومن المعلوم لنا جميعاً أن بنيان العقيدة الإسلامية يتمثل في الإيمان الجازم بالله ووحدانية وصفاته ، ثم الإيمان برسله وأنبياءه وكتبه المنزلة عليهم وملائكته واليوم الآخر ، وبكل ما أخبرنا عنه وأمرنا به في كتابه المنزل على سيدنا محمد ﷺ خاتم رسله وأنبيائه .

وإنما يتجلى معنى الوسطية في الإيمان بالله عز وجل من خلال السبيل الذي يَسره الله عز وجل لنا إليه ، وهو يتمثل في ميزان دقيق يتكون من كفتين متعادلتين هما : العقل والنقل .

فلقد مَتَّعَ الله الإنسان بالعقل ليجعل له مِنهُ مِصباحاً يُبَصِّره بحقيقة هذا الكون ، ويَهديه إلى خالقه ومكونه ، ثم أنبأه بقصة نشأته والحكمة من خَلقه والمهام الملقاة على عاتقه ، والمراحل والتقلبات التي هو مُقبِلٌ عليها دون ريب بعد حياته الدنيوية هذه ، وهي حقائق لا يستطيع العقل وحده أن يَستقل بمعرفتها والوصول إليها ، وإنما السبيل إلى هذه المعرفة أن يُقدم إليه من هذه الأنباء ما يَكون مَوضوعاً لتأملاته ومحوراً لحركته ونشاطه .

ولو ترك الإنسان مَع العقل وحده في رحله البحث عن الحقيقة ، لَوَقع في متاهات لا حدود لها ، ولَتَخبَّط في ضلالات وأوهام لا نجاة منها ، ولكان مَصيره في أحسن الأحوال ، كمصير أولئك الفلاسفة الذين أسلموا مقادتهم في طريق معرفة الله إلى العقل وحده ، ثم دَفعوه دفعاً في طريق مستوعرة لا قِبل له بمعرفة شيء من معالمها ، ولا سند له فيها إلا بوارق الفطرة الكامنة في أغوار النفس الإنسانية ، فلما عجز العقل أن يأتيهم من جهده بشيء ، تخيلوه مرة في الأفلاك العظيمة

المحيطة بالكون ، ومرة في العقول الكبرى التي قالوا : إنها هي التي تُدبِّر نظام الموجودات وتُسَيِّرُ دفة الأكوان. . . ، أما في أسوأ الأحوال فمصيرهم كمصير أولئك الذين أَلَّهوا الحجارة أو الأشجار أو دانوا بالعبودية للنيران أو الأبقار ! .

أما لو تُرك الإنسان مع أدلة النقل والأخبار وحدها ، فإنه لن يجد بينه وبينها أي جِسر يبعث في فكره تفاعلاً أو تجاوباً ، ولسوف يمر من جانب تلك الأخبار والنقول كما يمرُّ السُّكارى ، دون أي التفات إليها أو تأثر بها ، ومن ثم فإنه لن يَبتغي بالإلحاد والجحود بديلاً ، فإن رأيته قد تحلى مع ذلك بشعار الإيمان ومظاهر الإسلام ، فذلك منبعث لديه من عامل العصبية أو التقليد ليس غير ، كما هو شأن كثير من الناس اليوم ، ومثل هذا الإيمان أو الإسلام لا يُصلح لصاحبه حالاً ولا يُقربه إلى الله شروى نقير .

فكان من فضل الله على عباده أن وضعهم على منهج يدعمه كل من دليلي العقل والنقل معاً ، ومن ثم فقد كان لا بُدَّ لهذا المنهج أن يَهديهم إلى القصد الذي يَتقبله العقل ولا يُخالفه ، ويَسير بَعيداً عن كل إفراط وتفريط .

وما شرَدَ أولئك الذين تاهوا عن جادة القصد نحو أيِّ غُلُوٍّ ذات اليمين أو ذات الشمال ، إلا بمقدار ما أجحفوا وجاروا في الاحتكام إلى كفتي العقل والنقل من الميزان المنهجي الذي أكرم الله عز وجل به عباده ، وإنما تتجلَّى نِسبة غُلُوِّهم بمقدار نسبة إهمالهم لإحدى هاتين الكفتين وانصرافهم إلى الأخرى .

فالمعتزلة مَثلاً لما بَالغوا في تَوظيف العقل والاعتماد عليه ـ مُعرضين بمقابل ذلك عن النقل وضوابطه ـ ابتعدوا بقدر ذلك عن جادة العدل وأوسط الأمر ، وانقذفوا أشواطاً نحو غُلُوِّ الفلاسفة وتطرفهم الذي أشرنا إليه ، وفي غمار شرودهم هذا استجابوا لما تخيلته عقولهم الكليلة من أن الإنسان هو الخالق لأفعاله الصادرة منه ، وأن مِن المستحيل أن يَرى ربه يوم القيامة ، وأن إرادة الله تعالى لا تَتعلق بالمعاصي والشرور .

والجبرية والمجسدة لما بَالغوا في إهمال العقل ، وصفدوا أذهانهم في أغلال من ظواهر الألفاظ والنصوص ، نسبوا إلى الله الجبر وجردوا الإنسان من أي إرادة واختيار ، وساووا بين الله ومخلوقاته في كثير من المعاني والصفات .

ومن الواضح أن كُلاً من هذين التصورين يمثل شُروداً خَطيراً عن الوسطية التي يَرسمها كتاب الله عز وجل ، ويُوصي الناس باتخاذها مِيزاناً في فَهم حَقائق الكون والتعامل مع أصول المعايش والحياة ، ألا يرونه يقول : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، وأساس هذا المنهج العدل أن حقائق الحياة مُؤلفة من مَزيج من المحسوسات المادية الحاضرة ، وغُيوب ماضية أو آتية في المستقبل القريب أو البعيد . أما سبيل معرفة المحسوسات المادية الحاضرة ، فالنظر العقلي القائم على التجربة والمشاهدة ، وأما سبيل معرفة الغيوب الآتية أو الماضية ، فإنما هو الخبر اليقيني ، إذ يأتي من

المصدر الذي ثبت باليقين أن إليه مرد تلك الغيوب ، وأنه المدبر لها والقاضي بشأنها .

ولا تتكامل المعرفة الصحيحة إلا عندما تكون نسيجاً مؤلفاً من سدى ولحمة كل من هذين المصدرين يتحقق معنى الوسطية في التفكير والبحث العلمي ، ومن جراء اصطباغ هذه الأمة بهذه الأمة بهذه الصبغة العادلة ، كانت كما سماها الله تعالى أمة وسطاً .

ثم إن الإنسان إذا هُدِيَ إلى الحق واستقر الإيمان بالله عز وجل في يَقينه العقلي ، لا بُدَّ أن تقع عواطفه تحت تأثيرات مُتنوعة من هذا الإيمان ، قد تسلمه إلى ألوان من التَّطرُّف والغلو الوجداني من شأنها أن تَشفي ، وقد تهلك في كثير من الأحيان .

غير أن التربية القرآنية تجعل الإنسان المؤمن في حِصن حَصين يَقيه شَرَّ تِلك الغوائل ، إذ يَحتمي منها بوسطية عاطفية تنسجها في أعماق وجدانه تلك التربية القرآنية المثلى ، وتتكفل بالمحافظة على جَذوة الإيمان بالله يَقيناً صافياً في العقل وتأثيراً موجهاً في العاطفة والنفس ، كما تضمن له في الوقت ذاته التعامل مع أسباب الحياة والتعاون مع إخوانه في النهوض بعمارة الأرض وإقامة الحضارة الإنسانية المثلى فيها على أساس علمي سليم . وبيان هذا أن الإنسان نَزَّاع بفطرته إلى المعرفة وحب الاطلاع وسبر أغوار الأمور واكتشاف كنهها ، فإذا آمن العقل بوجود الله ووحدانيته وسائر ما يَتصفُ به من صفات الكمال ، لم يقنع من معرفته بالوقوف عند هذا الحد ، بل الشأن فيه أن يَقدح زناد الفكر في ذاته سبحانه وتعالى ، وأن يُحاول الوصول إلى معرفة كنهه ،

كما يُحاول في العادة الوصول إلى معرفة كُنهِ أي شيء آخر يَلفت نظره ويشغل فكره .

ولكن المنهج القرآني يَصرف الإنسان عن التأمل في ذات الله عز وجل والبحث في كُنهِه ـ إن صح التعبير ـ إلى بيان صفاته العلية التي تفرد بها ، وإلى تنزهه عن النقائص التي يُمكن أن يتخيَّلها الذهن ، فإن تجاوزت الآيات القرآنية هذا البيان ، لم تزد على تأكيد أنه عز وجل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص : ٤] ، وذلك حجزاً للفكر أو الخيال الإنساني عن أن يَشتط في التأمل أو التخيل ، فيقع في المتاهات الباطلة ، ويخلع على الخالق ما هو مُنزه عنه من أحوال المخلوقين وصفاتهم .

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه ، أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قالوا لِرَسولِ اللهِ ﷺ : انْسُبْ لَنا رَبَّك ، فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾(١) [الإخلاص : ١ـ٤] .

ولما أبى بعض الناس إلا أن يتجاوزوا هذه الحدود العادلة المتفقة مع حدود الطاقة العقلية لدى الإنسان ، وأن يحملوا عقولهم حملاً على ما لا قبل لها به ، من التفكير في ذاته حقيقة ، وحقيقة وجوده ؛ خانتهم قدراتهم العقلية ، ووقعوا في أوهام وأخيلة باطلة ، كوهم وحدة الوجود الذي انجرف فيه بَعض الأقدمين والمتصوفين ، ثم

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، باب ومن سورة الإخلاص ، برقم : (٣٣٦٤) .

انساق فيه كثير من المتفلسفين الغربيين ، وَكَوَهمِ أن لله عز وجل جهة يتحيز فيها ، وأن له يَداً كأيدينا وعيناً كأعيننا ، كما يتوهَّم الوهابيون ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولم يَكن ذلك إلا نتيجة الشرود عن وسطية الإسلام ، فيما قد رسمه من منهج النظر والفكر ، وأثر الغُلُوّ الذي تمثَّل في تحميل العقل ما لا قبل له بحمله ، وسوقه في طريق لا عِلم له به ، وليس لديه أي خَبر عن شيءٍ من طبيعته ومعالمه .

ثم إن المنهج الإسلامي يأخذ الإنسان بعوامل تربوية معتدلة ، إذ يَصبغ شُعوره بمزيج مُتكافىء من العواطف الدافعة والرادعة والممجدة تجاه مولاه وخالقه عز وجل ، وبذلك يستقر وسط دائرة تحيط به من أطرافها عوامل عاطفية متكافئة من الحب والخوف والتعظيم والتقديس لله عز وجل ، أي فلا يهيمن عليه من الخوف ما قد يزج به في اليأس ، ولا يجتاحه من الأمل والحب ما قد يسلمه إلى الأماني والأحلام ، ويجعله يتمنى على الله ما ليس له .

إن بوسع كل من يتدبر كتاب الله تعالى أن يتبين الميزان التربوي العجيب للعواطف الإيمانية المتنوعة والمتكافئة التي يبثها القرآن في منهج تربوي عجيب في مشاعر الإنسان وقلبه ، فنحن لا نكاد نجد في القرآن آية تسلّم الإنسان إلى رهبة مجردة من بوارق الرحمة والأمل ، أو تُمَنِّيه ببشارة صافية عن شوائب الخوف ، بل إن من القواعد الكلية في كتاب الله عز وجل أنَّه لا يُذَكِّرُ الإنسان بشيء من صفات السطوة والانتقام لله عز وجل إلا ويُذَكِّره إلى جانبها بصفات الرحمة

والغفران ، ولا يُحَدِّثه بشيءٍ من صفات الجنَّة ونعيمها إلا ويُحدِّثه إلى جانبها عن جهنم وعذابها .

وإنكم لتجدون أن القرآن كلما وصف أهل الجنة وصفهم بأرقى أعمالهم وأجل صفاتهم ، وكلما وصف أهل النار وصفهم بأسوأ أعمالهم وأشدها تسبباً لسخط الله وغضبه ، والحكمة من ذلك أن المسلم إذا عرض نفسه على صفات أولئك الذين استأهلوا كرم الله وجنته ، وجد نفسه دون مستوى تلك الصفات ، فإذا عرض نفسه على حال الذين باؤوا بسخط الله واستحقوا عقابه ، وتأمل في صفاتهم ، رأى نفسه خيراً منهم ، فيتجاذبه من مجموع هذين الموقفين كل من الأمل برحمة الله عز وجل والخوف من عقابه ، وتلك هي التربية القرآنية المثلى التي تضع الإنسان المسلم على صراط مُعتدل تتمازج فيه العواطف والمشاعر الإنسانية المتعددة ، دون أن يَطغى بَعض منها على بعض ، بحيث يزجه في غلو من الإفراط أو التفريط .

❊ ❊ ❊

وسطية الإسلام
في الفروع والأحكام السلوكية

يتعرَّض الإنسان في سلوكه لأنواعٍ كثيرةٍ من الجنوح نحو الإفراط أو التفريط ، وجُلُّ ذلك يتفرع من عاملَين اثنين لا ثالث لهما :

العامل الأول : عدم معرفة الإنسان ذاته معرفةً ماهوية صحيحة .

وهو الأمر الذي لا بُدَّ أن يزج به ـ على الأغلب ـ في إفراط من الكبر والطغيان ، أو أن يُوقعه في تفريط من المهانة والضعف ، ومن هذا الإفراط أو التفريط يتكون أحد شطري الفساد في المجتمعات الإنسانية ، منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا .

العامل الثاني : عدم تعرف الإنسان إلى حقيقة المكونات التي من حوله ، ومدى أهميتها في حياته ، فإن هذا الجهل لا بُدَّ هو الآخر أن يزج في إفراطٍ من التعلق بها والركون إليها ، أو في تفريط من الإدبار عنها ونفض اليدين منها ، ومن هذا الغلو الثاني يتكون الشطر الآخر من فساد المجتمعات الإنسانية قديماً وحديثاً . ولعلنا لا نتجاوز الحقيقة إن قلنا ، إن سائر مظاهر الجنوح السلوكي في حياة المجتمعات والأفراد ، متفرعة عن هذين العاملين الخطيرين ، ولكن تعالوا فلننظر ، كيف وضعت التربية الربانية من خلال التعاليم الإسلامية ، الميزان الدقيق أمام بَصيرة الإنسان ليستعمله فيتقي به مزالق الجنوح إلى أي إفراط أو تفريط ، بصدد أيّ من العاملين

المذكورين وليتخذ لنفسه ـ في ضوء هذا الميزان ـ سبيلاً عدلاً وسطاً إلى التعامل مع ذاته وبني جنسه ، والتعامل مع الدنيا وكل ما فيها من المكونات .

ولنبدأ ببيان معالجة الإسلام للعامل الأول ، وحسبنا في هذه الدراسة أن نعتمد على كتاب الله عز وجل ، الذي هو الدعامة الأساسية والأصل الأول لدين الله عز وجل .

يُنَبِّه القرآن الإنسان إلى ذاته الإنسانية من خِلال تبصيره بحقيقتين اثنتين ، داخلتين في قوامه ، وتكوينه الإنساني ـ وإن كان بينهما في الظاهر ما يُشبه التناقض أو التضاد ـ :

الحقيقة الأولى : أنَّه مَخلوقٌ تَافِهٌ أَصلُه من تراب ، وسلالته من ماء مهين ، والشأن فيه ـ إنْ طالت به الحياة ـ أنْ يعود إلى أَرذل العمر ، فلا يعلم بعد علم شيئاً ، وينسى معظم ما كان يذكره ، وأن تخور منه القوة والعزيمة فينتهي إلى مثل ضعف الطفولة الأولى .

ولنصغ إلى بعض من الآيات التي تبصّر الإنسان بهذه الحقيقة :

ـ ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ [عبس : ١٧ـ٢٢] .

ـ ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق : ٥ـ٧] .

ـ ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [يس : ٧٧] .

ـ ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ﴾ [الروم : ٥٤] .

أما **الحقيقة الثانية** التي تُشَكِّل الشطر الآخر من الهوية الإنسانية فيما يُبصرنا به القرآن ، فهي : أن الإنسان هو ذاك المخلوق المكرم على سائر المخلوقات ، وأنه ذاك الذي استأهل أن يُكلِّفَ اللهُ الملائكة بالسجود له ، مُتمثلاً في شخص أبيه آدم عليه الصلاة والسلام ، وأنه الذي شرفه اللهُ بالخلافة فوق هذه الأرض ، وأنه الحيوان الوحيد الذي جهزه الله بالعقل والفكر والقدرة على إدارة الأمور وتسخير كثير من المكونات له .

ولنُصغ أيضاً إلى بعض من الآيات القرآنية التي تُبَصِّرُ الإنسان بهذه الحقيقة الثانية من ذاته :

ـ ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٠] .

ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٨] .

ـ ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ [لقمان : ٢٠] .

فما وجه تركيز القرآن على كل من هاتين الحقيقتين معاً ؟ وما وجه الاستمرار في تذكيره الإنسان بضآلة وتفاهة أصله ، مع تذكيره في الوقت ذاته بالمكانة التي يتبوؤها ، وبأهمية وجوده وخطورة الصفات النادرة التي ركبت فيه ؟

وجه ذلك أن الإنسان لا يتَأَتَّى له أن يُعمر هذه الأرض عِمارة حَضارية سَليمة ، ولا أن يُقيم دعائم السلم الإنساني مُتوجة بالكرامة الإنسانية الصافية ، إلا إذا عَاش في ظل هذه التربية القرآنية التي تُغذيه بكل من هاتين الحقيقتين معاً ، وذلك بأن يَظل مُتذكراً تفاهة أصله وضآلة شأنه وذُل نهايته لِيمارس بذلك عبوديته لله عز وجل ، وأن يكون على علم في الوقت ذاته بما قد مَتَّعَهُ الله به من صفات وملكات نادرة ، وبما قَد مَيزه به من سُمُوٍّ في الرُّتبة والمكانة على كثير من المخلوقات ، لِيَتأتى له أن ينهض بوظائفه في الحياة .

ذلك لأن مَن عاش لا يَتبصر مِن ذاته إلا مَظاهر ضعفها ودلائل تفاهتها ، جَدير به أن يَركن إلى ضعفٍ يَجعله ضَحيةً لِطغيان الجبابرة والمتكبرين ، ويُبعده عن القُدرة على إِنجاز أيِّ عَمل أو خِدمة إنسانية مما قد حمله الله تعالى مَسؤولية النهوض به ، ومَن عاش وهو لا يَعرف من ذاته إلا أنه الإنسان المكرم الذي يَملك مِن المزايا والطاقات ما يُخوله أن يَبسط لنفسه حكماً وسلطاناً على كل من حوله ودونه ، جَدير به أن يَسكر بنشوة تلك الصفات ، وأن يَجعل مِن نَفسه حَاكماً من دون الله عز وجل يَبسط قَهر رُبوبيته الزائفة على سائر مَن حوله من المستضعفين .

وبالجملة ، فإن الشأن فيمن لم يَتنبه ـ في يَقظة عقلية واعية ـ إلى مجموع هويته الإنسانية المؤلفة من كلا هذين الشطرين ، أن يتطرف إما إلى سبيل من التكبر والطغيان إن سنحت له الظروف وأمكنته الفرصة ، أو إلى سبيل من المهانة والخنوع إن خانته الظروف وخيبته الآمال ،

ومن كلا هذين السبيلين المتطرفين يتحقق ما يسميه القرآن : الفساد في الأرض .

فما فسدت هذه الأرض يوماً ما بعادية من عوادي الطبيعة ، ولا بسوء ألمَّ بها من هياج الحيوانات والوحوش ، وإنما استشرى فيها الفساد وألمّ بها البلاء ، يومَ تاه بنو الإنسان عن هوياتهم وواقع أحوالهم وحقيقة خصائصهم البشرية ، فتَألَّهَ الأقوياء وذَلَّ الضعفاء ، وخرج بذلك كل فريق عن حدود إنسانيته ، ذلك نحو التجبر والتعالي في الأرض ، وهذا نحو الخنوع والهوان ، فتمزقت بذلك مما بينهم آصرة التعاون واهتاجت عوامل البغضاء ، ثم انتشر فيما بينهم وباءُ التَّهارُج والقتل . فتمَّت بذلك قصة الفساد في الأرض ، وهي قصة قديمة حديثة ، تتكرر بتكرار عواملها وأسبابها ، والمهم أن نعلم أن الأسباب هي الأسباب ذاتها ، وأحداث القصة هي الأحداث ذاتها مهما تطورت الدنيا واختلفت المدنيات والثقافات .

وأما الإنسان الذي ربيت مداركه العقلية ومشاعره النفسية على كلا هذين الغذاءين بمزيجهما القرآني المعتدل ، فالشأن فيه أن تتنامى بين جوانحه هويته الإنسانية الكاملة ، ولا بُدَّ أن تقيه هذه التربية القرآنية من الشرود إلى أي تطرف أو جنوح عن خط الوسطية والاعتدال ، فلا هو يركن إلى الخنوع والذل للآخرين مهما تجمعت عليه أسباب الضعف أو مظاهر الفقر والحرمان ، ولا هو يطمح إلى شيء من التسلط والبغي مهما أتيحت له أسبابها وتفتحت أمامه سبلها . غير أن ينبوع هذه التربية القرآنية التي تضع الإنسان من حياته السلوكية على صراط الاعتدال ،

إنما هو اليقين بربوبية الله الواحد الأحد ، وما يترتب عليه من تصور العلاقة القائمة بين الإنسان وخالقه عز وجل ، وهي علاقة العبودية المطلقة من المخلوق لخالقه ، والخضوع الحتمي المطلق من المملوك لمالكه ، فبهذا اليقين وحده يتهيأ الإنسان أن يصحو إلى معرفة ذاته ، ثم إن هذه المعرفة هي التي تهديه إلى قصد السبيل بين طرفي الإفراط والتفريط ، فإن لم يتحقق هذا اليقين على وجهه الصحيح ، كان المآل ـ بدون ريب ـ أن يتخذ الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ، ولا بدَّ أن يكون مآل ذلك الفساد لنفسه ولبني جنسه ، وما أشد وضوح هذا الواقع في قول الله عز وجل : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

والآن فلنتأمل في معالجة الإسلام للعامل الثاني ، وقد قلنا : إن جُلَّ عوامل الإفراط والتفريط في حياة الإنسان السلوكية مُتفرعة من عاملين اثنين : أولهما عدم معرفة الإنسان ذاته معرفة صحيحة كاملة ، ثانيهما عدم تعرف الإنسان إلى حقيقة المكونات التي من حوله ومدى أهميتها في حياته . ونقول باختصار في بيان كيفية معالجة الإسلام لهذا العامل الثاني : الحقيقة أن القرآن يَعرف الإنسان على المكونات التي من حوله ومدى أهميتها ، بالطريقة ذاتها التي عرفه بها على ذاته وهويته ، فإن القرآن يبدأ فينبه الإنسان إلى أنها أعراض تافهة زائلة ، ويُحذره من أن ينخدع بها أو يركن إليها . وإننا لننظر فنجده يُؤكد بأن مُعظم هذا الذي يَبرق في الأعين مَرآه وتَستهوي النفوس لذته ، إن هو إلا سراب باطل وظل زائل ، وأنه أشبه بالرؤى التي يمر بها النائم ،

يَظن وهو في نومه أنه أمام حقائق يُمارسها ويتقلب فيها ، وما هو إلا أن يَستيقظ حتى يَعلم أنه كان في حُلم لا حقيقة له . وإن القرآن لَيفيض بالآيات التي تَتفنن في إبراز هذه الحقيقة ، ولنستعرض طائفة منها : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ [آل عمران : ١٤] ، ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [آل عمران : ١٩٦] ، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا﴾ [الحجر : ٨٨] ، ولو أنَّا تأملنا هذه الآيات وحدها ووقفنا عندها في السعي إلى معرفة الموقف الذي يجب اتخاذه من الدنيا وأسبابها ، إذن لوجدنا أنفسنا أمام ضرورة نبذها واطراحها ونفض اليدين منها ، ولما كان يحق لنا أن نأخذ منها إلا قدر الضرورة وبلغة الحياة ، ذلك هو الخطأ الذي انجر إليه بعض ممن وقفوا عند حدود هذه الآيات وظاهرها ، ولم يَصلوها بما يتمم بيان المقصود منها ، من آيات كثيرة أخرى ، ففسروا الزهد على غير وجهه المطلوب ، ثم تعلقوا منه بصورة لم يَأت بها كتاب ولا أيدتها سنة ، إذ هجروا العمران وانساحوا في القفر من الأرض ، واتخذوا من الكهوف مثابة لهم ، ولم يحملوا أنفسهم مَؤونة أسرة يُنشئونها أو رزق يَكدحون من أجله ، ولم يَكتَفُوا بهذا الذي فَعلوه بأنفسهم حتى أخذوا يَدعون الناس جميعاً إلى اتباعهم في ذلك ، زاعمين أن سلوكهم هذا هو المعني بالزهد الذي أَمرت به تلك الآيات وأمثالها ، ولكن البيان الإلهي لم يَقف في شرح حقيقة الدنيا وبيان قيمتها عند حدود تلك الآيات التي عَبَّرت فِعلاً عن تفاهتها وحذرت من الركون إليها ، بل عَاد الخطاب الإلهي فَندَبَنَا ـ على الرغم مما وصفها به ـ إلى التعامل معها ، وأمرنا بمد يد الاستفادة

إليها ، بل حذرنا من التأثم في الإقدام عليها .

ولنصغ إلى طائفة من هذه الآيات ، ولنتأمل كيف تَبدو وكأنها استدراك على ما قد يَفهمه الإنسان من تلك الآيات السابقة ، يقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، ويقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٧] ، ويقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة : ٢٩] ، هذه الآية عُمدة علماء الشريعة الإسلامية في أن الأصل في الأشياء كلها الإباحة ، ويقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك : ١٥] .

وتتلاقى تفاصيل هذه الآيات وغيرها مُجتمعة في قوله عز وجل : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود : ٦١] ، أي كلَّفكم بعمارتها ، بأوسع ما تدل عليه كلمة العمارة من معنى ، ومن هنا يَتبدى لنا أن تِلك الآيات التي أوضح الله فيها هوان الدنيا وتفاهتها ، ما يَنبغي أن تُفهم بمعزل عن هذه الآيات الأخرى التي بَين الله فيها واجب الإنسان تجاهها .

ولكن ، ما الحكمة من هذا المد والجزر ؟ وكيف السبيل إلى التوفيق بين هاتين الطائفتين من الآيات ؟ أي كيف يتأتى للإنسان أن يغرس في نفسه القناعة التامة بأن الدنيا بكل ما فيها ظل زائل وسراب باطل ، ووهم لا يجوز الانخداع به ، ثم أن يُقبل عليها مع ذلك متتبعاً خيراتها مستفيداً من ذُخرها ، يَبني لنفسه من ظلها وسرابها

قصوراً شامخة ويُنشىء منها جناناً وارفة ؟

والجواب : أن الحديث عن هذه الحكمة حديث طويل الذيل ، وهي بجملتها تنطوي على الحل الوحيد لتلك العقدة الكبرى التي كانت ـ وما تزال ـ تَقف في طريق السعي إلى إنشاء مجتمعات أو حضارات إنسانية مُثلى تحمل في داخلها أسباب بقائها ، وقَلَّ مَن تنبه إلى هذه العقدة من الناس والأمم بعد ، فضلاً عن أن ينتبهوا إلى سبيل لحلها ، اللهم إلا مَن وَعى هذه الحكمة من تلاقي الطائفتين المتقابلتين من الآيات القرآنية التي تُحلل قيمة هذه الحياة الدنيا ووظيفة الإنسان تجاهها .

إن القرآن بهذين البيانين المتوازيين في تكافؤ دقيق عن المكونات الدنيوية التي تطوف بالإنسان ، إنما يحل هذه العقدة الحضارية التي طالما استعصى حلها على الأمم والباحثين ، بل المتخصصين بهذا الشأن . ذلك لأن مجموع هذين البيانين المتقابلين عن قيمة الدنيا والموقف الذي يجب أن يَقفه الإنسان منها ، يُعبر عن شرط أساسي هام يجب أن يَأخذ الإنسان نفسه به عند الإقبال إلى الدنيا والتعامل معها ؛ ألا وهو أن يُمارس الناس دُنياهم وأسباب معايشهم بدافع وظيفي وبروح استشعار للمسؤولية الملقاة على عاتقهم ؛ لا بدافع التعلق بها والتعشق النفسي لها ! ولن يتحقق ذلك ـ بطبيعة الحال ـ إلا إذا اجتثت محبة الدنيا ومُغرياتها من قلوبهم ، وأدركوا تفاهتها وخطورة الاغترار بها ، وهيهات أن يتم ذلك إلا بعد اليقين بوجود الخالق عز وجل ، ثم الإصغاء بثقة ويقين إلى بيانه هذا عن حقيقة

الدنيا وقيمتها . فإذا استيقن الناس ذلك فإن أفئدتهم لن تقع في أسر الدنيا ومغرياتها ، وستتحرر نفوسهم ـ ولا ريب ـ مِن بلاء التعلق بها والتعشق لها . فإذا كلفهم الله بعد ذلك باستخدامها لعمارة الأرض وإنشاء المجتمع الإنساني السليم فوقها ، فسيقبلون إلى ذلك كله إقبال من قد كلف بأمر ؛ فهو ينشط من أجل ذلك في سبيل تحقيقه وإنجازه .

صحيح أن مِن شأن النفس البشرية إذا ذاقت ملذات الدنيا ومارست نعيمها أن تركن إليها وتتعلق بها ، ولكن هذا يُمكن أن يتم بالنسبة إلى مَن لم يَفهموا بعد حقيقة الدنيا ، أو فهموها ولكن بميزان فكري مجرد ، أي بعيداً عن سلطان العواطف والوجدان . غير أن الأسلوب القرآني لم يقف في توجيه النفوس إلى هذا السبيل العدل الدقيق عند إقناع العقول فقط ، بل أضاف إلى ذلك لفت النظر بسائق من الرغبة والرهبة إلى ما هو خير وأبقى من هذه الدنيا ، وكل ما تفور به من أهواء ومغريات ، ويظل البيان الإلهي يكرر ذلك ويؤكده ، ويستثير عواطف الإنسان وأشواقه إلى ذلك البديل من النعيم الأبدي المقيم . فإذا رُبِّيَ الإنسان على هذه التبصرة القرآنية ، فإنه مهما تذوق من نعيم الدنيا ورغدها ، فإن أشواقه تَظل مَشدودة تواقة إلى ذلك النعيم الأكبر الذي لا ريب عنده في حصوله ، وإن نفسه تظل مشرئبة إلى اليوم الذي يبلغه فيه النداء المبشر : ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣] ، و﴿ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] ، وتلك هي الضمانة لأن يُمارس الدنيا ممارسة الحاكم عليها المستخدم

لها ، طبق نظام معين وضمن حدود مرسومة ، ومن أجل الوصول إلى هدف عال مقدس . على حين لن تستطيع الدنيا أن تسكره فتستخدمه وتستعبده ثم تطوح به ، وعند هذه الضمانة الهامة يختبىء مفتاح الحضارة ، وعندها يكمن السر الذي يمدها بأسباب الاستقرار والبقاء ، وبعينه المفتاح الذي عثر عليه الرعيل الأول من هذه الأمة ، بعد أن بحثوا عنه تحت نبراس الكتاب الرباني . لقد أيقنوا بتفاهة هذه الدنيا وهوانها ، وبأنها وهم باطل ، فاستخرجوا محبتها من قلوبهم ، ثم أقبلوا إليها إقبال المستخدم لها ، نهوضاً بالرسالة التي كلفهم الله بها ، وسعياً لإقامة المجتمع الإنساني الصحيح الذي كلفهم الله عز وجل بإقامته ، وتلك هي الوسطية المثلى التي حررتهم من الوقوع في براثن الدنيا والتطوح سكراً بنعيمها ، كما حررتهم من شبح ذلك الخوف الوهمي من الاستفادة منها والتعامل بها ، وما الزهد الحقيقي إلا ممارسة هذه الوسطية التي رباهم الإسلام عليها ، فاستخرجوا حبها من قلوبهم ، ثم استخدموا كل أسبابها لحياتهم .

وإن في تاريخ ذلك الرعيل الأول لتجارب كثيرة تجسد هذه الحقيقة ، وتغذي العقول الحرة بما شاءت من معاني العبرة ، وفي استعراض سريع نَمُرُّ بطائفة من هذه التجارب عسى أن تنير الفجاج المظلمة التي يتطوح فيها كثير من الحيارى أو التائهون اليوم .

أولى هذه التجارب تبدو في حياة المصطفى ﷺ ؛ فقد سيقت إليه الدنيا ذات يوم وهو يمر بأحلك ظروف الدعوة وأشدها عسراً والتواء عليه ، ممثلة في الملك والمال والزعامة والنساء ، على أن يتخلى عن

الإسلام الذي بعث به ، فماذا لو أنه عليه الصلاة والسلام أقبل إلى هذا الذي عرض عليه بسائق الرغبة الغريزية والتعلق النفسي ؟ إذن لخسر الدعوة ونتائجها ، ولما تمتع بالملك والمال إلا إلى أمد قصير ، أقصاه نهاية حياته عليه الصلاة والسلام ، ثم ينتهي كل شيء ويزول المال والملك ، ولا تنهض حضارة ولا تتحقق رسالة ولا ينتشر دين ، ولكنه ﷺ نظر إلى الدينا التي عرضت عليه من خلال قرار عقله وتفكيره ، ومن مستوى المسؤولية التي كان يتحملها ، فترفع عليها وأشاح بوجهه عنها ، وهو يُعَلِّم الناس والأجيال أن خير سبيل إلى الاستفادة من الدينا والهيمنة عليها أن يحرر الإنسان نفسه من سلطانها .

أما التجربة الثانية فهي تجربة الهجرة إلى المدينة المنورة ، فقد شاء الله تعالى أن يَقوم تعارض حاد بين ما يمتلكه أصحاب رسول الله ﷺ من وطن وعقار ومال ، وما وقر في نفوسهم من حقائق الإسلام وضرورة النهوض بأحكامه ومسؤولياته ، فماذا يصنعون ؟

لقد اتخذوا قرارهم بقيادة رسول الله ﷺ وهجروا الوطن والعقار والمال ، بل تقطع كثير منهم حتى عن الأهل والأولاد ، واتجهوا شطر يثرب التي كانت تعاني آنذاك من سوء المناخ وتفوح بأنواع الوباء ! فماذا كانت نتيجة التجربة ؟ لقد أعاد الله إليهم الوطن الذي تركوه ، وامتدت لهم منه أوطان كثيرة أخرى ، وفتح الله عليهم بدلاً من الأموال القليلة التي تخلوا عنها أبواباً عَريضة من الثروة والغنى ، ودان لهم أولئك الذين أخرجوهم من الديار وساموهم ألوان العذاب !

وبوسعنا أن نجد تجارب سلوكية كثيرة في حياة رسول الله ﷺ وحياة أصحابه والتابعين من بعدهم ، جاءت تطبيقاً للتعليمات القرآنية لكيفية التعامل مع الدنيا ، بل مع الكون والحياة عموماً ، وهي تتلخص ـ كما علمنا ـ في أن يتحرر الإنسان من حبها وذل التعلق بها من خلال التأمل الدائم في الصفات التي وصفها الله عز وجل بها ، ثم يقبل عليها فيستخدمها أداة مُسخرة في بناء المجتمع الإنساني الرشيد الذي أمر الله تعالى ببنائه . وإن في نشأة الحضارة الإسلامية ـ التي آذنت بزوال عهود الحضارات الأخرى ـ ما يُجسد هذه الحقيقة أروع تجسيد ، ولعل سياسة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبرزت الوجه الدقيق لتطبيق هذا القانون الرباني الذي يَرسم كيفية التعامل مع الحياة ومكوناتها ، حتى لكأنَّه في ذلك يُعَلِّمُ أئمة المسلمين وحكامهم بعد رسول الله ﷺ كيفية تطبيق هذا القانون ، وكيفية استخدام الدنيا من خلالها إلى أبعد مدى ممكن ، فلقد مصّر الأمصار ، وبنى الكوفة والبصرة ، وأشرف بنفسه على هندسة البناء واتساع الشوارع ومدى ارتفاع البنيان ، وشرع في إنشاء أسطول من السفن ، ونظم لأول مرة نظاماً لصادرات الدولة ووارداتها ، وسهر على رفع مستوى الدخل ، وسدّ حاجات الجند ، ووجه المسلمين إلى أخذ زمام التجارة من الأنباط .

روى ابن الحاج في المدخل ، أن عمر بن الخطاب دخل السوق في خلافته ، فلم ير فيه الغالب إلا النبط ، فاغتم لذلك ، فلما اجتمع الناس عاتبهم على ترك السوق والأعمال التجارية ، فقالوا : إن الله

أغنانا عن السوق بما فتح علينا ، فقال رضي الله عنه : والله لئن فعلتم ليحتاجن رجالكم إلى رجالهم ونساؤكم إلى نسائهم . ولكن عمر ظل ـ على الرغم من انهماكه في ذلك كله ـ لا يُؤْثِر على مَرْقَعَتِه البالية أي ثوب ، وبَقِيَ يَسير في حياته الشخصية على صراط من الزهد والاخشيشان ، وهو لو شاء أن يتجمَّل في لباسه ويُرفِّه عن نفسه ويعطيها حقَّها من الدنيا ، لما وجد ما يمنعه من ذلك . غير أنه ـ وقد تمثلت في ذهنه الحقيقة التي أوضحناها ـ خَشي إن هو أرخى لنفسه الزمام إلى شيء من الدنيا وشهواتها أن تَركن إليها فلا تصبر عنها ، فتجمح به وتركب إلى بلوغ أهوائها الصعب والذلول ، فيغدو عندئذ أسيرًا في يد الدنيا بعد أن أعزه الإسلام ، فجعلها أسيرة في يديه ، ولو لم تكن الدنيا قد فُتحت عليه من أطرافها لما كان ـ ربما ـ لذلك التخوف من موجب ، ولكن اندلاق الدنيا عليه فرض عليه الأخذ بكوابح الحيطة والحذر . ثم لعله كان يَحرص كل الحرص على أن تتبين الأمم الأخرى في حياة المسلمين تلك الحقيقة ، فيأخذوا لأنفسهم العبرة منها ، فكان يُصِرُّ إصراره على أن يُبصر العالم كله سَعيَ الدنيا وراءهم ؛ على الرغم من إعراضهم عنها وتزهدهم فيها ، وذلك كي لا يُخطئوا فيظنوا أن العرب إنما اندلقوا إلى الدنيا التي حَولهم بعد طول احتباس في جزيرتهم التي كانوا قَابعين فيها ، لِجُوع دنيوي عَضَّ على بطونهم ، أو لشهوة إلى النعيم اهتاجت في نفوسهم ، من أجل هذا أصر ـ حينما قدم إلى الشام ـ على ألا يستقبله أجنادها وبطارقتها إلا وهو يرتدي جبته البالية التي كان قد ألصق بها اثنتي عشرة رقعة

بعضها من جلد ، وقال لأبي عبيدة ـ وقد همس في أُذنِه مُعاتِباً على ذلك ـ : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ، فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله .

ألا فلنعلم أن أولئك الناس من الرعيل الأول الذين نشأت على أيديهم الحضارة الإسلامية ، لو لم يَستهينوا بالدنيا ويَضعوها من المهانة في الموضع الذي جعلها الله فيه ، إذن لوقعوا في نطاق جاذبيتها ، وإذن لما نالهم منها إلا سيلان اللعاب وراءها ، ولارتدّوا إلى أوطانهم خائبين خاسرين ، ولكنهم التزموا الوسطيّة التي رباهم الإسلام عليها ، وهي استخراج حب الدنيا وأهوائها من القلب ، ثم سوقها من زمام التسخير والاستخدام لعمارة الأرض وإقامة المجتمع الإسلامي الصحيح ، فأخضع الله لهم الدنيا من أقطارها ، وسيَّرَها وراءهم بمقدار ما تسامَوا عليها .

وأخيراً : دعونا نقل كلمة ـ أرجو أن تكون جامعة ـ عن وسطية الإسلام ؛ إذ تسعى بالإنسان في طريق سليم مُعتدل نحو تحقيق سائر حاجاته وأشواقه الإنسانية المختلفة ، في تناسق مُطرد وتوازن دقيق . إن الإنسان ـ كما نعلم ـ ثلاثي التركيب ، فهو مُؤلف من هذا الهيكل الجسدي ، ومن الغرائز الحيوانية المبثوثة في كيانه التي تُشكِّل قاسِمَاً مُشتركاً بينه وبين سائر الحيوانات الأخرى ، ومن الروح التي هي سرٌّ لا مَطمع في معرفة حقيقته ، هذا السر الذي يَنعكس على الدماغ فيكون إدراكاً وعقلاً ، ويُشرق على القلب فَينعكس عليه عَواطفَ ووجْداناً ، ويَسري في خلايا الجسم فيكون شعوراً وإحساساً . وهذه

الروح ليست عبارة عن الحياة التي يحدها المعنى الطبي ، كما يتوهم بعض الناس ، إنما هي سرٌّ هابطٌ من الملأ الأعلى ، ألا ترون إلى قوله عز وجل وهو يحكي خطابه للملائكة : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر : ٢٩] كيف نسب هذه الروح إلى ذاته ، تنويهاً بشرفها وسمو رتبتها ، وإجلالاً لها عن أن يحيط بكنهها عقل إنسان ؟ ومن الثابت يقيناً أن كلاً من هذه العناصر الثلاثة التي ركب منها الإنسان يحتاج إلى غذائه الذي يناسبه ، وما الإسلام في حقيقته إلا مائدة عامرة رصفت فوقها هذه الأنواع الثلاثة من الأغذية في تناسق واعتدال ؛ فنوع منها للجسد ومتطلباته ، ونوع للغرائز الحيوانية التي تعيش في كيانه ، ونوع آخر للروح وأسرارها .

إننا إن عدنا على الإسلام في جوهره وتفاصيله ، فلن نجده أكثر من دعوة للإنسان ذي التركيب الثلاثي إلى أن ينظر إلى كيانه هذا فيتبينه ، ويتعرَّف على حقيقته ، ثم يُقْبِل على تغذيته تغذيةً كاملة ، دون أنْ يُهمل واحدًا من الأركان الثلاثة التي يتألَّف منها ، فلا يدع الجسم لمصلحة الروح ولا يهمل الروح لمصلحة الغرائز ، لا بل عليه أن يُدرك أنَّه إن فعل شيئًا من ذلك عاد بالضرر إلى أجزائه الإنسانية كلها ، فإهمال الروح وتزكيتها يعود بالضرر على مصالح كل من الغريزة والجسد ، سواء في كينونته الفردية أم في تركيبه الجماعي ، كما أن إهمال الجسم أو الغرائز لا بدَّ أن يعود بالضرر إلى مصالح الروح ذاتها .

ولقد رأيت كلامًا رائعًا ودقيقًا في هذا الصدد لشاعر باكستان

وفيلسوفها محمد إقبال ، من خطبة كان قد ألقاها في المحفل السنوي للرابطة الإسلامية في مدينة « الله آباد » عام ١٩٣٠م ، يقول فيه : « إن الإسلام يُقرِّر أَنَّ الإنسان وحدةً كاملة ، دون فصل في الأحكام والمصائر بين المادة والروح ؛ فالقربات التعبدية والمصالح الدنيوية ومساجد العبادة ومناصب الرئاسة وميادين العمل في المادة والروح إنما هي أجزاء متعددة لكلٍّ واحد ، فإن هذا الإنسان لم يَسكن عالماً نجساً يتحتم عليه أن يتخلص منه بالهجرة إلى عالم روحي نقي ، فالمادة التي تَرقى بها تعاليم الإسلام وتنظمها ليست سوى شكل من أشكال الروح ومَظهر آخر لها في حُدود الزمان والمكان .

وقد نَجد بَعض الناس ـ قديماً وحديثاً ـ يُطلقون على الاهتمام بالروح جنباً إلى جنب مع الاهتمام بالجسد وغرائزه اسم التصوف ـ وهذا اصطلاح أُطلق على علم تزكية النفس ـ مع العلم بأنني مُتفاعل مع المضمون الحقيقي له تفاعلاً لا حدود له ، ربما لأن مضمون هذا العلم ـ في حدوده الإسلامية الصحيحة ـ أعظم بكثير من هذا العنوان الصغير ، وربما لأن كلمة التصوف هذه كلمة مُطلقة عن الضوابط والقيود ، يتسنَّى لأي رجلٍ من الناس ـ صاحب أي بدعة ، صاحب أي نِحلة ، صاحب أي فلسفة ـ أن يَضع من الأفكار ما يشاء ، ثم يُسقط على أفكاره هذه عنوان التصوف ، وكم فعل زنادقةٌ ذلك ، ولكم أقدم إباحيون على ذلك ، ومهما يكن ، فإنَّ الميزان الذي يَضع الإنسان من حياته الفكرية والسلوكية على صراط الوسطية والاعتدال ، إنما هو الإسلام في مجموعه ، ذلك لأن الله عز وجل عندما خاطب الإنسان

المبجل في عينه والمكرم لديه ، إنما نَبهه إلى حقائق ، وأمره بأوامر ، لم تكن في مجموعها أكثر من لباس فصل على قدر كيانه ، فكأنه يقول له : هذا هو كيانك الإنساني فاعرفه ، وذلك هو الثوب المفصل على قدرك فالبسه واعتز به ، واجعله وقايةً لك وحِرْزًا في رحلة هذه الحياة التي تجتازها فوق هذه الأرض .

وإنما تَمَّ نَسيج لُحْمة هذا الثوب وسُداه ، وتمَّ تَقْويمُه وتَفْصيلُه بِهديٍ من كتاب الله وسنة رسوله عليه أزكى الصلاة والسلام ، فمن غُمَّ عليه أمره أو أعوزه أن يعرف كيفية ارتدائه واستعماله ، فإنما مَرجعه في ذلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وإنما سبيل الإنسان إلى هذا الالتزام والانضباط ، خشية من الله تأخذ بمجامع النفس ، وحب مع تعظيم لله عزَّ وجل يُهيمن على سويداء القلب . ولا ضير في أن نُسميه ـ بعد ذلك الانضباط والالتزام ـ بما نشاء ، فإنما العبرة بالمضمون والمعاني لا بالألفاظ والمباني .

نسأل الله أن يَجعلنا بمنه وكرمه من أولئك الذين صدق عليهم قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

* * *

(خاتمة)

الأخلاق

إن الأخلاق الإنسانية المثلى لا تستنبت إلا في تربة الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، إن الأخلاق الإنسانية المثلى لا تنشأ إلا في ظلال التربية الإسلامية ، لا التقليدية بل الحقيقية المثلى ، المتمثلة في تنشئة جيل يُؤمن بالله عز وجل حقاً ، ويحتضن عقله الدلائل العلمية لهذا الإيمان حقاً ، ثم إن هذا الإيمان العقلاني يتحول عن طريق التربية إلى عاطفة ووجدان يَهيمنان على الفؤاد ، مِن هُنَا تنشأ الأخلاق الإنسانية المثلى في كيان الإنسان ، ومِن هُنَا يَسري تيار مِنَ القوة في القوانين والشرائع ، ومِن هنا يَسري تيار من القوة إلى العدالة الحقيقية ، ومن هُنا تَكون حِراسة الإنسان لوطنه حقاً ، ويكون حنينه إلى وطنه حقاً ، ومن ذا الذي يُنكر حَنين الإنسان إلى مَسقط رأسه ووطنه ، ولقد علمنا أن رسول الله ﷺ هو سيد من أعلن حَنينه إلى وطنه ، ألم يقل وهو يهاجر من مكة مُلتفتاً إليها : (ما أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ ، وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجونِي مِنْكِ ما سَكَنْتُ غَيْرَكِ)[(١)] .

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، باب في فضل مكة ، برقم : (٣٩٢٦) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال : هَذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ غَريبٌ .

الأخلاق الإنسانية المثلى ليست ذرَّة ضائعة في طوايا التراب بحيث يُمكن أن نَعثر عليها هنا وهناك ، الأخلاق الإنسانية المثلى ـ كما قلت لكم ـ لا تستنبت إلا في تُربَة التربية الإسلامية الحقيقية ثقافةً وعلماً ، ثم عاطفةً تهتاج وتسيطر على الفؤاد وعلى مكمن العاطفة في كيان الإنسان .

التربية الإنسانية في ظل حقائق الدين والإسلام هي عُصارة الرسالات السماوية كلها ، هذه التربية الإسلامية الدينية المثلى هي التي تَجعل الأمة مُحَصَّنة ضد هذا **التَّطرُّف الوهابي التكفيري** الذي نَشأ في هذا العصر ، فَمَن أراد أن يَتَلَمَّسَ سَبيلاً لِتَحصين نَفسه وأمته ضِد هذا الوباء ، فليعلم ألا سبيل إلى ذلك إلا العُكوف على معرفة حقائق الدين ، ثم الاصطباغ بهذه الحقائق تربية ، ثم تحويل هذه الحقائق إلى عاطفة مُهتاجة تَكمن في طوايا الفؤاد ، ومصدر ـ بل مَعين ـ ذلك كله إنما هو كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وسيرة السلف الصالح ، مُمثلة فيما قاله المصطفى ﷺ : عن عِمْرانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قالَ : قالَ النَّبيُّ ﷺ : (خَيْرُكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلونَهُم)[1]) .

مَعين أخلاقنا الإنسانية المثلى ، معين إسلامنا الذي نَسير فيه ونتصل من خلاله بحبيبنا المصطفى ﷺ ، إنما هو عصارة كتاب الله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد ، برقم : (٢٦٥١) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ، برقم : (٢٥٣٥) .

وسنة رسول الله ﷺ ، بالتمسك بكتاب الله ونبذ التَّطرُّف الذي يبرأ عنه دين الله عز وجل ، نَتسامى عن الغلو الذي قال عنه بيان الله : ﴿لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء : ١٧١] .

هذه حقيقة ينبغي أن نعلمها ، أقول هذا الكلام لأُسمع الذين يَحلمون بحياة لا دينية أو بحياة تسمى العلمانية ، أقول لهؤلاء : هل أنتم دعاة تطرف ؟ هل أنتم دعاة غلو ؟ هل بينكم وبين الوهابية التكفيرية حلف ؟ ستقولون : لا ، إذاً فاعلموا أن مُحاربة الدين والعمل على اجتثاثه من المجتمع إنما هو فَتح لأبواب التَّطرُّف ، إنما هو تَعبيدٌ لكلِّ أسباب التَّطرُّف والغلو .

ولقد علم الناس جميعاً ـ من خلال التجربة ، ومن خلال النظر إلى العالم القاصي والداني المحيط بنا ـ أن المجتمعات النائية عن حقيقة الإسلام والوعي الإسلامي الحقيقي هي التي تذهب ضحية التَّطرُّف والغلو التكفيري ، وأن المجتمع المحصن بحقيقة الإسلام الذي بُعث به سيدنا محمد ﷺ ، والمتمثل بكتاب الله سبحانه وتعالى ، المجتمع الذي رضع لبان الحقيقة الإسلامية مِن مَعينها وأدرك معنى الإسلام واصطبغ بجوهره ؛ لا يُمكن للغلو أن يدنو إليه ، ولا يمكن للتطرف أن يسري إلى كيان هذا المجتمع ، من خلال فرد ، أو من خلال مؤسسات ، أو مجتمع قط .

ألا وليعلم كلٌّ مِنَّا أن مَن أراد أن يُحارب التَّطرُّف فَلا سَبيل لَه إلى ذلك إلا بأن يَستظل بظل الإسلام الحقيقي .

قد كانت سورية ولا تزال مِضرب المثل في هذا ، سورية هي كعبة

القُصَّاد لمعرفة الإسلام الحقيقي الخالي من الشوائب ، الآتي نقياً صافياً من كتاب الله ، الآتي نقياً صافياً من كلام رسول الله ﷺ ، نعم ، اسمعوا هذا الذي يقوله الله عز وجل لكي تتبينوا ، أن مدار الإسلام في كتاب الله عز وجل إنما هو الأخلاق المثلى ، وأن مدار الإسلام في حديث رسول الله ﷺ إنما هو الأخلاق المثلى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، اسمعوا قوله في مكان آخر : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

تلك هي معالم الأخلاق الإنسانية المثلى يَشد القرآنُ الإنسانَ إليها ، لكن كيف ؟ عن طريق الاصطباغ بحقيقة الإسلام ، بالتربية الإسلامية المثلى مُتمثلة في العلم الذي يَتجه غذاءً إلى العقل ، ثم مُتمثلة بالعواطف إذ تتجه إلى الفؤاد ، هذا الفَرد لا يُمكن أن يَرى التَّطرُّف سَبيلاً إلى فكره أو قلبه قط .

سورية كانت ولا تزال مَضرب المثل لهذا ، نعم يا عباد الله ، سنظل ننشر وننشر في بلاد الواسعة حقيقة الإسلام ، هويتنا الإسلامية اتباع السلف الصالح ، والسلف الصالح إنما يتمثل في ثلاثة أمور : الانضباط بكلام الله عز وجل دون تلاعب به ، الانضباط بكلام رسول الله ﷺ دون تلاعب به ، الانضباط بسيرة السلف الصالح مُتمثلاً في القرن الأول ثم الثاني ثم الثالث . نحن أتباع السلف ، ولن نحيد عن منهج هذا السلف يمنة ولا يسرة .

إذن لقد راح وانقضى أوان الاستحياء بالهوية الإسلامية والإعلان عنها ، مَضى ذلك المنعطف الذي كان فِينا مَن يَغُصُّ بإعلان هذه الهوية والاعتزاز والتباهي بها . لقد تجلى لكل ذي بصيرة أن كل الخطابات التي وَاجَهْنا بها أعداءنا الذين يَترَبصون بنا خَابت ، ولم تَنجح إلا خطاباً واحداً ، إنه الخطاب الديني المنبثق من عدالة الإسلام ، والمنبثق من وسطية هذا الدين . هذا هو الخطاب الذي أعلن العالم كله أنه الذي أسكت المتآمرين وكَمَّمَ أفواه المتربصين .

إن كانت هنالك أخطار الغلو فالإسلام هو الذي يَقضي على الغلو ، وإن كان هنالك أخطار تتمثل في التَّطرُّف فالإسلام هو الذي يُلاحق التَّطرُّف حتى يَقضيَ عليه .

أما كلمة الإرهاب فليس لها وجود في قاموسنا الإسلامي قط ، ومعناها إنما هو كامن في قلوب أولئك الذي يُصَدِّرُونها إلينا . أما نحن فها نحن نعود إلى تاريخنا الإسلامي الأغر ، ونستبين ما في طواياه ، فلا نجد لكلمة الإرهاب هذه وُجوداً في قاموس إسلامنا ، إنما هو شيء صُنِّعَ هناك وصُدِّرَ إلينا ، فإن تَساءلتم عن معناه فاسألوا عن معناه أولئك الذين يُصَدِّرُونه إلينا .

❊ ❊ ❊

أَفعَالٌ شَرَعَهَا الإِسلَامُ
وَأَنكَرَهَا مُتَنَطِّعُو الوَهَّابِيَّة

المحتوى

مقدمة البحث ٢٣٩

حكم زيارة قبر النَّبيِّ ﷺ ٢٤٧

جَوَازُ الاستِغَاثَةِ وَالتَّوَسُّل ٢٥٤

حياة الأنبياء وعدم انقطاع أعمالهم بالموت ٢٦٧

جواز تصرُّفِ الأَنبياءِ والأَوْلياءِ بالأُمورِ المعنوية كالمرض والضيق ٢٧٧

التَّبرُّك بآثار الأَنبياءِ والصَّالِحين ٢٨٦

الاحتفال بالمولد النبوي ليس بدعة ضلالة ٢٩١

الرد على دعاة الجهة والتجسيم لله تعالى ٢٩٩

الخاتمة ٣٠٣

مقدمة البحث

علمتم أن الإيمان بالله ورسوله لا يَتم إلا بالنهوض على ركنين لا بُدَّ منهما :

أما أولهما فـ « اليقين » الذي يَحتضنه العقل .

وأما الثاني فـ « الحب » الذي يُهيمن على القلب .

إيمانٌ بِعقلٍ عَارٍ عن الحب لا يُعَدُّ إيماناً في ميزان الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة ، وإيمان يَتمثَّل في حُبٍّ لا يَحتضنه يَقين عَقلي ليس إيماناً في مِيزان الله عزَّ وجلَّ قط .

وحَديُثنا اليوم عن الركن الثاني ألا وهو الحبُّ ، وحديثنا عن حُبِّ رسول الله ﷺ الذِي هو فَرعٌ عن حبِّ الله عزَّ وجلَّ .

لا يُعَدُّ الإنسان مُؤمناً بمجرّد يَقينه العقليّ بأنّ محمداً ﷺ رَسولٌ حقاً ، بَل لا بُدَّ مِنْ أَنْ تُهيمن مَحبَّة رسولِ الله ﷺ على قلبه ، ولقد قال ﷺ : (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ ، حَتَّى أَكونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ والِدِهِ وَوَلَدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعين)(١) قاله رسولُ الله ﷺ مُبلِّغاً عن الله ، ولم يَقُلْها استكباراً أو بِدَافِعِ مِن الأنانية قط .

وإذا تَبَيَّنَت هذه الحقيقة فإنَّ مِن شأنِ الحُبِّ ـ أَيّاً كان نَوعه وأيّاً كان

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ، برقم : (١٥) .

المحبوب ـ أنْ يَحتضن كُلَّ ما يُذَكِّرُ بالمحبوب ، هذه حقيقة لا يَستطيع أنْ يُنكرها لا المؤمن ولا الفاجر ولا الْمُلحد ولا الفاسق ، فَمَن أَحبَّ شَخصَاً مَا حُبَّاً حَقيقياً إذا رأى شَيئاً مِمَّا يَخصّه ، كَثوب ، كنعل ، ككتاب ، كأي شيءٍ يَتعلَّق به ، إذا رَآه اهتاجت مِن جَرَّاءِ ذَلكَ الذِّكرى في قَلبه ، واهتاجَ الحَنين إِلى مَحبوبه من جراء ذلك ، إذا مَرَّ بمنزل المحبوب اهتاج الحنين إِلى المحبوب لدى رُؤية ذَلكَ المنزل ، وإذا رأى أي أَثَرٍ مِن آثاره اهتاج في قلبه الحُب لذلك الذي هَيمن حُبه على قلبه ، وإذا مَرَّ بزمان أرَّخَهُ بينه وبين نفسه تمَّ في ذَلكَ الزمان أو تلك الساعة لِقاءٌ مَعَ مَحبوبه هَيَّجته تلك الساعة إِلى ذكريات لا يَستطيع أن يَنساها أو أن يَتَناساها ، أفي النَّاس مَن يُنكر هذه الحقيقة ؟ .

مَا أظن في العقلاء مَن يُنكر هذه الحقيقة التي نتفاعل معها جميعاً لا باختيار مِنَّا بل بانفعال قَسري كما تقولون . فَتَعَالَوا إِلى القلب الذي هَيمنت عليه محبَّة رسول الله ﷺ حقاً على قلبه ، ورأى الثوب الذي كان يرتديه رسول الله ﷺ ، مَاذا يَفعل من رأى ذَلكَ الثوب أمام عينيه وقد رآه ؟ لا بُدَّ أن يَهتاج مِن جَوارحه مِن أقصى جوانح قلبه الحنينُ إِلى المصطفى ﷺ ، ولا بُدَّ أن يبرِّحَه الشوق إليه . رأى المنزل الذي وُلد فيه رسول الله ﷺ ، رأى الغار الذي لجأ إليه رسول الله ﷺ يوم هجرته ، مَرَّ باليوم الذي وُلد فيه رسول الله ﷺ وهو يُحبّ رسول الله ﷺ ، ماذا تفعل به هذه المذكّرات كلّها من زمان أو مكان ؟ لا ريب أن هذه المذكرات تَقدح ـ لا أقول زِنَادَ الحبّ ، الحبُّ مَوجود ، ولكنها تقدح ـ زناد الشَّوق المبرح إِلى رسول الله ﷺ ، فمن

أنكر ذَلكَ فقد أنكر سببه وهو الحبّ .

هذه الأمور التي تُذَكِّر الإنسان بأمر من أمور الدين أو بماضٍ من ماضي الرسل والأنبياء شاء الله عز وجل أن يُعْجَنَ كَثيرٌ مِنه بالعبادات ، قَرَأْنا قوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، ما معنى هذا الكلام ؟ ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ مَعْلَمَةٌ من المعالم التي شاء الله عز وجل أن تَصطبغ بها حقيقة دينيّة مُنذ وَاقعة جَرت في أيَّام خليل الرحمن سيّدنا إبراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام ، يوم شاء الله عزّ وجلّ أن يَترك زَوجته وطفله في ذَلكَ المكان بين الصفا والمروة ، تبعته الزوجة وهي تقول إلى أين تَدَعُنا ؟ لم يردّ . إلى أين ؟ لم يرد . قالت له : آالله أمرك بهذا ؟ أشار إليها : أَنْ نعم . قالت : لن يتركنا الله إذاً . واشتد عليها وعلى وليدها الظَّمأُ بَعدَ لأَيٍ وبعد حين ، فَرَاحت تبحث عن الماء ، راحت تَسعى صاعدةً إلى الصفا راجعةً إلى المروة عائدةً إلى الصفا راجعةً إلى المروة ، فشاء الله عز وجل أن يَبعث ملكه جبريل على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، فضرب بجناحه الأرض ، وإذا بالماء يَنهمر وينفجر من تلك البقعة ، وذلكم هو ماء زمزم ، مِن هُنا جعل الله عز وجل من الصفا والمروة شَعيرتين مِن الشعائر ، لماذا ؟ لأنها تَحمل ذِكرى . إذاً فَبَيان الله عز وجل يُعلِّمنا كيف نَحتفل بالذكريات التي تَربط ما بيننا وبين مَاضٍ يُبرز معنى عبوديةِ كَثيرٍ من أنبياء الله ورسله فوق هذه الأرض .

﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ ﴾ [البقرة : ١٢٥] ، لماذا مقام إبراهيم

بالذات ؟ إحياءً لذكرى وقوفه في ذَلكَ المكان وصلاته في ذَلكَ المكان .

لماذا الطُّواف حول بيت الله العتيق ، وقد علمنا أن البيت حجارة لا تنفع ولا تضر ، كما قالَ سيدنا عمر رضي الله عنه[١] ؟ لَكنّ الأمر يَحمل ذِكرى ، وبيانُ الله عز وجل يَأْمُرنا أنْ نَحتضن الذكريات التي تَرتبط بعاطفة ، ترتبط بِودٍّ ، التي تُغذي مَزيداً مِن الحبّ الذي يَنبغي أن يُهيمن على الفؤاد .

تَعالَوا ننظر إلى رسول الله ﷺ كيف كان يَحتفي بالذكريات المرتبطة بماضٍ عَزيزٍ على القلب، بماضٍ يُذَكِّر بالله عزّ وجلّ وحرماته.

رُئِيَ المصطفى ﷺ صَائماً يوم الاثنين ، سُئِلَ عن ذلك فقال : (ذاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فيه)[٢] . إذاً هو يَحتفي بِيَوم ميلاده ، والحديث صحيح .

هاجر المصطفى ﷺ إلى المدينة وسمع أن يَهوداً يَصومون يَوم

(١) عَنْ عابِسِ بْنِ رَبيعَةَ ، عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه : أَنَّهُ جاءَ إِلَى الحَجَرِ الأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ ، فَقالَ : (إِنّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ ، لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ ، وَلَوْلاَ أَنّي رَأَيْتُ النَّبيَّ ﷺ يُقَبِّلُكَ ما قَبَّلْتُكَ) ، أخرجه البخاري في صحيحه ، باب ما ذُكر في الحجر الأسود ، برقم : (١٥٩٧) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف ، برقم : (١٢٧٠) .

(٢) عَنْ أَبي قَتادَةَ الأَنْصاريِّ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاثْنَيْنِ ؟ قالَ : (ذاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فيه ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ ـ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ فيهِ ـ) وهو جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في صحيحه، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، برقم : (١١٦٢) .

عاشوراء ، وقد مَرَّ ذَلكَ اليوم فعلاً ، سَأل عن السبب ، قيل له : إنه اليوم الذي أنجى الله عز وجل فيه موسى ومَن معه مِن فِرعون وقومه ، وتأكّد المصطفى ﷺ من ذَلكَ فقال : (نحن أولى بموسى منكم)(١) وأمر أصحابه بالصوم ذَلكَ اليوم ، وأمر مَن كان مُفطراً أن يُمسك إِلى المساء ، إنها الذكرى ، وإنه إحياء من رسول الله ﷺ لتلك الذكرى .

اسمعوا وتأمَّلوا بقلوبكم ، بأبصاركم وبصائركم .

رجع المصطفى ﷺ مِن غَزوة تبوك ، وَلَمَّا دَنا مِن المدينة المنورة وبَدَت طلائع بُيوتها قَالَ ﷺ : (هَذِهِ طابَة) ثم التفت إِلى أُحد وقال : (وَهَذا أُحُد ، وَهوَ جَبَلٌ يُحِبُّنا وَنُحِبُّه)(٢) ، لماذا هذا الغزل من رسول الله ﷺ بجبلٍ هُو الصخر الصلد ، لا يعي ولا يفهم ، هو رمز للجمادات ؟ (جَبَلٌ يُحِبُّنا وَنُحِبُّه) ؟! لأَنَّه يَحمل ذكرى أولئك الشهداء الذين دُفنوا في سفح ذَلكَ الجبل ، أولئك الذين يَحتضنهم ـ يحتضن دماءهم الزكيّة ـ سفح ذَلكَ الجبل .

إذاً هي الذكرى عزيزةٌ على القلب . وإذا كان القلب يَحتضن حُبّاً ـ أيّاً كان ـ فلا بُدَّ أن يَحتضن ذكريات هذا الحب ، بينهما تَلازمٌ دائم ، لا يَنبغي لأحدٍ أن يَشُكَّ أو أن يَرتاب في هذا ما دام أنه مِنَ البَشَر ، وما دام أنَّ إِنسانيته لم يَتسرَّب إليها شُذوذٌ قط .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين قدم المدينة ، برقم : (٣٧٢٧) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب صوم يوم عاشوراء ، برقم : (١١٣٠) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب (أحد جبل يحبنا ونحبه) برقم : (١٣٩٢) .

إذاً فإذا كُنَّا نَعلم أننا جَميعاً نتمتع بِقِسطٍ ـ وأرجو أن يَكون وافراً ـ مِن حُبِّنَا لرسولنا محمّد ﷺ ، إذا ثبت أن أفئدتنا تحتضن هذا الحب ، أَفَيُعقل أن نَمُرَّ بِذكرى مِن ذِكرياته ـ إنْ بِذكرياتٍ مَكانيّة أو زمانيّة أو بِمتاع أو أيِّ شيء آخر ـ هل يُعقل ألا تُحرك هذه الذكريات الزمانيّة أو المكانيّة حَقيقة الحب المهيمن على قلوبنا ؟ هل يُعقل ألا يَتحوَّل هذا الحب إلى حَنين وشَوق إلى هذا الحبيب الذي آمَنَّا به ولم تَكتحل أعيننا برؤيته ؟ لا بد أن يستبد الحَنين إذا مَرَّ بِنَا ذَلكَ اليوم الذي ولد فيه رسول الله ﷺ ، ذَلكَ اليوم الذي آذن الله عز وجل فيه أن يَجعل مِن وُجوده بيننا رحمة للعالمين . يا سبحان الله !

حسناً ! اهتاجت مَشاعر الحب بين جوانحنا لمناسبة هذه الذكرى ـ مكانيّة كانت أو زمانيّة ـ هل يُمكن للحنين الذي يَهتاج في الفؤاد ، هَل يُمكن للشوق الذي يُهيمن على القَلب أن يَختفي ؟ إذاً لاختنق الإنسان ، لا بُدَّ أن يُعَبِّر عن حَنينه ، لا بُدَّ أن يُعبِّرَ عن اهتياجه ، لا بُدَّ أن يُعبِّرَ عن شوقه ، ويُعبِّرُ بالطريقة التي يَشاء ، له أن يُعَبِّرَ بالصوم كما فعل رسول الله ﷺ ، له أن يُعبِّرَ بالآهة ، له أن يُعبِّرَ بالنَّغمة ، له أن يُعبِّرَ بأي طريقة يُبْرِدُ بِهَا لَظى حَنينه إلى رسول الله ﷺ ، يَجلس مع إخوانه كما كان يقول ذَلكَ الصحابيّ : (تعالَوْا بِنا نُؤْمِنُ ساعَة)[1] ،

(١) أخرج ابن أبي شيبة في مصنَّفه برقم : (٣٤٦٩٨) ، عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ هِلالٍ الْمُحارِبِيِّ ، قالَ : قالَ مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ : (اجْلِسْ بِنا نُؤْمِنُ ساعَة) ، يَعْني : نَذْكُرُ الله . وأخرج في مصنفه برقم : (٣٠٤٢٦) ، عن ابْنِ سابِطٍ قالَ : كانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَواحَةَ رضي الله عنه يَأْخُذُ بِيَدِ النَّفَرِ مِنْ أَصْحابِهِ فَيَقولُ : (تَعالَوْا نُؤْمِنُ ساعَةً ؛ تَعالَوْا فَلْنَذْكُرِ اللهَ وَنَزْدَدْ إيمانًا ، تَعالَوْا نَذْكُرُهُ بِطاعَتِهِ ، لَعَلَّهُ يَذْكُرُنا بِمَغْفِرَتِه) .

يَجمع إخوانه على تلاوة شمائل رسول الله ﷺ ، على تِلاوة سيرة رسول الله ﷺ ، على الثناء على الله الذي ابتعث لنا حبيبه محمّداً رسول الله ﷺ ، عِندئِذٍ يَبرد لَظى قَلبه وحنين فؤاده المهتاج ، بسبب هذه الذكرى التي مرّت به .

هذه حقيقة فَرَغنا مِنها ، ولا نقولها لنناقش بها قُساة القلوب ، فَهؤلاء لا يُنَاقَشون ، وماذا عَسى أن يفيد نِقَاشُكَ لأولئك القُساةِ القُلوب ، ولقد كان جَبَلُ أُحُدٍ أَحَنَّ مِن أصحاب هؤلاء القلوب ، ولقد كان جَبَلُ أُحد الذِي تَغزَّلَ به رسول الله ﷺ أكثر لِيناً مِن قُلُوبِ هَؤلاء الناس اليوم ، لَكِنَّني أَقولُ هذا الكلام لأُعَبِّر مِن خِلال ذَلكَ بِجُزءٍ مِن اشتياقي إلى رسول الله ﷺ ، وأعتقد أنكم تَطرَبُون لسماع هذا الكلام ، لِأَنكم تَرون فِيه شَيئاً يُبرز لظى اشتياقكم إلى رسول الله ﷺ .

فإن أنكر مَن أنكر هذا الذي أقول ، فإنّهم في الحقيقة لا يُنكرون التَّعبير في هذه المناسبة عن حبّنا لرسول الله ﷺ ، لا يُنكرون التعبير عن الشوق اللاهب الذي يُهيمن لدى مُرور هذه الذكرى برسول الله ﷺ ، وَلَكنَّهُم يُنكرون مَصدر ذَلكَ ، ألا وهو حبُّ رسول الله ﷺ ، هذا ما أجزم به ، ولا أدَلَّ على ذَلكَ مِن أَنَّك تَتَّبَعُ حال هؤلاء الناس ؛ فلا تَرى فِيهم مَن يَقوم قُبيل الفجر لِيَقف بين يدي الله مُستغفراً ، ولا تَجد فِيهم مَن يَرقُّ مِنهُ القَلب والفؤاد في تِلك الساعة مِنَ السَّحَر لِيبكي ويَتَخشَّع ويَتَضَاءَل ، يستنزل الرحمات من الله عز وجل .

لا تَجد فِيهم مَن إِذَا صَلَّى جَلَسَ مُتأَدِّباً فِي مَكَانِ صَلاته يتلو أوراد الصلاة البعدية ، ثم يَبسط كفيه بِذُلٍّ وَضَراعة إِلى الله ، لا ، بل إِنَّ

أَحدهم لَيقول : إِنَّ بَسْط الكفِّ إِلى سماء الرَّحمة الإِلَهية بِدعة !

إذاً كان رسول الله ﷺ مُبتدِعاً عندما قال : (إِنَّ رَبَّكُمْ تَبارَكَ وَتَعالى حَيِيٌّ كَريمٌ، يَسْتَحْيي مِنْ عَبْدِهِ إِذا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا)(١) .

إذاً كان رسول الله ﷺ مُبتدعاً حينما بسط كفيه إِلى السماء ليلة بدر .

إذاً رسول الله ﷺ كان مُبتدعاً عندما صلى بالقوم صلاة الاستسقاء وبسط كفيه إِلى السماء يستنزل رحمة الله سبحانه وتعالى .

اهنؤوا بأن الله عز وجل غَرس مَحبَّة رسول الله ﷺ في قلوبكم ، إذاً أُبَشِّرُكُم وأُبَشِّرُ نَفسي بِأَنَّنَا سَنكون غداً من الإخوان الذين تَشَوَّقَ إليهم رسول الله ﷺ يوم قال : (وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنا إِخْوانَنا)(٢) .

اللهم اجعلنا بِمَنِّكَ وجودك من إِخوان حبيبك المصطفى ﷺ ، الذين تَشَوَّق إليهم ولم يَرَهُم ، ليست لنا في سبيل هذا الدعاء بِضَاعَةٌ إِلا بِضَاعَةُ الحُبِّ والتعبير عن هذا الحبِّ في يَوم ذِكْراه .

* * *

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب بَابُ الدُّعَاء ، برقم : (١٤٩٠) .

(٢) عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ أَتى الْمَقْبُرَةَ فَقالَ : (السَّلامُ عَلَيْكُمْ دارَ قَوْمٍ مُؤْمِنينَ ، وَإِنّا إِنْ شاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقون ، وَدِدْتُ أَنّا قَدْ رَأَيْنا إِخْوانَنا) قالوا : أَوَلَسْنا إِخْوانَكَ يا رَسولَ الله ؟ قالَ : (أَنْتُمْ أَصْحابي ، وَإِخْوانُنا الَّذينَ لَمْ يَأْتوا بَعْد) . . . الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء ، برقم : (٢٤٩) .

حكم زيارة قبر النَّبيِّ ﷺ(١)

واعلم أن زِيارة مَسجده وقبره ﷺ مِن أعظم القربات إِلى الله عز وجل ، أجمع على ذَلكَ جماهير المسلمين في كل عصر إِلى يومنا هذا ، لم يُخالف في ذَلكَ إلا ابن تيمية غفر الله له ، فقد ذهب إِلى أن زِيَارة قبره ﷺ غير مشروعة . ودليل مَا أجمع عليه المسلمين مِن دُونِهِ عِدَّةُ وُجوهٍ :

الوجه الأول : مَشروعية زِيَارَةِ القُبور عُموماً واستحبابها ، وقد كان النَّبيُّ ﷺ يَذهب كُلَّ ليلةٍ إِلى البقيع يُسلِّم على أهلِه ويدعو ويستغفر لهم ، ثَبت ذَلكَ في الصحيح ، والأحاديث الثابتةُ في تفصيلِ ذَلكَ كثيرة ، ومعلوم أنَّ قَبْر رسولِ الله ﷺ داخل في عموم القبور ، فَيَسري عليه حكمها .

الوجه الثاني : ما ثَبت مِن إجماع الصحابة والتابعين ومَن بَعدهم على زيارة قبره ﷺ كُلَّما مَرُّوا على الروضة الشريفة ، روى ذَلكَ الأئمة الأعلام وجماهير العلماء ، بِمَن فِيهم ابن تيمية رحمه الله .

الوجه الثالث : مَا ثَبت مِن زِيارةِ كَثيرٍ مِن الصحابة قَبْرَه ﷺ ، منهم :

(١) المصدر : خواتيم كتاب « فقه السيرة النبوية » للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى .

بلالٌ رضي الله عنه فيما رواه ابن عساكر بإسنادٍ جيد .

وابن عمر رضي الله عنه فيما رواه مالك في الموطأ .

وأبو أيوب رضي الله عنه فيما رواه أحمد .

دُون أَنْ يُؤْثَرَ عَنهم أو عن أحدٍ مِنهم أي استنكارٍ أو نَقدٍ لذلك .

الوجه الرابع : مَا رُوي بِسندٍ صَحيحٍ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ خَرَجَ يُوَدِّعُ مُعاذَ بْنَ جَبَلٍ رضي الله عنه لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ ، قالَ لَهُ : (يا مُعاذُ ، إِنَّكَ عَسَى أَنْ لا تَلْقاني بَعْدَ عَامي هَذا ، وَلَعَلَّكَ أنَ تَمُرَّ بِمَسْجدي هَذا ، وَقَبْري)[1] ، فكلمة (لعل) تأتي في أعم الأحوال للرجاء ، وإذا دخلت (أن) على خَبرها تَمَخَّضَت للعرض والرجاء .

فالجملة تنطوي بصريح البيان على توصية معاذ بن جبل رضي الله عنه بأَنْ يُعَرِّجَ عند رجوعه إلى المدينة على مسجده ﷺ وقبره ليسلم عليه .

إذا تبين هذا ، فاعمل أنه لا يُوجد لِمَا انفرد به ابن تيمية مِن دَفع هذه الأوجه كُلِّها في غير دافعٍ ، والقول بأنَّ زِيَارة قَبره ﷺ غير مشروع ! .

وجملة ما اعتمده ابن تيمية في ذلك قول رسول الله ﷺ : (لاَ تُشَدُّ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، برقم : (٢٢٠٥٢ـ٢٢٠٥٤) . وأخرجه البزار في مسنده ، برقم : (٢٦٤٧) . وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، برقم : (٦٤٧) ، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ، ٢٠/ (٢٤١) ، قالَ الهيثمي : وَرِجالُ الإِسْنادَيْنِ رِجالُ الصَّحيحِ غَيْرُ راشِدِ بْنِ سَعْد ، وَعاصِمِ بْنِ حُمَيْد ، وَهُما ثِقَتانِ ، ا . هـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/ ٢٢) .

الرِّحالُ إلا إلَى ثَلاَثَةِ مَساجِدَ : الْمَسْجِدِ الحَرامِ ، وَمَسْجِدِ الرَّسولِ ﷺ ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى)[١] .

وقوله ﷺ : (قاتَلَ اللهُ اليَهودَ ، اتَّخَذوا قُبورَ أَنْبيائِهِمْ مَساجِد)[٢] .

وقوله ﷺ : (لا تَجْعَلوا قَبْري عيدًا)[٣] .

وليس في شيء من هذه الأحاديث الثلاثة ما يَصلُحُ أَن يَكون مُستنداً لما انفرد به ، فقوله عليه الصلاة والسلام : (لاَ تُشَدُّ الرِّحالُ. . .) استثناءٌ مُفَرَّغ كما هو معلوم ، والمستثنى منه محذوف ، وإنَّما يُقدَّر المستثنى مِن جِنسِ الْمُستَثنَى مِنه ، وإلا كان استثناءً مُنقطعاً ، وهو استثناءٌ مجازي ، ولا يَجوزُ إِضمارُ المجاز إلا عِند الضرورة التي لا تَصلح معها الحقيقة .

فتقدير الحديث : لاَ تُشَدُّ الرِّحالُ إلى الْمَساجِدِ إلاَّ إلى ثَلاثةٍ منها. . . إلخ ، فالمستثنى منه هو المساجد ، والمعنى أن جميع المساجد في الفَضلِ سَواء ، إلا هَذه المساجد الثلاثة ، فلا وَجه لتفضيلِ بَعضها على البَعضِ فِي زِيَارَةٍ أو اعتكافٍ أو نحو ذلك ، وعملاً

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ فَضْلِ الصَّلاَةِ في مَسْجِدِ مَكَّةَ والمَدينَة ، برقم : (١١٨٩) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد ، برقم : (١٣٩٧) ، عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب الصلاة في البيعة ، برقم : (٤٣٧) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، برقم : (٥٣٠) ، عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رَضيَ اللهُ عَنْهُ .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ، باب زيارة القبور ، برقم : (٢٠٤٢) ، عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

بهذا الحديث قالَ الفُقَهاء : إنَّه لو نَذَرَ الاعتكاف وَسَمَّى مَسجداً مُعيناً غير هذه المساجد الثلاثة لم يَجب عليه قصد ذَلكَ المسجد بخصوصه ولم يُسنّ ، بل يُغنيه أنْ يَعتكف في أي مَسجدٍ من مَساجد الدنيا .

أما حَديثنا فهو عن زيارة قبر رسول الله ﷺ ، وهو لَيس دَاخِلاً لا في المستثنى منه ، فالحديث بمعزل عن أي إشارة إليه ، وهو كما لو قلت : لا يَجوز أن تُشدَّ الرِّحالُ إلى زيارة الأرحام أو العلماء لنتعلم منهم ، لحديث (لاَ تُشَدُّ الرِّحالُ إلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَساجِدَ . . .) ! .

ثم إنَّنا نسأَل بعد هذا : أَفَيَفْهَمُ ابنُ تيمية من كلمة (تُشَدُّ الرِّحال) معناها الحقيقي ، أم المعنى المجازي الذي هو القصد والعزم على الشيء ؟

فإن كان يَفهم منها المعنى الحقيقي ، فينبغي ألا تحرم زيارة غير هذه المساجد الثلاثة من المساجد الأخرى إلا إذا شَدَّ لِذلك رَحلاً ثم مَضى إليه بواسطة الرحل ، قَرُبَت المسافة أو بَعُدت ، فإن سعى إليه بِوَسيلة أُخرى غَير شَدِّ الرِّحال لم يَعد ذَلكَ حراماً ، وهل يَقولُ عَاقل بذلك ؟

وإن كان يَفْهَم مِن الكلمة معناها المجازي ـ وإنما المعنى المجازي لها هو الاتجاه إلى الشَّيءِ لا يَقصِدُ غَيره ـ فإنَّ عمَلِ رسولِ الله ﷺ يعرضه ويرده ؟ فقد كان صلوات الله عليه يَزُورُ مَسجِدَ قباء في كلِّ أسبوع ، وفي رواية كل يوم سبت ، وقد كان مَسجد قِباء خارج المدينة[1] .

---

(١) عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُما قالَ : (كانَ النَّبيُّ ﷺ يَأْتي مَسْجِدَ قُباءٍ كُلَّ سَبْتٍ ماشيًا وَراكِبًا) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب مسجد قباء ، برقم : (١١٩٣) . =

والخلاصة أَنَّ المستثنى منه في الحديث هو المساجد ، وزيارة الأرحام والقبور والأشخاص والمعالم غير داخلة في المستثنى منه ، فلا شأن للحديث بها .

ومعنى الحديث : إن أولى المساجد بالاهتمام للتوجه إليها من مسافات بعيدة هذه المساجد الثلاثة .

وقوله ﷺ : (قاتَلَ اللهُ اليَهودَ ، اتَّخَذوا قُبورَ أَنْبيائِهِمْ مَساجِد) لا شأن له بموضوع الزيارة إطلاقاً ، إذ هو نهي عن اتخاذ قبور الأنبياء وما حولها مُصلى على نحو ما مَرّ بيانه قريباً ، تَعلم هذا من قوله (مَساجِدَ) إذ المساجد أماكن الصلاة .

ولو استقام أن يَكون مُجرَّد زيارة القبر اتخاذاً له مسجداً ، لكان مِن مُقتضى ذَلكَ أن يَكون النَّبيُّ ﷺ قد جعل من البَقيع كله مَسجداً له ، إذ كان يَزورُهُ دَائماً .

أما قوله ﷺ : (لا تَجْعَلوا قَبْري عيدًا) فإنما مَعناه : لا تتخذوا لِزيارَة قَبري وَقتاً مُعيناً لا يُزار إلا فيه ، كما هو شأن العيد ، كما فَسَّره بذلك الحافظ المنذري وغيره من علماء الحديث ، ولا مانع أن يُضاف إليه أَيضاً النَّهي عن إظهار الصَّخب واللهو ومظاهر الزينة عنده ، على نحو ما يَكون في الأعياد . أما أَن تَدُلَّ الكلمة على النَّهي عن زيارة قبره ، فَإِنَّهَا عن ذَلكَ بِمَعزِل ، وما كان النَّبيُّ ﷺ لِيَنهى الناس عن

= وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته ، برقم : (١٣٩٩) .

اتخاذ قبره عِيداً بهذا المعنى المزعوم ثُمَّ يَعمد هو فَيَتَّخذ مِنَ البقيع في كلِّ يوم عيداً ! .

ثم اعلم أنَّ لِزِيَارَةِ قَبره آدَاباً لا بُدَّ مِن اتِّباعها ، فإنْ أكرمك الله تعالى بالتوجه إلى زيارته ، فاعقد العزم أولاً على زيارة مسجده ، ثم انو مع ذَلكَ زيارة قبره الشريف ، ثم اغتسل قبيل دخولك المدينة ، والبس أنظف ثيابك ، واستحضر في قلبك شرف المدينة ، وأنك في البقعة التي شرفها الله بخير الخلائق ﷺ ، فإذا دخلت المسجد فاقصد الروضة الكريمة ، وصلّ ركعتي تحية المسجد ما بين القبر والمنبر ، فإذا دنوت إلى القبر الشريف بعد ذلك ، فإياك أن تَتَهَجَّم عليه أو أن تَلتَصِقَ بالشبابيك أو تتَّمسح بها كما يَفعل كثير من الجُهَّال ، فتلك بدعة تُوشك أن تكون مُحرَّمة ، بل قف بَعيداً عن القبر نَحو أربعة أَذرع ناظراً إلى أسفل ما يَستقبلك من جدار القبر ، وأنت غَاضّ الطرف تَستشعر الهيبة والإجلال ، ثم سَلِّم على رسول الله ﷺ بصوت خفيض قائلاً : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أشهد أنك قد بلغت رسالة ربك ، ونصحت لأمتك ، ودعوت إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعبدْت الله حتى أتاك اليقين ، فصلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك كثيراً ، كما يُحبُّ ربنا ويرضى » .

ثم استقبل القبلة وانحرف إلى اليمين قليلاً حتى تَكون بين القبلة والأسطوانة التي عِند أَوَّلِ القَبر وارفع كفيك بدعاء خَاشِع إلى الله جل جلاله ، ولا تَتَوَهَّم أن في هذا سُوءُ أَدَبٍ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ، وأن

الدُّعَاءَ يَنبغي أن يكون مع استقبال القبر ، فإن الدعاءُ خِطَاب لله عز وجل ، والخطاب لله لا يَجوز أن يُشرَكَ فِيهِ غَيره ، وخير اتجاهٍ إلى الله عز وجل لِدُعَائِهِ هُوَ اتجاهُ القبلة ، ولا تَلتَفِت إلى كَثرَةِ مَن قَد تَرَاهُم يُخَالِفُونَ هذا من الجهال والمبتدعين ، وابَدأ دُعَاءَكَ قَائلاً : « اللهم إنك قلت وقولك الحق : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ٦٤] ، وقد أتيتك مُستَغْفِراً من ذنوبي مستشفعاً برسولك إليك ، فأسألك يا رَبِّ أنْ تُوجِبَ لي المغفرة كما أَوجبتها لمن أتاه في حياته » ، ثم أَكْثِر من الدعاء لما تَشَاءُ مِن أَمرِ دِينِكَ وَدُنيَاك ، ولإخوانك وعامة المسلمين .

ولا تنسَ ـ يا أخي ـ أن تَخُصَّنِي أَنَا أيضاً بشيءٍ من دعائك ، قل : « اللهم إذا جمعت الأولين والآخرين لليوم الذي لا رَيب فيه ، فأَسْبِل جميل سترك على عبدك المذنب محمد سعيد بن ملا رمضان ، وأدخله بمحض منك وفضلك في عبادك المغفورين ، وامنحه شَربةً هَنيئةً مِن حَوض نبيك محمد ﷺ ، يوم يقف عليه مُشرِقَ الوَجه باسم الْمُحَيَّا ، يستقبل أصحابه الذين عَرفهم وإخوانه الذين لم يَرهم واشتاق إليهم ، ولا تَجعله من المطرودين أو المحرومين » .

* * *

جَوازُ الاستِغَاثَةِ وَالتَّوَسُّل(١)

من البديهي الذي لا يَخفى على ذِي عَقل أن هذا العالم هو عالم الوسائط والأسباب ، وأن الله تعالى قد جَعل لِكلِّ شيءٍ سبباً ، وَلَولا ذَلكَ لبَلّغَ الله ـ وهو القادر على كل شيء ـ أوامره لخلقه من غَير واسطة رسول ولا سفير ، ولأَشبع البُطُونَ الخَاوية وأروَاها بدون واسطة طعام أو شراب ، ولَعَفى عن الْمُذنب الجاني يوم القيامة بدون شفاعة رسول أو عالم أو والد ، إلى غير ذَلكَ ما يعدّ البحث في إثباته من العبث ، حيث اتضح ذلك . فالعبد الْمُذنب الذي اجترح السيئاتوفرّط في جانب الحق تعالى يرى أن دُعاءه لا يُستجاب ، وأعماله لا تُقبل ، وليس ذَلكَ لبُعد الله عنه ، ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] ، بَل لِخلَلٍ في أصل عمله ، أو فَقدِ شَرط من شروط القبول ، أو عَدم تَحرير الإخلاص فيه ، وإن شِئت فاذكر قوله ﷺ في الأَشْعث الأَغْبَر : (يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّماء ، يا رَبِّ يا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرامٌ ، وَغُذيَ بِالحَرامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجابُ لِذَلِك ؟)(٢) .

---

(١) المرجع : رسالة حول التَّوسُّل بقلم المربي الجليل الشيخ حسن حبنكة الميداني رحمه الله تعالى ، وهي مقالة مُطولة بيَّنَ فِيها حُكم التَّوسُّل والاستغاثة ، وتُثبِتُ حَياةَ الأنبياء وكرامة الأولياء ، وَتُزِيحُ ظُلمَةَ أَوهامِ النَّجدِيِّينَ بضياءِ البراهين الساطعة مع سلوك الأدب في البحث ، والرسالة مَنشورة في موقع نسيم الشام .

(٢) عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (أَيُّها النَّاسُ ، إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا ، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمنينَ بِما أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلين ، فَقالَ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ ←

فَلو استغاث هذا بأحباب الله تعالى وتوسَّل بهم في قَضَاءِ حَاجته مَهمَا عَظمت لأجابه تعالى إكراماً لأحبابه ونُصرَةً لَهم ، وهو الذي يَقول : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم : ٤٧] ، ويقول رسوله الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ ـ فيما أخرجه الإمام أحمد ومسلم[١] ـ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه : (رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفوعٍ بِالأَبْوابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّه) .

ولا ريب عند عاقل أن مَن تَوَسَّل بأحباب الله تعالى يَعتقد ـ اعتقاداً لا يَعتريه شك ولا يَطرقه تبديل ـ أنهم خَلقٌ مِن خَلقِ الله ، ليسوا أَربابًا أو آلهة ، ولا يَقدِرُون على شيءٍ لأنفسهم أو غيرهم إلا بإذن الله القادر على كل شيء .

والمستغيث بهم لدفع ضُرٍّ مسَّه ، أو جلْبِ خير أراده ولو عامِّياً أبله ، قائلٌ : أنَّه لا فاعل إلا الله ، وهو خالق كلِّ شيءٍ ، وبيده ملكوت كلِّ شيءٍ ، وإليه يَرجِعُ الأمرُ كلُّه ، فكأَنَّه يقول إذ يَستغيث : « يا أحباب الله ، أنتم أقرب إلى الله وأعظم إيماناً مني ، وأَعرَف بِكَيفيةِ خطاب الرب تعالى ، وقد أَمَدَّ حَوَاسَّكُم بقدرته ، وَوَعَدَكُم بالإجابة السريعة ، وتَولَّى حَربَ مَن عَادَاكُم بِنفسه ، حيث تَحَقَّقتم بالعبودية

= مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون : ٥١] ، وَقالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة : ١٧٢] ، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّماءِ . . .) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ، برقم : (١٠١٥) .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب فضل الضعفاء والخاملين ، برقم : (٢٦٢٢) .

له ، بمصداق قوله في الحديث القدسي الثابت في البخاري[١] : (إِنَّ اللهَ قالَ : مَنْ عادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ ، وَما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَما يَزالُ عَبْدي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِها ، وَرِجْلَهُ الَّتي يَمْشي بِها ، وَإِنْ سَأَلَني لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعاذَني لأُعيذَنَّهُ. . .) فبقدرتكم التي وهبكم الله ، ومنزلتكم عنده ، أعينوني في حاجتي ، وتوجَّهوا إلى الله تعالى في قضائها » .

قل لي إن كنت ترتاد الحق ، والله شهيد على قولك : هل يُعَدُّ مِثلُ هذا شركاً وعبادة لغير الله ، كعبادة الأصنام وتسمِّيها آلهة ؟

سبحانك اللهم هذا ضلال مُبين ورجمٌ بالغيب وتفريق بين المسلمين ، أَخرجَ إمامُك وإمامُنا أَحمدُ ابنُ حنبلٍ والتِّرمذيُّ والحاكمُ ، مِنْ حَديثِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه : (عَلَيْكُمْ بِالجَماعَةِ ، وَإِيَّاكُمْ والفُرْقَةَ ، فَإِنَّ الشَّيْطانَ مَعَ الواحِدِ وَهوَ مِنَ الاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ ، مَنْ أَرادَ بُحْبوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَمُ الجَماعَةَ)[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب التواضع ، برقم : (٦٥٠٢) ، عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، بابُ ما جاءَ في لُزومِ الجَماعَةِ ، برقم : (٢١٦٥) . وأخرجه أحمد في مسنده ، برقم : (١٧٧) . وأخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين ، في كتاب العلم ، برقم : (٣٥٣) . وأخرجه ابن حبان في صحيحه ، باب ذِكْرُ الإِخْبارِ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ لُزومِ ما عَلَيْهِ جَماعَةُ الْمُسْلِمينَ وَتَرْكِ الاِنْفِرادِ عَنْهُمْ بِتَرْكِ الْجَماعاتِ ، برقم : (٤٥٧٩) . قالَ الترمذي : هَذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ=

هل أتاك حديث ذهاب الخلائق يوم القيامة إلى الأنبياء والمرسلين ليشفعوا لهم عند الله تعالى ، وهم باعتقادهم الرَّاسِخ أن الأمر يومئذ لله ، وقد كُشف الغِطَاء إذ ذَاك فلا حِجَابَ بَينهم وبين خالقهم تعالى ، إذ يقول : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق : ٢٢] ! فبما قُربةٍ[(١)] ومَنزلَةٍ لهم لا شَكَّ عِند الله شُفِّعُوا في الخلائق ، أفترى أنهم نَالوا تِلك القُربَةَ بَعد الموت ؟ لا ، لأَنَّك تَعتقد انقطاع أعمالهم حينئذ ، لا جرم أنَّك تَقول إِنَّما نَالوا تلك القُربَةِ السامية والمنزلة الشامخة الرفيعة في دار الدنيا . إذاً ، فَمَا الْمُجَوِّز للاستشفاع بهم هناك ؟ وما المانع منه هنا ؟ تَدَبَّر وأَجِب مُنصِفاً بِرَوِيَّة .

ثم إني أَلاطفك بِمثَلٍ قَريبٍ : سَقَطَ إِنسانٌ في بئر عميقة ، فنادى بأعلى صوته ، يا قوم ، يا مسلمين ، يا لفلان ـ للغريق ـ لقد أشرفت نفسي على الهلاك . . . خلصوني . . . أنقذوني . . . خذوا بيدي .

فما قولك بهذا ، وقد استغاث بغير الله ، والاستغاثة نوع من العبادة ، كما في صدر مقالتك الشاملة لهذا ، وإِنْ تناقضت من بَعْد .

وأَظنُّك تعتقد اعتقاد المسلمين أنه لا يُخلِّصه من ذَلكَ الضيق إلا الله الواحد القهار ، ولأن التعصب المذهبي يَحملك على تكفير هذا أيضاً ، فالمسلمون قَاطبةً وأنت وقومك واقعون في مثله .

= غَرِيبٌ مِنْ هَذا الوَجْهِ. . . ، وَقَدْ رُوِيَ هَذا الحَديثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ عُمَرَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ . وصحَّحه الحاكم على شرط البخاري ومسلم .

(١) هكذا في الأصل ، ولعل الصواب : فبأي قربة .

إذن ، لا مُوَحِّدَ على وجه الأرض سابقاً ولا حقاً ـ في زعمِك ـ وَأَعظِم بها من جريمة .

وَلَرُبَّمَا تَضِيقُ ذَرْعاً في المحاكمات العقلية ـ وللمعقول فضاء واسع ـ فتقول : هَاتِ نَصاً صَريحاً مِن الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ وَفِعلِ السَّلَفِ الصَّالِحِ بِجَوَازِ التَّوَسُّلِ والاستشفاع .

فإليك ما يَحضرني من ذلك :

قالَ الله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ٦٤] ، وقالَ تعالى : ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء : ٨٥] ، ولا يَخفى وجه الاستدلال في الآيتين على أمثالك أيها النبيه .

أخرج البخاري في التاريخ ، والترمذي وقال : حسن صحيح ، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي، والحاكم وقال: على شرط الشيخين ـ ، وذكره الحافظ السيوطي في الجامع الكبير والصغير : عَنْ عُثْمانَ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ رَجُلاً ضَريرَ البَصَرِ أَتَى النَّبيَّ ﷺ فَقالَ : ادعُ اللهَ أَنْ يُعافيَني قالَ : (إِنْ شئْتَ دَعَوْتُ ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهوَ خَيْرٌ لَك) قالَ : فادْعُهْ ، قالَ : فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضوءَهُ وَيَدْعوَ بِهَذا الدُّعاءِ : (اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبيِّ الرَّحْمَةِ ، إِنِّي تَوَجَّهْتُ بكَ إِلَى رَبِّي في حاجَتي هَذِهِ لِتُقْضَى لِيَ ، اللهُمَّ فَشَفِّعْهُ فيَّ) ، فعادَ الرَّجلُ وقَدْ أَبْصرَ[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ، ترجمة عثمان بن حنيف ، برقم : (٢١٩٢) =

وقد استعمل السلف الصالح مِن الصحابة والتابعين والعلماء هذا الدعاء في قضاء حَوائجهم بَعد انتقاله ﷺ إلى وقتنا هذا ، وكانوا يُعَلِّمونه أَبناءَهم ، وفيه استغاثةٌ وتوسُّلٌ به ﷺ حيّاً وميتاً .

أَفَكُلُّهُم مُشْركون بِزَعمك ؟ مَهلاً أيها الكاتب الْمُتَسَتِّر ، لَقَد ظَنَّ قَومك ظَنَّ السوء ، وأخطؤوا خَطَأً مُبيناً ، وَانتبَذُوا عن الحق في هذا مَكَاناً قَصِيَّاً .

رَوى ابنُ السُّنِّي أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ عُمرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنهما خَدِرَتْ رِجْلُهُ ، فَقِيلَ لَهُ : اذْكُرْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْكَ يَزلْ عَنْكَ ، فَصاحَ يَا مُحمَّداهُ ، فانْتَشَرَتْ[1] أي : زال ما بها من الألم .

لا تَغفُل ـ أيها الموفق ـ عن هذه الاستغاثة الصادرة من ابن عمر رضي الله عنهما ، وَأَعْظِمْ بِسُمُوِّ مَقامه في العلم .

أخرج البَيهقي في دلائل النبوة وأقرَّهُ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ ، مِن رِواية

= (٢٠٩/٦) . وأخرجه الترمذي في سننه ، باب الدعوات ، برقم : (٣٥٧٨) . وأخرجه ابن ماجه في سننه ، باب ما جاء في صلاة الحاجة ، برقم : (١٣٨١) . وأخرجه النسائي في كتابه عمل اليوم والليلة ، برقم : (٦٥٩) . وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه ، باب صلاة الترغيب والترهيب ، برقم : (١١٤٥) . وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، أول كتاب المناسك ، برقم : (١٨٥٠) . قالَ الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب . وقالَ الحاكم : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي .

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ، باب ما يقول الرجل إذا خدرت رجله ، برقم : (١٠٠٠) . وأخرجه ابن السني في كتابه عمل اليوم والليلة ، باب ما يقول إذا خدرت رجله ، برقم : (١٦٧) و(١٦٩) .

مُسْلِمُ الْمُلائِي ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال : جاء رجل أعرابي إلى النَّبيِّ ﷺ فقال : يا رسول الله ، لَقَدْ أَتيناك وَما لَنا بعيرٌ يَئِطُّ ولا صَبيٌّ يَغطُّ ، ثمَّ أَنْشَدَهُ شِعْراً يَقولُ فيه :

وَلَيْـسَ لَنـا إلاَّ إِليـكَ فِـرارُنـا وأَينَ فِرارُ الناسِ إلاَّ إلى الرُّسْلِ

فَقامَ ﷺ يَجرُّ رِداءَهُ حتَّى صَعِدَ المِنْبَرَ فَقالَ : (اللهُمَّ اسْقِنا الْغَيْثَ. . .) إلى آخر الحديث ، وفيه : ثمَّ قالَ ﷺ : (لَوْ كانَ أَبو طالِبٍ حَيَّاً لَقَرَّتْ عَيْناهُ) مَنْ يُنْشِدُنا قَوْلَه ؟ فَقامَ عَليٌّ رضي الله عنه فَقالَ : يا رَسولَ اللهِ كأَنَّكَ أَرَدْتَ قَوْلَهُ :

وأَبيَض يُستَسقَى الغَمامُ بِوَجْهِهِ ثِمال اليتامى عِصْمَة لِلأَرامِلِ
تَلُوذُ بِهِ الهُلاكُ مِنْ آلِ هاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ في نِعْمَةٍ وَفَواضِلِ(١)

فَلتَسمَع أُذُنُك الوَاعية ، كيف أَقرَّ رَسولُ اللهِ ﷺ الأَعْرابيَ وأَبا طالبٍ على شِعْرِهِما ، ـ وهو أعرف الناس بمداخل الشرك ـ ، بل تَمَدَّحَ بِشِعْرِ أَبِي طالب وأعجبه .

ويأبَى أصحابُنَا النَّجدِيُّون إلاَّ أَنْ يُقِيموا الطَّامَّة الكُبْرى على قَولِ البُوصِيري رحمه الله تعالى :

يَا أَكرَمَ الخَلقِ مَالِي مَن أَلُوذُ بِهِ سَوَاكَ عِندَ حُلُولِ الحَادِثِ العَمِمِ

وَيَعتَقِدُونَ أَنَّهُ مِن أَعظَمِ أَنوَاعِ الشِّرك .

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء ، باب الدعاء في الاستسقاء ، برقم : (٢٠٦٠) . وأخرجه البيهقي في كتابه دلائل النبوة ، في دعوات نبينا ﷺ المستجابة في الأطعمة ، باب استسقاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وإجابة الله تعالى إياه ، برقم : (٢٣٧٩) .

وَمِن أَجْلِ ذَلِكَ وأمثاله يَرون مِنَ التَّقَرُّبِ إِلى الله تعالى حَرقُ « البُرْدَة الشريفة » و« دلائل الخيرات » ، وكلّ قصيدةٍ نبوية تَغرس غصون محبَّة الله ورسوله ﷺ في قلوب الرجال والنساء كما هو المشاهَد .

ومن الْمُقَرَّرِ عِند الْمُتبَصِّرين ، أَنَّ محبَّة النَّبيِّ ﷺ الصَّادقة ، هي التي أخذت بِضبعي الصحابة الكرام حتى استووا على عرش العِزِّ وَالْمَجد ، وَحَفَّهُم النصر مِن كلِّ جانب .

أما جَسَدُ العَالم الإسلامي اليَوم فَهُوَ مَيِّتٌ خَاوٍ مِن هَذِهِ الرُّوحِ الزَّكِيَة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم أَرِنا الحقَّ حقّاً وارزقنا اتِّباعَه ، وأَرِنا البَاطِلَ بَاطلاً وارزُقْنا اجْتنابَه .

أَخرَجَ الزُّبيرُ بنُ بَكارٍ مِنْ طَريقِ داودَ ، عَنْ عَطاءٍ ، عَنْ زَيدِ بنِ أَسْلَمَ ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ رضي الله عنه ، والبُلاذُري مِنْ طَريقِ هِشامِ بنِ سَعْدٍ ، عَنْ زَيْدِ بنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبيهِ : اسْتَقى عُمَرُ بْنُ الخطَّاب رضي الله عنه عامَ الرَّمادَةِ بالعبَّاسِ بنِ عَبْدِ الْمُطَّلِب ، فَذَكَرَ الحَديثَ. . . وَفِيه : فَخَطَبَ عُمُرُ رضي الله عنه النَّاسَ ، فَقالَ : إِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كانَ يَرى لِلْعبَّاسِ ما يَرى الوَلَدُ لِوالِدِه ، فاقْتَدوا أَيُّها النَّاس في عَمِّهِ العبَّاس ، واتَّخِذوهُ وَسيْلَةً إِلى اللهِ تَعالى .

وفيه : فما بَرحوا حتَّى سقاهُم الله تعالى[١] .

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء ، باب في الاستسقاء بالصالحين المتَّقين الطاهرين من آل رسول الله ﷺ ، برقم : (٢٠٨٩) . وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم ، ذكر إسلام العباس رضي الله عنه ، برقم : =

فهذا عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ رضي الله عنه ـ الذي نزل القرآن مُوافِقاً لرَأْيه ـ يَأْمُر الصحابةَ الأجلاَّء باتِّخاذ الوسيلة إلى الله ، وحاشا أن يَأمر بالشرك .

أَخرج ابن ماجة والبيهقي ، عَنْ أَبي سَعيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال : كانَ ﷺ إذا خَرَجَ إلَى الصَّلاةِ قالَ : (اللهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلينَ عَلَيْكَ ، وَبِحَقِّ مَخْرَجِيَ هَذا ، فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَراً وَلا بَطَرًا وَلا رِياءً وَلا سُمْعَةً ، خَرَجْتُ اتِّقَاءَ سُخْطِكَ وابْتِغاءَ رِضائِكَ ، أَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لي ذُنوبي ، فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلاَّ أَنْت)[1] .

انظر رعاك الله ، هذا رسول الله ﷺ يَتوسَّلُ بِالسَّائلين أَحَياءً وأَمْوَاتاً ، وهو أفضل خلق الله ، وأغنى الخلق عن الخلق ، فكيف لا نَتوسَّلُ نَحن بجاهه ﷺ مَع ضَعْفِنا وَكَثْرَةِ ذُنوبنا .

وَإِني أَسأَلُك ، هل ما ثَبت مِن الْمَزِيَّة والقُرْبِ والفضل ، لأجسام الأنبياء والأولياء أم لأرواحهم ؟

= (٥٤١١) . وأخرجه أبو بكر الخلال في السنة ، باب في العباس والدعاء ، برقم : (٢٨) . وأخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد ، سياق ما رُوِيَ مِنْ كَرامات العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، برقم : (٢٤١١) .

(١) أخرجه ابن ماجه برقم : (٧٧٨) . وأخرجه أحمد في مسنده برقم : (١١١٥٦) . وأخرجه الطبراني في الدعاء برقم : (٤٢١) . وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة برقم : (٨٥) . وحسنه الحافظ في نتائج الأفكار : (١/ ٢٧٢) . قالَ السندي : قوله : (بحق السائلين عليك) أي : متوسلاً إليك في قضاء الحاجة وإمضاء المسألة بما للسائلين عندك من الفضل الذي يَستحقُّونه عليك بمقتضى فَضْلِك ووعدك وجودِك وإحسانك .

لا شَكَّ أَنَّهُ لِأَرواحهم الزكية المطهرة ، وَالْمُتَوَسِّلُ إنما يَتوسَّلُ بِالروح ، وأنت مَعي فِي أَنَّ الرُّوحَ بَاقية لا تَفنى .

إذن ، لا فَرق بَين التَّوَسُّلِ بالحي والميت ، وكلٌّ جائزٌ ، بل قُربةً وعِبادةً . وَخُذ نَصَّاً صَريحاً في ذَلكَ زِيادَة على مَا تَقَدَّم مِنَ النُّصُوص .

أَخرج الدارمي في مسنده المعروف صِحَّتُه ، عَنْ أَبي الجَوْزاءِ قالَ : قُحِطَ أَهْلُ الْمَدينَةِ قَحْطَاً شَدِيدَاً ، فَشَكَوْا إِلى عائِشَةَ رضي الله عنها فَقالَتْ : (انْظُرُوا قَبْرَ النَّبيِّ ﷺ ، فَاجْعَلُوا مِنْهُ كوًى إِلى السَّماءِ ، حتَّى لا يَكونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّماءِ سَقْفٌ) فَفَعَلوا ، فَمُطِروا مَطَرَاً حَتَّى نَبَتَ العُشْبُ ، وَسَمِنَتِ الإِبلُ حتَّى تَفَتَّقَتْ مِنَ الشَّحْم ، فَسُمِّيَ عَامَ الفَتْقِ[1] .

فَليَتَبَصَّر أُلو الإِنْصاف ، هل جَهِلَتْ الشِّركَ عائِشةُ رضي الله عنها ؟ وَهَل جَهِلَهُ أيضاً عموم الصَّحابةِ حِين فَعَلوا مَا أَشارَت به عائشة ؟ وَعَلِمَه أصحابنا النَّجديون ! .

أَخْرجَ البَيْهقيُّ وابنُ أَبي شَيْبَةَ بسَنَدٍ صَحيحٍ عَنْ مالِكِ الدَّارِ ـ وَكانَ خَازِنَ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه عَلَى الطَّعامِ ـ قَالَ : أَصابَ النَّاسَ قَحْطٌ في زَمَنِ عُمَرَ ، فَجاءَ رَجُلٌ ـ هو بلال ـ إِلَى قَبْرِ النَّبيِّ ﷺ ، فَقالَ : يا رَسولَ اللهِ ، اسْتَسْقِ لأُمَّتِكَ فَإِنَّهُمْ قَدْ هَلَكوا ، فَأَتَاهُ رَسولُ الله ﷺ في الْمَنَامِ فَقالَ : (ائْتِ عُمَرَ فَأَقْرِئْهُ السَّلام ،

(١) أخرجه الدارمي في سننه ، باب ما أكرم الله تعالى نبيه ﷺ بعد وفاته ، برقم : (٩٧) ورواته ثقات .

وَأَخْبِرْهُ أَنَّكُمْ مُسْقون). . . الحديث[١] .

فَهَذَا بلالٌ مُؤَذِّنُ رَسولِ اللهِ ﷺ يُخاطِبُه وَيَستغيثُ بِهِ بَعد الموت ، والصَّحابةُ مِنْ حَوله يَنظُرُون إليه ، فَهَل هُم ـ بِرَبِّكَ ـ مُشْرِكون ؟ وَيح الجهل !! ! وقد جاء في الحديث نَفسه أنَّ الله تعالى أَغاثَهم وسقاهم حتى رووا ، فهل يُعينهم الله تعالى على أن يُشْركوا به ؟ ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ [الزمر : ٧] .

رَوَى القَاضِي عِياض في كتابه الشفاء بسندِه الصحيح ، أَنَّ أمير المؤمنين أبا جعفر قالَ للإمام مَالك : يَا أَبَا عبد الله ، أَأَستَقبلُ القِبلة وَأَدعُو أَم أَستَقبِلُ رَسُولَ الله ﷺ ؟ فَقَال : وَلم تَصرِف وَجهك عَنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى يوم القيامة ، بَل استقبلهُ واستشفع به فَيُشَفِّعُه الله . قالَ الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] ، فَحَدِّث ولا حَرَجَ عَنْ وَرَعِ الإمامِ مالكٍ رحمه الله ، الذي كَان يُسأَلُ عَن أَرْبعينَ مَسأَلةٍ في العلمِ فَلا يُجيب إِلاَّ عن ثَلاثٍ ، ثُمَّ نَزِّهْهُ عَن أَنْ يَأْمُر بما فِيهِ رَائِحَةُ الشِّركِ ، نَسأَلُ اللهَ العَافية .

حَدِيثُ تَوَسُّلِ آدَمَ بِالنَّبيِّ ﷺ تَعَدَّدَتْ طُرقُه بِكَثْرَةٍ عِنْدَ الْمُحَدِّثِين

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، باب ما ذكر في فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، برقم : (٣١٣٦١) . وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ، في جماع أبواب مَن رأى في منامه شيئاً من آثار نبوة محمد ﷺ ، باب ما جاء في رؤية النَّبيِّ ﷺ في النوم ، برقم : (٢٩٦٦) . والإرشاد للخليلي (ترجمة مالك الدار) .

وَالْمُفَسِّرين وصحَّحهُ الحاكمُ وأقَرَّه ، وهو : (لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الْخَطيئَةَ قالَ : يا رَبِّ أَسْأَلُكَ بحَقِّ مُحَمَّدٍ إلاَّ غفَرْتَ لي ، فَقالَ : يا آدَمُ ! كَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّداً وَلَمْ أَخْلُقْهُ ؟ قالَ : يا رَبِّ لِأَنَّكَ لَمَّا خَلَقْتَني بيَدِكَ وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكِ رَفَعَتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ مَكْتُوباً « لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ ، مُحَمَّدٌ رَسولُ الله » فعَرَفْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلى اسْمِكَ إِلاَّ أَحبَّ الخَلْقِ إِلَيْك ، فَقالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : صَدَقْتَ يا آدَمُ ، إِنَّهُ لأَحَبُّ الخَلْقِ إِلَيَّ ، وَإِذْ سَأَلْتَنِي بِحقِّهِ فقَدْ غفَرْتُ لك ، وَلَوْلاَ مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُك)[1] .

فَهَذَا آدَمُ أبو البشر عليه السلام يَتَوَسَّلُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ أنْ يُخلَق ، وَهُوَ أَعظَمُ مِنَ التَّوَسُّلِ بِهِ بَعدَ مَوتِه ، إِنْ كُنتُم تُنْصِفُون .

رَوَى الطَّبرانيُّ[2] عَنْ عُتْبَةَ بْنِ غَزْوان ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : (إِذَا أَضَلَّ أَحَدُكُمْ شَيْئًا ، أَوْ أَرَادَ عَوْناً ، وَهوَ بِأَرْضٍ لَيْسَ بِها أَنِيسٌ فَلْيَقُلْ : يا عِبادَ اللهِ أَغيثوني ؛ فَإِنَّ للهِ عِبادَاً لا نَراهُمْ) .

حَديثُ تَوَسُّلِه ﷺ بِنَفْسِهِ وبالأَنْبياءِ مِنْ قَبْلِه في دُعائِهِ لفاطِمَةَ بنتِ

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ، في تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين ، برقم : (٤١٦٩) . وأخرجه الطبراني في الأوسط ، برقم : (٦٦٢١) والصغير برقم : (٩٨٩) . وأخرجه البيهقي في كتابه دلائل النبوة ، بابُ ما جاءَ في تَحَدُّثِ رَسولِ اللهِ ﷺ بِنِعْمَةِ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، برقم : (٢٢٣٧) .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ، برقم : (١٧١٠٣) ، قالَ الهيثمي : رَواهُ الطَّبَرانيُّ وَرِجالُهُ وُثِّقوا عَلى ضَعْفٍ في بَعْضِهِمْ ، إِلاَّ أَنَّ زَيْدَ بنَ عَليٍّ لَمْ يُدْرِكْ عُتْبَةَ . مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٥) .

أَسَدٍ يَوْمَ ماتَتْ[١] ، قالَ العلماء : إِسْنادُه جَيِّد .

قُل لي أيها الكاتب : أَفَبِهَذه الأحاديث أنتم مُدهنون ، أَم تجعلون رزقكم أنَّكم تكذبون ؟ .

وَمَن تَصَفَّحَ كُتُبَ الحَديث والتاريخ بِعَين الإنصاف ، وَجَدَ شَوَاهِدَ كَثيرة لا يُحصيها العَدُّ ولا يَجمَعُهَا ، مثل هذا المقال ، فلا أَدري أَجَهلٌ كُلُّ هَذَا أَم تَجَاهُل ؟ وَلا عِلمَ لي أَفبآيَاتِ الله وَأَحَادِيثِ رَسول الله ﷺ يَلعبون ؟ استغفر الله .

لَكني أقول : يَجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم ، حذر أن يُخَالط أذهانهم برهان صادق يُزعزع لهم تِلك العقيدة مِن أَصلها ، فَوَيح التعصب البارد الْمُفَرِّقِ بَينَ الشُّعُوب .

* * *

---

(١) أخرج الطَّبَرانيُّ في الكَبير (٢٤/ ٣٥١) برقم (٨٧١) ، والأَوْسَطِ (١/ ٦٧) برقم (١٨٩) . وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٣/ ١٢١) ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مالِكٍ قالَ : لَمَّا مَاتَتْ فاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بْنِ هاشِمٍ ـ أُمُّ عَليٍّ ـ رَضيَ اللهُ عَنْهُما ، فَحَفَروا قَبْرَها ، فَلَمَّا بَلَغوا اللَّحْدَ حَفَرَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ بِيَدِه ، وَأَخْرَجَ تُرابَهُ بيَدِهِ ، فَلَمَّا فَرَغَ دَخَلَ فاضْطَجَعَ فيه ، فَقالَ : « اللهُ الَّذي يُحْيي وَيُميتُ ، وَهوَ حَيٌّ لا يَموتُ ، اغْفِرْ لأُمِّي فَاطِمَةَ بِنْتِ أَسَدٍ ، وَلَقِّنْها حُجَّتَها ، وَوَسِّعْ عَلَيْها مُدْخَلَها ، بِحَقِّ نَبيِّكَ والأَنْبياءِ الذينَ مِنْ قَبْلي ؛ فَإِنَّكَ أَرْحَمُ الرّاحِمين) . قالَ الهيثمي : وَفيهِ رَوْحُ بْنُ صَلاحٍ ، وَثَّقَهُ ابْنُ حِبّانَ والحاكِمُ ، وَفيهِ ضَعْفٌ ، وَبَقيَّةُ رِجالِهِ رِجالُ الصَّحيحِ . مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (٩/ ٢٥٦) .

حياة الأنبياء وعدم انقطاع أعمالهم بالموت

لَيس بإمكانك ـ وأنت تعلم ـ أن تنكر حياة الأنبياء والشهداء بعد ثبوتها في نصِّ القرآن العظيم ، وما تواتر من الأحاديث وما تتابع من الآثار . قالَ تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة : ١٥٤] ، وقال سبحانه : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٩] إلى غير ذَلكَ من الآيات .

وأخرج البيهقي وأبو يعلى في مسنده ـ وهو حديث صحيح ـ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (الأَنْبياءُ أَحْياءٌ في قُبورِهِمْ يُصَلُّون)[1] إلى غير ذَلكَ مما ستراه .

وقالَ الحافظ السيوطي ـ وناهيك باطلاعه ـ : حياةُ النَّبيِّ ﷺ في قبره هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا عِلماً قَطعياً ، لما قَام عندنا من الأدلة في ذَلكَ وتواترت به الأخبار .

كأَنِّي بك وأنت تُغَالِط في مفهوم ذَلكَ فتجعل الحياة للأرواح فَقط

(١) أخرجه أبو يعلى برقم : (٣٤٢٥) . وأخرجه البزار في مسنده ، برقم : (٢٥٦) . وأخرجه البيهقي في كتاب حياة الأنبياء في قبورهم ، وتمام الرازي في الفوائد ، برقم : (٥٨) . وأخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٣٢٦) . وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٤٨٧) . وقالَ الهيثمي : رِجالُ أَبي يَعْلَى ثِقاتٌ . وفي مجمع الزوائد (٨/ ٢١١) .

وَتُصَرِّح بفناء الأجسام وذهاب إحساسها ، ولا ريب أنَّ الأرواح كلَّها ـ كافرة أو مسلمة ـ باقية في البرزخ لا تَفنى ، وعليها يَدور نعيم القبر وعذابه .

وإليك قول العلامة ابن القيم ـ وأنت تعتمده ـ في قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، يقول : إن أُريدَ بِذَوقِهَا الموت تألمها بمفارقة الجسد ، فنعم هي الذائقة الموت بهذا المعنى ، وإن أُرِيدَ أنها تعدم وتفنى مع البدن فلا ، بل هي باقية بالإجماع في نعيم أو عذاب ، فلو كان المراد من حياتهم حياة الروح فقط لما كان هناك فائدة ولا مزية في تخصيص الشهداء والأنبياء في معرض المدح بالحياة دون غيرهم ، ولجاز إطلاق الحياة على الكفرة بهذا الاعتبار ، ولم يرد ذَلكَ في آية ولا حديث ولا أثر ، وهو لعمر الله إبطالٌ لمقصود القرآن الكريم ، وتعطيل لمفهوم الأحاديث ! .

إذاً إثبات الحياة للشهداء وبعض الخواص مُشعر بالبداهة أنها حياة حقيقة ، أكمل وأعز وأسمى من الحياة السابقة ، خلاف حياة عموم الناس البرزخية ، وما المانع من ذَلكَ والله على كل شي قدير .

ثم لا تنسَ قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث السابق : (في قُبورِهِمْ يُصَلُّون) وهل تكون الصلاة بالمعنى المتبادر للروح فقط ، وأيضاً لا يخفاكَ أنَّ أحاديث المعراج بلغت حدَّ التَّواتر ، فليس بالإمكان إنكارها ، وفيها عند مسلم في صحيحه(١) مِنْ حَديثِ أَبي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، بابُ ذِكْرِ الْمَسيحِ ابْنِ مَرْيَم والْمَسيحِ الدَّجّال ، برقم : (١٧٢) .

هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، يَقول عليه الصَّلاة والسَّلام : (رَأَيْتُني في جَماعَةٍ مِنَ الأَنْبياءِ ، فإذا موسى قائِمٌ يُصَلِّي ، فإذا رَجُلٌ ضَرْبٌ ـ خَفيفُ اللَّحم ـ ، جَعْدٌ كأَنَّهُ مِنْ رِجالِ شَنوءَةَ ـ قَبيلَةٌ مِنَ العَرب ـ ، وَإِذا عيسى بْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ قائِمٌ يُصَلِّي ، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعودٍ الثَّقَفيُّ ، وإذا إِبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ قائِمٌ يُصَلِّي ، أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صاحِبُكُمْ ـ يَعْني نَفْسَهُ ـ فَحانَتِ الصَّلاةُ فأَمَمْتُهُمْ . . .) الحديث .

فهل في وُسعك أن تجعل هذه الأوصاف للأنبياء وتلك الصلاة إماماً ومأموماً وذلك الخطاب بينهم للأرواح فقط ؟ أخبرني إن كنت من المنصفين ! .

وأَخرجَ إمامُ السُّنَّة أَحمدُ بنُ حنْبلٍ وأَبو داودَ والنَّسائي وابنُ ماجَه والدَّارميُّ والبيهقيُّ وابنُ خُزيمةَ وابنُ حِبَّانَ في صحيحه والطَّبرانيُّ وسعيدُ بنُ منْصورٍ وابنُ أَبي شَيْبَةَ والحاكمُ وصححه : (إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفيهِ قُبِضَ ، وَفيهِ النَّفْخَةُ ، وَفيهِ الصَّعْقَةُ ، فَأَكْثِروا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاةِ فيهِ ، فَإِنَّ صَلاتَكُمْ مَعْروضَةٌ عَلَيَّ) قالوا : وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاتُنا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ ـ بَليتَ ـ فَقالَ : (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلى الأَرْضِ أَجْسادَ الأَنْبياء)[1] ، فهذا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، بابُ فَضْلِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَلَيْلَةِ الْجُمُعَة ، برقم : (١٠٤٧) . وأخرجه النسائي في سننه ، باب إِكْثارُ الصَّلاةِ عَلى النَّبيِّ ﷺ يَوْمَ الجُمُعَة ، برقم : (١٣٧٤) . وأخرجه ابن ماجه في سننه ، بابٌ في فَضْلِ الجُمُعَة ، برقم : (١٦٣٦) . وأخرجه أحمد في مسنده ، برقم : (١٦٢٠٧) . وأخرجه الدارمي في سننه ، برقم : (١٥٧٢) . وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى ، برقم : (١٦٦٦) . وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه ، برقم : (٣/١١٨) . وأخرجه ابن حبان في =

نص صريح بحياة أجساد الأنبياء .

وأَخرجَ الدَّارميُّ[١] ـ ومعلوم صحَّة سنده ـ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ـ الذي قالَ فيه الإمام أحمد : ليس بالشَّام أَصحُّ حديثاً منه ـ قالَ : لَمَّا كانَ أَيَّامُ الحَرَّةِ لَمْ يُؤَذَّنْ في مَسْجِدِ النَّبيِّ ﷺ ثلاثًا ، وَلَمْ يُقَمْ ، وَلَمْ يَبْرَحْ سَعيدُ بْنُ الْمُسيِّبِ المَسْجِدَ ، وَكانَ لا يَعْرِفُ وَقْتَ الصَّلاةِ إلاَّ بِهَمْهَمَةٍ يَسْمَعُها مِنْ قَبْرِ النَّبيِّ ﷺ .

وفي رِوايةٍ لأَبي نُعيمٍ[٢] عن سَعيدِ بنِ الْمُسيَّبِ قال : رَأَيْتُني لَيالي الحَرَّةِ وَما في مَسْجِدِ رَسولِ اللهِ ﷺ غَيْري ، وَما يأْتي وَقْتُ الصَّلاةِ إلاَّ سَمِعْتُ الأَذانَ مِنَ القَبْر .

وأَخْرَجَ الزُّبيْرُ بنُ بكَّارٍ عَنْ سَعيدٍ نحو ذلك .

فهذا سعيدُ بنُ المسيَّبِ ـ سيِّدُ التَّابعين لصفاءِ جَوْهَرِه ونورِ بَصيرَتِه وحُسْنِ اقتدائهِ وصدْقِ محبَّتِه ـ سمعَ أَذانَ النَّبيِّ ﷺ في قَبْرِه ، فهل هذا الصَّوتُ الذي سَمِعَه سعيدٌ مِنَ الرُّوحِ فقط ؟ تأَمَّل مُنْصِفاً .

ولعلَّك تقولُ : ما بالنا إذاً لا نراهم بيننا ونبصرهم بأعيننا ؟

فإليك نقل مرجعك العلامة ابنَ القيِّم في كتابه « الروح » ، عن

= صحيحه ، برقم : (٩١٠) . وأخرجه الطبراني في معجم الكبير ، برقم : (٥٨٩) . وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، برقم : (٢/٢٥٣) . وأخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ، كتاب الأهوال ، برقم : (٨٧٦٧) ، عَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه ، وقالَ الحاكم : صحيح على شرط البخاري .

(١) في المقدمة ، بَابُ مَا أَكْرَمَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بَعْدَ مَوْتِه ، برقم : (٩٤) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في كتاب دلائل النبوة ، الفصل الثامن والعشرون (٤٩٤) .

القرطبيِّ ـ وأقرَّه ـ ما مُلخَّصه : حصل القطع بتواتر الأخبار أنَّ موْتَ الأَنبياءِ راجعٌ إِلى أنْ غُيّبوا عنَّا بحيث لا نُدركهم وإنْ كانوا موجودين أحياء ، وذلك كالحال في الملائكة فإنَّهم أحياءٌ ولا نراهم .

بل متى تقشَّعت عن سماء بصيرتك غمامة الذنوب برياح الذكر والاستغفار ، وانطوت بشريتك الكثيفة وزكت نفسك الأمارة بالسوء حتى رجعت راضية مرضية ، وانتشرت روح المحبَّة في ذرّات وجودك ، وهدَّمت هذه العقبة الصعبة بينك وبين الأنبياء بمعول الإنصاف والرجوع إلى الحق ، بَرَزَت لناظرك شمس ذات الأنبياء ، وانعكس شعاعها على مرآة قلبك ، فهنالك تجتمع روحك الزكية المباركة ـ وأنت في دار الدنيا ـ بالملائكة الكرام ، وعندئذ تجهر بالحق قائلاً لشيعتك وقومك : هذا السرور المقيم ، هذه اللَّذة الدائمة ، هذه الحياة الطيبة .

لا جرم أنك تَذهل إذ ذاك عن المال والولد والأهل الأوطان و. . . ، ولئن كَبُر على نفسك التصديق بهذا ، فانتصب لإقناعك قوله عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود : (مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي اليَقَظَةِ ، وَلاَ يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي)[1] .

وقد رأَى النَّبيَّ ﷺ في اليقظَةِ كثيرٌ مِنْ عُلماءِ السُّنَّة الْمُطهَّرةِ الذين تَعتَمِدَهم أَنت في نقل الأحاديث وتصحيحها ، ومنهم الإمام الحافظ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ مَنْ رأَى النَّبيَّ ﷺ فِي المنام ، برقم : (٦٩٩٣) .
وأخرجه مسلم في صحيحه ، بابُ قَوْلِ النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : (مَنْ رآني في المنامِ فَقَدْ رآني) برقم : (٢٢٦٦) .

السيوطي ، فقد رأى النَّبيَّ ﷺ في اليقظة نيفاً وسبعين مرَّة ، أفتصِمَه بالكذب في هذا ؟ وأَراك تُصدِّقه تارةً أُخرى في نقل الحديث وتَصْحيحِه . إنْ هذا إلاَّ تَنَاقضٌ وتلون. . . ! .

وبعد إِثبات مرجعك ـ ابن القيم ـ أَنَّ حياةَ الأَنبياءِ كحياةِ الملائكة ، لا يصعب عليك أن يرى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم أُلوفٌ من الناس في جهات مختلفة في آنٍ واحد ، كما لا يصعب عليك أن تُصِّدق بقبض عزرائيل عليه السلام أَرواحَ مَن في المشرق والمغرب بلحظة واحدة .

هوِّن عليك ، فالله على كلِّ شيءٍ قدير ، أو كمثل الشمس في كبد السماء ، يَراها كُلُّ ذي باصرة سليمة في سائر أنحاء الأرض ، مالم يَتعرَّض أمامها حجاب .

ولا يَتخيَّل لي أَنَّك تجهل من كتب السنة رؤيةَ كثيرٍ من الصَّحابةِ مَلائكةَ الله يَقظَةً لا مَناماً ، وأنَّ رسولَ الله ﷺ أَقرَّهم على ذلك .

أَلم تسمَع هذا عنْ أَبي بكرٍ وعائشَةَ وعبدِ الرَّحمنِ بنِ عوفٍ والعِرْباضِ بنِ سارية وعبدِ اللهِ بنِ رَواحَةَ وحُذيفَةَ بنِ اليمان ومحمدِ بنِ مَسْلَمَةَ وحارِثَةَ وأُبيِّ بنِ كَعْب ، وغيرِهم رضوان الله عليهم أجمعين .

أَلم ترَ في صحيحي البخاري ومسلم(١) ، عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رضي الله عنه قَالَ : بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ ، إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بَابُ نُزُولِ السَّكِينَةِ وَالْمَلاَئِكَةِ عِنْدَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ ، برقم : (٥٠١٨) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب نزول السكينة لقراءة القرآن ، برقم : (٧٩٦) .

فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ، فَإِذَا هوَ بِمِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ عَرَجَتْ إِلَى السَّماءِ حَتَّى ما يَراها ، فَلَما أَصْبَحَ أَخْبَرَ رَسولَ اللهِ ﷺ بذَلِكَ ، فَقالَ : (تِلْكَ الْمَلاَئِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ ، وَلَوْ قَرَأْتَ لأَصْبَحَ النَّاسُ يَنْظُرونَ إِلَيْهَا ، لاَ تَتَوارَى مِنْهُم) .

أَلم ترَ في صحيح مسلم[١] ، عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قالَ : (إِنَّ المَلائِكَة كانَتْ تُسَلِّمُ عَلَيَّ ، فَلَمَّا اكْتَوَيْتُ ، فَتُرِكْتُ ، انْقَطَعَ عَنِّي ، فَلَمَّا تَرَكْتُ فَعادَ إِلَيَّ) .

أَلَمْ تَرَ في سُنَن البيهقيِّ[٢] ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قالَ : عادَ رَسولُ اللهِ ﷺ رَجُلاً مِنَ الأَنْصارِ ، فَلَمَّا دَنا مِنْ مَنْزِلِهِ ، سَمِعَهُ يَتَكَلَّمُ في الدَّاخِلِ، فَلَمَّا دَخَلَ لَمْ يَرَ أَحَدًا، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (مَنْ كُنْتَ تُكَلِّمُ) قالَ : يا رَسولَ اللهِ دَخَلَ عَلَيَّ داخِلٌ ما رَأَيْتُ رَجُلاً قَطُّ بَعْدَكَ أَكْرَمَ مَجْلِساً وَلا أَحْسَنَ حَديثاً مِنْهُ ، قالَ : (ذَلِكَ جِبْرِيلُ ، وَإِنَّ مِنْكُمْ لَرِجالاً لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يُقْسِمُ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ) إلى غير ذَلكَ. . .

وقصارى الأمر أَنَّ ذَلكَ من باب كَرامَةِ الأَولياءِ وأَنْتَ لا تُنْكِرها ، وهل هي إلاَّ أَمر خارقٌ للعادة بعيد عن المؤتلف ؟ فابحث قبل الإنكار أيها النبيه. . . ! .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، بَابُ جَوَازِ التَّمَتُّعِ ، برقم : (١٢٢٦) .

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ، بابُ ما جَاءَ في رُؤْيَةِ الأَنْصاريِّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ وَحَديثِهِ مَعَهُ ، برقم : (٢٩٩٥) . وأخرجه الطحاوي في مُشكل الآثار ، باب بيان مشكل ما روي عنه عليه السلام في حديث الظلة ، برقم : (٥٧٢) . وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ، برقم : (٢٧٧٠) ، وفي المعجم الكبير ، برقم : (١٢١٠٩) . وأخرجه ابن أبي الدنيا ، باب ما جاء في الخمول ، (٢) .

أَخْبرني أيضًا : هل تَعتقد أنَّ ما ثَبت من النشر والحشر والنعيم في الجنة والعذاب في النار للروح فقط ؟ .

لا غَرو أَنَّك تقول : إِنَّما ذَلكَ للجسم والروح معاً ؛ لقوله تعالى : ﴿ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨ـ٧٩] .

فالقادر ـ جَلَّت حِكمته ـ على إِعادَة الروح إِلى الجسد بعد تَشَتُّتِ أجزائه ومُضيِّ آلاف السنين ، أَلا يَقدر على إِعادَةِ أَرْواحِ الأَنْبياءِ والشُّهداءِ بَعدَ الموتِ بقليلٍ وحِفظِ أَجْسامِهم وحَجبهم عن أَعيُنِ النَّاسِ إِلاَّ الخواص ، أَليسوا أَكرمَ عليه مِنَ المَلائكة ؟ ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨١ـ٨٢] .

أَلم يَكن في بعض ما تقدم ـ وهو شذرة مما في السنة المطهرة ـ مُقْنِعٌ لِذَوي التَّبصُّر والإِنْصافِ ، أَنَّ حياة الأَنْبياءِ والشُّهداءِ حياةً حقيقيةً ، وأَنَّ أَعمالَهم لم تقطع بل هي غِذَاء لهم يَتنعَّمونَ به كعبادة الملائكة الكرام ؟ .

أَزيدُك على ذَلكَ أَنَّ غير الأَنْبياءِ مِنْ خواصِّ البَشَرِ كثيراً ما يُصلُّون في قبورهم بعد الموت ، ذَكَرَ الحجَّةُ السيوطيُّ وأَقرَّه عَنْ أَبي نُعيم في الحِلْية[١] ، عن جسر بن فرقد قال : (أَما وَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ أَدْخَلْتُ ثَابِتًا الْبُنَانِيَّ لَحْدَهُ وَمَعِيَ حُمَيْدٌ الطَّوِيلُ فَلَمَّا سَوَّيْنَا عَلَيْهِ اللَّبِنَ سَقَطَتْ لَبِنَةٌ ، فَإِذَا أَنَا بِهِ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ . وَكانَ يَقولُ فِي دُعَائِهِ : اللهُمَّ

(١) حلية الأولياء (٢/ ٣١٩) .

إِنْ كُنْتَ أَعْطَيْتَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ الصَّلاةَ في قَبْرِهِ فَأَعْطِنِيهَا ، فَمَا كَانَ اللهُ لِيَرُدَّ دُعَاءَهُ) .

وأَخْرَجَ التِّرمذيُّ ـ وحسَّنَه البَيهقيُّ[(١)] ـ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ : إِنَّ بَعْضَ أَصْحابِ النَّبِيِّ ﷺ جَلَسَ عَلى قَبْرٍ وَهُوَ لاَ يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ ، فإذا فيهِ إِنْسانٌ يَقْرأُ سورَةَ الْمُلْكُ حَتَّى خَتَمَها ، فأتى النَّبيَّ ﷺ فأَخْبَرَهُ ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : هيَ المانِعَةُ ، هيَ الْمُنْجيَةُ ، تُنْجيهِ مِنْ عَذابِ القَبْرِ . قالَ العلامة أبو قاسم السعدي في كتاب الإفصاح : هذا تَصديقٌ مِنْ رَسولِ اللهِ ﷺ أَنَّ المَيتَ يَقْرَأُ في قَبْرِه .

وأَخْرجَ ابنُ مَنْده عنْ طَلْحةَ بن عُبيدِ اللهِ رضي الله عنه قال : أَردتُ مالي بالغابةِ فأَدركَني اللَّيلُ ، فأَوَيْتُ إِلى قَبْرِ عبدِ اللهِ بنِ حَرام فَسَمِعْتُ قِراءَةَ القُرآنِ في القَبْرِ ما سَمِعْتُ أَحْسَن منها ، فجئْتُ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلكَ لَهُ فقالَ : (ذَلكَ عبدُ اللهِ ، أَلم تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعالى قَبَضَ أَرْواحاً فَجعَلَها في قَناديلَ مِنْ زَبَرْجَدٍ ويَاقُوت ، ثُمَّ علَّقَها

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ سُورَةِ الْمُلْكِ ، برقم : (٢٨٩٠) ، وقال : هَذا حَديثٌ غَريبٌ مِنْ هَذا الوَجْهِ ، وَفي البابِ عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه . وأخرجه البيهقي في إثبات عذاب القبر ، باب ما يرجى في قراءة سورة الملك من المنع من عذاب ، برقم : (١٢٩) ، وقال : تفرد به يحيى بن عمرو بن مالك وهو ضعيف ، وروي في فضل قراءة هذه السورة حديث آخر حسن الإسناد . وأخرجه البيهقي أيضًا في دلائل النبوة ، باب ما جاء في الرجل الذي سمع صاحب قبر يقرأ سورة ، برقم : (٢٩٥٧) ، وقال : ضعيف ، إلاَّ أَنَّ لمعناه شاهِدًا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وَسَطَ الجنَّةِ ، فإذا كانَ اللَّيلُ رُدَّتْ إلَيْهِم أَرْوحُهم حتَّى يَطلعَ الفَجْرُ ، فإذا طَلَعَ الفَجْرُ رُدَّتْ أَرْواحُهم إلى مَكانِها الذي كانَتْ فِيه) .

إلى غير ذَلكَ مما أُفهم في الكتب المعتمدة ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟! .

* * *

جواز تصرُّفِ الأَنبياءِ والأَوْلياءِ بالأُمورِ المعنوية كالمرض والضيق

من المقرر الذي لا يَفتقر إلى برهان أنَّ المخلوق مِن حَيث هو ـ ملكاً كان أو نبياً أو ولياً ـ مجرداً عن معونة الله تعالى ، لا يقدر على شيءٍ ما ، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] ، فإِنْ أَمدَّه الله تعالى بقوَّةٍ فَعَّالةٍ وأَذِنِ له في فِعل شيءٍ تَصرَّف فيه تَصرُّفاً غَريباً بما مَنحه الله تعالى من الفِكر الثاقب والسرِّ العجيب .

لا يرتاب مسلم في قدرة الملائكة على التصرُّف في كلِّ شيءٍ حتَّى في تخليق الجنين وتفصيل خَلْقِه ونفخِ الرُّوحِ فيه ، وإِنَّ منهم الْمُوَكَّلُ بتصريف السحاب وتسخير الرياح وقبْضِ الأَرْواح . . . إلى غير ذلك .

كذلك نُشاهد في المعادن والنباتات وأجزاء الحيوان من الخواص العجيبة في قلب حقائق الأشياء وتسكين الأمراض أو إزالتها ، وفي البخار ومائع الأرض ـ كالغاز والبنزين ـ مِن رفع الأثقالَ وتسيير القناطير المقنطرة ، ما يبهر العقول وتحارُ بِه الأَفْكارُ ! .

فالقادر على هِبَة الملائكة تلك القوة ، ووضع هاتيك الخواص في الجماد والنبات والحيوان ، أليس بقادر على أن يهب مثلها أو أعظم منها خاصةَ أَحْبابه وخِيرته من خَلْقه ؟ ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٤] ، كيف والآدمي مُطْلقاً مُكرَّم على الجماد وأَمثاله ؟ قالَ تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] الآية .

وقد أَثْبَتَ اللهُ في مُحْكَمِ كِتابه لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام أفعالاً لا تَليق إلاَّ بالرَّبِّ تعالى فقال : ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران : ٤٩] ، فهذا نصٌّ صريحٌ في جواز إطلاقِ الإحياءِ والإبراءِ والخلق وانكشاف الغيب على البشر ، قالَ تعالى فيمن أَتى بعرش بلقيس وليس بنبيٍّ : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل : ٤٠] ، فقد طوى الله الزمان والمكان لهذا الولي حتى أتى بعرش بلقيس بطرفة عين ، وقالَ تعالى في مريم عليها السلام : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

فحيث جاز مِثل هذه الكرامات للأولياء من غير أمة محمد ﷺ ، فما ظنُّك بأَوْلياءِ خَير أُمَّةٍ أُخرجت للنَّاس .

ولا معنى للمحاولة بأن ذَلكَ بإذن الله ، حيث إن كل مؤمن يَعتقد أنه لا يَكون شيءٌ إلاَّ بإذنه ، حتى الجرعة يُسيغها واللقمة يبتلعها والثوب يلبسه ، و . . . إلى غير ذلك .

فاتَّضح أنَّ التفريق بين الأمور الحسية والأمور المعنوية لا طائل تحته سوى تشويش أذهان العامة ، وشقِّ عصا الأُلف فيما بينهم ، وقد ثبت لنبينا ﷺ إحياء الموتى وإبراء المرضى بما يتلاشى الشك عند ملاقاته .

أخرج البخاري ومسلم[١] مِنْ طَرِيقِ قَتَادَةَ ، عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه ، عَنْ أَبي طَلْحَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ النَّبيَّ ﷺ وَقَفَ عَلى قَتْلى بَدْرٍ ، فَجَعَلَ يُناديهِمْ بِأَسْمائِهِمْ وأَسْماءِ آبائِهِمْ : (يا فُلانُ بْنَ فُلانٍ ، وَيا فُلانُ بْنَ فُلانٍ ، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللهَ وَرَسولَهُ ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟) فَقالَ عُمَرُ رضي الله عنه : يا رَسولَ اللهِ ، ما تُكَلِّمُ مِنْ أَجْسادٍ لا أَرْواحَ لَها ؟ فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (والَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، ما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِما أَقولُ مِنْهُم) ، قَالَ قَتَادَةُ : أَحْياهُمُ اللهُ حَتَّى أَسْمَعَهُمْ قَوْلَهُ تَوْبيخًا وَتَصْغيرًا وَنَقيمَةً وَحَسْرَةً وَنَدَمًا .

وقد ثَبتَ في حديثِ جابرٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ جَمَعَ عِظَامَ الدَّاجنَ[٢] في وَسَطِ الجَفْنَةِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْه ثُمَّ تَكَلَّمَ بِكَلامٍ ، فإِذا الشَّاةُ قَدْ قَامَتْ تَنْفُضُ أُذُنَيْها ، فَقالَ لي : (خُذْ شَاتَكَ يَا جَابِرُ ، بَارَكَ اللهُ لك فِيهَا) . . . الحديث[٣] .

وأَخْرَجَ البيهقيُّ في الدَّلائل : أَنَّهُ ﷺ دَعا رَجُلاً إِلى الإِسْلام فقالَ : لا أُؤْمِنُ بِكَ حَتَّى تُحيي لي ابْنَتي ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ : (يا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بَابُ قَتْلِ أَبِي جَهْلٍ ، برقم : (٣٩٧٦) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، برقم : (٢٨٧٥) .

(٢) لعله : الشاة

(٣) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ، الفَصْلُ الثَّلاثونَ في ذِكْرِ مُوازاةِ الأَنْبياءِ في فَضائلِهِمْ بِفَضائِلِ نَبيِّنَا ﷺ ، وَمُقابلَةِ ما أُوتوا مِنَ الآياتِ بِما أُوتيَ عليهِ السَّلامُ ، برقم : (٥٦٠) .

فُلانة) فقالَتْ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ . فقالَ ﷺ : (أَتُحبِّينَ أَنْ تَرْجعي) . فقالَتْ : لا واللهِ يا رَسولَ اللهِ ، إِنِّي وَجَدْتُ اللهَ خيراً لي مِنْ أَبَويَّ ، وَوَجَدْتُ الآخِرَةَ خَيْراً لي مِنَ الدُّنْيا .

وأَخْرجَ البُخاريُّ ومُسلمٌ[١] ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قال يَوْمَ خَيْبَرَ : (لأُعْطينَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلى يَدَيْه) ، فَلمَّا أَصْبَحَ قالَ : (أَيْنَ عَليُّ بنُ أَبي طالِبٍ ؟) ، قالوا : يَشْتكي عَيْنَيْهِ ، فَأَرْسَلوا إِلَيْهِ فَأُتيَ بِهِ ، فَبَصَقَ رَسولُ الله ﷺ في عَيْنَيْهِ ، وَدَعا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَع .

وأخرج البخاري[٢] عَنِ البَراءِ بْنِ عازِبٍ رضي الله عنه ، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَتيكٍ لَمَّا قَتَلَ أَبا رافِعٍ وَنزَلَ مِنْ دَرَجَةِ بَيْتِهِ سَقَطَ إِلى الأَرْضِ ، فَانْكَسَرَت ساقُهُ ، قال : فَحَدَّثْتُ النَّبيِّ ﷺ ، فَقالَ : (ابْسُطْ رِجْلَكَ) فَبَسَطْتُها فَمَسَحَها ، فَكأَنَّما لَمْ أَشْتَكِهَا قَطُّ .

وأخرج أحمد والطبراني[٣] ، عَنِ الوَزَّاعِ قالَ : قَدِمْتُ عَلى رَسولَ اللهِ ﷺ ، وَالأَشَجُّ في رَكْبٍ وَمَعَنا رَجُلٌ مُصَابٌ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ مَعِي خَالاً مُصَابًا ، فَادْعُ اللهَ لَهُ ، فَقَالَ : (ائْتِنِي بِه)

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ دُعاءِ النَّبيِّ ﷺ النَّاسَ إِلى الإِسْلاَم والنُّبوَّةِ ، وَأَنْ لاَ يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبابًا مِنْ دونِ اللهِ ، برقم : (٢٩٤٢) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، برقم : (٢٤٠٦) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ قَتْلِ أَبي رافِعٍ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبي الحُقَيْقِ ، برقم : (٤٠٣٩) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ، عن مُسْنَدُ الْوَزَّاعِ بْنِ الزُّرَّاعِ الْعَبْدِيِّ (٣٩/ ٤٩٠) . وأخرجه الطبراني في الكبير ، برقم : (٥٣١٤) .

فَأَتَيْتُ بِه ، فَأَخَذَ طائِفَةً مِنْ رِدَائِهِ فَرَفَعَهَا حَتَّى رَأَيْنَا بَيَاضَ إِبْطِهِ ، ثُمَّ ضَرَبَ ظَهْرَهُ ، وَقالَ : (أُخْرُجْ عَدُوَّ الله) فَأَقْبَلَ يَنْظُرُ نَظَرَ الصَّحِيحِ لَيْسَ بِنَظَرِهِ الأَوَّلَ ، ثُمَّ أَقْعَدَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَدَعا لَهُ وَمَسَحَ وَجْهَهُ ، فَلَمْ يَكُنْ في الوَفْدِ أَحَدٌ بَعْدَ دَعْوَةِ رَسولِ الله ﷺ يَفْضُلُ عَلَيْهِ .

هذا نَذْرٌ من بحرٍ خِضَمٍ ، وليس في الإمكان استيفاء ما في السنة المطهَّرة من هذا الموضوع ، فليتعلَّم الجاهل .

وإن تَعجب فعجب أن تلك الطائفة ما كَفَّرت المسلمين بشيءٍ وجعلتْه شِركاً عَظيماً وأَقامت عليه الطَّامَّة الكبرى إِلاَّ وتجد له أصلاً صَريحاً ثابتاً في السُّنَّة المطهَّرة وأَفعالِ السَّلَفِ الكِرام مع موافقة المعقول الصَّحيحِ .

فلا أَرى تلك الطائفةَ إِلا أنَّهم يَضعون بِسَبب ذَلكَ أَمامَهم وخلْفَهم وعن أيمانِهم وعن شَمائِلِهم عقبات تحول بينهم وبين الفتح المبين والنصر العميم .

هنالك تتسَّرب عواملُ اليأْسِ منهم إِلى قلوب الملايين من المسلمين وليس وراء ذَلكَ إِلاَّ الفَشلَ ، فاللَّهُمَّ اهدهم سواء السبيل .

من ذَلكَ إِنكارهم التَّبرُّك والتَّمسُّح بآثار الأنبياء والصالحين مع ثبوته في الكتاب العزيز والسنَّة المطهرة ـ بنقل أئمتهم ـ ، ولا ريب أَنَّ عوامل الحبِّ والشوق المشتعل في قلب المتمسِّح هي الدافعة إِلى ذلك .

قالَ تعالى عن سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا

﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف : ٩٣] ، ثم قال : ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف : ٩٤] ، إلى أن قال : ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف : ٩٦] .

قل لي : ما السَّببُ الذي دعا يوسُفَ أَنْ يَأْمُرَ بإِلْقاءِ القميص على وجه أَبيهِ سوى أَنْ يتسلَّى به عنه حيث إنه أَثرٌ من آثاره ؟ وما السبب في رُجوعِ بَصَرِ يعقوب عند ذَلكَ سوى شدَّة الحبِّ والفرح بأَثَرِ المحبوب ؟ وما الحِكمةُ في ذِكْر الله تعالى ذَلكَ في كتابِه ؟ .

أَمُرُّ على الدِّيار ديار سلمى أُقبِّلُ ذا الجدارِ وذا الجدار

وما حبُّ الدِّيار شغَفْن قلبي ولكن حبُّ مَنْ سكنَ الدِّيارا

وأَخْرجَ إمامُكَ وإِمامُنا أحمد بن حنبل في مسنده(١) ، منْ حديثِ داودَ بنِ أَبِي صَالِحٍ قَالَ : أَقْبَلَ مَرْوَانُ يَوْمًا فَوَجَدَ رَجُلاً واضِعًا وَجْهَهُ عَلى الْقَبْرِ ، فَقَالَ : أَتَدْرِي مَا تَصْنَعُ ؟ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ أَبُو أَيُّوبَ ، فَقَالَ : نعَمْ ، جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَلَمْ آتِ الحَجَرَ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : (لا تَبْكُوا عَلَى الدِّينِ إِذَا وَلِيَهُ أَهْلُهُ ، وَلَكِنْ ابْكُوا عَلَيْهِ إِذَا وَلِيَهُ غَيْرُ أَهْلِه) ، قِفْ هنا وتأمَّل قولَ أَبي أَيّوبَ الصَّحابيِّ الجليل إلى أَميرِ المدينة حين إِنْكارِه التَّبرُّك ، ثم استشهادَه بالحديثِ تَجِدْ عَجباً ! .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨/ ٥٥٨) ، برقم : (٢٣٥٨٥) . وأخرجه الحاكم (٤/ ٥١٥) وصحَّحه . وأخرجه الطبراني في الكبير برقم : (٣٩٩٩) ، وفي الأوسط برقم : (٢٨٦) و(٣٩٦٢) .

وأخرج مسلم[١] وأبو داود والنسائي وابن ماجه ، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ ، أَنَّها أَخْرَجَتْ جُبَّةَ طَيَالِسَةٍ ، وقَالَتْ : كانَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَلْبَسُها ، فَنَحْنُ نَغْسِلُهَا لِلْمَرْضى يُسْتَشْفَى بِهَا . فهذا تبرُّكٌ مِنَ الصَّحابَةِ بالأَثَرِ بعد الموت فلا تغفل .

وأخرج الإمام أحمد والبخاري في التاريخ ، وابن سعد وأبو يعلى والبغوي والحسن بن سفيان في مسنده ، والطبراني والبيهقي[٢] ، عنْ حَنْظَلَةَ بْنِ حِذْيَمٍ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَسَحَ رأْسَهُ بيَدِهِ ، وَقَالَ لَهُ : (بُورِكَ فِيه) ، قَالَ ذَيَّالٌ : فَرَأَيْتُ حَنْظَلَةَ ، « يُؤْتَى بِالشَّاةِ الوَرِمِ ضَرْعها والبَعيرِ والإِنْسَانِ بِهِ الْوَرم فَيَتْفُلُ في يَدِهِ ، ويمسحُ بِصَلْعَتِهِ وَيَقُولُ : بِسْمِ اللهِ ، عَلَى أَثَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَيَمْسَحُهُ ثُمَّ يَمْسَحُ مَوْضِعَ الوَرِمِ .

وأَخْرَجَ البُخاريُّ في الصحيح[٣] مِنْ حَديثٍ طويلٍ ، عنْ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعودٍ أَنَّه جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحابَ النَّبِيِّ ﷺ يومَ صُلْحِ الحُدَيْبِيةِ بِعَيْنَيْهِ ، قالَ : فَواللهِ ما تَنَخَّمَ رَسولُ اللهِ ﷺ نُخامَةً إلاَّ وَقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، بابُ تَحْريمِ اسْتِعْمالِ إِناءِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، برقم : (٢٠٦٩) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤/ ٢٦٣) برقم : (٢٠٦٦٥) . وأخرجه أبو يعلى في مسنده الكبير كما في المطالب العالية برقم : (٤٥٢٧) . وأخرجه الطبراني في الكبير برقم : (٣٤٧٧) و(٣٥٠٠) و(٣٥٠١) ، وفي الأوسط برقم : (٢٩١٧) . وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ٢٠٣) ، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ، باب ما جاء في مسحه ﷺ رأس محمد (٦ /٢١٤) . وأخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب (١/ ٣٩٥ـ٣٩٨) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ الشُّروطِ في الجِهادِ والْمُصالَحَةِ مَعَ أَهْلِ الحَرْبِ وَكِتابَةِ الشُّروطِ ، برقم : (٢٧٣١) .

مِنْهُمْ ، فَدَلَكَ بِها وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ ، وَإِذا أَمَرَهُمْ ابْتَدَروا أَمْرَهُ ، وَإِذا تَوَضَّأَ كادوا يَقْتَتِلونَ عَلَى وَضوئِهِ . . .) الحديث .

وعند الحَسنِ بنِ سُفيانَ في مُسْنَده وأَبي يَعْلى والحاكِمِ والدَّارَقُطْنيِّ وأَبي نُعَيْمٍ[١] وأَقرَّه الشَّوْكانيُّ ـ وَهوَ مِنْ أَئِمَتِّكُمْ ـ أَنَّ أُمَّ أَيْمَنَ رضي الله عنها شَرِبَتْ بَولَ النَّبيِّ ﷺ ، فَضَحِكَ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَواجِذُهُ ، ثم قالَ : (أَمَا إِنَّكِ لَنْ تَشْتكي بَطْنَكِ بَعْدَ يَوْمكِ هَذا أَبَدًا) .

وعند البزَّار وأَبي يَعْلى والطَّبرانيِّ والحاكِمِ والبيهقيِّ[٢] ، (أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ رضي الله عنهما شَرِبَ دَمَ النَّبيِّ ﷺ بَعْدَ الحِجامَة) ، فكان الصَّحابَةُ يَرَوْنَ القوَّةَ التي به مِنْ ذَلكَ الدَّمِ[٣] .

وإنما حداني للاقتصار على ما سمعت من الأدلة الناصعة

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ، باب معرفة الصحابة (٤/ ٧٠) ، برقم : (٦٩١٢) ولفظه : عن أم أيمن رضي الله عنها قالت : قام النبي ﷺ من الليل إلى فخارة من جانب البيت فبال فيها ، فقمت من الليل وأنا عطشى ، فشربت من في الفخارة وأنا لا أشعر ، فلما أصبح النبي ﷺ قال : يا أم أيمن قومي إلى تلك الفخارة فاهريقي ما فيها ، قلت : قد والله شربت ما فيها ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، ثم قال : أما إنك لا يُفجع بطنك بعده أبداً) . وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٥/ ٨٩) ، برقم : (٢٣٠) . وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ، الْفَصْلُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ (٣٦٥) . وفي حلية الأولياء (٢/ ٦٧) ، وعزاه في المطالب العالية ، كتاب المناقب ، باب طهارة دمه وبوله ﷺ برقم : (٣٩٠٦) إلى أبي يعلى في مسنده الكبير .

(٢) البحر الزخار من مسند البزار برقم : (١٩٤٨) . وأخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٣٠) . وأخرجه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/ ٦٣٨) برقم : (٦٣٤٣) . وأخرجه ابن عساكر (٢٠/ ٢٣٣) . وأخرجه البغوي في معجم الصحابة (١/ ٥١٦) .

(٣) أخرجه أبو يعلى في مسنده الكبير ، كما في المطالب العالية ، كتاب المناقب ، باب طهارة دمه وبوله ﷺ برقم : (٣٩٠٤) .

والأحاديث الثابتة ضيق المقام ، وإلا فالسنة طافحة من هذا وأمثاله إن كنتم تبحثون ، وما أَشبه الحاج وهو بين يدي الحجر الأَسود يُقبِّلْه ويَلْمَسْه ، وقد غَشيَتْه ثياب الذلَّة والخضوع لخالقه تعالى بعابد الوثن[1] ، فلم لم تجعل هذا مُشركاً وتسلبه حلَّة إيمانه ؟ .

كفى يا قوم ، ألم يكفكم عبرة قلَّة الواردين إلى بيت الله منذ وصمتم إيمانكم الطاهر بالشّرك المظلم ، وحَجَّرْتم عليهم واسعاً ! .

أَم تُريدون ـ أيتها الطائفة ـ أنْ ينقطع الوافدون إلى بيت الله بالكلية ، وبه يتداعى ركنٌ من أَركان الإسلام ، أَلم يَأْنِ للمسلمين أنْ يَلُمُّوا شَعثَهم ويجمعوا كلمتهم ؟ .

الوفاق الوفاق ، فقد ضاق الخناق واشتد الوثاق ، وغضب الخَلَاّق ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم أرنا الحقَّ حقاً وارزقنا اتبعاه ، وأَرِنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واهدنا سواء السبيل .

❋ ❋ ❋

(١) أي فيما يراه النجديون .

التَّبرُّك بآثار الأَنبياءِ والصَّالِحينَ

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

هذه الآية تدل على حقيقة من الأهمية أن نقف عندها وأن نتبينها : عندما امتَنَّ الباري عز وجل على بني إسرائيل بأنْ أعاد لهم هذا التابوت بما فيه ، وفيه عصا وقليل من الآثار والمصوغات من متعلَّقات سيدنا موسى وسيدنا هارون ، وعندما نجد أنَّ الامتنان والبيان ورد في القرآن الكريم نعلم أنَّ القرآن يُقِرُّ بني إسرائيل على الاهتمام بهذه الذكريات ، رَغم أن هذه الذكريات والآثار ليست بمستوى الذكريات والآثار التي نَحتفل بها نحن اليوم ؛ مما يَعود بنا إِلى اليوم الذِي وُلِد فيه رسولُ الله ﷺ ، بل أبسط ، العصا التي كان يحملها سيدنا موسى ، وربما قلنسوة كان يضعها على رأْسِه ، وثوب كان يلبسه ، ونسخة معينة من التوراة . . .

فالباري عز وجل أقرَّهم على الاهتمام بهذه الذكريات وعلى الاحتفاء بها ، وإلا لما امتَنَّ عليهم وأعاد لهم هذه الآثار بالطريقة الخارقة ، عندما أَعادها لهم وقد حملتها الملائكة ، ولسان الحال يقول : تفضَّلوا خذوها واحتفلوا واستبشروا بعودة هذه الآثار إليكم ، وهي كما قُلنا عبارة عن أَشياء بسيطة .

واليوم إنْ أَرَدْنا أنْ نحتفل بمثل هذه الأمور والآثار التي احتفلوا بها لكفَّرَنَا الوهابية ، ولقالوا لنا : هذه العصا لا تُفيد ولا تَضر ولا تَنفع . ولو أردنا أنْ نَأْتيَ بشيءٍ مما كان يَرتديه سيدنا رسول الله ﷺ ، أو العصا التي كان يَحملُها النَّبيُّ ﷺ ، وأحببنا أنْ نَحتفل ونَبتهج بذكرى هذه العصا التي عثرنا عليها والتي كان يحملها رسول الله ﷺ ، لكفَّرَنَا الوهابية كما تعلمون .

الباري سبحانه وتعالى أعاد إِلى بني إسرائيل صُندوقاً لَيس فِيه أكثر من هذه الأشياء ، بقايا ذكريات مما تَحتفل فيه أسرة من الأسر لِكَبيرها الذي تُوفي من فترة ، كقبعته أو مسبحته أو عصاه. . . إلخ ، ومع ذَلكَ فإن البيان الإلهي أقرّ الاحتفاء بهذه البقايا كذكرى ترتبط بنبي من الأنبياء وهو سيدنا موسى ، وهذا يعني أنَّ قدسية هذه الآثار من قدسية سيدنا موسى .

والنَّبيُّ ﷺ أقرَّ اهتمامنا بآثار الصالحين ناهيك عن الأنبياء ، فقد قالَ النَّبيُّ ﷺ فيما رواه مسلم : (بِتُرْبَةِ أَرْضِنا ، بِرِيقَةِ بَعْضِنا ، يُشْفى سَقِيمُنا ، بِإِذْنِ رَبِّنا)[١] وهو حديث صحيح لا يستطيع أحد تضعيفه ، فالنَّبيُّ ﷺ يعلن أن (تُرْبَة أَرْضِنا) المنسوبة إِلى النَّبيِّ ﷺ ، يقول : هذه التربة من استشفى بها شفاه الله ، وأنت عندما تحترم نسبة هذه التربة إِلى رَسولِ الله ﷺ فأَنْت إِنَّما تُقدِّس رسولَ الله ﷺ ، وعندما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ رُقْيَةِ النَّبيِّ ﷺ ، برقم : (٥٧٤٥) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة ، برقم : (٢١٩٤) .

تُقدِّس رسولَ اللهِ ﷺ فأَنْتَ تُقدِّس فيه نبوَّته ، إذاً مَنبع التَّقديس هو تقديسك لله سبحانه وتعالى .

(بِتُرْبَةِ أَرْضِنا) : ويعني بهذا الصالحين الذين كانوا من حوله ، يدخل فيهم سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان وسيدنا علي رضي الله عنهم ، وكلُّ الصَّالحين الذين من حوله ، بِرِيْقَةِ كُلِّ صالحٍ يُشفى مَريضُنا .

فهذا البيان الإلهي الصريح القاطع وهذا الكلام النبوي يُنهِيَان اللَّجج بهذا الموضوع بشكلٍ نِهائي ، لكنَّ المشكلة أنَّ اللَّجج لا يَنتهي من ألسنة هؤلاء الناس ! ولو أن النَّبيَّ ﷺ ظهر لهم اليوم وقالَ لهم : « يا جماعة التَّوسُّل برسول الله ﷺ سائغ ، والاحتفال بذكرى ولادة رسول الله ﷺ سائغ ، وأنا كنت أحتفل بذكرى ولادتي » ، فإنهم سيخطئونه .

ورد في الصَّحيحِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ عندما رجع مع أصحابه من إحدى الغزوات ، ووصلوا إلى مشارف المدينة لاحت لهم بيوتات المدينة ، رفع رسول الله ﷺ صوته بين أصحابه وقال : (هَذِهِ طابَة) ، ثم التفت إلى جبلِ أُحدٍ وقال : (وَهَذا أُحُدٌ . . . وَهوَ جَبَلٌ يُحِبُّنا وَنُحِبُّه)[1] . وما الجبل إلا مجموعة صخور وحجارة وأتربة . . . ، ومع ذَلكَ فتأمل إلى هذا الغزل من رسول الله ﷺ لجبل أُحد .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب خرص الثمر ، برقم : (١٤٨١) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب (أحد جبل يحبنا ونحبه) ، برقم : (١٣٩٢) .

وقدسية جبل أُحدٍ ، وحبّ الرسول ﷺ لهذا الجبل ، والحب الذي أَعْلَنه رسولنا ﷺ من الجبل ، كل ذَلكَ جاء بما جاوره ، لأَنَّ الشيء يُقَدَّس بِمُجاورِه ، لأَنَّه يَحتضن مجموعة شهداء ، منهم مصعب بن عمير وحمزة رضي الله عنهم أجمعين .

إذاً فإِنَّ قدسية الشيء لا يُشترط أنْ تَكون نَابعة من ذَلكَ الشيءِ ، وإِنَّما قد تكون آتية من جواره ، هذه حقيقة لا يَستطيع إنسان أن يماري بها ، فالأرض هي هي ، لكن تعلو قيمتها بقيمة من فيها ، والريق هو هو ، لكن تَعلو قيمته بقيمة صاحبه .

واليوم عِندما تَمرُّ ذكرى ولادة المصطفى ﷺ ، فمن كان حبُّ النَّبيِّ ﷺ مزروع في قلبه ، فإِنَّك لن تستطيع أنْ تمنعه أو تناقشه في مسأَلةِ الاحتفال ، لأَنَّه لا يَستطيع أنْ يَكتُمَ بَهجَتَهُ وحَنِينَهُ لرسول الله ﷺ ، لأَنَّ المسأَلةَ ليست من المسائل الاختيارية ، وإِنَّما هي من الأُمور الانفعالية التي يشعر بها المحبُّ شاء أَم أَبى .

أمَّا مَن كان مُؤمناً بالله إيماناً عَقلانياً فقط ولم يَتحوَّل إيمانه العقلاني إِلى حبٍّ للمصطفى ﷺ ، فإِنَّه لن يفهم هذا الكلام ؛ لأنَّ الابتهاج بالذكريات ليس مَصدره قراراً عقلياً وإنما حنين القلب ، فمن أُتيح له ـ بعد غياب أَربعين سنة ـ أن يَعود إِلى مَسقط رأسه والدار الذي ولد بها ، فإن الحنين سيهب بين جوانحه ، وستحدث لديه حالة اصطلام وتأثر ، وتهتاج بين جوانحه المؤثرات والذكريات ، وتهدأ هذه الحالة عندما يَرى جُدران البيت الذي كان يعيش فيه ، والشجرة الكبيرة التي كان يتفيأ ظِلالها ، والوادي الذي كان يَلعب به مع إخوته ، فَهل تَستطيع أن

تمنع مِثل هذا الشخص من الابتهاج ! ؟ لا . . . لأن هذا الابتهاج لم يَأت من قرار عقلي اختياري ، وإنما يأتيه من انفعال وجداني .

لذا فإنَّ من يقول لك : الابتهاج بذكرى مولد الرسول ﷺ غير مشروع ، فإن فيه خَبَلٌ ، لأنَّه يعتقد أن هذا الابتهاج من الأمور الاختيارية ، ومن المعلوم أنَّ الابتهاج وكل الانفعالات لا يدخل به التَّكليف ، وبالتالي لا يصح أن تقول للجائع : لا يجوز أن تجوع أو أن تظمىء ، ومثل هذا لا يقوله إلا مجنون ، لأن الجوع انفعال وليس فعل ، إذاً فإنَّ الابتهاج لذكريات تحبها انفعال ، لكن الذي يَنبغي أن نَنضبط به هو طريقة الابتهاج ، والإعلان عن هذا الابتهاج يَنبغي أن يكون بشيءٍ شرعه الله تعالى .

❋ ❋ ❋

الاحتفال بالمولد النبوي ليس بدعة ضلالة[١]

الحمد لله والصلاة على سيدنا رسول الله وآله وصحبه أجمعين وبعد :

سبب المقالة : إنكار بعضهم على ما يسمى بالمولد ، واعتبار ذَلكَ بدعة مذمومة ، والتهويل على أصحابها ، وبخاصة في شهر ربيع الأول كل عام .

معنى المولد : لا يخرج المولد في أي مكان عن كونه دعوة للاجتماع في مسجد أو غيره يظهر أهله حب النَّبيِّ ﷺ ، فيقرأ فيه من دواوين منظومة أو منثورة فيها شيء من أخباره عليه الصلاة والسلام وشمائله ، ويتخلل ذَلكَ مدح وأشعار في الثناء على المختار ، وقَلَّ أن يَخلو من توجيه عالم أو إرشاد مُرَبٍّ لمحاسبة النفوس وإصلاح الشؤون ، والتهييج على الدعوة إلى الله تعالى ، والتزهيد بالدنيا والترغيب بالآخرة ، ثم يَتفرقون على ذواق غالباً كهدي الصحابة الكرام .

تحرير محل النزاع : المعترض على إقامة المولد النبوي يَحتج بأنه لم يَكن في العهد النبوي مثل هذه الاجتماعات المنطوية على ما ذكرنا

(١) مقالة للشيخ الدكتور محمد ياسر القضماني ، بتاريخ : ٢٠١٠م . منقول عن موقع نسيم الشام .

في وقت واحد في زمن معين ، وإلا فأفراد ما يَقع فيها لا استنكار له ، فَمَن يُنكر قراءة شيء من القرآن أو الحديث عن مولده وشؤونه عليه الصلاة والسلام ، أو مدحه أو إكرام المسلم وإتحافه بطعام أو شراب ؟!

إذن حصر الإشكال باجتماع مُبتدع لهذه القربات ، وتخصيص وقت لها كما يقولون !

لا إنكار في الخلاف المعتبر ، وتقسيم البدعة : نقول إن الحوادث التي لم تكن في العهد النبوي في العبادات أو العادات هناك مَن يَقول من أكابر العلماء بأنها يَعتريها الأحكام الخمسة عند عرضها على قواعد الشريعة :

فإن دخلت الحوادث في قواعد الإيجاب فهي بدع واجبة ؛ كالاشتغال بعلم النحو الحادث لفهم كلام الله ورسوله ؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وإن دخلت الحوادث في قواعد التحريم فهي محرمة ؛ كاعتقادات القدريّة والجبرية ممن قالَ بقولٍ لا سَلَفَ له .

وإن دخلت الحوادث في قواعد الندب فهي مندوبة ؛ كإحداث المدارس ، وصلاة التراويح جماعة في المسجد بإمام واحد .

وإن دخلت الحوادث في قواعد المكروهات فهي بدع مكروهة ؛ كتزويق المساجد والمصاحف .

وإن دخلت الحوادث في قواعد المباحات ؛ كالمصافحة عقب

المكتوبات بين المصلين ، والتوسع في المآكل وغيرها ، فهي مباحة .

هذا الاتجاه في الفقه الإسلامي لفهم البدعة ليس جديداً ، وإنما من رؤوس من قالَ به الإمام الشافعي رحمه الله المولود (١٥٠هـ) .

وممن قالَ به ونحا نحوه : العز بن عبد السلام ، النووي ، أبو شامة ، القرافي ، الزرقاني ، ابن عابدين ، ابن الجوزي ، ابن حزم ، ـ رحمهم الله ـ ، وهم أعلام من المذاهب الأربعة المتبوعة مع ابن حزم من مشاهير المذهب الظاهري[1] .

عَرْض بدعة المولد على قواعد الشريعة : بناء على ما مَضى من اتجاه تقسيم البدعة وما يعتريها من الأحكام الخمسة : الوجوب ، الحرمة ، الكراهة ، الندب ، الإباحة ؛ لن تَجد أصحاب هذا الاتجاه مختلفين في وضع المولد ـ بالمعنى الذي قدمت به ـ ضمن البدعة المستحبة ، ومن سمعتَه يقول : بل هي بدعة واجبة ؛ فهو ـ كما يقولون ـ في لغة المحبين ؛ فإنهم لَمَّا رأوا إعراض الناس عن كثير من السنن والشؤون النبوية ، ورأوا آثار إقامة الموالد في تهييج الناس للمتابعة ، وبذل النفيس في سبيل النصرة لله ورسوله ، لَمَّا رأوا ذَلكَ قالوا هذا على سبيل التهييج للجلوس في مجالسهم والدعوة إليها ! .

قولة الفاروق عمر رضي الله عنه : (نعمت البدع هذه) : ما رأي من هاجم تقسيم البدعة كما مرّ ، واحتجاج أصحابه بقول سيدنا عمر

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية ، مادة البدعة .

رضي الله عنه : (نِعْمَتِ البِدْعَةُ هَذِه)[١] على جمع الناس على التراويح وراء إمام واحد ، أقول : ما رأي من هاجم تقسيم البدعة على حسنة وقبيحة إلا أن يقول : قَصْدُ عمر هو المعنى اللغوي ! .

نقول : هذا القول بأن إرادة عمر من البدعة البدعةُ اللغوية وحسب مبتَدع لم يذهب إليه أحد ؛ فقولة عمر كانت في إثر هذا الأمر الشرعي وهو الصلاة ؛ وليس الكلام هنا وإن أطلق منصرفاً إلا للمعنى الاصطلاحي ؛ فَمُؤدى كلامه : إن جمعي لهم في الصلاة وراء إمام واحد بدعة مستحبة ؛ فقد مدحها بقوله : « نِعْمَتِ » ولو فهم من قول النَّبيِّ ﷺ : (كُلّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)[٢] ذم كلّ جديد مبتدع لما جرؤ على إطلاق كلمته ؛ إذ كيف يستحسن ما أطلق ذمّه عليه الصلاة والسلام ؟! لا ، لا ! فالصحابة سمعوا أيضاً : (مَنْ ابْتَدَعَ بِدْعَةَ ضَلالَة) [عند ابن ماجه والترمذي[٣] وحسنه] ، وسمعوا : (مَنْ سَنَّ في الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ. . .)[٤] ، وفي الحديث الحسن عَن ابْنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه : (ما رَأَى الْمُسْلِمونَ حَسَنًا فَهوَ عِنْدَ اللهِ حَسَن)[٥] .

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ، بَابُ مَا جَاءَ فِي قِيَام رَمَضَانَ ، برقم : (٣) .

(٢) أخرجه ابن ماجه سننه ، بابُ اتِّباع سُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشدينَ المَهْديِّين ، برقم : (٤٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الأَخْذِ بِالسُّنَّةِ وَاجْتِنَابِ البِدَع ، برقم : (٢٦٧٧) .

(٤) أخرجه مسلم في سننه ، بَابُ الْحَثِّ عَلَى الصَّدَقَةِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، أَوْ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ وَأَنَّهَا حِجَابٌ مِنَ النَّار ، برقم : (١٠١٧) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، (٦/ ٨٤) برقم : (٣٦٠٠) . وأخرجه الطبراني ، برقم : (٨٥٨٢) .

فَفَهم أن الجديد مادام لا يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعا فهو سائغ ؛ وإلا فهي بِدعَة ضلالةٍ منهي عنها[١] .

فلسنا نحن الذين نفسّر كلام الفاروق عمر بن الخطاب بهوانا لِنُرَوِّجَ لإقامة الموالد ، وإنما هو تفسير أكابر العلماء ؛ وهل كان يُعَزِّرُ الشافعي والعز وغيرهما ممن ذكرنا أهلَ أهواء وترويج للبدع ؟! .

ثناء العلامة ابن كثير على أول من ابتدع المولد : أثنى الإمام ابن كثير[٢] على صاحب إربل الملك المظفر ، أول من أحدث فعل المولد ، وقالَ عنه : « أحد الأجواد والسادات الكبراء والملوك الأمجاد ، كان يعمل المولد النبوي الشريف في ربيع الأول ، ويحتفل به احتفالاً هائلاً ، وكان شهماً شجاعاً. . . عاقلاً عالماً عادلاً ، رحمه الله وأكرم مثواه ، وقد صنّف له الشيخ أبو الخطاب بن دحية مجلداً في المولد النبوي ، سماه : « التنوير في مولد البشير النذير » ، فأجازه على ذَلكَ بألف دينار. . .) .

فهل ترون ابن كثير يَذُمُّ هذا الذي ابتدأ بتعظيم المولد كما يُرَوِّجُ بَعضهم ؟! .

تأليف الموالد في مصنفات أكابر العلماء : أحصى الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه : « معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ » ممن كتب تآليف في المولد الشريف ، فبلغت (١٦٠) بين مخطوط

(١) كما ذهب بذلك إمامنا الشافعي رحمه الله ، انظر (تهذيب الأسماء واللغات) للإمام النووي ، مادة (بدع) ، وتقسيم الإمام الشافعي والعز بن عبد السلام للبدعة .
(٢) في كتاب « البداية والنهاية » (١٣/ ١٣٦ـ١٣٧) .

ومطبوع من علماء وصلحاء المسلمين ، يُقرَأُ الكثير منها في بلاد المسلمين شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، ثم أحصى الدكتور المنجد غيرها ، وهذا منذ عام ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

فهل يتواطأ علماء المسلمين وفقهاؤهم وصلحاؤهم على كتابة كتب لمجالس يُعصى الله ورسوله فيها ، أم أنهم يَفعلون ذَلكَ مُتشرِّفين مُتبركين بذلك ؟! .

صاحب الذكرى يدعو للاحتفال بمولده : فصيامه ﷺ يوم الاثنين ، وتعليله ذَلكَ لما سُئل بأنه ولد فيه ، وهو يوم بعثه ـ برواية أبي قتادة في مسلم(١) ـ فيه الدلالة الواضحة لعناية نبينا ﷺ بالأزمنة الفاضلة .

يقول ابن الحاج(٢) : « الأمكنة والأزمنة لا تتشرف لذاتها ، وإنما يَحصل لها التشريف بما خُصَّت به من معاني » .

ومن هنا لما علم ﷺ أَنَّ اليَهودَ يَصومونَ في عاشوراء ، قالَ : (أَنا أَحَقُّ بِموسَى)(٣) ، أي بأن أفرح وأبتهج وأشكر لهذا المعنى الجليل ، وهو نجاة نبي كريم .

---

(١) عَنْ أَبي قَتادَةَ الأَنْصاريِّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاثْنَيْنِ ؟ قالَ : (ذاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فيهِ ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ ـ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ ـ فيهِ) أخرجه مسلم في صحيحه ، بابُ اسْتِحْبابِ صِيامِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَصَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ وَعاشُوراءَ والاثْنَيْنِ والخَميسِ ، برقم : (١١٦٢) .

(٢) في المدخل : (٢/٣) .

(٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُما ، قالَ : قَدِمَ النَّبيُّ ﷺ الْمَدينَةَ فَرَأَى اليَهودَ تَصومُ يَوْمَ عاشوراءَ ، فَقالَ : (ما هَذا) قالوا : هَذا يَوْمٌ صالِحٌ ، هَذا يَوْمٌ نَجَّى اللهُ بَني إِسْرائيلَ =

وكذلك الأماكن المشرفة شُرِّفت لانتسابها لِمُشَرَّفين ؛ فالمساجد الثلاثة ارتبطت بالأنبياء فعمُرت بالطاعات لهذا المعنى .

انظر في رحلة الإسراء أَشارَ سيدُنا جِبريلُ عَلى سيدِنا الرَّسولِ ﷺ بالنُّزولِ وصَلاةِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ قالَ لَهُ : أَتَدْري أَيْنَ صَلَّيْتَ ؟ صَلَّيْتَ بِبَيْتِ لَحْمٍ حَيْثُ وُلِدَ عيسى عَلَيْهِ السَّلامُ[١] .

ومن هنا نجد الأزمنة والأمكنة المباركة تزدان بالخير والطاعات ، فإذا جاء شهر المولد الشريف اهتاجت الأرواح أكثر للعناية به ؛ لأنه شهر المولد الشريف ، فناسب لِما ضَمَّ الكريمَ التكريمُ ، ولِما حوى العظيمَ التعظيمُ ! .

إساءات الجهلة لا تلغي استحسان الاحتفالات : إساءة بعضهم بارتكاب جهالات أو مخالفات في بعض الأماكن التي تُعقد فيه الموالد لا تُلغي عنايتنا بها ؛ إذ إن العامّة يحتاجون للنصح والتذكير والتوجيه بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فنحن لا نُلغي الطواف المسنون حول الكعبة ولا نُقْصِر مِنْ حَجِّنَا النفل لوجود مخالفات في مكة ومنى وعرفات وغيرها ! .

وهل مِنَ العدل أن يُعَمَّمَ الحكم على كل الموالد بأن فيها الاختلاط

= مِنْ عَدوِّهِمْ ، فَصامَهُ موسَى ، قالَ : (فَأَنا أَحَقُّ بِموسَى مِنْكُمْ) فَصامَهُ وَأَمَرَ بِصيامِهِ . أخرجه البخاري في صحيحه ، بابُ صيامِ يَوْمِ عاشوراءَ ، برقم : (٢٠٠٤) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب صوم يوم عاشوراء ، برقم : (١١٣٠) .

(١) أخرجه النسائي في أول كتاب الصلاة ، برقم : (٤٥٠) . وأخرجه البيهقي في الدلائل ، أبواب المبعث ، باب الإسراء ، (٢/ ٣٥٥) .

وكذا مع العلم أن كثيراً منها بل أكثرها يَقوم عليه أكابر من العلماء والدعاة والصالحين المعتبرين في بلادهم من عالمنا الإسلامي الكبير ؟! .

الفرح جبلي فطري بالحبيب الأعظم ﷺ وشؤونه فانتفعوا به : لا بد أن يكون ابتهاج في الذكريات النبوية والإسلامية ؛ لأنها تذكر وتبعث على مزيد من الحضور مع أصحاب هذه الذكريات ؛ فالعقل يقتضي أن أُوَجِّه هذه المظاهر المبتهجة والجموع المحبَّة للذكرى وصاحبها ، لا أن أهاجمها وأصْرِفها ، وقد حضرت تريد الاستماع والانتفاع ! .

وهل سَتُلام يوم القيامة لأنك في ليلة المولد الشريف تَكَلَّمْتَ في مَجْمَع اجتمعوا على محبَّة رسول الله ﷺ والتذاكر في شؤونه ؟! .

لا يَجلس واحد من المعترضين في هذه المجالس المنضبطة بعلماء لا مُتكلماً ولا سَامعاً ، لماذا يا هذا ؟ لأن هذه اللقاءات والموالد بدعة ! ولو حضر لَسُرَّ .

أخيراً كلمة من القلب لإخوتي : يا من لا يَنشرح للجلوس في اللقاءات والموالد هذه المنضبطة بنظر الأخيار ؛ لا أقل من أن تَسْلَم أعراض أصحابها ؛ فهم من أهل القبلة وإخوانكم في العقيدة ! .

* * *

الرد على دعاة الجهة والتجسيم لله تعالى

في العقيدة أُناس يَدَّعُون أنهم من أرباب الدعوة إلى الله عز وجل ، يحاولون أن يدعو الناس إلى الله عز وجل ويُدخلوا العقيدة الإسلامية بين جوانحهم ، أول ما يقوله لأحدهم : أين الله ؟ وينبغي أن يكون جوابه بلسانه وبيده هكذا في السماء . . ! . فإن لم يقل ذَلكَ وإن لم يفعل ذَلكَ فقد كفر ولم يَكمل إيمانه ، وشذّ عن العقيدة الإسلامية .

هذا من أسوأ أنواع التنطع التي نهى عنها المصطفى ﷺ ، لأن المسؤول يكون عادة مؤمن بالله قلبه فياض بالإيمان بالله عز وجل ، يعلم أن الله منزه عن أن يحده مكان أو معين . وهو يعلم بالفطرة أن الله تعالى لا يُشبهه شيء ، يعرف هذا الشيء بكل فطرة وبكل بساطة ، فيأتي متنطعون يزجونه بأشياء تحيره . . ! .

وهذا ما يجعله مُتَّهَماً بالكفر عند هؤلاء الناس ، لأن أي إنسان عنده شيء بَسيط من الثقافة الإسلامية ومعرفة بدين الله سيجيب كما قالَ الله ، يقول له : أين الله ؟ .

فيجيب : أقول كما قالَ الله عز وجل : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] ، وأقول كما قالَ : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ [الملك : ١٦] ، وأقول كما قالَ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] ، أقول كما

قالَ الله سبحانه وتعالى . لكن المتنطِّعون يُصِرُّون على أَنْ يُجيب بالقول : « الله في السماء » ومن دون أن يَذكر ما قاله الله تعالى في كتابه العظيم ، هذا أسوأ أنواع التنطع ، ولهذا يقول المصطفى ﷺ : (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُون)[١] .

يقولون : نحن نأْخذُ بكلامِ النَّبيِّ ﷺ لأَنَّ النَّبيَّ سأَلَ الجارِيةَ أَينَ الله ؟ فأَشارَتْ بيَدِها[٢] . لكنهم يجهلون ما هو معلوم عند علماء الشريعة الإسلامية بأن وقائع الحال لا يستدل بها .

هنالك ما يُسمى في الشريعة الإسلامية بـ « واقعة حال » ، وهي من أهم الأمور التي ينبغي أن يعلمها كل مسلم فضلاً عن الداعي إِلى الله عز وجل ، لأن الحديث الذي يَستدلون به يتعلق بإنسانة لم تكن تنطق ويريد صاحبها أن يُعتقها ليرى أمؤمنة هي أم غير مؤمنة ؟ فأراد النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام أن يَستوضح مَدى إِيمانها فسأَلها : أَينَ الله ؟ إذ لربما أَشارت إِلى صنم ، وعندما أشارت إِلى السماء استنبط رسول الله ﷺ أَنَّها تؤمن بالله ولا تؤمن بالأصنام ، فجاز إعتاقها لإيمانها ، وهؤلاء المتنطعون يَرون أن واقعة حال هذه الجارية يَنبغي أن تُنَفذ على كل مسلمٍ كما فعلت هذه الجارية المسكينة التي لا تتكلَّم .

الباري عز وجل ذكر عن نفسه كلمات كثيرة قال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ [الزخرف : ٨٤] ، وقال : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب هلك المتنطعون ، برقم : (٢٦٧٠) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب تحريم الكلام في الصلاة ، برقم : (٥٣٧) .

كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، فإن كنت تريد التأويل لنص من النصوص المتعلقة بهذه الموضوع فعليك بتأول كل ما ورد عن الله تعالى بهذا الخصوص ، وإلا فلا يجوز لك أن تُؤَوِّلَ نَصاً وتُهمِلَ آخر .

أما نحن فنقول كما قالَ السلف وكما قالَ الله عز وجل : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، نقول كما قالَ بدون كيف وبدون أن نجعل من المكان حيزاً لربنا سبحانه وتعالى ، أو أن نجعل من الزمان حيزاً له سبحانه وتعالى .

إن قلت : هو في السماء ، فلا ضير ، لأن الله تعالى قالَ عن ذاته : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ [الملك : ١٦] . وإن قلت : هو معنا أين ما كنا ، فلا ضير ، لكن بالتعميم ، فلا نقول : الباري في الغرفة مثلاً أدباً مع الله سبحانه وتعالى ، لكن عند الكلام العام نقول كما قالَ الله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، فإن التقطت آيةً من هذه الآيات الكريمة بأنها أعجبتك ووافقت مزاجاك وطويت الآيات الأخرى عن الذاكرة ، فأنت إذاً تتنطع ، ورسول الله ﷺ يقول : (هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُون)(١) .

كذلك الإشارة بالإصبع بجهة العلو تنطع ، لأن إشارة الجارية بأصبعها إلى السماء له سبب لأجله أشارت ، لأنك عندما تريد مني أن أشير بأن الله تعالى فوق بهذه الجهة ، فإن جهة العلو هذه التي أشرت إليها وحَدَّدتُهَا هي نفسها جهة السفل في البلد المقابل للبلد التي أنت

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب (هلك المتنطعون) ، برقم : (٢٦٧٠) .

فيها ، معناها أنت نسبت الباري عز وجل إِلى السفل في الوقت الذي نسبته به إِلى العلو نسبته إِلى السفل في مكان وإِلى العلو في مكان آخر ، قل : « الله يتصف بالعلو كما قال » فلا تُشِر ولا تُحدد العلو أين ، فإن حددت العلو فقد جعلت للباري حيزاً ، وهذا لا يجوز .

* * *

الخاتمة

تعالوا بنا نُصغي السمع إلى حديث رسول الله ﷺ عن مُستقبل الشام وأهله والأحداث التي سيمر بها ، ولن نَجد عَزاءً عندما تمر بنا النَّكبات أو تَطوف بنا المحن ، لن نجد عزاءً أمامها خيراً من الإصغاء إلى هذا الكلام العجيب . يَرْوي أَبو داودَ وابنُ حبَّانَ والحاكِمُ بأَسانيد صحيحة[١]) ، مِنْ حَديثِ عَبْدِ اللهِ بنِ حَوالَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : (إِنَّها سَتَصيرُ إِلَى أَنْ تَكونوا جُنودًا مُجَنَّدَةً ، جُنْدٌ بِالشَّام ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ ، وَجُنْدٌ بِالْعِراق) ، قالَ ابْنُ حَوالَةَ : خِرْ لي يا رَسولَ اللهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ ، فَقالَ : (عَلَيْكَ بِالشَّام ، فَإِنَّها خيرَةُ اللهِ مِنْ أَرْضِهِ ، يَجْتَبي إِلَيْها خيرَتَهُ مِنْ عِبادِهِ ، فَإِنَّ اللهَ تَوَكَّلَ لَي بِالشَّامِ وَأَهْلِه) .

رَوى الحاكِمُ في مُستَدَركه والطَّبرانيُّ[٢] ، مِنْ حَديثِ عبْدِ اللهِ بنِ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده / برقم : (٢١٩٨٣) . وفي فضائل الصحابة برقم : (١٧٠٧) . وأخرجه البخاري في تاريخه الكبير ، (١/ ٢٩٢) . وأخرجه أبو داود في سننه ، برقم : (٢٤٨٣) . وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين ، (٢٩٢و٣٣٧و٥٧٠ و٦٠١) . وأخرجه ابن حبَان في صحيحه ، برقم : (٧٣٠٦) . وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٥١٠) . وأخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ١٧٩) . والضياء في المختارة (٢٣١و٢٣٢و٢٣٧و٢٤٦) . والدَاني في السنن الواردة في الفتن ، برقم : (٤٤٩) . وأخرجه ابن عساكر في تاريخه (١/ ٤٧) . قال الحاكم : هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد ولم يخرِجاه ، وأقرَه الذَهبي . وجوَد الْمُنذري أحد طرق الطبراني . ينظر الترغيب والترهيب (٤/ ٣١) .

(٢) أخرجه الحاكم المستدرك على الصحيحين (٤/ ٥٠٩) . وأخرجه الطبراني في مسند=

عَمْرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما أَنَّهُ ﷺ قالَ : (إِنِّي رَأَيْتُ كأَنّ عَمودَ الكِتابِ استُلِبَ مِنْ تَحْتِ وِسادَتي فَأَتْبَعْتُهُ بَصَري فَإِذا هوَ نورٌ ساطِعٌ عُهِدَ بهِ إِلى الشَّامِ ، أَلا إِنَّ الأَمْنَ والأَمانَ عِنْدَما تَقَعُ الفِتَنُ في الشَّامِ » .

رَوى الحاكِمُ في مُستَدرَكه[١] على شَرْطِ الشَّيْخَين ، مِنْ حَديثِ أَبي الدَّرْداءِ رضي الله عنه أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ : (فسْطاطُ الْمُسْلِمينَ يَوْمَ الْمَلْحَمَةِ الكُبْرى في أَرْضٍ يُقالَ لَها الغوطَةُ ، فيها مَدينَةٌ يُقالَ لَها دِمَشْقُ ، هي خَيْرُ مَنازِلِ الْمُسْلِمينَ يَوْمَئذ) .

رَوى الإمامُ أَحْمدُ في مسنده والطَّبرانيُّ ، مِنْ حَديثِ عَليٍّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ : (الأَبْدَالُ يَكُونُونَ بِالشَّامِ ، وَهُمْ أَرْبَعُونَ رَجُلاً ، كُلَّمَا مَاتَ رَجُلٌ أَبْدَلَ اللهُ مَكَانَهُ رَجُلاً ، يُسْقَى بِهِمُ الْغَيْثُ ، وَيُنْتَصَرُ بِهِمْ عَلَى الأَعْدَاءِ ، وَيُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الشَّامِ بِهِمِ الْعَذَاب) .

هـذه طـائفـة مـن الأحـاديـث الصحيحـة التـي يتحـدث فيهـا رسول الله ﷺ عن الشام وأهله ، وقد علمنا جميعاً أن محمداً ﷺ رسولٌ من عند الله عز وجل ، لم يَفتَئِت على الله وحياً ، ولم يَكذب على الله فيما نقل عنه كلاماً ، وها أنتم ترون أن دلائل نبوته وصدقه

= الشاميين ، برقم : (٣٠٨ـ٣١٠) . وحلية الأولياء (٥/ ٢٥٢) . قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقرَه الذهبي .

(١) أخرجه أحمد برقم : (٢١٢١٨) . وأخرجه أبو داود ، برقم : (٤٢٩٨) . وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٨٦) وصحَحه ، ووافقه الذهبي . وأخرجه الطبراني في الأوسط ، برقم : (٣٢٠٥) . وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين ، برقم : (٥٨٩) . وأخرجه ابن عساكر (١/ ٢١٩) .

تتزايد بل تغزو عقول العالم الغربي أجمع ، إذاً فهو الصادق المصدوق فيما قال ، فإذا علمنا ذَلكَ فدعوني أولاً أتوجه إلى أهل الشام وأبشرهم بهذه الشهادة التي شهد لهم بها رسول الله ﷺ ، وصدق رسول الله فيما شهد ، وصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر ، لكم البشرى يا أهل الشام إذ اجتباكم الله عز وجل للسكنى فوق أرضه المباركة ، إذا اجتبى الله عز وجل العبد ذابت سيئاته في ضرام اجتباء الله سبحانه وتعالى له ، الأمر يَحتاج فقط إلى أن نَستبشر بهذا الذي قاله رسول الله ﷺ ، وأن ننهض فنكون على مستوى هذا الشرف ، وأن ننهض فنكون على مستوى هذه البشارة .

إنكم تعلمون أن من سنن الله عز وجل في كونه أنه إذا أراد شيئاً قَيَّضَ له أسبابه ، تلك هي عادة رب العالمين ، والله لا يحتاج إلى أن يُوَسِّطَ أسبابه لما يَشاء ، ولكنه القانون الذي ألزم به ذاته العلية في هذه الدنيا التي نعيشها ، وقد علمتم مما أخبر به رسول الله ﷺ أن الشام ستبقى دار إيمان وأمن إلى قيام الساعة ، فما السبب وما الوسيلة التي شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون أداةً لهذا القرار الذي أنبأ به رسول الله ﷺ ؟ ما هي العين التي تستر الأمن والإيمان فوق هذه الأرض المباركة ؟

يا أهل الشام : إن هذه العين هي أنتم ، إن هذه العين التي شرفها الله عز وجل بهذه الرسالة ـ رسالة السهر على أمن هذه الأرض وعلى إيمان هذه الأرض ـ العين التي قَيَّضَ الله عز وجل منها حارساً أميناً هي أنتم ، اهنؤوا واستبشروا مرة أخرى بهذه الرسالة التي

شرفكم الله سبحانه وتعالى بها . كونوا أينما كنتم أعيناً ساهرة على الأمن الذي قضى به الله سبحانه وتعالى لهذه الأرض المباركة ، لا تَنوا ولا تتناسوا رسالتكم القدسية هذه ، واعلموا أن ترجمة الاجتباء الذي أعْلَنَ رسول ﷺ من خلال أحاديثه الكثيرة لكم ، تكمن في نهوضكم بهذه الرسالة .

أما أولئك الذين يُصرون ـ مِن بعيد أو مِن قريب ـ على أن ينفخوا في نيران الفتنة فوق هذه الأرض المباركة ، ويصرون على أن يُواصلوا سَعيهم إلى هذا ، فأقول لهم : إنهم إنما يتحدون بهذا رسول الله ﷺ ، لا يتحدون غيره ، وهيهات هيهات أن يتحدى كائنٌ ما في هذا الكون رسولَ الله ﷺ المجتَبَى ، ثم تكون له النصرة على رسول الله ﷺ ، هيهات . لا بد أن يَبُوءَ مَن يَتحدى رسول الله ﷺ في قوله : (أَلا وَإِنَّ الشَّامَ دارُ الأَمْنِ والأَمانِ عِنْدَما تَقَعُ الفِتَن) ، إنَّ من يتحدَّى رسولَ اللهِ ﷺ في هذا لا بدَّ أَنْ يَبُوءَ بالخزي ، ولا بدَّ أنْ يَبُوءَ بالهوان .

ولكني أقول لهؤلاء الإخوة ـ بَعُدوا أو قَرُبوا ـ ، أقول للذين عرفوا رسول الله ﷺ وآمنوا برسول الله ﷺ نبياً ، أقول لهم : أيها الإخوة ، فيم تحكمون على أنفسكم بالشقاء الأبدي ؟! فيم تحكمون على أنفسكم يوم يَقوم الناس للحساب وقد حُشِرْتُمْ إلى الله وأنتم تحملون أثقالكم من الموبقات ، فيم قضيتم على أنفسكم اليوم بأن تقطعوا صلة القربى بينكم وبين رسول الله ﷺ ، حتى لا تَجدوا مَن يُعينكم على وضع هذه الأثقالَ عن كواهلكم ، ألا تُحبون إذا حُشرتم مع الناس في اليوم الأعظم عند الوقوف بين يدي الله ، ألا تُحبون أن تَجدوا في

رسول الله ﷺ شفيعاً لكم ؟! ألا تحبون أن تَجدوا في رسول الله ﷺ المحب الشفوق الرحيم الودود الذي مَا زال يَفتأ وهو حيٌّ يدعو لأمته كلها ، ألا تُحبون أن تُوضَع عَنكم الأثقالَ آنذاك ؟! ألا تُحبون أن تُحْشَروا وإنَّ بينكم وبين رسول الله ﷺ خيطاً من الصلة ؟! لماذا تَقطعون هذا الخيط ؟ .

أيها الإخوة : كم أنا شَفوق على مَن يَقضي على نفسه بالشقاء ، هذه الدنيا أياماً قصيرة . ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء : ٧٧] ، هكذا يقول الله عز وجل ، وعما قَريب سنتمدد جميعاً على فراش الموت ، وسيطرق بابنا ملكُ الموت ، ولسوف نَراه بأبصارنا وبصائرنا ، ولسوف تُحِيقُ الندامة بمن أصر على أن يَجنح إلى طريق الباطل .

لا تَسلكوا طريقاً تَزُجُّونَ بِه أنفسكم فيما بَعدُ في نَدامة لا خَلاص لكم مِن نِيرَانٍ وَقودها ، كلنا عاصون ، وكلنا مُقصرون ، لكننا جميعاً نأمل بشفاعة رسول الله ﷺ ، لأننا نُحب رسول الله ﷺ ، ولأنه يحبنا . اجعلوا من صلة القربى بينكم وبين رسول الله ﷺ سبباً لمغفرة الله إذا أُبْنَا إليه يوم يقوم الناس لرب العالمين ، اجعلوا ثمن ذَلكَ صلةَ القربى بينكم وبين هذه الأمة ، اجعلوا سبب ذَلكَ الانتصار والحماية لهذا الذي قَرره رسول الله ﷺ ، كونوا كإخوانكم أعيناً ساهرة على الأمن والسلام والطمأنينة لهذه البلدة ولمن يعيش فوق هذه البلدة .

وأعود فَأقول لمن اجتباهم الله عز وجل وبشرهم رسول الله ﷺ بهذا الاجتباء فوق أرض الشام : إن الرسالة التي خَوَّلَتكم هذا الاجتباء هي أن تكونوا حراساً لدولة الإسلام فوق هذه الأرض ، كونوا حراساً

لدولة الإسلام فوق هذه الأرض ، ألا تكون متطرفة ، ألا تكون واقعة في غلوٍّ ذات اليمين أو ذات الشمال ، كونوا قائمين على هذا الذي وَظَّفَكم الله سبحانه وتعالى به ، وغداً سيرى القاصي والداني كيف أن هذه الدولة الإسلامية المسلمة قد لَبست مِن دُستورها الجديد ثوباً قشيباً ، سيكون أكثر تَعبيراً عن عقيدة هذه الأمة ، ولسوف يكون أكثر ترجمة عن ارتباطها بمولاها وخالقها سبحانه وتعالى ، ولسوف تجدون هذا الدستور يعلو ثم يعلو ثم يعلو إلى أن يَصل إلى ذُروة ذُلِّ العبودية لله وحده ، لله وحده لا لأي كائن أياً كان في حياة هذه الأمة ، يميناً أو شمالاً ، جنوباً أو شرقاً .

هذه وصيتي لكل أخٍ مؤمن ، وموعدنا في معرفة جدوى هذه الوصية وفي جدوى هذه القيمةِ، موعدنا يوم يقوم الناس لرب العالمين، وإنه ليوم قريب . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج : ٦-٧] ، ويقول : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٢] .

ومن مُقتضى هذا الذي يقوله بيان الله عز وجل أن أُؤكد لكم أن نُهوض هذه الأمة بِوَاجبها الذي ذكرت وبِحِرَاسَةِ دَولة الإسلام فوق هذه الأرض وبرعايتها لهذه الدولة أن تَكون بعيدة عن الإفراط والتفريط ، بَعيدة عن الغلو والتطرف .

* * *

فِي سَبِيلِ النُّهُوضِ بِالأُمَّة

المحتوى

مقدمة البحث ٣١١

هموم المجتمع مع نفسه هو العلاج الأول ٣١٥

الانحراف الفكري والنفسي والغريزي ٣٢٠

التيارات الاجتماعية الصغيرة ٣٢٣

المرض في المجتمع وليس في الشباب ٣٢٤

ما هو العلاج الذي يُصلح المجتمع ؟ ٣٢٥

لا مكان لمثل هذه الحرية بين عوامل التربية ٣٢٧

ما هو البديل عن الإسلام ؟ ٣٢٨

مأساة السلوك الخلقي في مجتمعنا ٣٣٠

مأساة الوعي الخلقي في مجتمعنا ٣٤٠

السبيل إلى خلق وحدة وطنية في الأمة ٣٤٦

مقدمة البحث

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، أي أن الأمة ما دامت متلبسة بأخلاق مرذولة ـ بأخلاق سيئة ـ فلا يمكن أن تكون حياتها الاجتماعية الحضارية المادية إلا نتيجة لهذا الوضع الذي تُعاني منه نفسيتها ، لا يمكن أن ترقى صعداً ما دامت متلبسة بهذه الآفات الأخلاقية ، فإذا تحررت النفس من أخلاقها المرذولة وتمطت صُعداً إلى الأخلاق الإنسانية الرضية فقد حان أن يَتغير بنيان تلك الأمة الحضاري ، وأن تنتقل هذه الأمة من طور التخلف إلى التقدم .

الأخلاق الإنسانية هي المحور وهي الأساس الخفي لبناء المجتمعات كلها ، وإنما تدور الأخلاق الإنسانية على محور أساسي لا بديل له ، ألا وهو التراحم ، التراحم هو مدار الأخلاق الإنسانية المثلى على اختلافها وتنوعها ، ولقد تحدث رسول الله ﷺ ونبّه إلى أهمية هذا التراحم كأساس للأخلاق الإنسانية المثلى ، بَشَّرَ وحذَّر ، قال رسول الله ﷺ ـ فيما اتفق عليه الشيخان ـ : (من لا يرحم الناس لا يَرحمه الله سبحانه وتعالى)[1] ، ويقول المصطفى ﷺ أيضاً :

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب رحمة الناس والبهائم ، برقم : (٥٦٧٤) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب رحمته صلى الله عليه وسلم الصبيان ، برقم : (٤٣٨٥) واللفظ له .

(الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[١] ، مِن منطلق هذه السُّنَّة الربانية ، ومن منطلق الأساس المحوري الذي نبهنا الله عز وجل إليه ، وهو أساس التراحم مُنطلقاً للأخلاق الإنسانية الرضية .

إن المصائب التي يَبتلي الله سبحانه وتعالى بها عباده المسلمين إنما يُرسلها إليهم لتوقظهم من معاصٍ ارتكبوها واستمرؤوا العكوف عليها ، فيبتليهم سبحانه لتحملهم على التوبة ، وتسوقهم إلى الاستغفار والندامة والدعاء والانكسار والتضرع أمام باب الله سبحانه وتعالى .

ثم إن هذه المصائب التي يُرسلها الله ابتلاءً لعباده المؤمنين ـ ومرة أخرى أقول لكم المؤمنين ـ قسمان اثنان :

القسم الأول : من هذه المصائب يُبتلى بها الأفراد ، كمصيبة المرض ، ومصيبة الفقر ، ومصيبة فَقْدِ عزيزٍ أو قريبٍ ، أو نحو ذلك .

والقسم الثاني : مصائب تنحط في كيان الأمة كلها ، تُبتلى بها البلدة جمعاء ، مثل هذا الجفاف الذي ابتلانا الله سبحانه وتعالى به ـ والذي ينذر بما قَد يُنذر مما تعلمون أو ربما لا تعلمون ـ فهذا بلاء عام ليس من النوع الأول[٢] .

---

(١) أبو داود في الأدب ، باب في الرحمة (٤٣١١) والترمذي في البر والصلة ، باب ما جاء في رحمة المسلمين (١٨٩٦) ، قال الترمذي (هذا حديث حسن صحيح .

(٢) ومثل الفتن التي تُحيط بالأمة بين فينة وأخرى .

ما العلاج الذي يُنجي الأمةَ من هذه المصائب ؟

أما المصائب التي تنحط في كيان الأفراد فأمر علاجها يسير ، مطلوب من صاحب المصيبة ـ هذا الذي ابتلي بالمرض أو الفقر أو نحو ذلك ـ أن يَصْدُقَ في التوبة إلى الله ، وأن يستغفر الله من ذنوبه كلها ، وأن يَجْأَرَ إلى الله بالشكوى والضراعة ، وأن يَستمر على هذه الحال ؛ ولا بد أن يجد الاستجابة إذا دعا وكانت شروط الاستجابة موفورة .

أما المصيبة التي يَبعثها الله عز وجل على الأمة جمعاء فعلاجها أن تعود هذه الأمة كلها إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن يُقْبِلَ أفرادُ هذه الأمة جمعاء على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم ؛ يُقبلون إلى الله سبحانه وتعالى تائبين متضرعين ، يُجددون العهد مع الله أنهم لن يَشردوا بعد اليوم عن صراطه ، أنهم لن يَسْتَمْرِئوا المعاصي التي كانوا قد استمرؤوها نسياناً أو جهلاً أو نحو ذلك ، فإن هم فعلوا ذلك ـ فأَقْبَلوا إلى الله جميعاً ، وتابوا إلى الله جميعاً ، وردُّوا المظالم جميعاً ، وابتهلوا وتضرعوا إلى الله عز وجل جميعاً ـ فإنَّ الله عز وجل لا بدَّ أن يَرفع عنهم البلاء ، ولا بدَّ أن يُبدل مصيبتهم نعمة .

إذاً المصائب في حياة المسلمين إنما يَبعثها الله عز وجل للسبب الذي ذكرت لكم ، وصدق الله القائل : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، ولكن المشكلة تتجلى عندما يَظَلُّ جَمعٌ كبيرٌ وكبير من المسلمين عاكفين على لهوهم ، عاكفين على معاصيهم وأوزارهم ، عاكفين ربما على استخفافهم بشرائع الله عز وجل وكتابه ، ثم إن أفراداً منهم يقابلون

إنساناً مثلي ـ ممن يُعَدّون في المتدينين أو ممن يُسَمَّون المشايخ ـ يقول لهم : ادع الله لنا ، ما لكم لا تدعون للأمة أن يرفع الله سبحانه وتعالى هذا البلاء ، يكلفون من يرونهم ملتزمين متدينين بالدعاء نيابة عنهم ، أمَّا هُم تتأمل في حالهم فتجد أنهم لا يُغيرون مِن سُلوكهم شيئاً ، لا يزالون عاكفين على الأوزار التي استمرؤوها ، لا تزال أفواههم تَستقبل الحرام تأكله ، ولا تسأل من أين جاء ؟! لا يُفكرون بِرَدِّ الْمَظالم ، لا يقفون أمام قول الله عز وجل القائل : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة : ٤٠] .

* * *

هموم المجتمع مع نفسه هو العلاج الأول[1]

رغم أن الحديث عن الشباب ومشكلاته يتعلق بأهم القضايا الاجتماعية وأشدها صلة بما قد نعانيه من المآسي والمصائب المختلفة ، فإني أتصور أن الحديث في هذا الموضوع لا يأتي بطائل ، ـ وأرجو أن أكون مخطئاً بهذا التصور ـ ذلك لأن الذين تُؤرقهم مشكلات الشباب ، ويتذاكرون في أسبابها وعلاجاتها ، لا يملكون من أمر هذا العلاج شيئاً ، والذين يملكون العلاج ويقدرون على الإصلاح لا يُؤرقهم هذا الأمر ، ولا يحسبون لنتائجه أي حساب .

وكم عُقدت لهذه المشكلة ندوات ، ونشرت فيها كتب وأبحاث ، وظهرت فيها نظريات وآراء ، دون أن نَجد لشيء من ذلك كله أي ثمرة أو فائدة في ساحة التنفيذ .

بل ظل النَّشءُ يُعاني من مشكلاته ، وظل المجتمع يُعاني من معاناته ، وظل الذين بِيَدِهِم حَقيقة الحل والتنفيذ مُنصرفين بأفكارهم واهتمامهم عن هذا الأمر كله .

وأعود مَرَّةً أُخرى فأسألُ اللهَ تعالى أن أكون مخطئاً فيما قد توهمت ، وأسأله تعالى أن يَكون المخالفون لي مُتمسكين بحبل من

(١) المصدر : كتاب « من هنا وهناك » للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى ، الطبعة الأولى .

الأمل متين، لا مَسوقين إلى ذلك بمجرد أداء الأمانة وتقديم المعذرة.

وأياً كان الأمر ، فلنعالج هذه المشكلة بدافع من الامتثال لقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف : ١٦٤] .

المشكلة وآثارها المختلفة :

لهذه المشكلة جوانب متعددة ، وربما لاحظ الباحث جانباً واحداً منها ، فعالجها من ذلك الجانب وحده .

فقد يَرى البعض أنها مُشكلة نفسية ، سرت إلينا من عدوى الغرب ووبائه .

وقد يرى البعض أنها مشكلة فكرية ، أثارَتْها غَواشٍ من آثار النهضة العلمية الحديثة ذات الاكتشافات الهائلة المثيرة .

وقد يَرى آخرون أنها تَعود إلى قضايا جنسية وعاطفية ، عقدها الكبت والحرمان ، فظهرت بمظاهر متلونة مختلفة ! ولا يجوز لنا أن نَعتبر شيئاً من هذه الآراء تَصوراً خاطئاً ، أو نظراً بعيداً عن الواقع ، وإنما هي في الحقيقة شرح سَطحي لآثار مُشكلة واحدة .

فالمشكلة بحد ذاتها لَيست كَامنة في الفكر أو النفس أو الجنس ، ولكنها أمرٌ كُلِّي خطير ، ينعكس بآثار معينة على كلٍّ مِن هذه الجوانب الثلاثة .

الازدواج والتناقض :

والأمر الكلي الخطير الذي تُعاني مِنه الناشئة في مجتمعاتنا إنما هو

الازدواج ! الازدواج في القدوة ، والازدواج في التعليم ، والازدواج في التربية ، والازدواج في الأفكار والقِيَم ، وبالجملة فهو ازدواج في جميع الحقول التي تُساهم في تكوين شخصية الشاب ونسيجه الفكري .

ففي المدرسة ـ وهي أهمّ العوامل التربوية ـ يتلقى التلميذ أمشاجاً من القيم والآراء المتناقضة المتنافرة ، يتسابق إليه بها مُربون ومُعلمون مُتناقضون في الفكر والمنهج والسلوك ، فهو يتلقى من مُدَرِّسِ الفلسفة والأخلاق نَقيضَ ما قد تلقاه من مدرس الدِّين ، ثم يَتلقى من مُدَرِّس العلوم خلاف ما كان قد تَعلمه من كليهما ! .

وتغدو عملية التربية والتعليم والتثقيف في حياة التلميذ عبارة عن صراع من البناء ، مِن ذهنه ونفسه ، غباراً وغشاوات داكنة تحجز العقل عن التفكير وتبعد الصفاء عن النفس ! .

مجتمع متناقض :

وفي الشارع والمكتبة والنادي وأمام التلفاز ، تطوف به مظاهر أُخرى من هذا التناقض العجيب ! فهو يَسمع عن الأخلاق والفضيلة ، وضرورة التقيد بهما ، وخطورة الخروج عن قانونهما . ويسمع أيضاً عن الحرية والحياة العصرية وضرورة التجمل بها ، وخطورة الكبت والقوقعة في حمأة التقاليد . وهو يسمع عن الدين وحقائقه ، وضرورة قيام المجتمع على دعائمه ، والاستعانة بمنهاجه وعلاجه لحل كل مشكلة . ويسمع أيضاً عن الرجعية وأوضارها ، والنهضة العلمية ، وكيف أنها نَسخت العقائد الدينية ، وعن ضرورة تحرير الفكر من أسْر

الإيمان بالغيبيات والاستعانة بالفكر المادي لحل كل مشكلة وتحرير كل أرض .

إنه يَلمس هذا التناقض الخطير في الشارع الذي يسير فيه ، ويقرأه في الكتب والمجلات التي يَطلع عليها ، ويسمعه في المحاضرات والندوات التي يَحضرها أو يتلقاها من مواقع الشبكة العنكبوتية المتناقضة التي لا حصر لها ، ثم هو يُعانيه بين زملائه وأصدقائه الذين يَنعكس عليهم ذلك كله ، جِدالاً ومُشادة وهياجاً .

وفي البيت ، تتجمع حوله آثار ذلك كله ، في مظاهر أشد خطورة وضرراً ، إذ قلما تخلو أسرة من أشخاص متناقضين ، يَجنح كل منهم إلى واحدة من هذه الأفكار والاتجاهات المتناقضة ، فيتحول وئام البيت وسعادته إلى شقاق وشقاء ، وتسوء علاقة الوالد مع الأولاد ، وتتأزم صلة الزوجة بزوجها ، ويتعالى الشجار بين الجميع عند كل صباح ومساء .

مظاهر النفاق :

ويتجسد هذا التناقض في جوانب أخرى من المجتمع ، في مظهر هادىء من النفاق الأملس ، فيفوق في أضراره وبلائه على الناشئة تلك المظاهر المتناقضة الأخرى ، إذ تكون هي وحدها في الغالب محط الخديعة وكبش الفداء .

يسمع الشاب ـ في نفس صافية وقلب صدوق ـ حديث التضحية والوطنية والفداء ، ضمن قالب رائع من الألفاظ والشعارات ، فيُصَدِّق ويتحَمَّس ويتفاعل ، ثم يَكتشف على حين غرة أن الشأن أهون من ذلك

بكثير ، وأن الأمر لم يَكن أكثر من بضاعة كلام .

ويُصغي السمع إلى كثير من الوعاظ والخطباء والموجهين ، فيتأثر لما يسمع ، وتَطمح به نفسه إلى القِيَم العالية والأخلاق الفاضلة ، وفيما هو يسير بصدق وحماسة إلى هذه الغاية ، يُفاجأ باكتشاف أغراض ومصالح أخرى مِن وَراء تلك التوجيهات والعظات البليغة ، ويَكتشف من حال أربابها ما يُناقضها كل التناقض ! .

فَقْدُ الثقة أول النتائج :

هذا هو المجتمع الذي يَنشأ الشاب في ظله ، وهذه هي الأجواء التربوية التي يَنهل الشاب تربيته ويستوحي نهج سلوكه منها ! فأي مَصير تَنتظره من الشاب أفضل من هذا المصير ؟! ومن هو الشاب ؟ إنه كتلة غضة يانعة من الفكر والنفس والعواطف ، وكل من هذه العناصر الثلاثة بأشد الحاجة إلى الغذاء الصالح الذي يتوقف عليه نموه وتكامله ، وقد كان الغذاء ـ لسوء الحظ ـ هذا الذي وصفته لك ، فماذا عسى أن تكون النتيجة ؟ .

إن رأس النتائج كلها ، هو انعدام ثقة الشاب بالمجتمع ، فلا الشاب يَصلح أن يتتلمذ عليه ، ولا المجتمع يَصلح أن يكون مُربياً له ، وإنما يَغدو أستاذاً لنفسه مُنفرداً بإرشاد ذاته ! . وأما النتائج الأخرى ، فلا ريب أنها تغدو في الانحراف الفكري والتعقد النفسي والانطلاق الغريزي .

❊ ❊ ❊

الانحراف الفكري والنفسي والغريزي

هي تتمثل في الانحراف الفكري أولاً : لأن المقدمات المنطقية المتناقضة تنتج شيئاً واحداً هو : إنكار طبيعة المنطق بحد ذاته ، وليس أن تنتظر منه غير هذا ، ما دام سائراً في المرحلة التي يتوكأ فيها عقله ـ بشكل طبيعي ـ على أفكار الآخرين وتعليماتهم ، وقد توكأ عليها فأورثه اضطرابهم عرجاً دائماً في الفكر .

وأي قيمة تبقى للعقل عنده ، وقد عَلمتَ أن مِقياس هذه القيمة واقع مجتمعه الذي يعيش فيه ، وقد رأى العقلَ مُمزقاً فيه بين تناقضات عجيبة ، داخل جدران مدرسته ، وضمن وسائل إعلامه ، وفي شتى شوارعه وأسواقه ، ثم رأى هذه المزق العقلية المتناقضة كيف تعيش في ظل ظليل من رعاية أرباب هذا المجتمع وساسته والبصيرين بشأنه .

إن من الطبيعي أن تجد أكثر هؤلاء الشبان لا يُؤمنون بشيء ، لأن اللاشَيء هو النتيجة المنطقية للصراع المستمر بين شيئين ! .

وهي تتمثل في العُقد النفسية ثانياً : لأن النفس الإنسانية إنما تَسير في فِجَاجِ الحَيَاةِ بدافع من مجموع عواطفها الدافعة والرادعة والممجدة ، وهذه العواطف إنما يتألف نَسيجها في النفس عن طريق المجتمع وما فيه من دوافع الأمل والرجاء والحب ، وروادع الخوف والعقاب والإشفاق ، وأسباب النعم والرفاهية والخيرات ، وبقدر

ما يتألف مزاج معتدل من مجموع هذه الأنواع الثلاثة من العواطف في النفس ، يتوفر فيها الصفاء والشعور بالسعادة والاستقرار ، فكيف للنفس أن تسترضع من المجتمع الذي هذا شأنه عواطفها الإنسانية في تناسق واعتدال ؟! .

إن المجتمع الذي تتشابك متصارعة فيه المذاهب والآراء ، ثم يتخذ من الناشئة حَقلاً لتجاربه وحلبة لمصارعاته ـ سواء تمثل ذلك في المدرسة أو البيت أو الشارع أو المكتبة ـ هذا المجتمع لا يستطيع أن يُغذي نفس الشاب بأي مَعنى مما يُسمى بالحب أو الأمل أو الرجاء ، ومِن ثم فهو لا يستطيع أيضاً أن يَقرنه بأي مَزيج مُعتدل من الخوف والإشفاق وروح العقاب .

والنتيجة هي أن تَنمو بين جوانح هذا الشاب نفس مُتمردة على كل شيء ، لا تَدِين بولاء ولا تنقاد لحب ولا ترتدع بخشية ، نفس مُضطربة لا تؤمن إلا بذاتها ، ولا تغذي سوى أنانيتها ، لأنها لم تجد من سلطان العقل ما يَفرض عليها أي سلوك غيره ، ولم تجد من عطاء المجتمع ما يَربطها بأي تعلق آخر .

وهي تتمثل في الانطلاق الغريزي ثالثاً ، لأن العقل لما تَثَلَّمَ حَدُّه ـ وعجز عن النظر والضبط ، وتقاصر سلطانه عن السيطرة على النفس والقدرة على توجيهها ـ ظهرت من وراء ذلك الغريزة الطبيعية ، لتنطلق على سجيتها ، والإنسان كلما ازداد تحرراً من قيوده الفكرية ازداد ارتباطاً بدوافعه الغريزية ، وما الإنسان لولا ضوابط العقل والتفكير إلا حيوان هائج ثائر الأهواء والشهوات ، وقلما تجد في مثل شراسته أيَّ

حيوان آخر ، ذلك لأن الغريزة في الحيوانات المختلفة تسد مسد العقل عندما تتوقف حياتها على انبعاثات عقلية مدبرة ، أما الإنسان فالغريزة فيه هي الدوافع واللواعج الشهوانية فقط ، إذ كان في وجود العقل ما يُغني عن ضوابط الغريزة وتدبيرها ، فإذا فاتت حِكمة العَقل وزوال رشده ، هاجت الغريزة هياجاً لا تَجد مِثله عند أي حيوان ! .

* * *

التيارات الاجتماعية الصغيرة

وإنها علاج الشباب في مجتمعاتنا ، وإليك بعضاً من آثارها :

كلما كانت هذه المشكلة أبرز وأقوى ، كانت آثارها في نفوس الشبان وتفكيرهم أشد وأخطر ، وإذا تأملت حال الأمم المختلفة اليوم ، وما يعانيه نَشْؤُها من المشكلات والعقد ، رأيت مصداق هذا الذي أقوله لك ، ولا مجال في هذا المقام لسرد الوقائع التفصيلية دليلاً على ذلك .

وقد تجد في مجتمعاتنا ـ رغم ما فيها من التناقض الذي وصفناه ـ شباباً يَستمتعون باستقامة فكرية وسعادة نفسية وسلوك منضبط قويم ، فتظن أنه دليل على خطأ ما قد عرضناه .

والحقيقة أن هؤلاء الشبان أتيح لهم أن ينضووا في تيارات اجتماعية صغيرة ، ضمن مجتمعهم الصاخب العام ، فكان لهم من مجتمعهم الصغير ذاك مَا حَجزهم عن الزعازع والعواطف التي تطوف من حولهم ، فتقلصت آثارها عنهم بالقدر الذي يَملكون به قوة المدافعة والثبات . ومثل هذه التيارات الاجتماعية الصغيرة يُعتبر قوارب نجاة قد يَنجو مَن يَتعلق بها ويَصل إلى شاطىء الأمان ، ويعود إليها وإلى قادتها الفضل الأكبر في إنقاذ ما يُمكن إنقاذه وسط عواصف هذا المجتمع الخطير .

* * *

المرض في المجتمع وليس في الشبان

ولنتحدث بعد هذا عن العلاج ، ولكن فلنتساءل قبل ذلك عن المريض الذي يتطلب العلاج ، أهو النشء أم المجتمع ؟

لا ريب أن المريض إنما هو المجتمع ، وما ظاهرة المشكلة التي تتمثل في حياة الشباب إلا أثراً من آثار مرضه هو .

ومن الظلم العجيب ما قد يُفكر فيه بعض الباحثين مِن عِلاجٍ يوصف للشبان أو منهجٍ تَربوي يَؤخذون به ، حتى يَصلح أمرهم وتحلَّ مشكلاتهم ! وواضح أنهم يُفكرون في غير طائل ، وأن علاجاتهم لا تَقع أي مَوقع للشفاء ، لأن الشبان لَيسوا هم المرضى ، وإنما المريض هو المجتمع الذي يعيشون فيه .

* * *

ما هو العلاج الذي يُصلح المجتمع ؟

إن الذي يُصلحه إنما هو شيء واحد ، هو أن يَكون صادقاً مع نفسه ، مُتسقاً مع شتى مؤسساته وجوانبه .

يصلحه ـ وقد أقر بالإسلام وسبيله ـ أن يُحرك أجهزته باتساق وتعاون نحو هذا السبيل .

فالمدارس ـ بمختلف مقرراتها ومدرسيها ونظمها ـ يجب أن تضفر جهودها في هذا السبيل .

والحركة الثقافية ـ التي تتمثل في نشر الكتب والصحف ونشاطات وسائل الإعلام ـ يجب أن لا تند أو تنحرف عن هذا السبيل .

والقيم والمبادىء ـ التي يدين لها المجتمع ـ يجب أن لا تكون شيئاً آخر غير قيم الإسلام ومبادئه .

ونظرة التطور والتقدم والرقي يجب أن تكون محصورة ضمن سُلَّمِ الإسلام ومنهجه .

أجل ، فما يَنبغي أن يَترك المجتمع شبابه المثقف حائراً بين الآيات القرآنية التي يَتلوها القارىء في المذياع مُردداً قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ [النور : ٣١] ، والحديث الاجتماعي الذي يُلقيه مُذيع من بعده ، يفند فيه مَضمون

هذه الآية ، ويدعو النساء إلى التحلل من ستر الصيانة والحجاب ! .

وما ينبغي أن يُلَوَّح للشبان بعقوبةِ مَن يعاكس الفتيات ، وبِحِطَّة من ينحرف إلى مُعاطاة الرذيلة ، ثم ينقلب هؤلاء الملوحون فيشجعوا مُغريات الرذيلة ، ويُصَفِّقُوا لمظاهر الغي ونداء الجنس ودوافع الأهواء .

وما ينبغي أن تترك المدارس حَقلاً للتنافس في النزعات الفكرية المتصارعة ، إلى جانب درس الدِّين الذي يَلقاه التلاميذ مِن مُدَرِّسٍ مَسؤول وبشكل نظامي ورسمي ! .

وما ينبغي أن يُنْشَر في صحيفة يومية سائرة ، حَديثٌ دِيني يُذَكِّر الناس بالخالق وحسابه ، ويُنْشَر إلى جانبه حَديثٌ آخر يَهزَأُ بالدين ودلائله وقيوده .

وما يَنبغي أن يُجهد نفسه كاتب مِثلي بالبحث في حُلول مُشكلات الشباب ، على حين يَعكف آخرون على إِضرام المزيد من نيران هذه المشاكل .

❊ ❊ ❊

لا مكان لمثل هذه الحرية بين عوامل التربية

ولعلك تقول : إنها حرية الفكر والقول ! .

فلتعلم أنه لا مُسوغ لِرَتعِ هَذه الحرية ضِمن العوامل التربوية المقصودة في المجتمع ، وما قَال أحد من علماء التربية يَوماً إن لحرية الفكر والقول مجالاً ضمن سلطان هذه العوامل ، وإلا فكيف تَكون المدرسة أو المذياع أو الرائي أو الصحف والمجلات وسائل تربوية لعقلية النشء ونفْسِه ، إذا كان لوساوس الأفكار على اختلافها أن ترتع وتتصارع فيها كما تشاء ؟ وأي غاية تربوية تبقى أمام هذه العوامل عند ذلك ؟

❊ ❊ ❊

ما هو البديل عن الإسلام ؟

أما إن اختار قادة المجتمع سبيلاً له غير سبيل الإسلام ؟ فعليهم أن يَستعجلوا في عرض البديل . ما هو البديل الذي يحرس كيان المجتمع ، ويعالج مشكلاته ويحقق مصالحه ؟

إن أي بديل عن الإسلام يُوقع المجتمع عامة وشبانه خاصة في أخطر من المشكلة التي نبحث الآن عن مخرج منها .

إن الجنون الذي سيطر على رؤوس الشبان في أمريكا وأنحاء كثيرة من أوربا ، فراح يدفع أمواجاً منهم إلى الانتحار ، ويدفع بأمواج أخرى إلى العزلة وممارسة البهيمية ، إنما هو جُنون الفراغ والابتعاد عن الدين ، إذ كان الدين في حياتهم لا يَعدو أن يَكون شِعاراً يقبع في المعابد والكنائس ، أما المجتمع والسلوك فبعيدان كل البعد عن الدين وأحكامه وأخلاقه ! .

وربما يحلم البعض ببديل في الحضارة الغربية ، وربما ظنوا أن هذا البديل يُكسبهم أصالة جديدة ، ويحل الكثير من مشكلاتهم ، وعلى هؤلاء الناس أن يُدركوا بأن المسلمين يَستطيعون بسهولة أن يَخرجوا على مبادىء الإسلام ، وأن يَحيدوا عن صراطه الذي ارتقى بهم إلى أوج التاريخ ، وأن يركنوا إلى الحداثة ، وأن يُفكروا بما بعدها ، ولكنهم لا يَستطيعون في يَومٍ مَا أن يَكتسبوا أي أصالة أو حياة عزيزة من وراء هذا الانحراف والخروج .

إن الذي سيتم ـ بالتأكيد ، بعد محاولة استجرار الحضارة الغربية إلينا ـ هو أننا سنقع في جو من الفراغ النفسي ، وسننتهي إلى حالة تُشعرنا بأن أي تاريخ لا يتعرف علينا ، وسنجد أن الأمم كلها تنظر إلينا بهذا الاعتبار ، أي كمتسولين تتقاذفنا جدران الحضارات التي نتطفل عليها ، وستتراكم على نفوسنا مركبات النقص ، وسيحول كل ذلك بيننا وبين الوصول إلى ثمار ذلك المجتمع التي نتخيلها ، وتتحلب منا الأشداق شهوة إليها .

شهوة البديل أم البحث عن البديل :

إن على الذين يشتهون بديلاً عن الإسلام أن يتذكروا أن سبيل الاشتهاء يسير ، يسلكه العقلاء وغيرهم ، لأن دوافعه الغريزة ، وليس الإنسان أغنى بها من البهائم ، ولو كان لشهوة الغريزة أن تصلح فاسداً لظهر الصلاح في عالم البهائم .

أما الذين يبحثون عن البديل فليسائلوا عنه عقولهم وتجاربهم ، ووقائع الدنيا التي من حولهم ، وشقاء الغرب بحضارته ، ورثاء العالم لشبابه ، ثم ليقولوا مُنصفين صادقين ، هل يجدون عن الإسلام من بديل ؟

* * *

مأساة السلوك الخلقي في مجتمعنا

والتربية الخلقية ليست دراسة علمية في كتاب ، ولا هي بالقواعد العلمية للدين ، ولا هي بتلك النظريات الفلسفية الفارغة التي تسمى « الأخلاق » ، إنها شيء فوق كل ذلك ، وأقدس من كل ذلك ، وهي مع هذا المادة الوحيدة التي لا تتعرف مدارسنا على شيء منها .

من أهم مآسينا الاجتماعية اليوم مأساة التربية الخلقية لدى ناشئة البلاد ، إنها المأساة الوحيدة التي لم تَستطع المعالجة أن تُوقفها عند حدٍّ ، بل وما قدرت المعالجة سوى أن تنفخ في ضرامها ، ثم تصبح هي الأخرى مأساة ثانية إلى جانبها .

ولعل معالجتها ـ من أجل ذلك ـ لا تزال إلى اليوم أهم مشكلة تستدعي الحل السليم الدقيق ، ولعل من الخير أيضاً أن نُصارح بأننا لا نزال مع الأسف نعالج هذه المأساة معالجة بدائية غير ذات جدوى ، إذ إن أمرها موكول في معظم الحالات إلى جهات تفتقد الأدوات اللازمة للتربية الخلقية .

إن من الواجب أن نعلم بأن معالجة الخلق والسلوك لها ميدان غير هذا ، إن ميدانها الأول هناك على ثغر الطريق ، حيث يبزغ النشء ويترعرع ، ثم يدرج مُقبلاً نحو نَهر هَذا المجتمع وصخبه ، أما مجالها الثاني فَهو المحافظة على نظافة المجتمع ، ومكافحة الأوباء الخلقية التي قد تظهر في بعض جهاته وجوانبه ، وثغر الطريق إلى هذا المجتمع

إنما هو المدرسة ، فهل يتلقى النشء في المدرسة شمة من رائحة التربية الخلقية ؟

إنها شيء يُؤخذ به التلاميذ أخذاً ، وتشرب به طباعهم عن طريق المران التطبيقي على النماذج الخلقية السامية ، وعن طريق صبغ مواد الدراسة عامة بالصبغة الخلقية والدينية ، كما يحصل على قسط كبير منها عن طريق « القدوة الحسنة » ، بأن يكون التلاميذ دائماً أمام نماذج سامية من الأساتذة والمعلمين خلقاً وديناً ، إذ إن طبيعة التقليد في الصغير ـ حتى سن المراهقة ـ تُعتبر من أهم العوامل النفسية غير المقصودة التي تنغرس بتأثيرها معظم العناصر الخلقية في نفسه .

إن هذا ـ ما من ريب ـ لو طُبِّقَ تَطبيقاً مُنظماً تحت إشراف مدرس خاص بهذه المادة ـكمدرب التربية البدنية مثلاً ـ لما وَقعنا في كل هذا المروج والاضطراب حيال هذا التيار الخلقي الملتوي ، ولعمري إن ههنا فقط مَركز الثغرة الحساسة الأولى التي إن أُهملت تَسرب مِنها إلى المجتمع وباء خُلقي ما مثله وباء ، وإن أُغلقت وَعُولجت هانت مِن بَعدها مُعالجة كل شيء ، وعاش المجتمع مع مُقوماته المادية والمعنوية في أمان من كل ما يهددهما .

ولقد بلغ ذلك القسيس الإنكليزي « دنلوب » منتهى الخبث ، حينما لعب لعبته في الإقليم الجنوبي من جمهوريتنا العربية المتحدة أيام الاحتلال الإنكليزي لها ، وذلك بوصفه مُستشاراً للمعارف إذ ذاك ، حيث عمد على جهاز التربية فيها فكشط عنه الصبغة التطبيقية للتربية الخلقية والدينية ، ثم ألبسه لباس التعليم الجاف ، وبالغ

ما استطاع في حشو عقول الناشئة بالحقائق الجافة التي تبلد العقل وتغلظ الحس ، ولم يدع في المنهج الدراسي متنفساً يشم منه الصغار المعنى الروحي الواقعي لمفهوم الأخلاق العامة الذي يسود مجتمعهم ويقوم حياتهم ؛ عمل ذلك لكي لا يُنتج ذلك الجهاز سوى إمعات من الرجال ذوي نفوس متداعية ، لا يصلحون إلا مستخدمين في وظائف ، أو كتاباً في دواوين يأكلون ويشربون وينامون .

ومن المؤسف جداً أن نقول : إن حالتنا الراهنة اليوم قائمة تماماً على النهج الذي كان يتمناه « دنلوب » ، مع أن الاحتلال الإنكليزي والفرنسي قد ولى .

ومن المؤسف أيضاً أن نقول : بأننا لم نكن خيراً بكثير من « دنلوب » و« فرنسة » في رعاية شؤوننا التربوية والدينية ، مما جعلنا نقذف إلى المجتمع بشباب لم ينضج فيهم الوعي الخلقي الكامل الذي يربطهم بتاريخهم العربي والإسلامي ، ثم نُحاول بعد ذلك معالجة الوضع ، ولكن أنى للعلاج حينئذ أن يفيد ، وأنى للمنطق والتهديد أن يجدا وسيلة إلى تقويم ما استصلب ملتوياً معوجاً ؟

ولقد جمعتني المصادفات بواحد من هؤلاء الذين نشؤوا وتخرجوا في شوامخ هذه المدارس ، ولكنها لم تقدر أن تملكهم أخيراً أي سلاح من الحصانة الخلقية والدين ، وراح يَشكو إلي بصراحة تامة آلامه النفسية التي لا يَجد مَفراً منها ، فاسمعوا ما قال :

« إنني أحب الفضيلة ، وأهتز طرباً للمثل العليا والمتمسكين بها ، وما أكثر ما أقعد لأتخيل نفسي بطلاً من أبطال الفضائل ، وحامياً من

حماة الأخلاق ، وكم أنسج في غمرة هذه الأخيلة أحلاماً مختلفة ، أروي بها ظمأ قلبي لهذه المثل والفضائل ، ولكني ـ ويا للأسف ـ لا أستطيع أن أحقق شيئاً من هذه الأحلام ، فقد ربيت دون أن يُبصرني أحد بالطريق المؤدي إلى الفضيلة ، ويُدَرِّبَنِي عليها ويُوضح أمامي معالمها .

أما هؤلاء المعلمون ، فقد كانوا يضعون أمامي عن الدين والفضيلة ألفاظاً مغمضة صماء ، لا أجد في ناحية منها أي نافذة تهديني إلى تحليلها أو معناها ، فكنت أتلقى هذه الألفاظ كما تتلقى صندوقاً أُقْفِل على ما شئت من لآلىء وجواهر دون أن تتسلم له مفتاحاً ، أو تهتدي لفتحه إلى دليل ، فإن استطاع هذا الصندوق أن يَرْشَح لك ظاهره بالذهب الذي في جوفه استطاعت تلك الألفاظ أيضاً أن تجمعني بالفضيلة التي أبحث عنها .

وهكذا أعيش اليوم ! أتعشق الفضيلة ولا أهتدي إلى صميمها ، وأبغض الرذيلة ولا أقوى على الخلاص منها ، ذلك لأنني أقرأ عن الرذيلة كل يوم مائة درس تطبيقي عملي في الأزقة والشوارع ، فلماذا لا أندفع إليها وأنطبع بها ؟ ولا أعثر على واحد من هذه الدروس في المعاهد فضلاً عن الأزقة والشوارع ، فأين أعثر عليها ؟ وكيف أهتدي إليها ؟ » .

ماذا تتوقع من أساليب المعالجة التربوية المفيدة لمثل هذا المسكين ، بعد أن اجتاز الطريق وتوسط أمواج هذا المجتمع وعبابه ؟

أما أنا فقد رأيتني أثقل عليه من شروره التي يتأفف منها ، إن أنا

قعدت أدندن حول رأسه عن طريق « قال الله ، وقال رسول الله » بعد أن تطبعت نفسه على ما شاء أن يطبعها عليه هذا المجتمع دون أن يكون له إذ ذاك من واق أو حافظ .

إن هذا الإنسان زجته المقادير في بحر خضم وبين أمواج متلاطمة ، دون أن يجد قبل ذلك من يعلمه السباحة ويدربه عليها ، فماذا يغنيه وهو يغوص بين أمواج الموت أن تصيح به قائلاً : « خبط برجلك ، شق بيديك الماء ، انفخ بفمك » ، لا ريب أنه سيختنق بكلامك هذا قبل أن يخنقه زبد البحر وأمواجه .

أما عثرات هذا المجتمع ، أما الصخور الراسية القائمة في جنباته ، التي من شأنها أن تصدع هذه الروح التربوية ، حتى بعد تعهدها وممارستها في المدارس ، فلا ننكر خطورة ذلك وأثره في زلزلة الكيان الخلقي لدى الشباب ، ولكنا نرى أن معالجتها تأتي في الخطوة الثانية بعد الأولى[1] ، ولا شك أن تلك العثرات ـ بعد ذلك ـ أمر لا يجوز الغض عنه أو التساهل فيه ، ولا بد من العمل على توافق روحي المدرسة والمجتمع والتفاعل بينهما ، إذ الطفل ابن لمجتمعه

---

(١) اطلعنا على مقال في عدد جديد بمجلة « المصور » يعالج فيها محررها هذه المشكلة ، ثم يرى أن الحل الجذري لها أحد شيئين ، ويقول عن الشيء الأول إنه التعليم المختلط بين الجنسين في مراحل التعليم كافة ، ثم يعترف بنفسه أن الثمرة المرجوة لذلك لا تأتي إلا بعد سنوات طويلة ، ونحن نكرر مرة أخرى ونقول : إن هذا الحل للمشكلة من مقترحات أمة أجنبية عنا في بادىء الأمر ، والحل نفسه مشكلة أكبر من أمها ، لأن المبادىء التي تجعلنا لا نرضى ببقاء المشكلة كما هي ، هي نفسها المبادىء التي لا ترضى لها أبداً بهذا الحل .

قبل أن يكون ابناً لأسرته أو مدرسته ، ومعنى ذلك أنه لا بد أن تنطبع في نفسه تقاليد ذلك المجتمع وعاداته رغم أنف المدرسة والأسرة ، ورغم أنف مجهودهما ، بل ما من شك في أن المجتمع ينقض كل ما نسجته الأسرة والمدرسة ، ويجعله أنكاثاً إذا لم يتطابق معهما في روحه وتقاليده ، بل إذا نزلنا عند رأي العالم الفرنسي « أميل دوركايم » وأعضاء مدرسته ، نجد أن البيئة الاجتماعية هي العامل الوحيد في تربية الطفل ، وأن ما أبرمته هذه البيئة حيال ذلك لا يمكن لأي عامل من العوامل التربوية الأخرى نقضه أو تغييره .

ولذلك فقد كان أمراً مفروغاً منه وجوب كنس كل ما في جوانب هذا المجتمع من أقذار وأوباء خلقية ، إن أريد للروح التربوية أن تسير في نفوس النشء سليمة هادئة إلى آخر الطريق .

وماذا نرى في مجتمعنا اليوم ؟

إننا نرى فيه حمماً من الأوبئة والأقذار والمفاسد ، بعضها يتجسد ويسير تحت راية « الحرية » ، وبعضها الآخر يشق طريقه من وراء امتياز « الفنون والآداب » ، والبعض منها يخب باسم التقدمية والتمدن ، والجميع ينقلب في نهاية الطريق إلى وقود يزيد من أُوار هذه المأساة ولهيبها ، وتبحث هنالك عن رسالة تلك الفنون والآداب والتقدمية ، أين بقيت وماذا فعلت ؟ ولكنك لا تبصر إلا ناراً تضرم .

ففي ميدان الأدب تجد معظم أدعيائه لا يحلو لهم سوى أن يجعلوا منه غلالة رقيقة يلبسونها لقضايا « الجنس » ، ثم يعرضونها أمام الأبصار كأن شؤون الجنس قد منيت بيننا بزهد فيها وإدبار عنها ، فهي

تحتاج إلى الإطراء لها والدعاية إليها .

ومن تحت لائحة « الحرية » تبصر خليطاً متلاطماً من مئات الأشكال والأزياء التي فجرتها أخيلة الرذيلة وأظهرتها النزوات الملتهبة . فهذه فتاة هجمت إلى الشارع ، وقد كشفت للناس من منكبيها إلى أقصى فقار ظهرها . وتلك قد اخترعت أمكر صورة من العري الفني ، حيث كشفت للناس عن معظم جسمها ، ولَفَّتْ سائره بِمِزَقٍ رقيقة عصرت نفسها فيه عصراً ، ثم راحت تنقر الأرض نقراً في مشية متعثرة بين الغادين والرائحين . وهذه واحدة أخرى قد غمست شعرها ووجهها وفمها وعيونها وأهدابها بشتى الأصباغ المتضاربة المختلفة التي لا يفوح منها إلا رائحة النهم الجنسي الصارخ .

ومن وراء صيحات « التقدم والمدنية » تبصر مظاهر شاذة غريبة لمفهوم الروح الاجتماعية في بلادنا ـ بصفتها بلاداً عربية مسلمة لها مبادئها الراسخة الخالدة ـ فهي مفاهيم لا تجد نظيرها إلا بين الأمم الأجنبية عنا ، هذه الأمم التي نعتبر أنفسنا في حياد إيجابي عنها(١) .

وبعد هذا كله فالغريب أن نثور ضد النتائج الطبيعية لهذه المظاهر الاجتماعية الشاذة عنا ، ونعترف ونقر أننا في مأساة يجب أن نتداركها ونقضي عليها .

---

(١) نحمد الله عز وجل أن تغلب اليوم الوعي والالتزام الديني على ذلك الانفلات الأرعن ، فإن الشوارع لتتألق اليوم بمظهر الاحتشام والحجاب الإسلامي المعتدل ، وما قد وصفته في هذا المقال إن هو إلا بقايا تركب رؤوسها في مخالفة المنطق والخلق والتورط في أودية الندامة والشقاء ، والمأمول أن تُدركها الهداية الإلهية عما قريب .

إن القضاء على النتائج يتطلب القضاء على المقدمات ، ولذا فلا بد من القضاء أولاً على المفاهيم البشعة المعكوسة للآداب والفنون بيننا ، ولا بد من الضرب الشديد على أيدي الذين يحلو لهم هذا الافتراء على الأدب والفن .

أما المرتزقة الذين يبحثون بذلك عن الطعام و« العيش » كما يقولون ، فعليهم أن يفتشوا عن سبيل غير هذا لتجارتهم وطعامهم وعيشهم .

ولا بد أيضاً من وضع حدود إلزامية يتوحد عندها زي المرأة ، ويمنع عنها كل ما هو غير لائق بمكانتها بصفتها امرأة عربية ، وبمكانة المجتمع بوصفه مجتمعاً عربياً شريفاً ، ولسنا نقصد بذلك إلزامهن بالاحتجاب من الفرق إلى القدم ، ولكنا نوجب أن يلتزمن الحشمة التي تعبر عن كرامتهن ، ولا تثير أنظار الشهوة نحوهن .

وليس لأحد أن يزعم أنه حر في شأن أهله وعائلته ، ولا لواحدة أن تزعم أنها حرة في شأن نفسها ، إلا إذا صح لأحد أن يَزعم أنه حُر في أن يَتصرف بقانون السير والمرور كما يشاء .

فالعربة التي يسوقها صاحبها في عرض الشارع ويلتوي بها ذات اليمين وذات اليسار ، وذلك الذي يمشي وهو يزرع الشوارع العامة بما شاء من أقذار وأوساخ ، وأولئك الباعة الذين يتخذون من قارعة الطريق العام مخزناً تجارياً لبيعهم ، وتلك التي تسير في هذه الشوارع وبين أنظار الشباب متعرية متكشفة لتستقبل الأنظارُ فن ميوعتها ولتخلف من ورائها آثار فتنتها ، كل ذلك مظاهر للفوضى البشعة ،

ومنابع للأضرار الجسيمة التي لا يجوز المكابرة في اختلاق الفروق بين بعضها والآخر .

وليس لواحد أو واحدة أن تزعم أيضاً أن ذلك قيدٌ تأباه الديمقراطية التي يجب أن ننعم في رحابها ، فالذين دَرَسُوا الديمقراطية بمعناها الواضح البَسيط ، يعلمون العلم اليقين أن الديمقراطية لا تخلو من قيود ، بل لا بُدَّ لاستقامتها من وجود القيود ، غير أن الفرق بين القيود التي يَفرضها الوضع الارستقراطي والتي يَفرضها الوضع الديمقراطي أنها في الحالة الأولى تكون لمصلحة القادة فحسب ، وفي الحالة الثانية تكون لمصلحة الأمة والأفراد .

وليس لأحد أن يتأفف من هذا التنظيم بحجة أن في ذلك خدشاً لقدسية التقليد الأصم الأبكم ، وانحرافاً عن جادة الغرب وحضارته ، ذلك لأن الأساس الذي أقام عليه الغرب حضارته أساس لا يطيق هذا الشرق العربي إرساء مثله ، فهو أساس كونت عناصره كما قُلنا قبل هذا الفصل من أمشاج مِن الأمهات والأطفال والأزواج الذين ضَلت بهم المدنية عن مَثابة الأسرة وحبل النسب ، وحينما يَقبلُ حَضَرات المتأففين هذا الأساس لحضارتهم ومدنيتهم ، فإننا نَكون حينئذ في غير حاجة إلى التربية الخلقية ، وقوانين التربية الخلقية التي نُوجِعُ رَأسنا اليوم بالحديث عنها ، ويقيننا أنه لن يَسود هذا الرضا والقبول في مجتمعنا ما دام هنالك مُتمدنون مُثقفون يجيبون على معاكسة المثقفين لزوجاتهم في الشارع بالرصاص يُطلقونه عليهم .

وبعد فهذه هي الأسس المنظمة السليمة لمعالجة هذه المأساة في

حياتنا الاجتماعية ، وهذه هي الطريق المؤدية من غير شك إلى نتائج مُرضية للذين يَبحثون لهذه المشكلة عن حل ، أما إذا كُنَّا نأبى أن نُعالج هذا إلا بتلقف الحوادث والجرائم والترصد لها لنعاقب الواقعين فيها والمندفعين إليها ، فما أطرفها من معالجة يضحك منها المنطق السليم والبدهيات الواضحة .

أَنْ أَشد عصابة على عينيك ، وأضع في طريقك الشِّباك ، وأحفر في مواقع قدميك الحُفَر ، ثم أترصد لك ، حتى إذا تَلَقَّفَتْك الشِّباك أو هَويت في الحفرة هرعت نحوك مُؤَدباً ومُعَاقباً ومُرَبياً ! وأن تَكون في أشد حالات الظمأ يلتاع كبدك شوقاً إلى جرعة ماء ، فأعرض أمام عينيك الملتهبتين قدحاً بَديعاً رقراقاً يشف عن ماء بارد زلال ، رُؤيته وحدها تثير العطش ، وأُدنِيه منك وأُديره حَول بَصرك ، وأُغريك بالانقضاض عليه ، ولكني أجعله مع كل ذلك فوق فمك ودون غايتك ، لأنه ماء لا تملكه أنت ولا جدك ولا أبوك ، فليس لك أي حق في الارتواء منه ! فقل لي أيها العاقل وحدثني ، ماذا يَصنع هذا المسكين المحترق عطشاً ؟ أليس بَدهياً من البدهيات أن يفقد أعصابه وينقض على ذلك الذي يذود عن هذا الماء ليرتوي من دمه قبل أن يرتوي من الماء الذي يشتاق إليه ، ثم ينقلب فَيَلعَن الشرائع التي تحرم ، والأخلاقَ التي تمنع وتتحكم ؟ مع أن الشرائع ما جاءت في يوم ما لتجتث طبيعةً أو تخنق رغبة ، وإنما جاءت لِتُقَوِّمَ هذه الطبيعة في الأفراد ، وتحقق سبل الرغبة المنظمة للجميع .

* * *

مأساة الوعي الخلقي في مجتمعنا

صحيح أن مِن شأن الحكومات إقامة الروح التربوية الخلقية في مدارسها ، وحفظ مجتمعها من الأوبئة والأقذار التي تناقض عمل تلك المدارس ، ولكن ليس من شأنها وحدها أن تبث الوعي في نفوس الأفراد .

ولعل أول ما يسترعي القارىء في صدر هذا البحث هو التساؤل عن حقيقة الفرق بين « السلوك الخلقي » و« الوعي الخلقي » .

والواقع أن هناك فرقاً كبيراً بينهما ، وأن أبسط مَظهر لهذا الفرق هو أنهما ليسا بمتلازمين ، فكثيراً ما يُرى فردٌ مِن الناس على حالة من السلوك الخلقي الحسن ، ولكنه يكون في الوقت نفسه فقيراً إلى وعي خلقي كامل ، يَجعله يَعي كيف يُقرر لنفسه ذلك السلوك ، كما أن معايير الوعي الخلقي قد تتكامل في نفوس بعض الشباب وعقولهم ، غير أنهم لا يجدون لديهم الطاقة الكافية لصب سلوكهم وأعمالهم في تلك المعايير .

فالسلوك إذن هو الخطوات العملية في فجاج الحياة ، أما الوعي فهو ما ينطبع في النفوس والأذهان من اعتبارات لقضايا الخلق وحماس لتطبيق الحياة وفق تلك الاعتبارات .

وإذا كانت معالجة السلوك الخلقي ـ وُفْقَ ما حصرناه في ذينيك

السبيلين ـ موكولة إلى الحكومات والمراجع ، فَمِنَ الظلم البيِّن أن نحمل معالجة الوعي الخلقي أيضاً للحكومات والمراجع وحدها ، صحيح أن مِن شأن الحكومات إقامة الروح التربوية الخلقية في مدارسها ، وحفظ مجتمعها من الأوبئة والأقذار التي تناقض عمل تلك المدارس ، ولكن ليس من شأنها وحدها أن تَبث الوعي الخلقي في نفوس الأفراد ، بل لا تُجدي هذه المحاولة نفعاً إلا إذا كانت مِن عمل الأمة نفسها ، أما تَبعة الحكومات حيال ذلك فليست سوى أن تَنشط وتُعين وتُيَسِّرَ أمام ذلك السبيل .

ولكي ندرك سبيل بث الوعي الخلقي في الجيل ، يَجب أن نُدرك أولاً أن انحراف شاب في سلوكه الخلقي ليس ناتجاً عن كونه شريراً في طبعه أو خالي النفس من عناصر الخير والرشاد ، ولكن ذلك ينتج في معظم الأحيان عن ظروف مَوبوءة خاصة حَفَّت متتالية بذلك الشاب ، أيقظت فيه كوامن الشر التي هي كامنة لدى كل إنسان ، ولم تتهيأ له في مقابل ذلك ظروف أخرى تُوقظ فيه كوامن الخير ، فاستقلت به عوامل الشر وجَرَفَته في تيارها ، ومن هنا كان جُلُّ مَهمة « بث الوعي الخلقي » إيقاظ عوامل الخير في نفوس هؤلاء عن طريق إنعاشها بِتَهييء الظروف الملائمة التي كانت محرومة منها .

ونستطيع أن نُوجز مَهمة « بث الوعي الخلقي » في العمل على أن تُشْرَب نفسية الجيل حُبَّ المثل العليا ، وأن تَلين عقليتُه لإدراكها وتقديرها ، وذلك عن طريق نشر الثقافة الإسلامية وروحها التربوية السليمة ، وعن طريق معالجات نفسية عامة منظمة .

أما الوسيلة إلى ذلك فهي إنشاء فروع متنوعة منظمة متشابكة :

بعضها يستهدف نشر الثقافة الإسلامية العامة ، ومعالجة ما يَجدُّ بين الحين والآخر من مناقشات ومشكلات حول بعض قواعد الإسلام وأحكامه ، وذلك عن طريق حلقات دائمة من المحاضرات والندوات والنشاط الفكري العام في مختلف الأحياء والأماكن .

وبعضها يستهدف الإكثار من حلقات المواعظ والنصيحة والإرشاد في المساجد وغيرها من الأمكنة الشعبية العامة بأسلوب حديث يتماشى مع ما انطبع عليه الجيل الجديد من أصول المنطق والتفكير ، وهذا يُقصد منه تقويم حياة العائلات والأسر ، ومحاولة تسريب الروح الوعظية إلى داخل البيوتات .

وبعضها يَهدف على إنشاء روح تربوية إسلامية قائمة على قواعد من أصول علم النفس ، وذلك عن طريق نَوَادٍ عَامة تُفتح لهذا السبيل ، يَكون مِن شَأنها جَذب النشء إليها ، وإتاحة الظروف المناسبة المختلفة من النشاط الفكري والعملي لها ، وفق ما يُلائم كلاً في رغبته واتجاهه ، بُغية إيقاظ كوامن الخير في نفسه ، واستغلالها ليكون لها على صاحبها القوة والسلطان .

وبعضها يَعمل على تركيز القواعد والمبادىء الإسلامية الدقيقة في الأذهان بِواسطة ما هو معروف من العناية بالمؤسسات التعليمية لخصوص ذلك ، « وهذا للتوقي من الحملات الإباحية والإلحادية التي تسوق أمامها لسان الجدل والنقاش وترفع فوق رأسها راية العلم والمنطق » .

هذا ولا بد لكي تؤتي هذه الفروع ثمارها من أن تَسير في عملها مُتفاعلة مُتشابكة وحدة ومجموعاً لا مُتفرقة مُتدابرة شيعاً وأحزاباً ، إذ لا المحاضرات والنوادي وحدها تُنتج ، ولا المواعظ وحدها تُثمر ، ولا الدراسات العلمية الدقيقة وَحدها تصلح حرزاً ، ولكن مجموع المحاضرات والنوادي والمواعظ والدراسات هي التي تَصلح أن تكون مَصلاً مُطهراً ضد المفاسد والأرجاس .

والآن علينا أن نُجيل النظر في هذه الأمة ونتساءل : أي فِئة منها تُرى يجب أن تَحمل أكبر مقدار من المسؤولية عن « بث الوعي الخلقي » في الجيل ؟

والواقع أنني ـ وإن كنت أنكر أن تكون بين المسلمين طائفة اسمها « رجال الدين » ، ذلك لأن كل مسلم في حد ذاته رجل دين ، وكلاً مِنَّا راع ومسؤول عن رعيته ـ غير أنني أجزم بأن الفئة الأولى التي تقع على كاهلها تبعة هذه المسؤولية هي فئة السادة العلماء ، لا لأنهم هم وحدهم الذين وُكِلَ إليهم حِفظ المثل العليا في المجتمع ، ولكن لأنهم أقوى فئة شعبية تَملك الروح المسيطرة والقدرة على الإصلاح ، ففي أصواتهم يَتمثل دائماً دَوِيُّ الإسلام ، وفي مَظهرهم يَتمثل شَكل الخلافة الموروثة عن محمد بن عبد الله ﷺ ، ولا ريب أن فئة هذا شأنها لا يصلح غيرها لقيادة مثل هذه الحركة التربوية الكبرى .

والحقيقة أننا نستطيع ـ بحمد الله ـ أن نَفخر بوجود حركة إصلاحية ما في هذا السبيل من هؤلاء السادة : فهنالك الوعاظ والدعاة الدائبون إلى الحق ، وهنالك العلماء الذين لا يَفترون عن نشر الثقافة الدينية في

المجتمع ، وهنالك في بعض الأحيان المحاضرات التوجيهية العامة .

ولكنا مع ذلك لا نستطيع أبداً أن نَزعم بأننا نلمس أي ثمرة لكل هذه الحركات ، فلماذا ؟ لماذا لا تتغلب جُهود هؤلاء الدعاة على شيء من هذا التيار الهاجم ، وهذه الشرور الكثيرة المتغلغلة ؟

إن إيضاح الجواب عن هذا لا يحتاج إلا إلى العودة إلى ما اشترطناه في الفروع التي تَعمل على « بث الوعي الخلقي » ، لقد قلنا : إنه يجب أن تكون فُروع هذه الدعوة مُنظمة مُتشابكة ، ومعنى ذلك أنه يَجب أن تَشيع رُوح الثقة بين القائمين على هذه الفروع ، وأن يَكون كل منهم مُوقناً بما يَقوم به الآخر ، وهذا وحده هو الشرط الذي يَفقده السادة العلماء ، وهذا وحده الأساس الكبير الأول الذي لم يستطيعوا ـ مع الأسف ـ إلى الآن إرساءه وتقريره ، فعلماؤنا لا تَربطهم فيما بينهم رابطة ، وجهودهم فردية مُتفرقة شتى ، لا تَجد رُوحاً جَمَاعياً تَكلؤها ، وسياسة الدعوة الإسلامية في نَظر أحدهم لا يُمكن أن تجدها تَلتقي مع سياسة الدعوة لدى الآخر ، ولقد كُنت أتمنى ألا أقول : إنما مرجع كل ذلك إلى الاعتداء بالذات ، إلى الشغف بالتسامي على الغير ، لقد كنت أتمنى لو عثرت على سبب آخر لهذا التفكك والتدابر ، ولكني ـ ويا للأسف ـ لم أعثر على غير ذلك[1] .

---

(١) ليس هذا وصفاً للجميع ، إذ إن من علمائنا الذين بين ظهرانينا اليوم مَن لا يَقل بركة عن السلف الصالح ، وإنا لنعتقد أن فِيهم مَن لو أقسم على الله لأبر قسمه ، ولكن وصفنا هذا يَنطبق على مُعظم من يَتصدرون في ميادين الإصلاح ، ثم لا يَستطيعون أن يُصلحوا فيما بينهم هذا الشقاق .

ولو أن هذا لم يكن ، ولو أن سبل الدعوة والإصلاح فيما بينهم تلاقت واتحدت ، ولو أنهم نظموا هذه السبل ـ كما ذكرنا ـ وتعاونوا جميعاً على تحقيق الوعي الإسلامي لآتى العمل ثماره وظهرت نتيجة الجهد ، ولانطلقت هذه النتيجة قوية جبارة تُبدد كل شر ، وتُصلح كل فاسد وتُقوم كل مُعْوَجٍ .

ومن هنا نشأ فراغ كبير في هذا المجال ـ مجال « بث الوعي الخلقي » بين أفراد هذا الجيل ـ وكان أن نشأت من الفراغ هذه المأساة التي نتحدث عنها ، فالنشء حيثما نظر والتفت يُبصر غزواً أجنبياً مداهماً ، غزواً في الفكر والعقائد ، غزواً في الأخلاق والمقومات ، غزواً في المبادىء الإسلامية وتقاليدها ، فإذا بحث عن عاصم من تيار هذا الغزو لم يُبصر مِن كل مَا حوله إلا تاريخاً غَابراً يُناديه من وراء جدران القرون ، فأنَّى له أن يَرحل عن أضواء حياة القرن العشرين إلى تاريخ مَضى واندثر ولم يخلفه مَن يُجدد فيه الحياة ، ويجعل منه حلقات تمتد وتتوالد مع كل قرن وعصر ؟ فإذا كان واقع مجتمعنا كذلك ، وإذا كان مُعظم الظروف التي تُحيط بِالنَّشْءِ تَخنق الوعي الخلقي فيه ، فمن أين للمأساة أن تنتهي ، وأنى للحكومات وحدها أن تعتصر من سبيلي التربية المدرسية ومراقبة المجتمع دَواء كَافياً لمحنة السلوك الخلقي ، بل وأنى للمجتمع نفسه أن يخضع لمراقبتها وحكمها ؟

* * *

السبيل إلى خلق وحدة وطنية في الأمة[١]

ما السبيل إلى خلق وحدة وطنية في الأمة ضِدَّ مَا يَحوم حَولها من كيد المستعمرين وتدابيرهم ؟ السبيل هو **التربية الإسلامية** التي طالما ظلت فرنسا تحاربها في تَخوُّفٍ شديد ، إذ لا ريب أن التربية الإسلامية هي أشد ما يَحمل الأُمة على الوحدة والتضامن ، حتى عِندما تَشيع فيما بينها مختلف المذاهب والآراء ، كما أن فُقدان التربية الإسلامية هو أشد ما يُعَرِّضُ الأمة للتفريق والتدابر حتى عندما لا يُوجد فيما بينها أي سبب من أسباب التفرق والشقاق .

ولعمري كم هناك من أسباب لمظاهر الخلاف ما بين فئات هذه الأمة هي في حَقيقتها ليست إلا سوء تفاهم مُصطنع ، أو رواسب لمحاولات الاستعمار وعبثه يوم أن كان يعثو فساداً في هذه البلاد ، وما أسرع ما تذهب مع الريح كل هذه الأسباب والرواسب عندما يقوى الوعي الإسلامي على حقيقته فيما بين مختلف فئات الأمة .

ولست أعني بهذا القول أن التربية الإسلامية من شأنها أن تُرغم أصحاب بعض المذاهب على التخلي عن مذاهبهم وما تمليه عليهم تلك المذاهب من اعتقادات ، ولكن التربية الإسلامية من شأنها ـ إذا وُفِّيَتْ حَقَّها في المدرسة كَمَّاً وكَيفَاً ـ أن تُقَلِّل الخلافات الفكرية

(١) انظر كتاب « تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث » للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى .

والمذهبية في صفوف المسلمين قدر الإمكان ، إذ سرعان ما يتجلى لكل ذي وعي إسلامي أن أكثر هذه الفروق والآراء المذهبية إنما افترضت فرضاً ـ مع طول الزمن ـ إلى عقائد ذات سلطان على النفس ، ثم جاء الاستعمار فوجد في دعم هذه الفوارق الاعتقادية وسيلة رائعة إلى تفتيت كيان الشعب الواحد وسهولة السيطرة عليه ، فراح يدعمها بكل سبيل ، وأخذ يقلب الخلاف إلى عداوة ، والعداوة إلى فتنة هوجاء .

على أن التربية الإسلامية لو لم تنجح ـ على الفرض والتقدير ـ في توحيد الصفوف عن طريق نبذ الخلافات ، فإنها تقضي على أقل تقدير بوجوب الالتفاف والتضامن حول المبادىء والمعتقدات الإسلامية المتفق عليها ، مما يتضمنه كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، خصوصاً حينما يُدرك الجميع أن اصطناع الخلاف في الأمور الفَرعية شَيء لا يَستفيد منه إلا المستعمر والشيطان ، وإن الوازع الإسلامي في هذا الصدد ليتجلَّى واضحاً في الكلمة المأثورة عن بعض رجال الدعوة الإسلامية : « إن علينا أن نتعاون فيما اتفقنا عليه ، وأن يَعذر بعضنا الآخر فيما اختلفنا فيه » .

هذا عن أثر التربية الإسلامية في قمع غلواء الخلافات الناشبة ما بين فرق المسلمين وطوائفهم .

أما عن أثرها في تكييف علاقة المسلمين مع مواطنيهم الآخرين من غير المسلمين ، فالواقع أن الشقاق الطائفي ما قام في فترة ما من الزمن إلا عندما يَفقد المسلمون الوعي الإسلامي الصحيح والتربية الإسلامية الصحيحة ، وإن « حادثة الستين » التي نَشبت ـ قبل اليوم ـ فيما بين المسلمين والنصارى لتعكس صورة واضحة لسذاجة وسوء

وعي أولئك الجهّال المسلمين الذين كانوا يأتون من الأعمال الشنيعة ما لم يأمر به أي دين .

ولا شك أن من الطبيعي جداً أن تجد المسلم الذي لم يفهم الإسلام إلا بعاطفة فجة غير ناضجة بروح العقل والعلم ، من الطبيعي أن تجده ـ وقد جعل من عاطفته تلك الحجارة الكبيرة ـ يضرب بها وجوه الآخرين كيفما وُجِدوا وعلى أي حال كانوا ، ذلك أنه لم يفهم في يوم ما علاقة الإسلام بالأديان الأخرى ، ولم يُعلِّمه أحدٌ كيف أن هذه العلاقة في علاقة أمانة وذمة وتعايش ووفاء ، وهو اليوم ـ وقد بلغ عقله وعمره من الشيخوخة عتياً ـ غير مستعد أن يفهم من هذا كله شيئاً لو حاولت أن تفهمه إياه ، إذ إن بين جنبيه عاطفة مشبوهة عمياء تُخضِع كل شيء لأمرها لا تخضع هي لأي شيء .

وبالمقابل ، فإنك لتجد المسلم ـ الذي فهم الإسلام بالعقل والعلم أولاً ، ثم جند العاطفة لذلك الفهم ثانياً ـ على خير ما يمكن أن تجد مواطناً مع أخيه المواطن ، إذ لا ريب أن هذا المسلم قد تلقّى دروساً طويلة ـ حينما كان طالباً في المدرسة التي نشأته على التربية الإسلامية ـ عن سماحة الإسلام حيال أهل الشرائع السماوية الأخرى ، وقرأ بتفهم وإمعان مثل هذه الآية : ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة : ٨] ، وهذه الآية : ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٦] . ولا ريب أنه علم كيف

كان الرسول ﷺ يحض على التسامح ويحببه إلى المسلمين بقوله وفعله ، فيقول : (ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلَّفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ ، فأنا حجيجه يوم القيامة)[1] ، ويأمر عليه الصلاة والسلام بأن لا يُجبر أحد من النصارى أو اليهود على ترك دينه ، فيكتب إلى عامل له في اليمن : (إِنَّه من كان على يهوديةٍ أو نصرانيةٍ فإنَّه لا يُفْتَنُ عنها)[2] .

ولا ريب أنه اطلع على شهادة كثير من النصارى واليهود أنفسهم بتسامح الإسلام ورفقه ولينه ، واطلع فيما اطلع على ما قاله البطريرك « عيشويايه » التي تولى منصبه عام ٦٤٧ـ٦٥٧ هـ : « إن العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا بعدالة كما تعرفون ، إنهم ليسوا أعداء للنصرانية ، بل يمتدحون ملتنا ، ويوقرون قديسنا ، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديارنا » .

ولا شك أنه اطلع أيضاً على ما قاله « توماس آرنولد » : « لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحين بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة ، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة ، ونستطيع بحق أن نحكم أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة ، وإن العرب المسيحين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح » .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات ، برقم : (٢٦٧٠) .

(٢) أخرجه القاسم بن سلام في كتاب الأموال ، سنن الفيء ، برقم : (٥٧) من مرسل عروة بن الزبير .

فإذا كان هذا المسلم قد عَلِمَ هذا كله أيام دراسته وتكوين فكرته عن الكون والحياة ، وتربى على هذا المبدأ ونشأ على هذا الوعي ، فماذا تتوقع أن تكون علاقته بزملائه ومواطنيه الآخرين ؟

إنها ولا ريب علاقة الوفاء والإخلاص والتضامن ، وهي العلاقة التي أرادها الإسلام نفسه ، ووصى بها الرسول ﷺ ، وحققها الواقع والتاريخ ، ولعمري ليس أطرف ولا أعجب في هذا الباب من قول من قال : إن التربية الإسلامية في المدرسة خطر على الوحدة الوطنية ونذير بين يدي شقاق طائفي ! .

والحقيقة ـ كما رأينا ـ هي أن الشقاق الطائفي لا يظهر إلا عندما يكون إسلام المسلمين عاطفة هوجاء غير مهذبة بنور العرفان والعلم ، كما هو حال المتدينين من العامة والجهال ، وأنه ليصدق على هذا واقع التاريخ ومنطق العقل السليم .

والحقيقة أيضاً أن الوحدة الوطنية لا يَحزمها شيء كالوازع الديني الصحيح ، ذلك أن الدين من أساسه إنما يهدف إلى إيجاد مقومات الوحدة والتضامن ضد أي عدو دخيل ، وهو ـ في الوقت نفسه ـ يَهدف أيضاً إلى قطع دابر كل ما من شأنه أن يَشق عصا الأمة ويهدد وحدتها وتضامنها .

فيا للعجب ! كيف يُصبح الدِّين الذي جاء لتوحيد الأمة وضفر جهودها وجمع قواها سبباً للتفريق ومُهدداً للوحدة الوطنية ونَذيراً بيت يدي الشقاق والتدابر ؟ .

❊ ❊ ❊

الفِرَقُ الإِسْلَامِيَّةُ قَدِيمَاً وَحَدِيثَاً

المحتوى

مقدمة البحث ٣٥٣
تعريف الفِرَق الإسلامية ٣٥٩
عوامل نشأة الفرق ٣٦٠
موقع هذه الفرق من الإسلام ٣٦٣
موقف الدولة الإسلامية من الفرق ٣٦٧
أهم الفرق الإسلامية وما اختص به كل منها من اجتهادات وآراء ٣٦٩
أولاً : الفِرَق السياسية ٣٦٩
١ـ الشيعة ٣٧٠
٢ـ الخوارج ٣٧٨
ثانياً : المذاهب الاعتقادية ٣٨١
١ـ المعتزلة ٣٨١
٢ـ المرجئة ٣٨٦
ما هي العوامل التي أدت إلى زوال هذه الفرق ٣٨٩
الخاتمة ٤٠٤

مقدمة البحث

لا يَشكُّ باحث في أن العقيدة الإسلامية التي بُعث بها أخيراً مُحمد ﷺ ، هي التي جمعت أشتات القبائل العربية المتناحرة ، وألَّفتْ منهم أمَّةً واحدةً تسير على صراط واحد ، وأنها هي التي ضَمَّت إليهم مِن بَعدُ أُمماً وجماعات أخرى ذات أفكار واتجاهات شتّى ، فتلاحموا جميعاً على مبدأ واحد ، ثم ساروا على خُطّة رشد واحدة .

غير أن هذا البنيان المتماسك الذي شَادَهُ الإسلام للبشرية بِفَضلِ عَقيدته ، سَرَت فيه ـ على صعيد العلاقات الاجتماعية ـ هَزَّة ، أو قُل نوعٌ من التصدّع ، مرتين اثنتين :

المرة الأولى منهما كانت إبان العصور الثلاثة المباركة الأولى من عهد الإسلام ، وهي التي تُسمَّى بعصر السلف ، وقد كان سبب ذلك تسلل الفلسفة الإغريقية خِفْيَةً من النوافذ والشقوق بَدلاً من أن تَدخل جَهرة من الأبواب الرسمية ، تحت سلطان الرقابة والنقد .

لقد فُوجِىءَ كَثيرٌ من المسلمين آنذاك بهذه الفلسفة ، إثر اتساع الفتوحات الإسلامية ، فغشيت لمرآها أعينهم ، وأخذت ببهرجها وضخامة اصطلاحاتها عقولهم وألبابهم ! فأقبلوا إليها بإعجاب ، وحملوا أنفسهم على تقبُّلِهَا بروحٍ مِن الثِّقَةِ والاستسلام ! .

وقد عَلِمنَا أن المعتزلة هُم أول مَن ذهب ضَحيّة هذا الانبهار من الفئات والفرق الإسلامية ، على أن المعتزلة أنفسهم انقسموا على أنفسهم تحت تَأثيرٍ من الاضطراب الذي كان ، ولا بُدّ أن يُواجه أفكارهم مِن جَرَّاء وقع التناقُض الذي فُوجئوا به والمغامرات الفكريّة التي حملوا عقولهم عليها .

وهذا العصر هو الذي شَهد ما يُسمّى بنشأة الفِرق التي ظَهرت على سطح العقيدة الإسلامية الراسخة الواحدة ، كما تَظهر الثآليل المنتشرة على جسم الإنسان السوي .

فتلك هي المرة الأولى ، ولكن ما النتيجة التي آل إليها ذلك التصدّع أو تلك الهزّة ؟ النتيجة أنّ الله تعالى سَلَّم ووقى ، وقد كان مَرَدُّ ذلك إلى ظُهور إمامين جليلين في غمرة الصراع الفكري المحتدم بين الفِرَق ، هما : الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠ـ ٣٢٠هـ) ، والإمام أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي (. . . ـ ٢٦٨هـ) ، فقد جمعهما ـ على اختلاف ديارهما ـ مُقاومة الفِكر الفلسفي الذي تَسلل إلى المجتمع الإسلامي عن طريق المعتزلة وذيولها وفروعها الكثيرة .

ومن هنا نَعلم أنَّ أياً من هذين الإمامين لم يَبتدع لنفسه مَذهباً أو رأياً جديداً ، وإنّما لَفت نَظر كُلّ منهما أنّ الحق الذي عليه سواد المسلمين من رجال التفسير والحديث والفقهاء وسائر العلماء المشتغلين بأصول الدين ، قد حُجب عن أنظار وأسماع عامّة الناس ، بضجيج المناقشات والمجادلات التي ثارت وشاعت في صفوف

المبتدعة وروّاد الفلسفة الإغريقية ، حتى عادت العقيدة الإسلامية التي يَلتقي عليها جمهور علماء المسلمين في غمرة تلك الصراعات ، أشبه ما تكون بالجادة العريضة التي تَكاثرت فوقها الأتربة والحجارة والرمال ، حتى كاد أن يَضيع على الناس معالمها ، فكان عمل كلٍّ من هذين الإمامين مَحصوراً في إزاحة ذلك الركام عن تلك الجادة العريضة ، وتجليتها أمام الأبصار ، وتنبيه الناس إلى اتباع ما عليه جمهور المسلمين وجماعتهم منذ عصر النبوة مدعوماً بنصوص القرآن والسنّة ، وذلك تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ باتباع الجماعة والتحذير من الشرود عن الجادة العريضة التي يسير عليها سواد المسلمين إلى السبل التائهة المتعرجة .

أمّا الهزة الثانية فشيء مؤسف يشهده عصرنا الذي نعيش فيه .

أمّا حجم هذه الهزّة فخطير ! إنّه يَتمثّل في أنواع من الشقاق يَبعث أبطالهُ في كثير من الأحيان على التكفير والتشريك ! ويُوشك إن طال الأمد على ذلك أن يَتمزّق صرح العقيدة الإسلاميّة الذي ما يَزال يُجسِّد وحدة هذه الأمّة وتضامنها ، وأن يَتحوّل إلى ما يُشابه المتاريس المتقابلة ، إذ يتقاسمها خصوم متهارجون ! .

والمؤلمُ حَقاً أنّ مباضع هذا الشقاق لا يَقتصر استعمالها على السعي إلى تفتيت وحدة العقيدة الإسلاميّة في ظلّ أهلها اليوم ، بل إنها لِتوجّه من خلال ألسنة طويلة إلى ما وراء قُرون وأجيال بعيدة ، لتنشر تُهم الشرك والضلال والابتداع في أئمّة لم يُعرف الثقات عنهم خلال القرون إلا الاستقامة على الرشد ، ثمّ أَنّهم آلوا إلى ربّهم ، وحقّ فِينا

وفيهم قول الله عزّ وجلّ : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة : ١٣٤] .

وما هو أنكى من ذلك كلّه أنّ هذه الصورة المؤلمة توضع عند تلك القنطرة الكبرى التي تفصل بين خَطَي الإيمان والكفر ، حيث يدخل من تحت هذه القنطرة الآلاف في دين الله متَّجهين إليه من ربوع أوروبا وأمريكا وآسيا أملاً في أن يسبق كلُّ فريق خَصمه في الفوز بهم والانحياز بهم إلى معسكره وخندقه .

وهكذا فإنَّ أول ما يعرض على هؤلاء الوافدين إلى دين الله عزّ وجلّ ـ بكل اعتزاز وفخر ـ هُوَ هذا المظهر الهائج من التخاصم والتهارج ، ضِمن نِطاق العقيدة الإسلامية الواحدة ، ولا شكّ أنّه مَظهر من الشقاق المصطنع يَبْرَأُ الإسلام في حَقيقته وجوهره منه إلى الله عزّ وجلّ .

وأمّا الموضوع الذي يتحرّك به أبطال هذا الشقاق ، ويُكَوِّنون منه رصيداً لخصوماتهم ، فهو مُراقبة ألسنة المسلمين وملاحقة تصوراتهم وأفكارهم في امتحان دقيق .

ـ أيفسرون الألفاظ المتشابهة في القرآن والحديث مما يَتعلّق بالصفات الإلهيّة على ظاهرها ، فلا يَبتَغُون لها تأويلاً ولا يصرفونها إلى مجاز ؟إذن فهم سلفيون صادقون في إسلامهم وعقيدتهم ، ناجحون في الامتحان الصعب في قضايا الدِّين وكلّ ما يتعلّق به .

ـ أم إنّهم يَتأولون لِيُفَسِّرُوا الوجه مثلاً بالذات ، والنزول بالإقبال ، والفوقيّة بالسيطرة والقهر ؟إذن فهم مُبتدعون ضالون عن سنن الهداية

والرشاد ، متنكبون عن محجَّة السلف ! .

ـ أما موقفهم من أبي الحسن الأشعري ، فإنهم يَجزمون بأنّه مُبتدع لا خير فيه ، ولا يرون له فضلاً في لمّ شعث الأفكار المضطربة وإعادتها ـ إبان هياج الفرق المبتدعة ـ إلى حظيرة الحق ومؤيدات الكتاب والسنّة ، فهو ضالٌّ تائه عن الحق يَجب أن يُستتاب عن غيّه وضلاله ! .

ـ والتصوّف ورجاله ـ عن كلّ مَن يَشعر أنّ قَلبه ينتعش باتباع سيرة هؤلاء الرجال في ذكر الله وتربية النفس وتزكيتها ، وإيقاد شعلة العواطف الربانية في فؤاده ـ أن يعلم أنّه منغمس في أوحال الابتداع متطوح في أودية الزيغ والضلال ! .

ـ والمذاهب الفقهيّة وأئمتها ، على الناس جميعاً أن يَعتقدوا أنها من البدع المقحمة في الدين ، وأن يتحللوا من رِبْقَة الاتباع لها ولأئمتها ، وأن يستغنوا عن ذلك باستخراج الأحكام من نصوصها وأخذ الشريعة من ينابيعها ، مهما قلَّت بضاعتهم في المعارف والقدرات ! فمن تراجع عن هذا الطموح إلى التبعيّة والتقليد وسؤال أهل الذكر ، فقد ابتدع وحاد وكان ممن اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله ! .

أجل ، هذا هو الموضوع الذي يتحرّك به أبطال هذا الشقاق ، فلا تكاد تجد لهم شغلاً بغيره ، أو شعوراً بأيٍّ من الهموم المشتركة التي يُعاني من ويلاتها المسلمون ، أو أي التفات إلى الأوهام والوساوس الإلحادية التي يَتسلل بها محترفو الغزو الفكري إلى عقول الناشئة باسم

العلم أو الفلسفة أو الفكر التقدمي ! .

ولا يَخفى على واحد ممن يَرى واقع المسلمين وأحوالهم اليوم في مختلف البقاع والبلاد ما يُفْرِزُه انصراف هؤلاء الناس إلى استثارة الشقاق والخصومات حول هذه المسائل من عَصبيةٍ في النفوس وأحقادٍ في القلوب ، كما لا يَخفى على أحدٍ أنّ اتخاذ هذه المسائل أساساً جَوهرياً في أمر العقيدة مع الإصرار على ضرورة النظر إليها من وُجهة نظر فئة بعينها يُحيل بنيان العقيدة الإسلامية إلى أداة تفريق وتمزيق ، بعد أن كانت مثابة تأليف وتوحيد ! .

إنّ مصدر هذه الهزة يَتلخّص في أن هناك سُوء فهم في معرفة الطريق وسلوكه إلى هدف لا نَشك في أنه الحق الذي لا بديل عنه .

❊ ❊ ❊

تعريف الفِرَق الإسلامية

الفِرقُ جمع فِرقة ، وهي الجزء الذي يُقتطَع من مجموعة أو شَعب أو أمة . والذي يفصل هذه الفئةَ عن مجموعها رؤيةٌ تتميز بها في مسألة من مسائل العقيدة ، أما لو اختلفت هذه الفئة عن غيرها في اجتهادٍ يتعلّق بالأحكام الفقهية السلوكية ، « عبادات ، معاملات ، عقود » فتُسمّى هذه الفئة مَذهباً .

والفرق الإسلامية التي نشأت على أعقاب البحث في غوامض المسائل الاعتقادية ودقائقها ، إنما تفرعت عن المذهب الأساسي الأول الذي كان ولا يزال يُمثِّل جمهور المسلمين في عصر الصحابة وصدر عصر التابعين .

❋ ❋ ❋

عوامل نشأة الفرق

أولاً : إن كثيراً ممن دَخلوا في الإسلام بعد الفتح كانوا من ديانات مختلفة كاليهودية والنصرانية والمانَوية والزرادشتية والبراهمة والصابئة. . . إلخ ، وكان فيهم كثير من علماء دياناتهم ، فلما ركَنوا إلى الإسلام ودرسوا أحكامه وتعاليمه أخذوا يُفكِّرون في تعاليم دينهم القديم ، ويقارنون بينه وبين الإسلام ، فكان ذلك مَثارَ حديث وجدل لدى كثير من الناس ، إذ الطبع والفكر الإنساني يندفعان في مثل هذه الحالة إلى المقارنة واستثارة وجوه التشابه والاختلاف ، والتعمُّق في إبراز مزايا ما يُرى أنه الحق ، وهو شيء يَدفع ولا ريب إلى النظر والنقاش .

ثانياً : إن الفتح الإسلامي كان أساساً لِنشأةِ حَضارةٍ مُتكاملةِ المرافق والأركان ، وقد كانت المعرفة بفروعها المختلفة الدعامة الأولى فيها ، فأعقب ذلك قيام حلقات العلم والبحث في شتى المسائل والموضوعات الدينية والأدبية وغيرها ، وعكف الناس على تَدوين ما يَنتهون إليه من زُبدة محادثاتهم ومناقشاتهم ، فلم يَكن بُدٌّ عندئذ من الخوض في المتشابهات ، والبحث في غوامض الآيات ، وهو أمر يستدعي الاجتهاد ، ومن شأن الاجتهاد أن يُوصل إلى الخلاف ، ومن الطبيعي أن يَنهض كُلٌّ من الأطراف المُتخالفة إلى الاستدلال والحجاج لدعم ما يَرى أنه الحقّ .

ثالثاً : كان من آثار اتساع الفتوحات الإسلامية وانتشار الدعوة الإسلامية في ربوع الأرض أنْ دخلت الآلاف بل الملايين في دين الله أفواجاً ، وقد كانوا يَنتمون إلى حضارات ويتمتعون بثقافات مختلفة ، فضلاً عما كانوا يتَّصِفون به من أمزجةٍ وأخلاق متفاوتة متنوعة ، فظهر فيما بينهم زَنادقةٌ أَضمروا الباطل الذي كانوا يَتبنونه وستَروه بظاهرٍ من اسلام والانقياد لأحكامه ، ثمّ أخذوا يَدسّون باطلهم بدعايةٍ من العلم والمنطق كلَّما سنحت لهم الفرصة .

رابعاً : هذه الفتوحات كانت سَبباً لِتَسَلُّل الفلسفة الإغريقية خِفيةً من النوافذ والشقوق بَدلاً من أن تَدخل جَهرةً من الأبواب الرسمية تحت سلطان الرقابة والنقد ، ففوجىء المسلمون آنذاك بهذه الفلسفة ، وغَشِيَت لمرآها أعينُهم وأُخِذَت ببهرجها وضخامة اصطلاحاتها عقولُهم وألبابُهم ، فأقبلوا إليها بإعجابٍ وحملوا أنفسهم على تقبُّلها بروحٍ من الثقة والاستسلام ، فاستكانوا لمنهجها ووثِقوا بأصولها ومقاييسها .

فأورثهم ذلك تغليباً لسلطان العقل على ضوابط النقل ، وتلك هي نقطة الضعف التي ظَلَّت تُعاني مِنها الفلسفة أحقاباً طويلة ، واقتضتهم نقطة الضعف هذه التهوينَ من أمر النصوص أو كثيرٍ منها ، فلم يُبالوا بتأويلِها وصرفها عن معانيها الحقيقية ولو بقدر كبيرٍ من التمحُّل والخروج الصحيح على قواعد اللغة العربية وأصولها ، وذلك كي تسلَم لهم تصوراتُهم العقلية التي تسلّلت إليهم من خلال معاناتهم المبهورة مع الفلسفة الإغريقية ، وأول من ذهب ضحيةَ هذا الانبهار هم المعتزلة .

وهكذا بدأت نشأة الفرق في أواخر عصر الصحابة وأوائل عصر التابعين ، وظهرت على سطح العقيدة الإسلامية الراسخة الواحدة كما تظهر الثآليل المنتشرة على جسم الإنسان السويّ ، وامتد ذلك إلى عصر الدولة العباسية .

* * *

موقع هذه الفرق من الإسلام

إن الفرق الإسلامية التي سنتحدث عنها منسوبة إلى الإسلام دَاخلةٌ في الْمِلَّة ، ولذا تُسمّى الفِرق الإسلامية ، وهذا يَعني أنه لا يَجوز إخراج أي منها عن حظيرة الإسلام ، ولا يَوجد في الثِّقاة من أئمة المسلمين مَن حَكَم على أي من هذه الفرق بالكفر ، وإن كانوا إنما يتحدَّثون عنها ويُعَرِّفون بها لبيان انحرافاتها عن الجادة ، والابتداعَاتِ التي عُرفت بها ، والتحذير من الوقوع في ضلالاتها .

ومُستند الأئمة في ذلك ما صَحّ عن رسول الله ﷺ مِن أنَّ مَن لقِي الله لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة . من ذلك حَديثُ أَبي عَمْرَةَ الأَنْصاريُّ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ : (**أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ ، وَأَشْهَدُ أَنِّي رَسولُ الله ، لا يَلْقَى اللهَ عَبْدٌ يُؤْمِنُ بِهِما إلاَّ حُجِبَتْ عَنْهُ النَّارُ يَوْمَ الْقيامَة**)[1] ، وحَديثُ أَنسٍ رضي الله عنه ، أَنَّهُ ﷺ قال : (وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لا يَقُولُهَا[2] أَحَدٌ صَادِقًا إِلاَّ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ النَّارُ) ،

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ، باب جَمْعُ زادِ النَّاسِ إذا فَنِيَ زادُهُمْ ، وَقَسْمُ ذَلِكَ كُلِّهِ بَيْنَ جَميعِهِمْ ، برقم : (٨٧٤٢) .

(٢) أي الشهادتين كما بين ذلك سبب ورود الحديث ، عن أَنَسٍ قالَ : حَدَّثَني عِتْبانُ بْنُ مالِكٍ أَنَّهُ عَميَ ، فأَرْسَلَ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ فَقالَ : تَعالَ فَخُطَّ لي مَسْجِدًا ، فَجاءَ رَسولُ اللهِ ﷺ ، وَجاءَ قَوْمُهُ وَتَغَيَّبَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقالُ لَهُ مالِكُ بْنُ الدُّخْشُم ، قالوا : يارَسولَ اللهِ ، إِنَّهُ وَإِنَّهُ ، يَقَعونَ فيهِ ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لاإِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَنِّي رَسولُ اللهِ ؟) قالوا : إِنَّما يَقولُهَا مُتَعَوِّذًا ، قالَ : . . . الحديث أخرجه=

وحَديثِ مُعَاذِ بن جبَلٍ رضي الله عنه : (**مَنْ كانَ آخِرُ كَلامِهِ لا إِلَهَ إلاَّ اللهُ دَخَلَ الجَنَّة**)[١] ، **زاد في رواية** : (**صادِقًا مِنْ قَلْبِه**)[٢] .

والقاعدة تقول :

كل تأويل لنص من القرآن الكريم أو الحديث مهما كان بعيداً لا يَزجُّ الإنسان في الكفر ، والفِرقُ التي ظهرت كُلُّها شَطَّت عن المنهج الصحيح عن طريق التأويل ، ولكنّ علماء الشريعة الإسلامية لم يُكفِّروا أحداً منهم مع العلم أنهم هُم كَفَّروا بعضهم .

فهل يُشكِل على هذا الحديث المتواتر أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قال :(**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلى إِحْدى وَسَبْعينَ فِرْقَةً ، وافْتَرَقَتِ النَّصارى عَلى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعينَ فِرْقَةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتي عَلى ثَلاثٍ وَسَبْعينَ فِرْقَة**)[٣] . **وقد رواه التِّرمذِي**[٤] **بزيادة** : (**كُلُّهُمْ في النَّارِ إلاَّ مِلَّةً واحِدَة**) قالوا : وَمَنْ هيَ يا رَسولَ الله ؟ قالَ : (ما أَنا عَلَيْهِ وأَصْحابي) .

أقول ـ وأسأل الله أن يُلهمَني الرُّشد ـ : بعث الله سيدنا محمداً ﷺ

= النسائي في السنن الكبرى ، باب مايقول عند الموت ، برقم : (١٠٨٧٨) . وأخرجه أحمد في المسند ، (٢٠/ ١٨٤) برقم : (١٢٧٨٨) . وأصله في الصحيحين بدون القصة ، ولفظه : (مَنْ لَقِيَ اللهَ لايُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ) .

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، بابٌ في التَّلْقين ، برقم : (٣١١٦) . وأخرجه أحمد في مسنده ، (٣٦/ ٣٢٤) برقم : (٢١٩٩٨) . وأخرجه الحاكم (٣/ ٢٤٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، (٣٦/ ٣٢٩) برقم : (٢٢٠٠٣) .

(٣) أورده السيد محمد بن جعفر الكناني من طريق عدد من الصحابة رضي الله عنهم . نظم المتناثر ، كتاب الإيمان ، رقم (١٨) .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ، باب ماجاء فيمن يموت وهو يشهدأن لاإله إلا الله ، برقم :(٢٦٤١) ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما .

إلى الناس جميعاً ، فمنهم من آمن بالله تعالى وأقرّ لنبيه محمد ﷺ بالرسالة ، ومنهم من لم يؤمن ، فكل من وُجِدَ في عصر رسول الله ﷺ ، وكل من وُجِدَ فيما بعد إلى قيام الساعة مِن أمة رسول الله ﷺ ، فهو من « **أمة الدعوة** » مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، وأما الذين استجابوا له وأقروا بنبوته فهم من« **أمة الاستجابة** » .

والمراد بالأمة في قوله ﷺ : (وتفترق أمتي) أمة الدعوة لا أمة الاستجابة ، وعليه فإن المراد بالفرق التي تفترق إليها أمته هذه هي الأديان الباطلة الكثيرة الخارجة عن ملَّة الإسلام ، وليس المراد بها الفرق الإسلامية من معتزلة ومُرجئة وجهمية وخوارج . . . إلخ .

يدل على ذلك أمران اثنان :

أولهما : قوله ﷺفي الزيادة التي ساقها الترمذي : (**كُلُّهُمْ في النَّارِ إلاَّ مِلَّةً واحِدَة**) ، وقد علمتَ أن الملة هي الدين ، ولا يُعبَّر عنها بالفِرقة ، وملَّة الإسلام تشمل كل الفرق التي تَكاثرت فيها ، لأن أصحاب الفرق على اختلافهم مؤمنون بوحدانية الله تعالى .

ثانيهما : أن النبي ﷺقال في صدر الحديث : (افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة) ومقتضى بلاغة المصطفى ﷺ ، وكونِه حُجَّة في البيان والفصاحة أن يقابل كلمة اليهود والنصارى بكلمة المسلمين ، فيقول « وسيفترق المسلمون إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة » ، لكنه عَدَلَ عن كلمة « المسلمين » ، وإنما قال (وستفترق أمتي إلى ثلاثٍ وسبعين

فرقة) ، والمراد بالأمة هنا أمة الدعوة لا أمة الاستجابة ، ومعنى (وستفترق أمتي) أي أمة الدعوة (إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة) أي إلى أديان مختلفة متناقضة شتى ، والدليل الناطق على هذا أنه قال بعد ذلك : (كلهم في النار إلا ملة واحدة) ولم يقل « إلا فرقة واحدة » ، كلها في النار إلا ملَّة واحدة هي ملَّة الإسلام بكل فئاتها ، بكل مذاهبها ، بكل أقوامها ، الجامع المشترك بينها والذي يجعل لها هوية الرحمة من الله سبحانه وتعالى ويجعلها تدخل إلى بوابة الرحمة الإلهية والواسعة أنها جميعاً لَقِيَت الله عز وجل وهي تؤمن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله ، هذا هو المعنى الذي قصده المصطفى ﷺ ، فالمسلمون اليوم بكل مذاهبهم ، بكل فرقهم ، كلُّهم يستظلُّون بظلِّ الإيمان بالله ، كلهم لهم هوياتهم التي يدخلون بها غداً في رحمة الله عز وجل ، ألا وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ .

فهذا الفَهم لكلمة الأمة في الزيادة التي ساقها الترمذي وآخرون ، ينسجم مع سياق الحديث وسِباقه ، ويفتح سبيل التوافق والانسجام مع الأحاديث الكثيرة المُؤكِّدة بأن من لقي الله مؤمناً بوحدانيّته لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة .

وإذن فإننا على الرغم من التحذير من الضلالات والبدع التي وقعت فيها الفِرَق التي سنأتي على ذكرها ، لا نُكفِّر أياً منهم ، ونسأل الله لنا ولهم المغفرة والصّفح بمَنِّه وكرمه ، إنه أكرم مسؤول .

* * *

موقف الدولة الإسلامية من الفرق

لم تُكفّر الدولة الإسلامية أيّاً من الفرق التي ظَهرت فيها ، بل وقفت منها موقف الحوار والمناقشة ، وتاريخ العصر الأموي والعباسي مَليءٌ بأخبار تلك المناقشات التي كانت تجري في كثيرٍ من الأحيان بإشراف الخليفة ، إذ كان يَدعو الفرقاء للمناقشة ويستمع إلى السِّجال بينهم ، ولم يُعرف أن نِقاشاً تَطوَّر ثم تَحوَّل إلى مُهاترةٍ بالكلام أو مُجارحةٍ باللِّسان ، وإنما كانت المناقشات علمية منضبطة بقواعد العلم النظري .

وهناك بَعض الكتب التي جَمَعت هذه المُناقشات والحِوارات في ذلك العصر ، ككتاب « الحَيْدة » ، فيه مَجالس من المناقشات الممتعة بين الذين يقولون : إن كلام الله عز وجل مخلوق ، وبين الجمهور الذين يقولون : إن كلام الله تعالى قديم .

وهكذا فإنَّ هذه الفرق سادت ثم بادت عن طريق الحوار ، ولو أنها قُوبِلَت بسلاح العنف والتكفير لانتهى الأمر إلى تمزّق الدولة الإسلامية .

وهذا مِن شأنه أن يَلفت نظرنا إلى ما يَنطوي عليه الإسلام بحدِّ ذاته من عوامل الإقبال إليه والتقبُّل له والاقتناع به ، إذ هو في الحقيقة ليس جملةَ تَصوراتٍ ومواصفاتٍ سلوكية ، تَصلح للقبول والرفض على حدٍّ سواء ، حتى نبحث له عن المؤيدات خارج حقيقته ، كقوة المدافعين

عنه ، وكالمصلحة التي تتحقّق للناس أو بعضِهم في الخضوع له .

وإنما هو جملة مبادىء واعتقادات لها في كيان الإنسان جذورٌ نفسيةٌ وعقليةٌ تبعثه على الإذعان لها واليقين بها ، ما لم تُسدَل غواشٍ وحُجُبٌ من العصبيات والأهواء على تلك الجذور ومكانها من الكيان الإنساني .

إذن فالحقائق الإسلامية لها جُذور مُمتدة إلى كيان الإنسان في كِلا مَظهرَيه النفسي من حيث هو دين الفطرة ، أي دِينٌ يَتفق مع أصول ما فُطِر عليه الإنسان من تطلّعاتٍ وأشواق ، كما يتفق مع موازين العقل والمنطق وأحكامهما .

❊ ❊ ❊

أهم الفرق الإسلامية وما اختص به كل منها من اجتهادات وآراء

تنقسم الفرق الإسلامية التي ذَرَّ قرنُها بعد وفاة رسول الله ﷺ وبعد مرور عهد الخلافة الراشدة إلى قسمين :

أولاً : فِرق سياسية يَعود العامل الرئيسي في خروجها عن سبيل الجماعة ومنهج الاعتدال إلى مسألة الخلافة وما قد يتعلق بها .

ثانياً : فرق اعتقادية يعود العامل الرئيسي في خروجها عن سبيل الجماعة ومنهج الاعتدال إلى مسائل تتعلق بأمور الاعتقاد .

أولاً : الفِرَق السياسية

يدور الجدل الذي ثار حول مسألة الخلافة ـ والتي كانت العامل الأساسي لنشأة هذه الفرق ـ على المحاور التالية :

١ـ هل يَجوز إقامة خَليفتين في وقت واحد ، أم لا بُدّ أن يكون الخليفة واحداً ؟ .

٢ـ هل يتحتّم كونُ الخليفة قُرَشياً ؟ .

٣ـ هل يجب أن يكون من بيت النبوة ، أي من آل بيت رسول الله ﷺ ؟ .

٤ـ هل الخلافة مُستلزمة للعصمة فلا يَنالها إلا المعصوم الذي لم يَرتكب معصية قط ؟ .

والمهم في هذا الصّدَد أن نُلاحظ أن هذا الخلاف وإن كان سِياسياً في مَظهره ، وبالمعنى الذي يَفهمه الناس اليوم ، إلا أنه دِيني في مَنْشئه وأُسُسه ، وليس كما آل إليه الحال اليوم أن يكون الجدل والخلاف في أمرٍ ما دِينياً في مظهره سياسياً في بواعثه وأساسه .

إن مما لا رَيب فيه أن ظُهور هذه الفِرق قَام على عَكس الصورة التي كثيراً ما تُشاهَد اليوم ، فالقناعات الدينية فيها هي الأساس ، والمستلزمات السياسية نتائج وفروع لتلك القناعات الدينية ، فما أهمَّها أمرُ الخلافة حينئذ ، وما نهض أصحابُها بالنقاش أو الجدل حوله ، وما انقسموا منجرّاء ذلك فِرقاً إلا تمحيصاً وتحقيقاً لواجبٍ إسلاميٍّ في تصوُّرِ كلٍّ منهم ، ولكنه بقي في تصوُّراتهم أمراً خاضعاً للنظر والبحث ، لا تتجلّى فيه بواعث الاتفاق على يقين واحد ، فنشأ الاختلاف من جرّاء ذلك فيما بينهم .

وأهم هذه الفرق :

١ ـ الشيعة :

من المعلوم أن نشأة الفكر الشيعي كانت عند تمام البيعة لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه ، ولكنه لم يظهر مذهباً على صعيد المجتمع الإسلامي إلا في أواخر عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه .

أما شأنه فيما بين ذلك فإنما كان وُجهةَ نَظرٍ قامت يوم السَّقيفة ، ثم هدأت وطُوِيَت باستقرار الأمر لأبي بكر رضي الله عنه واجتماع الناس على بيعته ، ولا سيّما عندما بايعه سيدنا علي كرَّم الله وجهه بذاتِه ،

وقد كانت بَيعته له بعد وفاة السيدة فاطمة رضي الله عنها بعشرة أيام ، وقيل بعد وفاة رسول الله ﷺ بثلاثة أشهر ، وقيل غير ذلك .

ويتلخص مَذهبهم الذي يتفقون جميعاً عليه في النقاط التالية :

ليست الإمامة من المصالح العامة التي تُفوَّض إلى نظر الأمة ، بحيث يُعتمَد الشخص الذي تختاره مِن بينِها للنهوض بهذا الأمر ، بل هي ركنُ الدّين وقاعدةُ الإسلام ، وليس من شأن النبي ﷺ إغفالُه ولا تفويضه إلى ما تراه الأمة ، بل يجب عليه أن يُعيّن لهم الإمام من بعده .

لابدَّ أن يكون الإمام معصوماً من المعاصي بنَوعَيها : الكبائر والصغائر .

إن عليّاً رضي الله عنه وكرّم الله وجهه هو الإمام الذي عَيَّنه رسول الله ﷺللأمة مِن بعده .

فهذه النقاط الثلاث محلُّ إجماع منهم جميعاً عليها ، على اختلافهم وتفرُّقهم عن بعضهم بصدد النظر في أمورٍ أخرى .

ثم إنهم لمّا نظروا في أمر الخلافة مِن بَعد علي رضي الله عنه تفرقوا إلى المذاهب التالية :

ـ مَذهبٌ يَرى أن مَساق الخلافة من بعد علي كرّم الله وجهه في وَلَدِ فاطمة بالنصّ عليهم ، واحداً إثر آخر . وأصحابُ هذا الرأي هُم الإمامية ، نِسبةً إلى مَقالتهم باشتراط معرفة الإمام وتعيينه في الإيمان .

ـ ومذهبٌ يَرى أن مساقها في وَلَد فاطمة ، لكن بالاختيار من الشيوخ ، على أن يكون الإمام مِنهم عالماً زاهداً جواداً شجاعاً . وأصحاب هذا الرأي هم اليزيدية ، نسبةً إلى صاحب المذهب وهو زيد بن علي بن الحسين .

ـ ومذهب يَرى أن مَساق الخلافة من بَعد علي وابنَيْه السِّبطَين إلى أخيهما محمد بن الحنفيّة ، ثم إلى ولده . وأصحاب هذا الرأي هم الكيسانية ، نسبةً إلى كيسان مولى محمد بن الحنفية .

ونحن نرى أن مَوضِع النظر والبحث في هذه المسالة قد طُوِي وزال ، فقد عفى الزمن على ما يُمكن أن يَختلف المسلمون حَوله من أمر الخلافة والأحقِّ بها من مجموع الخلفاء الراشدين ، إذ هي مَسألة تاريخية فَصَل الزمن والواقعُ في أمرها .

وحسبُك أن تعلم أن علياً رضي الله عنه ـ وهو موضوع هذا البحث وبطل هذه المسالة وأصلُها ـ قد بايع بنفسه أبا بكر رضي الله عنه واستقرّ الأمر على ذلك .

ووالله الذي لا إله إلا هو ، لو أن علياً كرم الله وجهه اتخذ يوم السقيفة مَوقفاً مستقلاً ، أو اتخذ يوم استخلاف أبي بكر لعمر مَوقفاً مستقلاً ، أو يَوم الشورى التي بُويع على أعقابها لعثمان مَوقفاً مستقلاً ، إذن لَتركنا كُل نَهج واتبعنا نهج علي رضي الله عنه ! ولكن نظرنا فوجدنا هذا الإمام الجليل اندمج في فِكره وسُلوكه مع الكلمة الجامعة ـ مع النهج الإسلامي العام ـ ، فكان لابد أن يقودنا الحب إلى الاقتداء به وإلى سلوك النهج الذي سلكه .

وأنا لا أذهب في تحليلي لهذا الموقف إلى أكثر من هذا الكلام ، حسبي أن أجد علياً رضي الله عنه سار في هذا المنحى لأتبعه ، وآية هذا الذي أقول ـ آية هذا الاقتداء الذي أشعر بضرورته ، وأشعر أن إيماني ينقص وربما يتزلزل ويضطرب إن لم يتحقق هذا الاقتداء بآل بيت رسول الله ﷺ ـ آية ذلك أن علياً رضي الله عنه عندما اتخذ مَوقفاً صريحاً من معاوية أيام الفتنة بعد مقتل عثمان ، وكتب إليه الرسائل ، وأعلن أنه ـ أي معاوية ـ مُنحرف عن الخط خارج عن النهج ، اتجه جمهور المسلمين إلى ما اتجه إليه عليّ رضي الله عنه ، ولعلكم جميعاً تعلمون أن جمهور الفقهاء يُقررون أن علياً هو صاحب الولاية والخلافة بعد عثمان ، وأن صَف معاوية يُشكل البغي(١) ، قرأنا هذا في كتب الشريعة الإسلامية ؛ هذا هو رأي الإمام الشافعي ، وهو رأي الإمام أبي حنيفة ، وهذا هو رأي الجمهور .

أين يكمن الخلاف اليوم إذن ؟

نحن نسير اليوم في الفترة التي يَغيب فيها الإمام المنتظر في اعتقاد الإخوة الشيعة ، وأقول بحق ـ أقول عن نفسي وعن كل مسلم ـ : عندما يَحين ظُهور هذا الإمام الغائب ، وعندما يظهر فعلاً ، لن يَكون هناك أي لَبس على ظهوره ، ولن يكون هناك أي ضَباب أو اضطراب يُغشّي على شخصيته ، وعندما يحين ذلك الميعاد فلسوف تَجدون أن

(١) البغي هو الخروج على إمام المسلمين أو التمرد على شرعية حُكمه بموجب تأويل اجتهادي من الباغي ، وعلى الرغم من أن إمام المسلمين يملك صدّه ومقاتلته اعتماداً منه على اجتهاده المقابل ، فإن الباغي لا يُكفّر ولا يُفسّق لمجرد بغيه .

المسلمين جميعاً قد غَدَوا مَذهباً واحداً ، وأنهم جميعاً يُقَدِّمون الولاء لهذا الإمام ، ويتقدَّمون بالبيعة له ! .

هذا بالنسبة إلى المستقبل المنظور ، وذلك بالنسبة إلى الماضي منذ وفاة رسول الله ﷺ إلى أواخر الخلافة الراشدة ، لا يوجد هنا أو هناك أي خلاف قط .

أفلا ترى أنَّ نَبْشَ هذا الماضي الذي لا تُوجد له اليوم أيُّ ظِلال تَطبيقية ، واتخاذَه مَادةَ تَصديعٍ لِصفِّ المسلمين وبَذرِ أسباب الخلاف بَينهم مِن أعجب الأعمال المُبكِية والمُضحكة بآنٍ واحد ؟

إذن . . . أين بَقي الإشكال الخفي ؟

إن الذي كان ولا يَزال يُفرِّق بين المسلمين إنما هو العصبيات ، العصبيات والأهواء . . . ! .

عندما ينسى الإنسان أن المذهب خادم للمبدأ ، يُضَحِّي بالمبدأ في سبيل المذهب ، وتلك هي ثمرة العصبية الخطيرة في حياة المسلمين ، بل في حياة الجماعات الإسلامية كافة ، ولو أن الناس ـ أو لو أن المسلمين بالأحرى ـ تنبّهوا إلى أن المذهب لا يُبرّر وجوده إلا أن يكون خادماً للمبدأ المتفق عليه ، لحركوا المذهب كما يقتضي المبدأ ، ولسيّروا الفروع كما تقتضي الجذور ، ولتحررنا عندئذ من عصبياتنا ، ولتحررنا من أهوائنا .

وأنا أقول هذا الكلام انطلاقاً من النظر إلى نفسي ، انطلاقاً مما أثبتناه في بعض الأحيان من آراء واجتهادات : إنني عندما أنسى في

كثير من الأحيان أنني مَشدود إلى مبدأ ، وأنني مُكلف برعاية هذا المبدأ ـ والإنسان بشر ـ ، أجد حافزاً خفياً بين جوانحي وقوياً يدفعني إلى أن أنتصر للفكرة التي ناديت بها ، وأشعر أنها قد غدت جُزءاً من شخصيتي وكياني ، بل أشعر أنني مِن مُنطلق الدفاع عن شخصيتي أدافع عن هذه الفكرة ، ولكنني أعود فأذكر المبدأ الذي شَدَّني الله إليه .

وأنا لا أزال أذكر ـ أيها الإخوة ـ كَلمةً أثّرت في نفسي تأثيراً عميقاً ، سمعتها من سماحة الأستاذ محمد مهدي شمس الدين في أحد المؤتمرات التي عُقدت في الجزائر ، عندما قال : « **مهما كانت اجتهاداتنا وآراؤنا ، فيجب ألا ننسى أن علينا أن نَتمسك بحجة سنمضي بها إلى الدَّيَّان يَوم القيامة ، وسيسألنا الله عنها** » ، ألا فلنعلم أنها العمود الفقري في حَلّ كل مشكلة ومعضلة ، نحن سائرون إلى نهاية ، ونهايتنا وقفة بين يدي الله سبحانه وتعالى ، وأمام ذلك المصير ستذوب عصبياتنا ، وتنمحي انتماءاتنا ، ولسوف ننسى ما كنا ندافع عنه ـ ربما ـ من أهواء ورغبات وشهوات ، ونجدنا أمام الحقيقة العارية التي نُدبنا في هذه الحياة إلى الدفاع عنها والتمسك بها ، فماذا نحن قائلون ؟ وبأي مَنطق نُدافع آنذاك عن مواقفنا اليوم ؟ .

إنني أحب لنفسي ـ كلما تبنّيت رأياً ـ أن أضع نفسي من هذا الرأي أمام مقياس ، ومقياسي هو ذلك المصير ، ترى هل أستطيع أن أدافع عن رأيي هذا أمام الله ؟ هل أستطيع أن أمسك بحجة يقبلها الله مني ، سواء كانت هذه الحجة تعتمد على أجرين من اجتهاد مُصيب أو على

أجر واحد من اجتهاد مُخطىء ؟ .

أنا ما قرأت مَرة شيئاً من ترجمة الإمام علي رضي الله عنه إلا وثار بين جوانحي شَجوٌ لا نهاية له ، وأنا أعجب عندما أسمع من بعض الإخوة كلمات تُوحي بشكل مقصود أو غير مقصود أن هذا الحب لا يَعرفه ولم يَذقه إلا بعض من المسلمين ؛ أسعدهم الله دون غيرهم بهذه النشوة ! .

والله إننا جميعاً نَتَحلَّق حول هذا المعين ، ووالله إننا جَميعاً لَنَنهلُ من هذه الكأس ، ولكن هذا الحب يدعونا إلى الاقتداء .

أنا عندما أنظر إلى علي رضي الله عنه وقد اتخذه كل من الخلفاء الثلاثة من قبله مستشاراً بل أميراً له ربما ، أميراً غير متوَّج ، عندما أجد أن أبا بكر رضي الله عنه وقد خرج إلى « ذي القصة » لقتال المرتدين ، وجاءه علي رضي الله عنه فأمسك بزمام فرسه قائلاً ـ وارجعوا للوقوف على هذا النص إلى أي مرجع تاريخي تريدون ـ : « أقول لك يا خليفة رسول الله ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد : لُمَّ سيفك وأَمْتِعْنا بنفسك ،فوالله لئن نُكِبَ المسلمون بك لن تقوم لهم قائمة من بعدك . . . ! » ،فعاد أبو بكر وكلّف باللواء غيره .

ثم أنظر إلى عمر رضي الله عنه إبان خلافته ، وقد استشار هو الآخر علياً رضي الله عنه في أن يخرج بنفسه إلى بلاد الفرس ، فيقول له عليّ رضي الله عنه : « كُن القطبَ الثابت وأَدِرْ رحى الحرب مِن دونِك ، وأَصْلِهم دونك نارَ الحرب ، فإنك إن شخَصتَ من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أقطارها ، حتى يكون ما تَدَعُ وراءك

من العورات أهم إليك مما بين يديك » ، وإنّ أول مَرجع لنا في هذه المشورة الأخوية الرائعة كتاب « نهج البلاغة » .

وعندما أجد نصائحه لعثمان رضي الله عنه وقد أحدق به أولئك الأشرار ، ـ ويستحيل أن تصدر إلا عن قلب مخلص محب ـ ، وعندما أجده وقد أرسل رَيحانتَيه : الحسن والحسين ، ليحرسا عثمان رضي الله عنه ضد أي خَطر قد يتسرب إليه ، عندما أجد هذه المواقف كلها لعلي رضي الله عنه ، كيف أستطيع أن أُعبر عن حُبي له ؟ إنني لا أستطيع أن أعبر عن حبي هذا إلا باتباع خطواته ، إلا بالسير على النهج الذي سار عليه ، ووالله ـ أقولها ثانية ـ لو أن الإمام علياً كرم الله وجهه اتخذ موقفاً مستقلاً في عهد من العهود ، لتركنا كل خَطٍّ دون خطه .

ولكن العجيب الذي لا يَهضمه عَقلٌ ولا تَقبله غَيرة صادقة على الدين الحق هو أن نقوم ونقعد بعد مرور ما يقارب خمسة عشر قرناً على عصر الخلافة الراشدة ، فنجعل من أَحَقِّيَّة علي رضي الله عنه أو غيره مَوضوعَ لججٍ ومسألةَ خلاف ، وحجاب تَفرقة بين الإخوة المسلمين ! .

أما ما وراء الخلافة من المسائل الفقهية الفرعية التي أخذت الشيعة فيها باجتهادات خاصةٍ بهم ، فأمرُ ذلك هَين والخطب فيه يسير ، وإنما المدارُ في كل اجتهادٍ يَنهض به عالم من علماء المسلمين أياً كان أن يكون اجتهاده مُعتمداً على مَدركٍ ودليل من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ، وقد تتلمذ كثيرٌ من أئمة الفقهاء ـ كأبي حنيفة ـ على يد

الإمام جعفر الصادق والإمام محمد الباقر .

إن لكلٍّ أن يَحتفظ لنفسه بالعقيدة التي اقتنع بها مِن هذا الأمر ، وهو مأجورٌ إن شاء الله ، ولكن ليس لأحدٍ مِنهم أياً كان أن يَجعل مِن عَقيدته التي انفرد بها عصا تَفرقةٍ بين المسلمين ، واتهامٍ لمخالفيه بالخروج عن الملة .

في وَقتٍ نُواجه فِيه عَدواً لا يَتربص لا بِسُنِّيٍّ ولا بِشِيعِيٍّ ، وإنما يتربص بهذا الجذع الذي هو الإسلام ، كم وكم حاول العدو الإسرائيلي أثناء حرب لبنان الأخيرة ـ عام ٢٠٠٦م ـ أن يَجعل مشاعر العالم الإسلامي المتوهجة تبرد ويبرد لظاها من خلال إطلاق شائعات بأن هذا النصر ما هو إلا مُؤامرة شيعية ، هذا حَصل وكانت هُنالك أوراق يَتم إسقاطها في أحياء في لبنان تتضمن هذا الكلام .

علينا أن نَعِيَ أنه أمام هذا الخطر الأكبر الذي يواجه جذع الإسلام الواحد لا يجوز أبداً أن نتحدث عن الأغصان المفرّقة ، ـ شيعي ، سُنّي ـ ، إلى آخر ما هنالك من الأطياف الأخرى ، والحرب على سورية اليوم تأخذ أيضاً هذا العنوان .

٢ـ الخوارج :

تعود نشأة الخوارج إلى الحرب المُستَعِرة التي قامت بين عليرضي الله عنه ومعاوية في موقعة صفّين ، فقد دعا معاوية إلى تحكيم القرآن عندما أحس بالهزيمة تُحْدِق به ، فقام في جيش علي رضي الله عنه مِن يُؤَيِّدُ هذا التحكيم ويضغط على علي رضي الله عنه أن

يَقبَله ، فلما خضع عليٌّ للتحكيم ، وقام حَكَمٌ من هذا الطرف وحَكَمٌ من ذاك ، ونجحت الخطة التي كان قد وضعها معاوية للفوز بما يُريد ، عاد أولئك الذين ضَيَّقُوا على علي رضي الله عنه ـ وألجؤوه إلى قبول التحكيم ـ يَلومونه على ما صنع ، وانقلبوا عليه بعد أن كانوا شِيعةً له ، وانحاز عنه مِنهم اثنا عشر ألفاً ، فلحقوا بحَروراءَ ـ وهي قَريةٌ مِن قُرى الكوفة ـ وسُمُّوا بالحرورية لاجتماعهم في هذه القرية وانحيازهم إليها .

روى المسعودي أن علياً رضي الله عنه لمّا قَدِم الكوفة جَعلت الحرورية تُناديه وهو على المنبر : « جزعتَ من البلية ، ورضيتَ بالقضية ، وقبلتَ الدنيّة ، لا حُكمَ إلا لله » ، فيقول علي رضي الله عنه : « حُكمَ اللهِ أنتظر فيكم » ، فيقولون : ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، فيقول علي رضي الله عنه : ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم : ٦٠] .

ولقد كانت بينهم وبين علي رضي الله عنه حُروبٌ لا مجال للحديث عنها ، ثم كان مَقتلُه على يد واحدٍ منهم وهو عبد الرحمن بن ملجم .

أهم المعتقدات التي انفردوا بها :

كان الخوارج يُعانون من ضِيقٍ في التفكير ، وغِلظَةٍ في الطّبع ، وقسوةٍ في معالجة الأمور ، وتعصّبٍ لِما يَرون ،ويعود ذلك إلى أن أكثرهم من الأعراب والقبائل الجافية ،لم يتذوقوا طبيعة الشريعة

الإسلامية ولم يتمرَّسوا بمعرفتها ، فزادتهم عصبيّتهم بلاءً ، وأضافت إلى جهالتهم عناداً .

وقد تمسّكوا ـ مِن دون سائر المسلمين ـ بمعتقداتٍ جعَلتْ لهم مذهباً متميّزاً نجملها فيما يلي :

الخليفة لا تتمّ له الخلافة إلا بمبايعةٍ تامّةٍ صحيحة ، يقوم بها عامة المسلمين لا فريقٌ منهم ، فإذا حادَ الخليفة بعد ذلك عن الحق أياً كان وَجَبَ عزلُه ، فإن لم يُنعزل وجب قتلُه .

جميع الناس في أمر الخلافة سواء ، لا فرقَ في ذلك بين قرشي وغيره ولا بين عربي وأعجمي .

يكفر المسلم في اعتقادهم بارتكاب معصيةٍ ما ، دون أي تفريق بين معصية وأخرى ، صغيرة أو كبيرة ، وحتى لو انزلق إليها خطأً أو بدافعٍ اجتهادي ، ولذا كَفَّروا عليّاً رضي الله عنه بالتحكيم ، مع أنه دخل فيه مُكرَهاً وقَبلَه اجتهاداً .

ثم إنهم يُجيزون ألا يُوجد إمامٌ للمسلمين أصلاً ، إذا اتفقوا فيما بينهم على ذلك وسارت أمورهم دون حاجةٍ إليه .

وقد كانوا يأخذون بظواهر النصوص ، دون أن يُعمِلوا فيها العقل والنظر إطلاقاً ، لذا كان علي رضي الله عنه إذا جادلَهم لم يُحَدِّثهم عن نصوص كتابٍ أو سُنّة ، بل كان يُناقشهم بعمل رسول الله ﷺ ، إذ لا مفرَّ لهم من الاعتداد به والخضوع له .

فِرَقُ الخوارج :

ثم إن الخوارج اختلفوا فيما بينهم في جزئياتٍ شتى ، وكبار فِرَقِ الخوارج التي نشأت على اختلافاتهم تلك ستة هي :الأزارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والعجاردة ، والإباضية ، والثعالبة. . .

وأقلّ هذه الفِرق غُلُوّاً الإباضية ، وهم أصحاب عبد الله بن إباض ، كانوا يَرون أن مُرتكب الكبيرة يَكْفُر كُفْرَ نعمةٍ لا كُفرَ مِلّة ، أي لا يَخرج بها عن المِلّة الإسلامية ، وكانوا يَقولون : إن دار مُخالفيهم مِن أهل الإسلام دارُ توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي .

ثانياً : المذاهب الاعتقادية

١ـ المُعتزِلة :

أصلُ المعتزلة هم أولئك الذين كانوا من شيعة سيدنا علي رضي الله عنه ، فلما تخلى الحسن رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه اعتزلوا الناسَ وانقطعوا لمساجدهم .

ثم إن أفكار الاعتزال التي أُخذت عن قادتهم تَشعَّبَت واختلفت ، فافترق المعتزلة من جَراء ذلك إلى أكثر من عشرين فِرقة . غير أن القاسم المشترك الذي لا بُدّ منه فيمن يُسمى مُعتزلياً يتمثل في القول بالأصول الخمسة ، وهي : التوحيد ، والعدل ، والوعد ، والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وسنشرح فقط اثنين منهما وهما : التوحيد والعدل .

الأصل الأول : التوحيد :

وتوحيد الله دعامة الإسلام والإيمان ، وهو القاسم المشترك بين المسلمين عموماً ، لا فرقَ في ذلك بين فريقٍ وآخر ، غيرَ أن المعتزلة رتبوا على هذه الدّعامة العامة فهوماً وأحكاماً انفردوا بها عن جمهور المسلمين ، وهي :

أولاً : نفيُ صفات المعاني عن الله تعالى ، وهي صفات السّمْع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والكلام والحياة ، ولكنهم نسبوا إلى الله تعالى آثار هذه الصفات ، مِن كونه سميعاً بصيراً عليماً. . . إلخ .أي فهو جل جلاله يعلم دون أن تتحقق له صفةٌ اسمها العلم ، ويقدر دون إسناد صفةٍ إليه اسمها القدرة .

ولا يخفى على المتأمّل ما في هذا الكلام من التمحُّل الذي يَرفضه العقل والعلم ، وحسبُنا أن نقول في ذلك :

١ـ الصفة معنىً لا يتقوّم بذاته ولا وجود له إلا بوجود مَن يتّصف به ، فإذا نسبنا إلى الله صفة العلم مثلاً ، فإن هذه الصفة ليست شيئاً قائماً بذاته ، حتى يستلزم وصفُ الله به القولَ بقديم آخر غير الله عز وجلّ ، يقوم إلى جانبه أو يتلبّس به كتلبُّس الرداء بمن يرتديه ، وإنما هي معنىً من المعاني لا تتجلى إلا في عالِميَّة الله تعالى وكونه عليماً ، وكذلك القول بالنسبة للصفات الأخرى .

٢ـ إن القرآن ـ وهو كلام الله عزّ وجل ـ نَسب إليه سبحانه وتعالى صفة العلم ، بالإضافة إلى وصفه له بكونه عليماً أو عالماً ، فقال جل

جلاله : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، والعلم من صفات المعاني كالسمع والبصر ، وهو نَصٌّ قُرآني جَازم بعكس ما يتصوره المعتزلة ، وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه ذو القوة المتين ، ونسب إلى ذاته صفة القوة فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] ، فإذا أثبت القرآن صفة العلم لله تعالى ، فقد انحلّت المشكلة ولم يَبقَ مُوجب لحجب بقية صفات المعاني عنه .

ثانياً : نفي إمكان رؤية الله تعالى يوم القيامة ، قالوا لأنها تَستلزم صِفة الجِسمية ، وكينونتِه في جهة ، وضرورة أن المرئيّ بالعين إنما يُرى بعد انحصاره بين خَطّي زاوية النظر ، وهما ينافيان ـ على حدّ فهمهم ـ مُقتضيات توحيد الله عزّ وجلّ ، إذ من معاني التوحيد نَفيُ المُماثل والمشابه له .

ولا يخفى أن هذا تَنَطُّعٌ تَأباه قواعد النظر والبحوث ، كما يَتَعارض مع نصوص كتاب الله تعالى ، فمن البداهة بمكان أن قوانينَ أخرى غير القوانين التي تحكم حياتنا وتقلّباتنا اليوم ستتحكم في سيرة الحياة الآخرة بكل ما فيها من تقلبات وأحوال ، ومع ذلك فإن النصوص القرآنية أبرمت هذا الأمر ولم تدَع مجالاً لشكٍّ أو اختلاف فيه ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة ٢٢ـ٢٣] ، وقال جل جلاله عن الكافرين وحالِهم يوم القيامة : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين ١٥] ، ومحجوبيتهم عن الله تعالى يعني مَنعهم من التمتع برؤيته ، وهو دَلَّ كما ـ فهم الشافعي وغيره ـ أنه عز وجل لَمَّا

حَجَبَ قوماً عنه بالسخط دَلَّ على أن قَوماً يَرونه بالرضا .

ثالثاً : زعمُهم أن كلام الله تعالى مَخلوق ، وأنه ليس إلا هذا الذي يَخلقه الله على الشفاه عند قراءة القرآن ، فليس له ما يُسميه الجمهور الكلام النفسي الذي هو عز وجل به آمِرٌ وناهٍ ومُخبِر ، والذي يدل عليه ألفاظ القرآن المتلوّة .

والجواب على ذلك أن الخلاف بينهم وبين أهل السنة والجماعة في هذا الأمر يَؤُولُ إلى خلاف لفظي ، إذ إنهم لا يَنفون مدلول ما يسميه الجمهور بالكلام النفسي بل يُثْبِتونه مثلهم ، ولكنهم لا يَذهبون مَذهبهم في تسميته بالكلام النفسي ، وإنما هو راجع في الحقيقة إلى صفة العلم إن كان مدلولُه خبراً ، وإلى صفة الإرادة إن كان أمراً أو نهياً ، وهم يَرون أن الإرادة والأمر بمعنى واحد .

الأصل الثاني : العدل :

فَهِمَ المعتزلةُ أنَّ العدل بالنسبة إلى الله تعالى يَتوقف على أنه لا يُحب الفساد ، ولا يَخلق أفعالَ العباد ، ولا يَأمرهم بما لا يُريد ، بل يَفعلون ما يَشاؤون بالقدرة التي جَعلها لهم وركّبها فيهم ، فقد استلزم أصلُهم هذا القول بأشياء انفردوا بها ، كالقول بأن العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه ، والقول بأن الله حَيثما أمر العبد بِشيءٍ فَهُوَ لَه مُريد ، فلا انفكاكَ بينهما ، وأنه لا يفعل أو يَخلق أو يأمر إلا بما فيه الصلاح .

وسنبين تَخَبُّطَهُم في هذه التصورات من خلال بيان وَجيز لِحَقيقة كُلٍّ منها :

أولاً : القول بأن العبد هو الذي يخلق أفعال نفسه ، قولٌ أَلْجَؤوا أنفسهم إليه إلجاءً فراراً من أن يَنسِبوا إلى الله خلافَ العدل الذي هو مُتّصفٌ به ، ولم ينتبهوا إلى أن مناط التكليف هو الكسب الذي وهبه الله للإنسان ، وهو الانبعاث الذاتي عن طريق الإرادة إلى الفعل الذي يشاؤه ، فَبِهِ يَستأهل الأجر أو العقاب ، أما الفِعل فيخلقه الله بقدرةٍ تنفيذية تَنبَعِثُ في أعضائه وأعصابه وأوصاله ، تُحقِّقُ ما اتَّجه إليه كَسبُه بمحض إرادته واختياره ، وليس في هذا شَائبةُ ظُلمٍ ولا تَعسُّفٍ أو عبَث .

ألا ترى أن الله تعالى أناط الجزاء الأخرويّ بالكسب أو الاكتساب أكثر من مرة ، فقال : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وقال : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٣] ، وقال : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١١٢] .

ثانياً : قولهم بأن الله لا يأمر إلا بما أراد ولا ينهى إلا عما كَرِه ، فبين أمره وإرادته تلازمٌ لا يقبل انفكاكاً ، وبين نَهْيِه وكراهته تلازمٌ مثلُه .

قرر جمهور أهل السنة والجماعة أن ما يأمر به الله عز وجل ليس دائماً هو بعينه ما يُريده عز وجل ، فقد ينفكّ أحدهما عن الآخر ، فقد أمر أبا جهل بالإيمان ولكنه لم يُرد منه ذلك بدليل أنه لم يؤمن .

تغلبت على المعتزلة النزعة العقلية فكان نصيب اعتمادهم على صحيح المنقول من جراء ذلك ضئيلاً جداً ، بل كانوا يُرون أن مَقاس

الحق قبول العقول له ، فكلُّ ما قَبِلَه العقل فهو الحق الذي يجب المصير إليه ، وكل ما لم يقبَله العقل فهو الباطل الذي يتحتَّم رفضه .

ولو أنهم حكّموا نصوص الكتاب والسنة أولاً ـ ولاسيّما في الأمور الغيبية التي لا سلطان للأدلة العقلية عليها ، ثم تأملوا في تلك الأوهام الفلسفية تأمُّلَ المتبصِّر الناقد ، مُدرِكين بأن للعقل الإنساني حَدّاً لا يستطيع أن يتجاوزه ، فإنْ هو أُكرِهَ على تجاوز هذا الحدّ خاض مِن غيرِ بيّنةٍ واضطرب في مَجهلة ـ أقول لو أنهم فعلوا ذلك لَمَا جرفهم تيارُ هذا الضّياع .

٢ـ المُرجِئة :

لما ظهرت بدعة الخوارج ـ وهي قولُهم بتكفير مُرتكِب الكبيرة ، بل بتكفير مُرتكِب أي ذنب ـ وانتشرَتْ قالَتُهم هذه بين الناس ـ وابتدعت المعتزلة في ذلك قولاً ثانياً وهو الحُكمُ على مُرتكِب الكبيرة بأنه قائم في منزلة بين منزِلَتَي الإيمان والكفر مع خلوده في النار يوم القيامة ، وتلاغطَ الناسُ حول هذا الأمر وجرى الجدل والنقاش فيه ـ قام مَن ينادي برأيٍ ثالثٍ في مسألةِ ارتكاب الكبيرة خصوصاً والمعاصي كلِّها عموماً ، وهم الذين سُمُّوا المُرجِئة .

فما هو الإرجاء ؟

الإرجاء لغةً على معنَيَين ، أحدهما : التأخير ، والثاني : إعطاءُ الرجاء .

أما إطلاق اسم المُرجِئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح ،

لأنهم كانوا يُؤخرون العمل عن النية والقصد .

وأما بالمعنى الثاني فظاهرٌ ، فإنهم كانوا يقولون لا تضرّ مع الإيمان معصيةٌ ، كما لا يَنفع مع الكفر طاعة .

والمُرجِئة فريقان :

فريقٌ يرى أنه لا يَضرُّ مع الإيمان ذنبٌ ، ولا تنفع مع الكفر طاعة . والإيمان عند هذا الفريق هو المعرفة بالله ، والخضوع له ، وترْكُ الاستكبار عليه ، والمحبةُ له بالقلب . فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن ، وما سوى المعرفة من الطاعات فليس من الإيمان ، ولا يضرُّ تركُه حقيقةَ الإيمان ، ولا يُعذَب على ذلك إذا كان الإيمان خالصاً واليقين صادقاً . أما المعاصي فلا تَستوجب العذاب يوم القيامة إذا كان مُقترفُها مُؤمناً بالله عزّ وجلَّ .

وفريقٌ يَرى أن أَمر مُرتكب الكبيرة مُرجَأٌ إلى الله عزّ وجلَّ ، فقد يغفر له وقد يأخذه بجريرةِ ذنبه . ولا يُشَكِّلُ رأيُ هذا الفريق مذهباً مختلفاً عما عليه سوادُ الأمة وجمهور المسلمين مِن أن العاصي أمرُه مُفوَّضٌ إلى الله عزّ وجلَّ ، قد يتوب عليه وقد يعفو عنه .

نقد عقيدة الإرجاء :

إن نصوص القرآن الجليّة والأحاديث الكثيرة الثابتة تَنقُضُ أقوالَ المرجئة ، وتثبت عكس ما يزعمون ، من ذلك قوله عزّ وجلَّ : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٦] ، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ

ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء : ١٠] ، وقوله جلّ جلاله على لسان المؤمنين إذ يخاطبون أناساً يُساقون يوم القيامة إلى العذاب : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدّثر : ٤٢-٤٧] ، وقوله جلّ جلاله : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون : ١-١٠] .

فالله تعالى فتح احتمالَ كُلٍّ من المغفرة والعقاب للعُصاة ، وهو يتنافى مع الجزم بأن المعصية مع الإيمان لا تضرّ ، أما الآيات الأخيرة فهي نصٌّ قاطعٌ وكأنما أُنزل للرد على أوهام المرجئة .

فأنت ترى أن الله قيّد فلاح المؤمنين يوم القيامة بشرطٍ لا بُدَّ مِنه هو أداؤهم الطاعات التي أُمروا بها وانتهاؤهم عن المعاصي التي نُهوا عنها ، ومعنى ذلك أنه إذا فُقِد شرطُ انضباطِهم بتلك الأوامر والنواهي فلا فلاح لهم يوم القيامة ، بل يتناقص فلاحُهم بنسبةِ المعاصي التي ارتكبوها والطاعات التي أعرضوا عنها .

* * *

ما هي العوامل التي أدت إلى زوال هذه الفرق

زالت هذه الفرق بسببين اثنين :

السبب الأول : دخول الفلسفة الإغريقية بشكل نظامي إلى ساحة المكتبة الإسلامية عن طريق الترجمة والدراسة النَّقدية الحرّة ، وقد تم ذلك في صدر الخلافة العباسية ، فقد فتح الخلفاء في ذلك العصر الأبوابَ أمام الفلسفة اليونانية وأَذِنوا لها بالدخول جهراً إلى رحاب الفكر الإسلامي بعد أن تبدَّد عصر الانبهار بها وأخذت الرؤية الفكرية تتناسق وتعود إلى شأنها الطبيعي ، وهو الأمر الذي أتاح للعلماء أن يضعوا التراث اليوناني بجملته تحت مجهر الدراسة والنقد بثقةٍ وهدوء وبعيداً عن عوامل الانبهار ومؤثّرات الشعور بالنّقص .

ولقد كانت النتيجة أنْ تمرَّس هؤلاء العلماء بأصول الفلسفة اليونانية ومنطقها بعد أن درسوا المصادر التي يستقي منها الزنادقة وتجارُ الشبُهات حُججَهم وصناعتَهم الجدلية ، كي يجادلوهم بمِثلِ حُججِهم ويُظهروا لهم وللناس الآخرين تَهَافُتَها وبُطلانُها ، أو يُبيِّنوا لهم عَدم دَلالتها على ما يَزعمون من باطل ، فَكشفوا بهذه الأصولِ ذَاتِها زغَل كثيرٍ من فروعها ونظرياتها ، وميّزوا بالبراهين العلمية سرابها الوهمي عن شرابها الحقيقي ، ثم عادوا فصهروا حقائقها هذه في بوتقة المنهج العلمي الذي كان العلماء المسلمون قد اكتشفوه للتوّ . ولا نزال

نذكر في مقدمة هؤلاء العِظام كُلاً من أبي بكر الباقلاني ، والإمام الغزالي ، وفخر الدين الرَّازي .

وهكذا يتبين لنا جَميعاً أن بِضاعة الفكر والمعرفة شأنُها كبضاعة المال تماماً ، تُفسد سبيل العلم وتشوِّش على موازين العقل ، كلما دخلت تهريباً عن طريق النوافذ أو الأبواب الخلفية ، ولا يقضي على هذا الفساد إلا أن تُفتح الأبواب الطبيعية أمام تلك البضاعة لتدخل تحت أعين الناظرين والرقباء ثم لتستقرَّ فوق مِنصة الدَّرس وتحت مَجهر الفحص والنقد .

السبب الثاني : ظُهور إمامَين جَليلَين في غمرة الصراع الفكري المحتدم بين الفرق ، **هما أبو الحسن الأشعري** ، **وأبو المنصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي** ، فقد جمعهما على اختلاف ديارهما مُقاومةُ الفكر الفلسفي الذي تَسلل إلى المجتمع الإسلامي عن طريق المعتزلة وذيولها وفروعها الكثيرة .

فقد قيض الله مِن كُلٍّ مِنهما مُدافعاً عن الحق الذي اجتمع عليه سَواد الأمة ، فكشف عن زيف الانحرافات التي انجرف إليها المعتزلة ، وأوضح مَدى ضلالهم في الابتعاد عن ضوابط النصوص الثابتة ، واعتماد الأغلوطات الفلسفية بديلاً عنها .

وقد أعان الإمامَ الأشعري على ذلك عَلاقته السابقة بالمعتزلة ، فقد كان مُعتزلياً في أول أمره ، تمرّس بدراية أفكارهم ومعرفة أساليبهم في الجدال والنقاش ، وأقبل مثلهم إلى علوم الفلسفة ودرس الكثير منها ، ولكنه تَبرأ بعد ذلك مِنهم وأعلن تَوبته من اعتناق أفكارهم ، ثم

انتصر للحق الذي كان عليه سواد الأمة الإسلامية إلى ذلك العهد وفي مقدمتهم المحدّثون والفقهاء .

ما المنهج الذي ألزم الإمام الأشعري نفسه به وسار عليه ؟

بوسعنا أن نَستخلص المنهج الذي ألزم الإمام الأشعري به نفسه مما دَوّنه في كتبه التي وصلت إلينا ، مثل : « مقالات الإسلاميين » و« الإبانة » و« رسالة إلى أهل الثغر » وغيرها ، ونلخصه فيما يلي :

أولاً : إنه يرى أن دور العقل أمام مصدري القرآن والسنة يتمثل في الكشف عن أنه كلام الله وأن محمداً عبده ورسوله ، ثم يتمثل في إدراك مضامينهما وتجلية الغوامض منهما ، وإزاحة غواشي اللبس عنهما ، كما يتمثل في دعم كل ما قرره بيان الله أو سنة رسوله بالبراهين العقلية .

فالعقل إذن عند الأشعري خادم لنص القرآن وصحيح السنة ، وما ينبغي أن يكون حاكماً عليه ، بل إنه يرى أن تسليط العقل على القرآن أو السنة بالحكم عليه لصالحه ـ أي لصالح العقل ـ يفقد العقل وظيفته عن طريق تحميله لما ليس من شأنه أن يحمله ، إذ إن نُصوص القرآن والسنة لا تتضمن من المعاني إلا ما يَتفق مع موازين العقل ، سواء ظهر لنا ذلك أم لم يَظهر ، والقول بخلاف ذلك ولوغ في الكفر الصريح .

إذن فتسليط الاجتهادات العقلية على أيٍّ مِن نُصوصهما بحكم التغيير والتأويل المجانِفين لقواعد اللغة والدلالات ليس في الحقيقة

إلا إقصاء للعقل عن وظيفته ، وإنْ أَوْهَم في الظاهر أنه خضوع لسلطانه .

ولقد عبّر الأشعري عن مبدئه هذا بقوله في أكثر من موضع في كتابه« مقالات الإسلاميين » : « ولا نقدم بين يدي الله في القول » أي لا نتجاوز كلام الله إلى ما قد يخالفه من أحكام عقولنا ، لا لأننا نُغلب سلطان النقل على العقل ، بل لأننا نَتهم أنفسنا بالتنكب عن معرفة قرار العقل ، في كل ما نُخالف به قرار النقل الذي هو نَص القرآن وصحيح السنة .

ثانياً : لم يكن يتبسط في ممارسة علم الكلام على النحو الذي نراه في صنيع كثير ممن جاؤوا من بعده ، وإنما كان يعود إلى مسائله كلما اضطره الأمر إلى الرد على المتشدقين والمتجمّلين بها ، من المعتزلة والحشوية والقدرية وأضرابهم . ولقد كانت له قدم راسخة في العلوم والمسائل الفلسفية التي ولع بها المبتدعة من أولي الفرق الجانحة ، فكان ردّه عليهم بأدلتهم من الواجبات الداخلة في القاعدة القائلة : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب » . روى ابن السبكي أن الأشعري كان لا يتكلَّم في علم الكلام إلا حيث يجب عليه نصراً للدين ودفعاً للمبطلين .

ثالثاً : يرى ضرورة الاستدلال بالحديث الصحيح ، متواتراً كان أو آحاداً ، والأخذ بما كان يراه أصحاب رسول الله ﷺ ، يقول في كتابه « الإبانة » : « ونسلم الروايات الصحيحة عن رسول الله ﷺ ، التي رواها الثقات عدل عن عدل حتى تنتهي الرواية إلى رسول الله ﷺ ،

ولكن الكُفرَ لا يَكون إلا بإنكار ما هو مُتواتر ومعلوم من الدين بالضرورة ، ويرى أنه لا يَنسخ القرآنَ إلا القرآنُ ، ولا ينسخ السنة إلا سنة مثلها ، فإن وجدت سنة نسخت قرآناً فلا بُدّ أن تَجدَ مع السنة قرآناً يؤيدها ، وإن وجدت قرآناً نَسخ سُنة فلا بُدّ أن تجد مع القرآن سنة تؤيده » ، وهو يَذهب في ذلك إلى مثل ما ذهب إليه الشافعي .

رابعاً : يرى الإمام الأشعري أن أسماء الله تعالى وصفاته يُعتمد فيها على النقل من الشرع ـ أي النص ـ ، ولا يجوز الاتباع فيها لأقيسة اللغة ، يقول : « إن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي دون القياس اللغوي ، فأطلقت حكيماً لأن الشرع أطلقه ، ومنعت عاقلاً لأن الشرع منعه ، ولو أطلقه الشرع لأطلقته » .

خامساً : يُقرِّر الإمام الأشعري أن كل ما هو داخل في المتشابه من آيات الصفات والأفعال ، يجب فَهمه على ظاهره وتفسيره بمعناه الحقيقي دون كيف ، ولا يجوز إخراج شيء منه إلى المجاز ، إلا عند وجود حجَّة تدعو إلى ذلك ، فمن تطبيقات هذا المنهج ما قرره الإمام الأشعري متّبعاً في ذلك جمهور المسلمين ـ أهل السنة والجماعة ـ من « أن الله سبحانه يُرى بالأبصار يوم القيامة ، كما يُرى القمر ليلة البدر ، يَراه المؤمنون ولا يراه الكافرون » ، وقرار الأشعري هذا مستند إلى حكم العقل القاضي بأن محمداً رسول الله ﷺ وأنه صادق فيما قال عن نفسه مِن أنه يُوحى إليه من قبل الله بشرع وأنباء ، والأدلة العقلية على ذلك مبسوطة في أماكنها ، ثم أصغينا إلى هذا الذي يقوله وحياً من عند الله ، فإذا فيه قوله عز وجل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا

نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة : ٢٢ـ٢٣] ، وإذا فيه قوله عن الكافرين عقاباً لهم : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] ، فكان من قرار العقل تصديق هذا الذي جاء وحياً من عند الله .

إن العقل بعد أن قرر أن القرآن كلام الله الموحى به إلى رسوله ﷺ ، لا بدّ أن يجزم بصحة ما ينطق به كلامه ، إذ مما لا ريب فيه أن الله قادر على أن يمتّع عباده برؤيته بأبصارهم ، وها هو قد وعد بذلك ، وإخراج الكلام بعد ذلك عن حقيقته الدالة على هذه الرؤية إلى المجاز الذي ينفيها ، مشاكسة لكل من العقل والنص معاً .

والخلاصة أن الإمام الأشعري يبدأ رحلته العلمية مع العقل ، ثم إن العقل يُسلمه إلى النص الذي أيقن أنه كلام الله أو كلام رسوله ﷺ ، ثم إنه يستعين بالعقل للوقوف على مضامينه ومعانيه ، متخذاً من قواعد الدلالات العربية مِفتاحاً لبلوغ ذلك ، وهذا هو الأمر الموجه من الله إلى عباده أن يتعاملوا مع العقل في كل ما يُدْعَوْن إليه ، وصدق الله القائل : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء : ٣٦] .

ومن نماذج هذه التطبيقات التزامه الدقيق بما قرره في منهجه الذي لخصناه ، من أخذه بمصطلحات القرآن وعدم تجاوزه لها ، ألم يقل : « ولا نقدم بين يدي الله في القول » ، وقد علمنا أنه ألزم نفسه بذلك مخافة أن يُوقعه التجاوز في الزغل ، فيتنكب بذلك عن قرار العقل ذاته ، إذ إن نص البيان الإلهي هو المصباح الهادي إلى قرار العقل عندما يَكون صافياً عن الشوائب .

النتائج التي أفرزها دفاع الإمام الأشعري عن العقيدة الإسلامية التي تركها رسول الله ﷺ من بعده نقية صافية ظاهرها كباطنها لا يتيه عنها إلا زائغ ، والتي اجتمع على التمسك بها أهل السنة والجماعة ، سواء منها ما ظهر في عصره أو برز من بعده .

فكان من أبرز النتائج لهذا الذي وفّق الله له أبا الحسن الأشعري ـ من وقوفه الجهاديّ ضد المبتدعة وتياراتهم الفكرية التائهة عن هدي القرآن والسنة ، وانتصاره للحق الذي ترك رسول الله ﷺأصحابه عليه ـ أن خمدت جذوة تلك الفرق ومُنيت بالهزيمة الفكرية ، وفي مقدمتها المعتزلة الذين أتيح لهم أن يَهيمنوا على الفكر الإسلامي ردحاً من الزمن ، فبادت تلك الفرق شيئاً فشيئاً بعد أن سادت ، ولم يكن سبيل ذلك خنقاً للحريات ولا إسكاتاً للألسن ولا تجريماً للأفكار ، وإنما كان سبيلُ ذلك الحوارَ العلميَ المتحررَ عن أسبقيات العصبيات المذهبية والأحقاد النفسية والمغانم الدنيوية . وشاء الله تعالى أن يَكون أبو الحسن الأشعري هو رائدَ الحوار ، وهو قائدَ الدعوة إلى تحكيم العلم ، والرجوع إلى هَدْيِ القرآن والسنة ، فكان في إقبال أئمة التفسير والحديث والفقه وأتباعهم عليه وفي دعمهم له وسيرهم وراءه ما أعاد منهج أهل السنة والجماعة وتيارهم إلى البروز وفاعلية الحكم والتوجيه .

بعد هذا الذي أوضحناه هل يُمكننا القول أن الإمام الأشعري كان مُنشئاً لفرقة إسلامية في العقائد جديدة ؟!

الجواب عن هذا يتبين في حديث الأشعري نفسه والمراجع التي

يَعتمد عليها ، ثم لا يخرج عنها في مسائله التي يتبناها ويدافع عنها .

إنه يعرض في كتابه « مقالات الإسلاميين » لآراء كثير من الفرق في كثير من المسائل ، ثم يُفرد فصلاً عنوانه : « وهذه حكاية جملة ما عليه أصحاب الحديث وأهل السنة » ، ويعرض فيه عقائد أهل السنة والجماعة في تلك المسائل كلها مأخوذة من صريح القرآن وصحيح السنة ، ثم يقول : « وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول ، وإليه نذهب ، وما توفيقنا إلا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه المصير »[١] .

كما يتبين الجواب عن هذا السؤال أيضاً فيما اجتمعت عليه كلمة الأئمة والعلماء الذين جاؤوا من بعده ، فقد أجمعوا على أنه لم يَبتدع مَذهباً ولم يُنشىء فرقة جديدة أضيفت إلى الفرق التي وجدت ثم تكاثرت في عصر التابعين ، وهو ذاته ما أجمع عليه عُلماء الحديث والتفسير وأئمة الفقه في عصره .

يقول ابن عساكر ناقلاً عن الشيخ أبي القاسم القشيري ما نصه : « اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري ، كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث ، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ، وردّ على المخالفين من أهل الزيغ والبدع »[٢] .
ويقول ابن السبكي[٣] : « اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأياً ولم يُنشىء

(١) كتاب « مقالات الإسلاميين » ، ص٢٩٧ ، طبعة جمعية المستشرقين الألمانية .
(٢) كتاب « تبيين كذب المفتري » ص١١٢ و١١٣ .
(٣) كتاب « طبقات الشافعية » ٣/ ٣٦٥ .

مذهباً ، وإنما هو مُقرِّرٌ لمذهب السلف ، مُناضل عما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ ، فالانتساب إليه إنما هو بأنه عَقَدَ على طريقة السلف نِطاقاً وتمسك به ، وأقام الحجج والبراهين عليه ، فصار المقتَدِي به في ذلك ، السالك سبيله في الدلائل يُسمى أشعرياً » .

وعلى الرغم من وضوح هذه الدلائل كلها ، وعلى الرغم من تعريف الإمام الأشعري ذاته بنفسه ، وتأكيده المتكرر بأنه إنما يقول في مسائل العقيدة كلها بما يَقول به أصحاب رسول الله ﷺ وأصحاب الحديث وأهل السنة ، فإن في الناس من يُصرّون ـ لأمر ما ـ على أنه هو الآخر كان صاحب فرقة ومنشىء مذهب ، ومبتدعاً لرؤىً فكريةٍ وفلسفية ، ويبدو أن هؤلاء الناس مُتلبّسون بما يتهمون به الإمام الأشعري ، ولا ريب أنهم يتبعون في هذا الذي يذهبون إليه ويصرون عليه ، جماعة المستشرقين الذين طاب لهم أن يَنصرفوا إلى دراسة الفرق الإسلامية وتاريخها .

فالإمام الأشعري لم يبتدع لنفسه مَذهباً ولا رأياً في الدين ، بل لفت نظره ـ وقد أمضى شطراً من عمره وهو يتبنى أفكار المعتزلة ـ ما يعتقده أهل السنة والحديث ، ومعهم الفقهاء المشتغلون بدراسة أحكام الشريعة في مسائل أصول الدين ، موروثةً لهم من جيل التابعين الذين ورثوها من عهد الصحابة رضوان الله عليهم ، ونظر فرأى جمهرة علماء المسلمين وسوادهم على ذلك النهج يسيرون وبتلك المعتقدات يتمسكون ؛ غير أن ظهور تلك الفرق الأخرى بخصوماتها ومجادلاتها وانتصار كل منها لأفكاره ؛ صرف كثيراً من الأسماع والأفكار إلى

ضجيج تلك الخصومات والمناقشات ، حتى عادت عقيدة أصحاب رسول الله ﷺ وجمهرة المسلمين من بعدهم مغمورة داخل تلك الصراعات ، وأصبحت أشبه ما تكون بالجادة العريضة التي تكاثرت عليها الأتربة والحجارة والرمال ، حتى ضاعت على الناس معالمها وتاهوا عن حدودها .

فكان عمل أبي الحسن الأشعري محصوراً في إزاحة ذلك الركام عن تلك الجادة العريضة ، وإبرازها جلية أمام الأنظار ، ومن ثم تنبيه الناس إلى ضرورة اتباع ما عليه جماعة المسلمين منذ عصر النبوة ، مدعوماً بنصوص الكتاب والسنة ، وذلك تنفيذاً لوصية رسول الله ﷺ من بعده باتباع الجماعة والتحذير من الشرود عن جادتها العريضة إلى السبل التائهة المتعرجة التي نهى عن الشرود إليها بيان الله عز وجل القائل : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

في الناس من يقول : فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا تُنسب عقيدة الصحابة والسلف وجمهرة المسلمين إلى شخص الإمام الأشعري ؟ ولماذا يُنسَبُون جميعهم إليه فيقال عنهم : « الأشاعرة » ؟ وربما نُسِبوا إليه وإلى أبي منصور الماتريدي فقيل عنهم الأشاعرة والماتريدية ؟

والجواب : أن الإمام الأشعري هو الذي قام ـ من دون بقية علماء السنة والفقه ـ بالدفاع عن عقائدهم والتدليل عليها ، وتزييف ما يخالفها من بدع الفرق الأخرى ، فانتشر اسمه بذلك في الآفاق ،

وتواردت عليه المسائل من أقطار العالم فأجاب عنها ، وعمّت جهوده العلمية ـ التي سمّيت بمذهب أهل السنة والجماعة ـ بلادَ العراق وخراسان والشام وبلاد المغرب ، وتجاوزتها إلى أقصى بلاد أفريقية ، فمن أجل هذا ارتبطت عقائد السلف ـ أهل السنة والجماعة ـ باسم الإمام الأشعري ، بل إن كل العلماء الذين كانوا في شغل شاغل عن الالتفات إلى خصومات الفرق وأفكارهم المتضاربة ـ لانصرافهم إلى ما هم بصدده من خدمة السنة أو التفسير أو الفقه وأصوله ـ أحدقوا بهذا الذي جاء نصيراً للقرآن والسنة وعقيدة السلف ، وشدّوا من أزره وانتسبوا إليه . ويذكر العز بن عبد السلام أن أتباع المذاهب الأربعة يَدينون بالعقيدة التي تُنسب إلى الإمام الأشعري ، فمنهم كافةُ المالكية ومعظم الشافعية والحنفية وكثير من الحنابلة ، ومن لم يَكن من هؤلاء من أتباع الإمام الأشعري ، فهم من أتباع أبي منصور الماتريدي ، كقسم من الحنفية وبعض الشافعية .

أقول : والخلاف بين الإمام الأشعري والإمام الماتريدي محصور في مسائل جزئية اجتهادية ، وقد عني كثير من العلماء بجمع نثارها ، فحصرها بعضهم في عشر مسائل ، وجمعها ابن السبكي في ثلاث عشرة مسألة وقال : « منها معنوي : ست مسائل ، والباقي لفظي ، وتلك الست المعنوية لا تقتضي مخالفتهم لنا ولا مخالفتنا لهم تكفيراً ولا تبديعاً ، صرّح بذلك أبو منصور البغدادي وغيره من أئمتنا وأئمتهم » .

وأقول : لولا حاجز المسافة المكانية الشاسعة بين الإمامين ،

لأحالت المذاكرة والمناقشة بينهما الخلاف في هذه المسائل البسيطة إلى وفاق .

ما هو حكم الإسلام تجاه الفرق التي جَدّت اليوم أو التي تَمُتُّ بصِلةٍ إلى القديمة ؟

الإسلام الذي أفتى بحُرمة تكفير تلك الفرق بالأمس هو ذاتُه الإسلام الذي نَخضع له ونتعامل معه اليوم ، والموقف الذي تُلزِمنا به الشريعة الإسلامية تجاههم هو التالي :

كلُّ مَن حكم لنفسه بأنه مُسلم وشهد شهادة الإسلام لا يَستطيع أحد من أهل الأرض أن يُصَحِّحَ عقيدته في حقِّ نفسه ، لا الرسل ولا الأنبياء ولا غيرُهم ، فلا يملك أحدٌ أن يُكفِّر أحداً شهد لنفسه شهادةَ الإسلام ، بل الإنسان هو الذي يحكم على نفسه ولنفسه ، والله تعالى يقول : ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء : ٩٤] ، فكلُّ مَن حكم لنفسه بمُعتَقَدٍ من المعتقدات فهو أميرُ نفسه .

معتقداتهم التي يَتبَنَّونها لا يَجوز أن نَتعامل معها إلا بما ظهر لنا ، فلا يَجوز لنا أن نتجاوز الظواهر إلى البواطن الخَفِيّة ، بل نَقف في فَهم مُعتَقدهم وبناءِ الحُكم عليه أمام ظاهرِ ما تنطق به ألسنتُهم ، لأننا لو حَاوَلنا أن نَشَمَّ ما في طوايا النفوس لوقعت الظِّنَّة بيننا جميعاً ، فكما أنني أسمح لنفسي أن أظن بغيري سيظن غيري بي ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يعامل الناس بما ظهر منهم .

التعليمات التربوية التي ربّانا عليها القرآن من خلال آيات كثيرة هي أن نُحسن الظن بمن رحل إلى الله عزّ وجلّ ، فإن مَرَّ إنسان بمرحلة ما مِن حياته بالكفر والفسوق ثم قَضى نَحْبَه ، يجب أن نَفترض أنه في آخر حياته هُدِي إلى صراط الله سبحانه وتعالى ، ومات مؤمناً مُصطَلِحاً مع ربه ، يجب أن نَعتقد ذلك ما لم نَشْهَده ونَسمعه تَلفّظ بكلام الكفر عند الوفاة .

وإذا وُجدت دلائل على أن هذا الإنسان التفتَ إلى ربه التفاتةَ توبة ، فيجب أن نظن به خيراً مهما كانت هذه الدلائل بسيطة ، فالله تعالى له رحماتٌ عجيبة مخبوءة إلى دُنوِّ الأجل ، فإذا دنت ساعة رحيل الإنسان يُريه الله تعالى ما يَجعله يَتوب ويؤوب بعد أن قَضى عُمره تائهاً .

وهناك نماذج لأناسٍ تائهين وربما تلفظوا بألفاظ الكفر ، إلا أن لهم أعمالاً صالحة كرعاية الأسر الفقيرة أو نحو ذلك ، فالباري عزّ وجلّ يختبئها لهم ، حتى إذا اقتربت ساعة الموت امتلأ القلب رضاً عن الله ، ورحل الواحد منهم إلى الله طاهِراً مُطهَّراً .

الفرق الإسلامية أياً كانت لا يجوز لنا أن نَجعل منها ورقة في أيدي أعدائنا لِتَصيرَ قُنبلةً مَوقوتةً يتهددوننا بها ، فنحن مع الأسف نَعيش في عَصر أصبحت فيه مسألة التكفير سِلاحاً حَديثاً يُستعمل لتمزيق وحدة الأمة .

إنّ وحدة الأمة أساس مقدس ، بل إني لا أعتقد أن الإسلام جاء لتحقيق هدف من الأهداف أجلّ وأخطر من تحقيق وحدة الأسرة

الإنسانية. . . إن الإسلام جاء ليوحّد الأمم والقبائل والشعوب الإنسانية المتفرقة .

وإنني لأتصور أنه كلما كان سلوك المسلمين وتوجهاتهم الإسلامية مُحَقِّقَين لهذه الغايةفإن سلوكهم سليم وصحيح ، وكلما كانت أنشطتهم الإسلامية تَسير في نقيض هذا الطريق ، وتبعثهم على التفرق والشتات فإن سلوكهم منحرف وغير صحيح .

وإني لا أزال أتساءل : أيعقل أن يكون الإسلام الذي وحّد بالأمس القبائل المتخاصمة والمتعادية ، هو الإسلام ذاته الذي يُفرق ويُشتت اليوم الأمة المتضامنة الواحدة ؟!إنني لا أستطيع أن أتصور أن هذا الإسلام الذي نمارسه اليوم هو ذاته الذي مَارسه سلفنا وأجدادنا بالأمس ! .

وحدة الأمة هي القطب الذي تَدور عليه رحى الإسلام أجمع ، إذن ينبغي أن ننطلق من هذا الأساس .

أما ما يتعلَّق بأصول الإسلام ومبادئه الكلية التي لا خلاف فيها اليوم ـ ولم يقع فيها أي خلاف بالأمس ـ فلا نتوقف عند شيء منها ، بل لا يوجد أي إشكال فيها .

فإذا كانت وحدة الأمة هي الأساس الأقدس ـ بل هي الهدف الأسمى الذي تدور عليه أحكام الإسلام العلمية والعملية جميعاً ، فإن قداسة هذا المبدأ تتجلى في هذا العصر أكثر من أي عصر آخر مضى ، وإن أهمية الوصول إلى هذا الهدف الأقدس تدعونا إلى أن نجند كل الطاقات ، وأن نُضحي بكل آرائنا الاجتهادية في سبيل الحفاظ على هذه الوحدة أو استعادتها .

من أين ، وكيف أشعر بهذا المعنى ؟

أشعر بهذا المعنى عندما أجد أن أعداءنا لا يرهبون فينا قوة مادية ، ولا كنوزاً من مدخرات الأرض وخيراتها ، ولا يرهبون فينا فكراً اجتهادياً ولا ماضياً حضارياً أفل نجمه ، ولكنهم يخافون من شيء واحد . ! يخافون أن تلتقي هذه الأمة على نهج واحد كما التقت بالأمس ! .

يزداد شعوري بقداسة هذه الغاية وضرورة الجهاد في سبيلها ، وأهمية التضحية بكل شيء من أجلها ، عندما أُصغي إلى الهمس بل إلى الكلمات الصارخة التي لم تعد همساً ، الكلمات الصارخة التي تصك آذاننا من أعداء الإسلام صباح مساء ؛ إن العدو الأوحد للغرب والشرق غدا الإسلام .

ولعلكم جميعاً تَعرفون الكلمة التي بَثتها إذاعة لندن باللغة العربية يوم الثالث من شباط من عام ١٩٩١م ، في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة بتوقيت دمشق ، على لسان الصحافة البريطانية نقلاً عن « تاتشر » ، وهي قولها : « لقد كان أمام الغرب عدوان اثنان : أحدهما « الشيوعية » والثاني « الإسلام » ، وقد انهار صرح الشيوعية دون أن يُقدم الغرب خسائر تذكر » .

هكذا يقولون . . . فماذا نحن فاعلون ؟

* * *

الخاتمة

فإن رأيت مع هذا من يظل متشبثاً بآراء طائفة من السلف دون غيرهم مُصراً على أنها دون غيرها هي الحق الذي يجب اتباعه ، وأن المخالفين لهم في هذا التشبث والقرار مارقون مُبتدعون ضالون ، فَكُن على يقين بأنّ هؤلاء الناس يضلّلون السَّلَف قبل الخلَف ، وبأنهم خرجوا أول ما خرجوا على خطة السلف أنفسهم من حيث زعموا أنهم منتسبون إليهم سائرون على منهجهم !فإن عجبتَ لمن يقع في هذا الالتواء الواضح المكشوف دون أن يتبيّن التواءَه ، فاعلم أن ذلك هو شأن الهوى عندما يتحكّم بالإنسان ، وتكون إليه قيادته في الفكر والسلوك ، وهو ما نعبر عنه بالعصبية للذات ، إذ تأتي مُغَلَّفَة بغلاف البحث عن الحقّ والغِيرة عليه ! .

والخلاصة أن خلافاً مُستشرياً كالذي يَجري اليوم بين بعض المسلمين ، قد ذَرَّ قرنه في حقبة من عصر السلف ، غير أنهم تداركوا أنفسهم فاستخرجوا المنهج الذي ألمحنا إليه ، واجتمعت عليه كلمتهم ، فذابت وانمحت خلافاتهم في المسائل والقضايا الواضحة التي لا تخضع لاجتهاد ، وبقيت اختلافاتهم في جزئيات المسائل الاجتهادية أغصاناً مُتفرّعة عن جذع راسخ واحد ، لا تُعكر عليهم صفوَ الاتحاد ، ولا تُفرّقهم في متاهاتِ سُبُلٍ أو جماعات ، والدواء الذي يُصلح حالَ المسلمين تجاه هذه المشكلة التي نعاني منها ، هو

الدواء ذاته الذي استعمله السلفُ لقريبٍ من المشكلةِ ذاتها .

فمن كان محبّاً للسلف حقاً حريصاً على الاقتداء بهم ، فليهرع إلى هذا الدواء الذي استحضره لنا هؤلاء السلف رضوان الله عليهم ، وليستعملوه كما استعملوه ، وإذا الشقاق زائل والشملُ مجتمع والكلمة واحدة ، وقد عرفنا أن الدواء هو المنهج المتمثل في قواعد تفسير النصوص .

والله المستعان أن يقينا فتنة العصبية الرعناء ، وأن يحررنا من حظوظ أنفسنا ، إنّه نعم المولى ونعم الوكيل .

❊ ❊ ❊

من فقه الأزمة (٧)

ممارسات بحق المرأة
يرفضها الإسلام

المحتوى

مقدمة البحث ٤٠٩
كيف ينظر بعضهم إلى المرأة ؟ ٤١٣
الميراث والمهر ٤١٩
فوضى تعدد الزوجات ٤٢٥
التحيز في الهدايا والأعطيات ٤٣١
مشاطرة الزوج زوجته في مالها ٤٣٦
كل ما عدا الوجه والكفين من المرأة عورة ٤٤٩
تحقيق العلماء في الوجه ذاته ٤٥٠
محل ونتيجة الخلاف ٤٥٢
عملها وتعلمها ٤٥٤
شُبَهٌ علميّةٌ مصطنعة ٤٥٥
أقوالٌ لا رصيدَ لها ٤٦٤
وأخيراً مسألة الرق في الإسلام ٤٦٨
ونقول بكلمةٍ جامعةٍ وجيزة ٤٦٩
الخاتمة ٤٧٨

مقدمة البحث

تنطلق الشريعة الإسلامية في رسم حقوق المرأة من اليقين الذي لا يَلحقُه رَيبٌ بأنَّ هذا الكون إنما هو مخلوق ومملوك لخالقٍ حكيم قدير مُدبِّر ، وبأن الإنسان ليس إلا عبداً مملوكاً له ، يسري عليه بحُكم القهر والاضطرار قانونُه الكوني المُلزِم ، يخلقه ويُصوّره كما يشاء دون أن يكون له في ذلك اختيار ، ويُميته عندما يَشاء دون أن يَحميَه عن ذلك أيُّ عناد .

أما وَظيفتُه تجاه هذا الخالق المالك فهي أن يُمارس العبودية له سلوكاً واختياراً كما جَرى عليه قانون هذه العبودية قهراً واضطراراً .

وإنما يكون ذلك بالتزامِ المنهج الذي رسمه ، والوقوفِ عند الحدودِ التي شرعها ، وما المنهج الذي رسمه للإنسان إلا السبيلُ الذي لا بَديل عنه لتحقيق سعادة الفرد والمجتمع في دنياه التي يعيش فيها وفي آخرته التي لا بدّ أن يحيا لها غداً بعد الموت .

ومن هذا المنطلق اتجهت أحكامُ الإسلام إلى الفرد أولاً تعالجه تهذيباً وتقويماً ، ثم اتجهت إلى الأسرة تَحوطُها بإطار القُدسيّة ، وترعاها بتقوية الوشيجة وإشاعة المسؤولية ، وتغذيها بتبادل الحب والاحترام .

فمن خلال هذه الأحكام التي لوحظت فيها رعايةُ الفرد والأسرة

تجلّت حقوق كلٍّ من المرأة والرجل وواجباتُهما في شِرعة الإسلام ونظامِه .

وقد كان من أبرز مظاهر التنسيق الإلهي بين الطبائع التي أبدعها والأوامر التي قضى بها ، أنْ جعل الفطرة الأصيلة لدى كلٍّ مِنَ الرَّجل والمرأة مُتَّفقةً في جوهرها مع مضمون تلك الأوامر ؛ كي لا يَتحمل الناس مِن أمرهم عنَتاً ، ولكي تتجلى وحدة الخالق في خلقه ، ولكي يظهر تناسقُ الوعاء الكوني المتمثل في أصل الطبيعة البشرية وحاجاتها ، مع غطائه المتمثل في جملة الشرائع والمبادىء التي أنزلها على عباده .

تلك هي خلاصة المنطلق الذي تنبثق منه الشريعة الإسلامية كلها ، بما فيها حقوق المرأة وواجباتها ، آمنَ بذلك مَن آمن وجحد به من جحد .

وقد استدعى هذا المنطلق أن يكون كلٌّ من الرجل والمرأة شريكاً للآخر في كليات الحقوق الإنسانية دون أي تميزٍ واختلاف[1] .

إلا أن المدافعين عن المرأة وحقوقها ـ من رجال المجتمع الغربي وسدَنَتِه في المجتمع العربي عندنا ـ يتحدثون عن عادات بائدة في بعض القرى ، أو أعرافٍ جاهلية مقدسة لدى بعض الجهال ، متهمين الإسلام بأنه هو المسؤول عنها .

---

(١) من بحث « حقوق المرأة وعقدة التناقض بينها وبين الشريعة الإسلامية » من كتاب « البحث عن الذات » للعلامة الشهيد الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله تعالى .

ولقد غدا من الأمور البدهية أن هؤلاء الذين ينتقدون الإسلام من خلال ما يتظاهرون به من الدفاع عن المرأة وحقوقها لا ينطلقون إلى ذلك من غيرة على المرأة ، وإنما من حقد ذاتي على الإسلام ، وإني لأعلم أن في المتبجِّحين في الدفاع عن المرأة وحقوقها من خلال هجومهم على الإسلام ، من يذهبون في إيذائهم لنسائهم وأزواجهم مذهباً تقشعر له الأبدان .

فإذا كان هذا هو الواقع المرئي ، فالموضوع الذي يجب أن يعالج إذن ليس بقايا من عادات جاهلية موجودة فعلاً ، ولكن الموضوع هو : هل صحيح أن الإسلام هبط بمكانة المرأة ، وأنه هو المسؤول عن هذه العادات الجاهلية ؟

ومع ذلك فإن منهجنا الذي اتبعناه هو الكشف عن الافتراءات التي يجترئها المبطلون في حقِّ الإسلام ، وعن مدى تكريم الله للمرأة من خلال شرائعه وأحكامه المنزلة ، ثم بيان التقصير الذي يتحمَّله الجهَّال والمتعصِّبون لعاداتهم البائدة المخالفة لشرعة الله عز وجل ، والإلحاح على ضرورة مقاومة هذه المخالفات الآسنة التي تتحدّى شرع الله وحكمه ، على أنها عادات لا تترعرع وتنمو إلا في البيوت الغريبة عن هدي الإسلام وشرعه ، كما سنجد في طوايا البحث .

والبيوتات الغريبة عن الإسلام :

إما أن تكون بيوتات جهَّال بالدين فقراء في الثقافة العامة ، من أولئك الذين تهيمن عليهم العصبيات والنخوة الباطلة البائدة .

وإما أن تكون بيوت أولئك الآخرين الذين يعتزون بالثقافة الغربية ، وما يَفِد إلينا من عادات المجتمعات الغربية .

وكما تظلم المرأة في الطائفة الأولى من البيوت ، فهي تظلم وبشكل أبلغ في الطائفة الثانية منها ، علم ذلك من علمه وجهله من جهل ، وأنا واحد ممن يعلم الكثير من ذلك .

وعلى كلٍّ فها أنا الآن أنجز ما يقتضيه المنهج الذي أخذت نفسي به ، فلقد آن إذن أن نلتفت إلى الواقع ، ونتساءل عن مدى انطباق الأحكام والمبادىء على حال مجتمعاتنا وبيوتاتنا العربية الإسلامية ، وسنجد ـ كما قلت ـ شذوذات عن الإسلام ، وعادات لا يؤيدها الدين الحق ، ولكنَّا سنجد أيضاً أنها شذوذات قليلة وعادات تتراجع إلى النقصان بل الزوال ، وسنجد أن السياج الوحيد الذي يقي المجتمع من هذه الشذوذات إنما هو هيمنة الوعي الإسلامي وصدق التمسك به والاحتكام إليه .

* * *

كيف ينظر بعضهم إلى المرأة ؟

من العادات القديمة ـ التي لا تزال سائدة في بعض الأسر ـ النظر إلى المرأة على أنها شرٌّ ينبغي أن يُخَبّأ ، وأن اتصالها المعلن بالرجل يُزري بقيمته وينزل من مكانته .

إن على الزوج أن لا يَدع أحداً خارج المنزل يَأخُذ علماً عن اسم زوجته ، وكذلك الأب وكذلك الأخ ، فإن فُوجِىءَ أحد من هؤلاء بأن اسمها قد تَسَرَّبَ إلى بعض الآذان ، شَعر أنه قد تَحَمَّلَ مِن ذَلِكَ عاراً وأي عار .

وهو يَحرِصُ على أن لا تَصحبه في طريق ، وأن لا تظهر إلى جانبه في ملتقى أو أي مكان عام ، فإن ألجأته الضرورات إلى شيء من ذلك ، حرص على أن لا تتبعه إلا وهي متأخرة عنه ، بحيث لا يكتشف أحد خزي سيرها معه أو سيره معها ! .

ثم إن أسماره وسهراته يجب أن تكون مع الرجال ، وإنها لنقيصة كبرى أن يجد أنسه وسلواه في الركون إلى مجالس النساء وسخف حديثهن وتفاهة مشكلاتهن ! .

أما إذا تناهى إلى سمع الزوج أو الأب أو الأخ أنها ـ أي المرأة أو الفتاة ـ قد زَلَّت بها القدم ووقعت تحت طائلة إغراء أو إغواء ، فتلك هي الجريمة التي لا يملك أن يَشفع فيها كتاب منزل ولا نبي مرسل ،

ولا أن يقضي فيها من دونهم شرعة أو قانون .

إن مصيرها في الحال شيءٌ واحدٌ لا ثاني له ، هو القتل ، على حد تعبيرهم ، هو العار الذي لا يغسله إلا الدم .

ونسأل : ما بال أضعاف ذلك من جرائم الزوج أو الأخ أو الأب ، لا تحتاج إلى أن تُطهَّر بالدم ، بل ما بالها تُغتفر ولا تذكر ، ولا يشعر أبطالها بأي خزي أو حتى غضاضة من تحملهم لأوزارها ؟ .

والجواب : أن الرجل رجل ، مجبول على طبع المغامرة وإشباع الرغبة والذات ، والمرأة مرأة ، كتلة عيب وعورات يجب أن تخبأ ! .

هذا وصف واقعي لبعض البيوتات التي تخضع لهذه العادات ، وبقطع النظر عن قلة هذه البيوت أو كثرتها ، فإن مهمتنا هنا إنما هي التنديد بها والكشف عن تناقضها مع مبادىء الإسلام وأخلاقياته ، والدعوة إلى مقاومتها وامتلاخها من مجتمعاتنا .

لم ينزل قرآن ولا صح حديث بأن المرأة سر معيب يجب أن يُخبأ ، وأن صلتها المعلنة بالرجل يزري به وينقص من مكانته ، بل الذي نزل به القرآن ومارسه رسول الله ﷺ يدل على نقيض ذلك ، كان رسول الله ﷺ يخرج مع نسائه ، ويجمعه بهنَّ طريق واحد ، وقد صحَّ أنه ﷺ كان يسير ليلاً مع زوجته صفية ، فمرَّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فناداهما قائلاً : (عَلَى رِسْلِكُما ، إِنَّما هيَ صَفيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ) فَقالاَ : سُبْحانَ اللهِ يا رَسولَ اللهِ ، وَكَبُرَ عَلَيْهِما ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ : (إِنَّ الشَّيْطانَ يَبْلُغُ مِنَ الإِنْسانِ مَبْلَغَ الدَّمِ ، وَإِنِّي

خَشيتُ أَنْ يَقْذِفَ في قُلوبِكُما شَيْئًا)[١] ، فلم يتحرَّج رسولُ الله ﷺ من السير مع زوجته ، ولم يجد أي غضاضة في التعريف بها وذكر اسمها .

وقد كان رسول الله ﷺ يُسامر نساءه ويتجاذب معهنَّ أطراف الحديث الذي يعجبهن ، وربما طاب لهن أن يتلهين بأحاديث خرافية أو أقاصيص للمتعة ، فيشترك معهن في ذلك ، وربما ذكّرهن من هذا القبيل بالكثير ، ولم يكن عليه الصلاة السلام يَرى في ركونه إلى ذلك أي منقصة تلحقه ، بل كان يَرى في ذلك قربة إلى الله عز وجل ، وقد وصلنا من ذلك حديث « أم زرع » الذي قصته عائشة على رسول الله ﷺ ، وهو من الطرائف والملَح التي تتناقلها النساء في مجالسهن ، فقال لها رسول الله ﷺ في نهاية الأقصوصة التي ذكرتها له : (كُنْتُ لَكِ كَأَبي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْع)[٢] .

وعلى الرغم من حديث رسول الله ﷺ : (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِه)[٣] ، فإنَّ هذه الثُّلَّة من الرجال ، يُمارسون نقيض هذا الذي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، بابٌ : هَلْ يَخْرُجُ المعْتَكِفُ لحوائِجِهِ إِلَى بابِ المَسْجِد ، برقم : (٢٠٣٥) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، بابُ بَيانِ أَنَّهُ يُسْتَحَبُّ لِمَنْ رُئِيَ خاليًا بِامْرَأَةٍ وَكانَتْ زَوْجَتَهُ أَوْ مَحْرَمًا لَهُ أَنْ يَقولَ هَذِهِ فُلانَةُ لِيَدْفَعَ ظَنَّ السُّوءِ به ، برقم : (٢١٧٥) ، وقوله : (على رسلكما) أي على هينتكما في المشي ، فما هنا شيء تكرهانه .

(٢) القصة بتمامها أخرجها البخاري في صحيحه ، كتاب النكاح ، باب حسن المعاشرة مع الأهل ، برقم : (٥١٨٩) . وأخرجها مسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب ذكر حديث أم زرع ، برقم : (٢٤٤٨) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، باب في فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، برقم : (٣٨٩٥) . وأخرجه ابن ماجه في سننه ، باب حسن معاشرة النساء ، برقم : =

أوصى به رسول الله ﷺ ! إذا كان أحدهم بين أصدقائه ومعارفه ، أو مع الناس في سوقه ، أراهم مِن وجهه كل بشاشة ولطف ، ومن لسانه أعذب الكلمات ، ومن نفسه أطيب المعاملة ، فإذا عاد إلى داره في المساء ، تجهَّم منه الوجه وكسا نفسه برداء الهيبة ، وحبس حديثه في نطاق الجِدّ ، ولم يتكلَّم إلا بمقدار .

وإني لأعلم أن في النساء من يَشتهين قُدوم رجالٍ عليهن في البيت ، كي يأْنَسْنَ بما قد حُرِمْنَ منه من مُباسطة أزواجهن لهنَّ والخوض معهنَّ في الأحاديث الممتعة ، ولو من وراء حاجزٍ ، ولو جاءت هذه المباسطة مع غيرهنَّ ! .

وَلَكَمْ تَساءَلْت مع نفسي : الأخلاق الحميدة واحدة ، فلماذا قضى رسول الله ﷺ بأن تكون مُمارستها في الدار مع الزوجة ، أعلى درجة عند الله من مُمارستها في الخارج مع الأصدقاء وعامة الناس ؟ .

ولقد هُديت بحمد الله إلى الحكمة : إن ممارسة الرجل للأخلاق الفاضلة خارج المنزل مع الناس ، تأتي بدوافع مختلفة شتى ، من أبرزها تحقيق المصالح الدنيوية وراء ذلك ، ومن أهمها أن ينسج لنفسه بين الناس سمعةً طيبةً ، وأن يَغرس في نفوسهم أنه من أصدق الناس قولاً وأبَشِّهم وجهاً وألطفهم معاملة ، وبذلك يُمهد لتحقيق آماله الاجتماعية المتنوعة ، ومن أخفاها وأضعفها البحث عن مرضاة الله عز وجل .

= (١٩٧٧) ، عن عائشة رضي الله عنها ، وقال الترمذي : هَذا حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ .

أما في داخل الدار ، حيث يخلو وجه الرجل إلى زوجته ، فإن المطامع التي كانت تدعوه إلى أن يتجمَّل في حديثه ويلاطف في معاملته تختفي هنا نهائياً ، ولا يبقى أمامه من مطمع للاستمرار في تلك الملاطفة والظهور بمظهر الأخلاق الفاضلة إلا أن يبتغي مرضاة الله .

فمن هنا كان لطف الرجل مع أهله في المعاملة داخل الدار مقياساً دقيقاً في الدلالة على صِدْقه وعدم نِفاقه ، إذ لا فائدة من النِّفاق هنا ، إلا في الحالات النادرة جداً .

أما الانزلاق إلى الأخطاء وارتكاب المحرمات أياً كانت ، فإن شرعة الإسلام تقضي بأن وزر المرأة فيما ترتكبه من أخطاء كوزر الرجل تماماً ، فليس لخطيئة المرأة في ميزان الله تعالى إلا الخطورة التي تبدو في خطيئة الرجل ، ما دامت هوية الخطيئتين واحدة .

إن النبي ﷺ يومَ قال : (كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابون)[١] ، لم يكن يعني بالتوابين الرجال من دون النساء ، وما صيغة الجمع المذكر هنا إلا للتغليب ، فكما أن خطيئة ، بل خطيئات الرجل تكفرها التوبة الصادقة ، فكذلك خطيئات المرأة تماماً .

والرجل الذي يخترق توبة زوجته أو ابنته ، فيقتلها غير آبه بتوبتها ، مُتلبِّس عند الله بشرٍّ من جريمتها ، ويستحق القتل قصاصاً في دين الله وحكمه .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، باب صفة القيامة ، برقم : (٢٤٩٩) . وأخرجه ابن ماجه في سننه ، باب ذكر التوبة ، برقم : (٤٢٥١) ، عن أنس رضي الله عنه ، قال الترمذي : هَذا حَديثٌ غَريبٌ ، وصححه الحاكم في المستدرك : (٤/ ٢٧٢) .

وإنَّ عجبي لا ينتهي من أن تعمد أسرة إلى فتاة فيها ، قيل إنها غوت وارتكبت الفاحشة ، فلم تجد ما تعالج به انحرافها إلا السم الناجع دسَّه الأبوان أو الأب في طعامها ، فأكلته جاهلة على مرأى منهما ، ثم راحت تتلوى وتصيح على مقربة منهما ، ثم قضت نحبها وأسلمت روحها تحت أبصارهما . أما شقيقها الذي ارتكب سلسلة من الموبقات على علم منهما ، فقد فوجىء الأبوان منه ببشارة كُبرى يوم جاء يُعلن لهما توبته ، وانطلقا في تدليله والتَّحبُّب إليه ، وكانت الجائزة الكبرى التي استحقه منهما أن زَوجاه من فتاة جميلة حَصان تَليق بملائكيته وسمو أخلاقه ! .

غداً سيَسْألُ الله عز وجل هذا الوالد وأمثاله : ما الذي حجب حقَّ التوبة عن البنت التي عادت مُصطلحة مع الله ، في حين أنَّ هذا الحق رأى طريقه مُعبداً إلى أخيها الشاب ؟ بأي سُلطان امتلك هذا الوالد حقَّ التَّلاعب بقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [التوبة : ١٠٤] ، فجعلها للشباب دون الفتيات ؟

إن الذين يتحدَّثون عن حقوق المرأة ويغارون ـ أو يُظْهِرون الغيرة على كرامتها وحقوقها ـ أن يتبرموا ويضيقوا ذرعاً بهذه العادات الباطلة ، أو أن يربطوا بينها وبينه بأي علاقة وهمية مصطنعة ، بل عليهم أن يُحاربوا هذه العادات من حيث يَغارون على الإسلام أن يُصيبه شيءٌ من رشاشها .

* * *

الميراث والمهر

من العادات الجاهلية التي يُحذِّر منها الإسلام ويتوعَّد عليها ، ما هو شائع في كثير من القرى ، ولدى بعض الأسر في المدن ـ دمشق ويا للأسف واحدة منها ـ مَنعُ البنت أو المرأة من حَقِّها في الميراث .

فالمرأة في نظر هؤلاء الناس لن تستفيد من ميراث مُوَرِّثها شيئاً ، وإنما الذي يَستفيده ـ آجلاً أو عاجلاً ـ هو الوافد الغريب وهو الزوج ، ثم إنَّها مكفيَّة النفقة والحاجات في دار أبيها ثم في دار زوجها .

ولئن كانت الجهالة المطبقة تُشكِّل بعض العُذر في ارتكاب هذه الموبقة في القرى النائية ، حيث الحاجة ماسّة إلى معرفة الدين وأحكامه ، فإن رسوخها في بعض أحياء المدن وداخل بعض البيوتات والأسر المشبعة بالثقافة والتعاليم الدينية ، ليُعدُّ أمراً أشد سوءاً ، وهبوطاً خطيراً إلى التلاعب بدين الله والعبث بأحكامه في سبيل مغنم مالي جانح يسيل اللعاب عليه .

وليعلم الذين يخلقون من أذهانهم العلل والحكم التي تروق لهم لأحكام الله عز وجل ، أنَّ حقَّ الميراث للمرأة ليس مُرتبطاً بحاجة ، ولو كان الأمر كذلك لحجب الشارع حقَّ الإرث عن كلِّ وارثٍ يتقلَّب في حياة النعيم ، ويمتلك من الثروات ما لا تتعلَّق الحاجة حتى بِمِعْشاره . والذي أعلمه أن كثيراً ممن يَمنعون قريباتهم من حقوقهم الإرثية يتمتَّعون بمثل هذا الرخاء ، ويرون سعادتهم في استيلاء

الملايين ، ومع ذلك فإنهم قادرون على أن يُقنعوا عقولهم بأن عِلَّة تَوريث المرأة هي حاجتها ، وأما عِلَّة تَوريث الرجل فهي مُجرَّد رغبته ، أجل مجرد رغبته في أن يرث .

إن الحكمة من توريث المرأة من الوضوح بمكان ، ولا لُزوم لتشقيق أي كلام فلسفي مُتنطِّع عنها .

إن الحكمة بكلِ بساطة أنَّ لها حقاً في مال المورِّث كحقِّ الرجل تماماً ، وما كانت الأنوثة يوماً ما عائقاً عن بلوغها هذا الحق ، والجامع المشترك بين الرجل والمرأة أنَّ كُلا منهما منطبع على جِبِلَّةِ الامتلاك ، ولما كان الإسلام دين الفطرة ، وكانت أحكامه ثوباً سابغاً على قدر الفطرة الإنسانية ، فقد كان لا بدّ من أن يُشْبِع الإسلامُ هذه الرَّغبات الجبلية لدى أصحابها من ذكور وإناث بقطع النظر عن الحاجة وعدمها .

ويتنطَّع بعضُهم فيقول : ما قيمة البنت وما تملكه أمام رضا أبويها ؟ إنَّ لكلٍّ من الأبوين حقاً في أعناق الأولاد ، لا تحررهم منها كنوز الدنيا كلها ، فما هي أهمية المال الذي تَخسره من مُورثها إن هي كسبت في مقابلِ ذلك الرضا ؟ أَلَمْ يقُلْ رسولُ اللهِ ﷺ لِذلكِ الشَّاب الذي جاءَ يَشْكو أَباهُ : (أَنْتَ وَمالُكَ لأَبيك)[1] ؟ .

وأقول في الجواب : لو صحت هذه الفلسفة لاقتضى ذلك أن ينسف ميراث كل من الأبناء والبنات ، إذ لا فرق عند فتح ملف الرضا

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ، باب ما للرجل من مال ولده ، برقم : (٢٢٩١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وبرقم : (٢٢٩٢) عن ابن عمرو رضي الله عنهما .

وبر الوالدين بين الذكور والإناث قط ، ونحن نتحدَّث عن عادة سيئةٍ هابطة ، هي العمل على حرمان الإناث من حقوقهنَّ في الميراث .

إن الحقَّ الذي جعله الله للأخت عند وفاة أخيها ، لا يملك أحدُ من الناس أن يسطو عليه ، ذلك لأن هذا السطو ليس في حقيقته استملاكاً من الأخت الوارثة ، ولكنه حَجزٌ للمال الذي أَرسله الله إليها بقرارٍ منه أن يصل إلى يدها .

إن الذي يمنع المرأة من أن تنال حَقَّها في الميراث ، إنما يحاول أن يمنع الشارع جل جلاله من إبلاغ هذا الحق المالي إلى صاحبه ، وإن هو لم يُدْلِ بذلك الاعتراف ، وهذا ما لا يَملكه أبٌ في حقِّ ابنه ، ولا أم في حقِّ ابنتها ، ولا زوجٌ في حقِّ زوجته ، ولا أي من البشر مهما عَلَت رتبته في حقِّ من قضى الله لهم بشيء .

على أن الحديث بمعزل عما نحن بصدده ، فموضوع بحثنا هو التلاعب بأحكام الميراث التي شرعها الله ، والعمل على عدم إبلاغ حقِّ الله هذا لأصحابه ، أما مَضمون الحديث فيتعلَّق بالأب الذي يَستعين بمال ابنه لحاجاته أياً كانت .

والرجال الذين يَسطون على حقوق قريباتهم في الميراث ، هم الذين يَسطون من باب أولى على حُقوقهنَّ في امتلاك مُهورهنَّ ، وإن كان أكثر الذين يُمارسون هذا العدوان عليهن هم الآباء ، ويتمُّ هذا العدوان في البيوتات التي تسير على هذه العادة ، بإحدى طريقتين :

الطريقة الأولى : وضع اليد على المهر من قبل الأب أو الأخ أو العم مثلاً ، واستلابه من صاحبته بهذه الطريقة الصامتة ، دون أي

محاورة أو استئذان ، ونظراً إلى أن الفتاة خَجولة لا تَقوى على التذكير بحقها فضلاً عن المطالبة به ، فإن الحق يُستلب مِن صَاحبته مِن خَلال الصمت المطبق من الطرفين .

الطريقة الثانية : ـ وتتم غالباً في بعض القرى ـ أن يُطالبها الولي ـ الذي هُوَ الأب أو مَن يقوم من مقامه من الأقارب ـ بالتنازل عن مهرها لصالحه ، إما بواسطة محاباة أو تخويف ، ولا بد أن تستجيب ـ كما هو معروف ـ تحت سلطان هذا الضغط ، فيمتلك الولي عندئذ مهرها كاملاً ، وقد طمأن نفسه أنه لم يأخذه إلا بطريق شرعي ! .

ولا ريب أن هؤلاء الناس الذين يستلبون مهر الفتاة بأي من هاتين الطريقتين بعيدون كل البعد عن كتاب الله ، مُعرضون كل الإعراض عن مبادئه وأحكامه .

وليت شعري ، ما قيمة أن يَحج الواحد منهم إلى بيت الله الحرام ، وأن يَهرع إلى المساجد لأداء الصلوات جماعة في الصف الأول ، ويُصِم ـ في الوقت ذاته ـ أُذنيه بتعمُّدٍ وسبْق إصرارٍ عن قول الله عز وجل : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ [النساء : ٤] .

وانظر إلى البيان الإلهي كيف احتاط في التعبير ، فهو لم يقل : (فإن وهبن لكم مهورهن فكلوها) ، ولكنه قال : ﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ﴾ ، فمَن هِيَ تِلك التي تَطيب نفساً بما ينطق به لسانها عندما يُخاجلها أو يتهدَّدها والدُها أو قريبُها بالتنازل عن حقِّها في المهر ؟ ومهما برر أولياء هذه المسكينة جشعهم ، بأن مَصير المهر

سيكون للزوج الغريب ـ إذن فوالدها أو أخوها أو عمها أولى به ـ فإن اختلاق هذا التبرير ليس في حقيقته إلا رَدّاً على شرعة الله وحكمه ، فكأن الله لم يعلم بما قد علمه أولياء الفتاة من أن الزوج سيتربصُ بمهر زوجته ويستعيده منها ، ولو علم ما قد علموا ، لأذن لهم فيما قد أقدموا عليه ، ولقال لهم : كلوه هنيئاً مريئاً .

إن الشارع الذي أمر الزوج بأن يُسلم إلى الزوجة مَهرها نِحْلةً ـ أي عَطيةً صافية عن أي قيدٍ أو شرطٍ ـ نَهاه عن أن يَستلب منه شيئاً ، كما نهى الآخرين من أقاربها ، والكل مُكلَّف بتنفيذ شرع الله وأمره . والتورط مِنهم في خَلاف ذلك مُعَرَّضٌ للعقاب والنكال ، سواء كان زوجاً أو ولياً ، فما معنى عدوان الولي على هذا الحق بهذا التبرير المُختلق إلا المسابقة اللاهثة من الأولياء والزوج ـ إن كان الزوج فعلاً مُشْترِكاً في هذا القصد ـ على مخالفة أمر الله والتعرض لسخط الله ؟

وبعد فإن عليّ ـ وأنا أستنكر هذا السطو الدنيء البشع ـ أن أُذكِّر وأؤكد أن هذه العادة نادرة ، ولا سيما في مُحيطنا السوري ، وهذه العادة النَّادِرَة أكثر ما تُرى في القرى ، على أنها ماضية في التراجع فيما نحسب .

أما في المدن ، فلعلها تجد مُستقرَّها لدى بعض الأُسَرِ الفقيرة ، حيث يُغري الفقر والدَ الفتاة بالطمع بما قد يرد إليها من مهر وهدايا ، فيجنح إلى نحو ما قد ذكرناه .

أما النَّهجُ المتَّبع لدى سائر الأسر الأخرى ، فهو أن يُضيف والد

الفتاة ضميمة أخرى مِن ماله الخاص إلى مَهرها وإلى الهدايا التابعة لها .

ولكنا مع ذلك آثرنا أن لا نَغض الطرف عن عادات جانحة في هذه المسألة ولو كانت نادرة ، كي لا يقول لنا قائل : إننا نتبجح بذكر المثاليات النظرية ، ونتجاهل الواقع المناقض ، وإذن فنحن والغرب في هذا سواء .

واقع الغرب مَغموس في السوء والظلم الذي يَلف حياة المرأة من كل جانب ، والقرارات والأنظمة المفيدة أو المنصفة لا سلطان لها على أكثر من ٢٠ ٪ من الواقع الاجتماعي .

أما واقع الحياة الاجتماعية عندنا ، فمغموس ـ بحمد الله ـ بالانضباط بتعاليم الشرع وهديه ، والعادات الجانحة عن هذه التعاليم لا تزيد على ٢٠ ٪ في مجتمعاتنا ، مهما ازادت .

هذا عن البيوتات التي تُهيمن عليها تعاليم الإسلام ، أما تلك التي تُهيمن عليها رياح الغرب وعاداته ، فهي تحسب عند المقارنة والإحصاء جزءاً لا يتجزأ من المجتمعات الغربية ، ولا مَعنى للدّس بها في المجتمعات الخاضعة لنهج الإسلام وحكمه .

* * *

تعدد الزوجات

إن ضباباً لا يَزال يَتغشَّى النفوس والمشاعر الإنسانية لدى النظر في الواقع الذي يُترجم ما أباحه الله تعالى من مشروعية تعدد الزوجات ، فواقع التعدد ـ كما يجري في مجتمعاتنا ـ ليس مرآة صافية للحقِّ الذي رسمناه وأوضحناه .

وليس معنى هذا الكلام أنَّ كلَّ التطبيقات التي تَجري لهذا الحكم يُعدُّ تطبيقات مجانفة لتعليمات الشرع وآدابه ، وإنما الذي أقصده أن هنالك تطبيقات كثيرة مُخالفة غير مُلتزمة بالشروط والضوابط التي أكَّدها الشارع مِن شأْنِها أن تَمُدَّ غاشيةً من الاشمئزاز على هذا المشروع من حيث هو ، ذلك لأن الشذوذات التي تنتشر بين التصرفات المنطقية السديدة مِن شَأْنِها عادةً أن تُشوه حتى الصورة السليمة لتلك التصرفات مهما كانت كثيرة .

إن الممارسة السليمة والصحيحة لأي عمل من الأعمال لا تلفت النظر عادة ، لأنها تابعة للتيار السليم العام مُندمجة في تضاعيفه ، فهي كالآلة المندمجة في عزفها مع المجموعة الموسيقية العازفة ، ولكن الممارسة الشاذة أو المشاكسة هي التي تَلفت النظر لأنها من نوع النشاز ، والنشاز يُعلن بالضرورة عن نفسه دائماً .

إنَّ عَشْرَ حالاتٍ من التَّعدُّد الشائن غير الملتزم بضوابط الشرع في مدينة كدمشق مثلاً ، من شَأنها أن تَنشُرَ صَدىً سَيئاً قد يُغطي البلدة

كلَّها ، فَضلاً عن أنها قد تُصيب برشاش شائعاتها الحالات الكثيرة التي لا غُبار عَليها ولا إشكال فيها ، وهذا في الواقع شَأن الصور الفاسدة والزائفة لأي عمل من الأعمال أو مبدأ من المبادىء .

إذن ففوضى تعدد الزوجات موجودة في مجتمعاتنا ، ولكنها ليست بالضرورة الحالات الغالبة، وإن كانت نِسبتها مُتفاوتة ما بين بلد وآخر.

إن هنالك مَن يُقدم على هذا المشروع للتَّشهِّي لا للضرورة ، ومن ثم فإن باعث التشهي لديه يجعله يَتأفف مِن التقيد بالشروط والأعباء التي كَلَّفه الشارع بها ، إذ إن بَين باعث التشهي وتحمل هذه الشروط الثقيلة تناقضاً بيناً ، فهو يَضيق ذَرعاً بالتقيد بمبادىء العدالة في المعاملة ، وهو يَتبرم مِن أن يُقسم حضوره مع كل من الزوجتين على حد سواء ، ولا يَجد سبيلاً إلى أن يُساوي بينهما في العطاء والإنفاق .

والصعوبة في ذلك ليست آتية من أنها أمور غير ممكنة ، ولكنها آتية من أن الرجل ينطلق فيما فَعَلَ مِن شهوة يبتغيها لا مِن ضرورة سيق إليها ، والراغب في شهوة يتزيد منها مِن شَأنه الفرار من القيود والالتزامات ، أما الواقع في ضرورة لا مناصّ مَنها فما أيسر عليه أن يَلتزم بتلك الشروط كُلها لقاء انفكاكه من تلك الضرورة التي يُعاني منها .

ولا يَذهبنَّ بك الوهم إلى أني أَفهم أن شِرعة تَعدد الزوجات خَاصة بالمضطرين دُون غَيرهم ، لا بل هِيَ شِرعة عَامة تَشمل كُلَّ رَاغب ، ولكن لما رَبطها الشارع جل جلاله بما رَبطها به من القيود والالتزامات الثقيلة ، اقتضى الشأن أن لا يُقْدِم على الأخذ بها إلا أولو

الضرورات . هذا إن كان المُقْدِمون على الأخذ بهذه الشِّرعة مِمَّن يُؤمنون بالله ويَخافون عِقابه ويَلتزمون بأوامره وأحكامه .

أما الذين لا يُقيمون وزناً لأوامره وأحكامه ، فهم قَد يُقدمون على التَّعدُّد دُون أن يَتقيَّدوا بضوابطه وشرائطه ، وهم فيما يُقْدِمون عليه يُقْنِعون أنفُسَهم بأنَّ هذا الذي اختاروه لأنفسهم خيرٌ مما لو وقعوا في مغبة الفاحشة والزنا ، إذ إنهم لم يَستجيبوا لشهواتهم إلاّ عن طريقٍ زواج شرعي صحيح .

ونحن لا نقول إن أَخْذَ الرجل بشِرعَةِ تعدد الزوجات دون الانضباط بشروطه وآدابه بمثابة التورط في الزنا ، بل هو فعلاً زواجٌ شرعي صحيح ما دامت أركان الزواج وشروطه متوافرة ، ولكن عدم تَورطه في الزنا لا يَعني أنه لم يَتورط في معصية ، بل في معاصٍ أُخرى ، فالمعاصي كثيرةٌ وأسبابها متنوعة ، وإن هُجران الرجل زوجته الأولى في سبيل الرُّكون إلى الثانية والتمتع بها من الظلم الشنيع الذي يُعرِّض صاحبَه لعقاب لا يَعلم حدوده إلا الله عز وجل ، بل ربما كان العقاب الذي يَنتظره شراً من عقاب الفاحشة التي يَزعم أنه قد فرّ منها ، والذي يُغدق على إحدى زَوْجَتَيْه ألواناً من المتع وأسباب النعيم ، ويُضيِّقُ على الثانية فلا يُعطيها إلا بمقدار ، أو يُري الواحدة منهما الفيض من أُنسه وبشاشته وطلاوة حديثه ، ولا يُري الثانية إلا عكس ذلك من كآبة الوجه وقسوة الكلام وجَلافة الطبع ، مُتورِّطٌ من عمله هذا بمعصية لا يَعلم حَجم خُطورتها إلا الله عز وجل .

وفي الناس من يقول : إنني خَيرت الثانية بين الطلاق والرضا بما

أُعاملها به فاختارت الرضا ، فقد أَسقطت إذن حقَّها ، ومن ثم فَلستُ مُضارّاً لها ولا مُتَعَسِّفاً في التعامل معها ! .

وأقول لأصحاب هذا التخريج الخادع : هلاّ ذَكرتم هَذا التخيير للزوجة المشؤومة عند عقد الزواج ؟ إنكم لو فعلتم ذلك وخيرتم الفتاة بين أن يتم الزواج منها دون أن يتقيد زوجها في المستقبل بضوابط العدالة في القَسم ، وبين أن يُعرض عنها فلا يَتزوجها ، فاختارت الزواج مع عدم مطالبتها بحقوقها في قواعد القسم ، لكان التنازل صحيحاً ، ولأبرأ الزوج بذلك ذمَّته من حقِّها .

أما أن يَستدرجها الرجل إلى زواجٍ لا يَتراءى فيه أي دليلٍ على هذا الموقف ، حتى إذا تَزوَّجها واستقرَّت عنده وارتبطت به ، فاجأها بهذا التخيير بين أمرين أحلاهما مرّ ، واستغل ضرورة فرارها من الأمرّ لِيَفرِضَ رِضاها على المرّ الذي لا رضا لها به ، فإنه لون صارخ من الخداع الذي يَبْرَّأ منه دين الله وشرعه .

إنَّ الذي يتصرَّف بهذه الطريقة مع إحدى زوجتيه ، إنما يَفرض عليها التنازل عن حقِّها ، ولا يَضعها أما خيار كي تتنازل أو لا تتنازل عن حقِّها ، وهو أشبه بالتنازل الذي يَفرضه الوالد على ابنته عندما يَتهدَّدُها بالوعيد والنكال إن هي لم تتنازل له عن مهرها ! نعم هناك تَنازلٌ شَرعي صحيحٌ ، وهو ذاك الذي تَطيب الزوجة به نفساً ، ولا تَشعر أنها أُلجئت إليه إِلْجاء ، وتفصيل ذلك بين المراجع الفقهية المعتمدة .

ننتهي من هذا الذي أوضحناه إلى أن هذه الفوضى التي قد نَعثر عليها في أوساطنا العربية والإسلامية في مسألة تعدد الزوجات

لا يَتحمَّل الإسلام شيئاً من أوزارها ، وإنما الذي يتحمَّل مسؤوليتها هو القضاء الإسلامي .

إن على السلطة القضائية أن لا تُوافق على تَسجيل الزواج الثاني لمن كانت زوجته الأولى موجودة على عصمته إلا بعد أن تتبين وتتأكَّدَ من قدرته المادية على الزواج الثاني ، وبعد أن يَتعهَّد خَطِّيّاً بالتزامه بالشروط والآداب التي أمر بها الله عز وجل للمُعَدِّد ، فإن هو خالف ما تَعهَّد به تَعرض للعقاب الصارم الذي ما يَنبغي أن تكون فيه هوادة .

والعجيب أن قانون الأحوال الشخصية يُشَدِّد فيما لا دَاعي للتشديد فيه ، بل لا جدوى للتشديد فيه ، وهو اشتراط أن يكون الزوج في وضع يُحوجه إلى التزوج بزوجة ثانية ، مع العلم بأن هذا الشرط غير خاضعٍ لإمكانية التنفيذ ، إذ الحاجة إلى التَّعدُّد قد لا تكون مادية مرئية ، بل تكون شعورية كامنة في مشاعر الزوج نفسه ، والشارع كما يَعتد بالأسباب المادية من مرض وعقم ونحو ذلك ، فإنه يَعتد أيضاً بالأسباب الشعورية التي إن لم يَستجب من أجلها للاقتران بفتاة أُخرى تَعرض ربما لارتكاب الفاحشة .

وهيهات للقضاء أن يتبين حقيقة هذه الأسباب ، ويحس بها كما يحس بها صاحب المشكلة نفسه ، بل حتى الأسباب المادية المرئية منها كثيراً ما تَقتضي المصلحة أن تَكون مَخبوءة بكنف الستر ، ويَغدو إبرازها والحديث عنها مثار إساءة للزوجة أو الزوج أو لكليهما .

ولذا فإن هذا التشديد الذي تضمنته عبارات قانون الأحوال الشخصية أصبح تشديداً شكلياً غير قابل للتنفيذ ، وقد كان يُغني عنه

التشديد على الشروط التي لابد أن تتوافر في حال الزوج وسلوكه ، والتي لا خلاف في ضرورة توفرها .

إن القضاء لو بالغ في الاهتمام بهذه الشروط وتتبع بكل الوسائط الممكنة حالات التعدد ووقائعه ، وتعقب المتساهلين في هذه الشرائط بالعقاب والنكال ، فإنه يحقق الغاية التي قصدها من اشتراط أن يكون الزوج في وضع يُحوجه إلى التعدد ، إذ إن الرجل إذا رأى الجِدَّ في تعقب المتساهلين في شروط التعدد أو المعرضين عنها ، ورأى كيف يُساقون إلى العقاب والنكال ، فإنه سيراجع حسابه ويعود إلى نفسه ، ليتبين مدى حاجته إلى أن يوجع رأسه بالاقتران بزوجة أخرى ، فإما أن يمضي مُتكلاً على الله ، إن علم من نفسه الحاجة الماسة ، وستحمله ضرورته على الالتزام بالشرائط ، وإما أن يُعرض عن قراره إذ يعلم أنه غير مضطر إلى هذه المغامرة التي قد تكشفه وتعرضه للعقاب .

وهنا أيضاً أقول للذين يتحدثون عن المرأة ويغارون على حقوقها وكرامتها ، أن ينحوا باللائمة على فوضى تعدد الأزواج التي قد يَتم العثور عليها هنا وهناك ، ونحن معهم في هذا الاستنكار والغيرة ، ولكن ليس لهم قط أن يُحَمِّلُوا الإسلام أعباء هذه الفوضى والمغامرة اللاشرعية واللامسؤولة ، بل عليهم أن يُحاربوها من حيث يَغارون على الإسلام أن لا يُصيبه شيء من رشاشها .

نحن مَعهم في أبلغ مواقف الاستنكار ، فليكونوا معنا في إبعاد الإسلام عن أن يحمّل شيئاً من جريرة هذه الفوضى ومسؤولياتها .

* * *

التحيز في الهدايا والأعطيات

وهذه عادةٌ أخرى في كثير من البيوت والأوساط ، فبإلحاح من الأولاد أو ربما برغبة ذاتية من أبيهم كبير الأسرة ، يُعطي بعض ممتلكاته العقارية أو غيرها هَدية لبعض أولاده ، متنازلاً لهم عنه في حال حياته ، والشأن الغالب أن يفوز بهذه العطية الأولاد الذكور دون الإناث ، ووجهة النظر في ذلك أن الأولاد الذكور مُقبلون على احتياجات مالية كثيرة من أهمها السكن والزواج ، أما الإناث فمكفيات بالزوج الآتي على الطريق ، أو الموجود فعلاً الآن ، والمال الذي يَكسبه الابن يستهلكه لنفسه ، أما الذي يُعطى للبنت فإنما يَكسبه على الأغلب الرجل الغريب الذي هو الزوج ، وهذا الفهم يَنبثق من النظرة التي عَبَّر عنها الشاعر العربي بقوله :

بنـونـا بَنـو أبنـائِنـا ، وبنـاتُنـا بنوهُنَّ أبناءُ الرِّجالِ الأباعدِ

فما حكم الشريعة الإسلامية في هذا التصرف ، وما حكمها في هذه النظرة ؟

روى النُّعْمانُ بْنُ بَشيرٍ عنْ أَبيه ، أَنَّهُ أَتى إِلَى رَسولِ اللهِ ﷺ فَقالَ : إِنِّي نَحَلْتُ ابْني هَذا غُلاَماً ، فَقالَ : (أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَهُ) ، قالَ : لاَ ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : (فارْجِعْهُ)[1] . وفي رواية أخرى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب الهبة للولد ، برقم : (٢٥٨٦) . وأخرجه مسلم=

للنُّعْمانِ بْنِ بَشيرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُما ، أَنَّهُ قالَ عَلَى المِنْبَرِ : أَعْطاني أَبي عَطيَّةً ، فَقالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَواحَةَ ـ وهي أُمُّهُ ـ : لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسولَ اللهِ ﷺ ، فَأَتَى رَسولَ اللهِ ﷺ ، فَقالَ : إنِّي أَعْطَيْتُ ابْني مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَواحَةَ عَطيَّةً ، فَأَمَرَتْني أَنْ أُشْهِدَكَ يا رَسولَ الله ، قالَ : (أَعْطَيْتَ سائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذا ؟) ، قالَ : لاَ ، قالَ : (فاتَّقوا اللهَ واعْدِلوا بَيْنَ أَوْلاَدِكُم) ، قالَ : فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطيَّتَهُ[1] . وفي روايةٍ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ لِوالِدِ النُّعْمانِ في آخِرِ الحَديثِ : (فَلا تُشْهِدْني إِذًا ، فَإِنِّي لا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ)[2] .

يدل هذا الحديث على حرمة تخصيص الرجل بعضاً من أولاده بالعطية دون بعض ، وهو ما ذهب إليه جمهور من الفقهاء ، وذهب بعضهم إلى أنه مكروه ، والذي يَدلُّ عليه ظاهر الحديث هو الحرمة ، فقد عدَّ رسولُ الله ﷺ ذلك جَوْراً ، والجَوْر مُحرَّم بالاتفاق ، فإذا كان الدافع إلى هذا التمييز هو تفضيل الذكور على الإناث ، فهو أحرى عندئذ بأن يكون محرّماً ، والذي تجري عليه أعراف بعض الناس اليوم ، هو محاباة الذكور في الأُعطيات وإغفال الإناث للسبب الذي

= في صحيحه ، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة ، برقم : (١٦٢٣) ، ومعنى (نحلت) أعطيت .

(١) أخرجه البخاري في سننه ، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد ، برقم : (٢٦٥٠) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة ، برقم : (١٦٢٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب الإشهاد في الهبة ، برقم : (٢٥٨٧) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة ، برقم : (١٦٢٣) .

ذكرناه ، وهي من أخطر العادات المخالفة للشرع ، والتي تُرَسِّخ النظرة الدونية فعلاً إلى المرأة من حيث إنها امرأة ، وهي من حيث إنها عادة من العادات التي تُعْرَفُ بها الأوساطُ الإسلامية ، قد تُنسب من قبل الجاهلين بالدين ـ وما أكثرهم ولا سيما الأجانب الذين يَهتَمُّون بالاطلاع على السلوكات والعادات الإسلامية ـ إلى الإسلام ، وتُعدُّ أدباً من آدابه ، أو على الأقل عملاً مباحاً لا يُنكره الشرع .

إن الحجَّة التي يُردِّدها المتورِّطون في هذا العمل الجانح باطلة داحضة لا يُؤيدها شرع ولا يدعمها منطق أو عقل ، وهي فِكر باطل مَبني على تصوُّرٍ باطلٍ ، فالفتاة إذا تزوَّجت لم يَملك الزوج أن يَمُدَّ يده من مالها إلى قرش واحد إلا برضا وطواعية نفسية تامَّةٍ منها ، مَهما بَلغت من الغِنى ومهما بلغ من الفقر . إذن فافتراض أنَّ مَا سَتأخذه البنت من أبيها سَيَؤُول بالضرورة إلى زوجها فرضية باطلة ، عدا أنها تَنطوي على إساءة ظَنٍّ بَالغةٍ بزوج لا يُعرف بَعْدُ مَن هو .

أما أن تَهَبَ الزوجة مالها أو شيئاً منه لزوجها برغبة منها ورضا تام ، فهذا مِن شأْنها وليس في ذلك ما يُبَرِّر الإجحاف بحقِّها ، أو أن يُعاملها الأب بِنَقِيض مَا يُعامل به إخوتها من الجُود والإكرام .

والذي يَخشى على ابنته من الزوج الطامع في مالها ، لا يُعالج هذا الخوف بحرمانها من المساواة في الإكرام والعطاء ، وإنما يُعالج ذلك بتحرِّي أَخلاق الخاطبين الذين يَتقدَّمون إلى طلب يدها ، والبحث لها عن الزوج الأمين الصالح الذي يَطمأنّ إلى أنه لن يَسطو على حَقٍّ مِن حقوقها المادية أو المعنوية ، وحتى لو بَقيَ هذا الخوف قائماً لِقلَّة

الأزواج الأُمناء الصالحين مثلاً ، فإنَّ ذلك لا يُسوّغ هذه المفاضلة الجانحة عن العدالة في الإكرام والعطاء .

فرَسولُ اللهِ ﷺ يَقولُ : (مَنْ عالَ جاريَتَيْنِ ـ أَي ابْنَتَيْن ـ حَتَّى تَبْلُغا ، جاءَ يَوْمَ الْقيامَةِ أَنا وَهوَ) وَضَمَّ أَصابِعَهُ[١] . وَيَقولُ ﷺ : (ما مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ ابْنَتانِ ، فَيُحْسِنُ إِلَيْهِما ما صَحِبَتاهُ ، أَوْ صَحِبَهُما إِلاَّ أَدْخَلَتاهُ الْجَنَّة)[٢] . وَيَقولُ ﷺ : (مَنْ كُنَّ لَهُ ثَلاثُ بَناتٍ أَوْ ثَلاثُ أَخَواتٍ ، أَوْ بِنْتانِ أَوْ أُخْتانِ ، اتَّقَى اللهَ فيهِنَّ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ حَتَّى يَبِنَّ ـ أي يَتزوَّجْن ـ أَوْ يَمُتْنَ ، كُنَّ لَهُ حِجاباً مِنَ النَّار)[٣] ، وله شواهد كثيرة[٤] . وَيَقولُ ﷺ : (مَنْ كانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَئِدْها ، وَلَمْ يُهِنْها ، وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْها ، ـ قالَ : يَعْني الذُّكورَ ـ أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّة)[٥] .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب فضل الإحسان إلى البنات ، برقم : (٢٦٣١) ، ومعنى عالهما أي قام عليهما بالمؤنة والتربية ونحوهما .

(٢) أخرجه ابن ماجه سننه ، باب بر الوالد والإحسان إلى البنت ، برقم : (٣٦٧٠) . وأخرجه ابن حبان في صحيحه برقم : (٢٩٤٥) . وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٦) ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ، برقم : (٢٣٩٩١) . وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٨/ ١٠٢) . وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان ، برقم : (٨٦٧٩) ، عن عوف بن مالك رضي الله عنه .

(٤) من شواهده : ما أخرجه أحمد في مسنده ، برقم : (١١٣٨٤) ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . وما أخرجه أيضاً برقم : (١٢٤٩٨) . وأخرجه الطبراني في معجمه الأوسط ، برقم : (٥٤٣٢) ، عن أنس بن مالك . قال الهيثمي : (٨/ ١٥٧) رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين ، ورجال أحدهما رجال الصحيح ، وسنده صحيح .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في فضل من عال يتيماً ، برقم : (٥١٤٦) . وأخرجه=

يقول رسول الله ﷺ كلَّ هذا ، ويوصي بكلِّ هذا ، ويُحذِّر من أَنْ يُؤثِر الرجلُ أولاده الذكور على الإناث ، ويأتي اليوم من يزعم أنه يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر ، فيعاكس وصيةَ رسول الله ﷺ هذه ، ويُصِرُّ على أن يُؤثِر الذكور من أولاده على الإناث ، مُؤْثِراً على وصية رسول الله ﷺ ، وصية الرجل الجاهلي القائل المذكور آنفاً :

بنونا بَنو أبنائِنا ، وبناتُنا   بنوهُنَّ أبناءُ الرِّجالِ الأباعدِ

ولا تسل عن الضغائن والخلافات التي تستشري بين الأولاد ذكوراً وإناثاً من جراء هذا التَّحيُّز الجائر ، فضلاً عن الخلافات والخصومات التي تقع من جراء ذلك بين رَبِّ الأسرة وأصهاره ، أو بين الأصهار وأشقاء زوجاتهم .

وإنِّي لأُهيب بالشباب الذين لا يَلتزم آباؤهم بوصية رسول الله ﷺ في الإحسان إلى البنات وعدم الإساءة إليهنَّ ، فيكرمونَهنَّ بأُعْطياتٍ لا يعودون بمثلها ـ أو بمقدار الحصة الإرثية ـ إلى أخواتهم ، أن يُبادروا هم إلى إصلاح هذا الفساد ، فيقتطعوا مِنَ المنيحة التي نَالوها من آبائهم ، مَا يعودون به على أُخْتهم أو أَخواتهم بحيث يَزول الحَيف وتتحقَّق العدالة ، إنهم بِهذا يَدفعون عن أنفسهم وِزراً ويستأهلون أجراً ، وينهضون بواجب إصلاح البين .

* * *

= الحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٦) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال الحاكم : صحيح الإسناد .

مشاطرة الزوج زوجته في مالها

كثير من الأزواج يعمد إلى السَّطْو ـ بطريقة ما ـ على مُرتَّبات زوجاتهم الموظفات أو على جزءٍ منها ، ويَحتجُّ الذين يتورَّطون في هذا العمل الشائن بأنَّ الزوجة موظَّفة مثله ، فَهُمَا في الحصول على المال سواء ، إذن فينبغي أن يكونا سواء أيضاً في الإنفاق ، وكثيراً ما يَشبُّ الخلاف وينقدح من ذلك أوارُ الخِصام والشِّقاق بين الزوجين ، وقد ينتهي بهما الخصام من جرَّاء ذلك إلى الفراق والطلاق .

إنَّ هذا التصرف من الزوج غير مُبَرَّرٍ شرعاً ، إذ هو في كل الأحوال المكلَّف بالإنفاق عليها وعلى الأولاد ، ولا يُغَيِّرُ مِن هذا الحكم الثابت كونها غَنية أو مُوظَّفة قط .

وَالحلُّ الذي يَملكه الزوج في هذه الحال هو التالي :

ـ إما أَنْ يتَّفِقا على حَلٍّ يَرتضيانه عن طواعية قلبية تامَّة ، بأن يتَّفقا على التعاون في الإنفاق على البيت ، أو على أنْ تَعود الزوجة بِقَدرٍ يُتَّفق عليه من مُرتبها إلى الزوج عَطية وإكراماً ، أو حتى تَنفرد الزوجة وحدها بالإنفاق على البيت ، فكلُّ ذلك سائغٌ وجائزٌ ما دام الاتِّفاق قائماً على الطواعية التامة والرِّضا القلبي الذي لا تَشوبه مُنَغِّصات أو حَياء .

ـ وإما أن يَمنعها الزوج عن ممارسة العمل ، وبذلك يَفقد الحُجَّة التي يُلاحق الزوجة اعتماداً عليها ، بالمطالبة بالاشتراك معه في الإنفاق أو بمطالبتها بالتنازل له عن جُزءٍ مما تتقاضاه ، إذ الزوج يملك أن يَمنع الزوجة من الوظيفة والعمل خارج المنزل ، ما دام قائماً بما قد كُلِّف به من واجب كفايتها والإنفاق عليها ، إذ ربما كانت له مصلحة في أن تتفرَّغ لمهام الحياة الزوجية ، وتكون أكثر سعياً إلى إسعاده وتمتيعه بالعلاقة الزوجية القائمة بينهما .

ولأن يقول الزوج لزوجته : دعي العمل خارج البيت وتفرَّغي للمهام البيتية والزوجية ، وأنا مُلتزمٌ بتقديم الكفاية اللازمة لك ؛ أرضى في ميزان الشريعة وأكثر قبولاً ، من أن يقول لها : اعملي كما تشائين على أنْ تَكوني شريكةً معي في نفقات البيت ومسؤولياته ، أو على أن أمتلك جزءاً محدداً من دخلك الشهري .

ـ وإما أن يَدعها تُمارس وَظيفتها كما تشاء راضياً بذلك ، وأن يَمضي في تَحمُّل نَفقاتها اللازمة ، وتَحمُّل المسؤوليات الأخرى من الإنفاق على الأولاد وتغطية أجور البيت وتكاليفه .

ويلاحظ أن للنفقة المترتبة على الزوج للزوجة حُدوداً تتبع حاله التي هو عليها مِن حَيث الفقر والغنى ، فإذا أدى النفقة المترتبة عليه ضِمن الحدود الواجبة فَليس عليه أن يُضيف تَقديم أي شيءٍ آخر من وراء ذلك ، وإنما تُصبح هي المسؤولة عن تَغطية مُتطلباتها الزائدة .

غير أن فَريقاً من أصحاب الأفكار الحديثة يُحاولون أن يُخضعوا هذا الحكم الرباني الذي نَقرؤه في كتاب الله تعالى ، لجدلٍ عَقِيمٍ

لا يَنتهي إذ لا ضابط له ، فَيقولون : إن نظام الإنفاق على الأسرة وتحديد المسؤول عن تقديم النفقة اللازمة يَتبعان الوضع الاقتصادي القائم ، والذي لا بُدَّ أن يَنعكس على المرأة ، مِن حَيث اشتراكها مع الرجل في العمل أو عدم اشتراكها معه فيه ، إذن فأحكام النفقة وتحديد الْمُنفق يَنبغي أن يتطورا حسب تطور الوضع الاجتماعي ، وتطور علاقة المرأة بالمجتمع مِن حَيث العمل وعدمه ، ولما كانت المرأة اليوم صِنو الرجل تماماً في ممارسة الوظائف والأعمال ، فقد كان لا بُدَّ أن تُساير أحكام الأسرة هذا التطور وأن تنسجم معه ، ومن أهم هذه الأحكام نِظام النفقة وتحديد المسؤول عنها .

إن هذا التطور في تحليل الأمور تَعوزه الدِّقَّة بل الأرجح أنه خَاضع لسطحية بالغة .

إن العلاقة الزوجية السارية ما بين الزوج والزوجة ، ليست قائمة على محور التعاون المادي كما يتصور هؤلاء الناس ، بل هي قائمة قبل ذلك على الحماية والرعاية اللتين تَنشدهما الزوجة لنفسها .

إن الزوج قد يَبحث من خلال زوجته عن شريك جنسي معه ، غير أن الزوجة لا تَبحث عند الزوج عن هذا فقط ، إنما تبحث فيه ـ ربما قبل ذلك ـ عن الكيان الكبير الذي يَحميها ويرعاها .

فإن قلت : يحميها ضدَّ مَنْ ؟ ويرعاها ضدَّ أي حاجة ؟

الجواب : يحميها ضد المجهول ، ويرعاها بإشباع ضعفها من قوة الرجل ، فإنها في كلِّ الأحوال وفي سائر الظروف تَشعر بأن أَمْنَها ليس صادراً مِن ذاتها ومزاياها التي تتمتع بها ، وإنَّما هو آتٍ مِنَ الرجل الذي

تَلجأ إلى كنفه ، وهي في كلِّ الأحوال وفي سائر الظروف أيضاً تَشعر بأن أَمْنَها ليس صادراً من ذاتها ومزاياها التي تتمتع بها ؛ وإنما هو آت من الرجل الذي يَمدُّ عليها رواقاً سابغاً من الرعاية التامة لها .

ولك أن تُسمي هذا ضعفاً ، ولكن لا تَنس أنَّ نَسيج قوتها وسلطانها على الرجل إنما تتكامل مع الضعف .

ولعلك تعلم أنني لا أتقوَّل هذا على النساء ، ولا أعتمد على هذا التحليل بعيداً عن الإصغاء إلى آرائهن والتعبير عن مشاعرهنَّ ، فقد سبق أن أَصغينا في هذا إلى ما تقوله الكاتبة والطبيبة الألمانية الشهيرة « أ . فيلار » ، الذي يتَّسم بدقةٍ بالغةٍ في تحليل نفسية المرأة : « حق الرجل في التزوج من أكثر من واحدة » ، والكتاب لقي رواجاً بالغاً في كل من أوربة وأمريكا كسائر كتبها الأخرى ، ولقي من التأييد فيما قرَّرته وذهبت إليه أضعاف الذي صادفها من النقد والاعتراض .

ثم إن هذا الذي تقوله وتؤكده هذه الكاتبة المتخصصة هو ما يَنطق به حال أي امرأة تَبحث عن زوج أو تَعيش حياة زوجية مع رجل ما .

فإذا كان هذا واضحاً ـ وهو الحال الذي تنطق به حياة كل امرأة ـ فلتعلم إذن أن المرأة لو بلغت أوج الغنى ونالت البطولة العالمية في المصارعة أو ألعاب القوى ، لن تَشعر بحياة زوجية رغيدة إلا عندما تكون في كنف من تَشعر أنها مَكلوءة بحمايته مشبعة برعايته ، وهذا يستدعي أن يَبسط عليها من سلطان قوته ، ولو كانت بَطلة العالم في الكاراتيه ، وأن يُمدها برعايته المادية ولو كانت أغنى إنسان وإنسانة في العالم .

ولا شك أن المرأة عِندما تَجد نفسها هي المنفق على بيت الزوجية ، إذن فلا بُدَّ أن تَكون هي صاحبة السلطة والنفوذ عليه ، لأن مَن ينفق يَشرف ، فإذا سار بها وبالبيت الأمر على هذا المنوال فَلسوف يُريها مِنظارها النفسي الجديد زَوجَها الرجلَ طفلاً يَافعاً كبيراً ، يَحتاج إلى مَن يَبسط إليه يَد الحماية والرعاية ، وأن الأقدار ساقتها إليه لترأف به وتحنو عليه ، لا لكي تجد في شخصه رجلها الزوج ، وعند انبثاق هذه الرؤية تتسرب إلى نفس الزوجة عوامل التَّبرُّم ومشاعر الضيق والكرْب ، إلا إن استطاعت أن تتجرَّد عن مشاعرها زوجةً تبحث عن زوجٍ ، وتجرَّدت لدوافع إنسانية متصوفة تريق حظوظها وقوداً لإسعاد الآخرين .

إذن فالقرار القرآني القائل : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة :٢٣٣] ، ليس مَرتبطاً بحال اقتصادية متطورة ، ولكنه مرتبط بِجبلَّةٍ إنسانيةٍ ثابتة .

وهناك نقاط اتهامٍ أخرى تُوَجَّه إلى الشريعة الإسلامية فيما يتعلَّق بحقوق المرأة ، سنذكرها فيما يلي ونناقشها :

١ـ حَجَبَ الإسلامُ عن المرأة الرئاسةَ العليا للدولة[١] : بذلك وردت أحاديث ثابتة عن النبي ﷺ ، منها قوله ﷺ : (لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَة)[٢] .

---

(١) انظر بحث (حقوق المرأة وعقدة التناقض بينها وبين الشريعة الإسلامية) كتاب (البحث عن الذات) للعلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر (٤٤٢٥) عن أبي بكرة رضي الله عنه .

نعم لقد حجَبَ الإسلام عن المرأة الرئاسةَ العليا للدولة ، إلا أن هذا ليس ـ كما قد يتصور البعض ـ خدشاً لحرية المرأة السياسية أو غضاً من كرامتها الإنسانية ، وإنما هو تنسيق بين المهام الكثيرة المختلفة للرئيس الأعلى في الدولة ، وطبيعةِ مَن يَتولَّى هذه الرئاسة ، وهذا التنسيقُ مُلاحَظٌ في صفوف الرجال كما هو مُلاحَظٌ في صفوف النساء .

فرئيس الدولة هو الذي يُعلن الحرب ويقود الجيوش ، ويُقرر السِّلم إن اقتضت المصلحة ذلك ، أو الحرب إن اقتضت المصلحة العكس . ورئيس الدولة هو الذي يتولَّى خطابةَ الجمعة في المسجد الجامع ، وإمامةَ الناس في الصلوات ، والقضاء بينهم في الخصومات .

ومن المكابرة بالبدهي المحسوس أنْ يَزعم زاعمٌ بأن المرأة قادرةٌ على النهوض بهذه الأعباء كلِّها ، وأنها تَملك مِن خُشونة الطبع وصلابة العاطفة والوجدان ما تَستطيع به خَوضَ المعارك ، والإشراف على الحروب ، والإمامةَ في الصلاة ، وإننا لَنحمَد الله على أَنها مُكابرةٌ كاذبة تَترفَّعُ عنها المرأة التي أَولاها الله مِنَ اللُّطف والعذوبة الإنسانية ما جَعلها مِن أَكبر أسرار تَعَلُّقِ الإنسان بالحياة .

والذين يَحلو لهم أن يَأخذوا على الشريعة الإسلامية هذا الموقف ، يُعرِضُون عن واقعِ مُعظم دول العالم على اختلاف مذاهبها ، وعن التزامها بموقف الإسلام ذاته ، انطلاقاً من الإيمان بالأسباب ذاتِها ، ثم يَخُصُّون الإسلام وحده بسهامِ نَقدِهم في أَمرٍ

مُنسجِمٍ مع الفطرة والمصلحة ، وما وسع مُعظمَ العالم إلا الخضوعُ له والعملُ به .

٢ـ لا تَعتدُّ الشريعة الإسلامية بشهادة المرأة في كثيرٍ من الأمور ، وتجعلها بقيمة النصف من شهادة الرجل في كثيرٍ من الأمور الأخرى .

والجوابُ : أن الشريعة الإسلامية لم تُراعِ في هذا الموضوع أَهليةَ المرأة نَقصاً أو كمالاً ، بل راعت فيه تَلَمُّسَ السبيل الأَدَقِّ إِلَى كَشفِ الحَقِّ وَإِنصَافِ الْمَظلومين وفصل الخصومات .

ومن أوضح الأدلة على ذلك أنها رَفضت شَهادةَ المرأة في الجنايات والدماء ، وقَبِلَتْها شَريكةً مع الرجل على أنها تُساوي النِّصفَ مِن شهادته في قضايا الأموال ، وقَبِلَتْها مُنفَرِدةً عن شهادته في كُلِّ ما يَغلب أَن يَطَّلِع عليه النساء ، كالرَضاع والولادة والنّسب والعيوب الخاصة بالنساء .

فأما رَفْضُ شَهادَتِها في الجنايات ـ وهو مذهب الشافعية وجمهور الفقهاء ـ فَلِأَنَّهَا قَلَّما تَستطيع أن تَستوعب صُورة جَريمة وَقعت ؛ لما تَتَّسِمُ بِهِ مِن رِقَّةِ الإحساس والمشاعر .

وأما أن شهادتَها مُساويةٌ للنصف من شهادة الرجل ، ولا بُدّ مِن اشتراكها معه في قضايا المال ، فالسبب في صحة شَهادتها فيها مِن حَيث المبدأ أن لها أن تُمارس قضايا المال على اختلافها بموجبِ أهليتها التامة لذلك ، والسببُ في أن شهادتها في هذه القضايا تُعَدُّ دون شهادة الرجل ـ ولا بُدَّ من عنصر الرجال معها ـ هو أن الواقع المُشاهَد

في الغالب أن الرِّجَالَ هُم أصحاب النشاط في الأسواق وشؤون التجارة والمال ، فاقتضت الحيطة في الخصومات تَقديرَ ظُروف السهو والخطأ مِنَ الْمَرأة ، وجَعل شهادتها في هذه القضايا على النصف من شهادة الرجل رعايةً لحقِّ المتخاصِمين وحرصاً على الوصول إلى معرفة الحق .

وأما أن الشريعة أجازت انفرادَها بالشهادة دون الرجل في كلِّ ما يَغلب أن تَطَّلِع عليه النساء ، فلأنَّ ذلك أدعى لظهور الحقِّ وكشف الحقيقة .

ولو كان السبب في رفض شهادتها أو اعتبارها أدنى من شهادة الرجل نقصاً في أهليتها الذاتية لاطّرد الرفض بالنسبة لسائر الخصومات على اختلافها ، ولكن الأمر ناظرٌ إلى طبيعة الخصومة ونوع البيّنات التي تناسبها .

٣ـ شُبهاتٌ وأقوالٌ حول حجاب المرأة وعلاقته بدورها في التَّقدُّم الحضاري :

إن الشريعة الإسلامية ، كما رَعَتْ حقوق كلٍّ من الرجل والمرأة دون تمييز أو تفريق بينهما ، فقد رتَّبت على كل منهما وظائف وواجبات اقتضتها المحافظة على أخلاق الفرد وكيان الأسرة ونظام المجتمع ، ولا ينتقص شيءٌ من تلك الحقوق إلا بمقدار ما قد يصطدم بشيء من هذه الواجبات ، الرجل والمرأة في ذلك سواء .

وقد تكون هذه الواجبات غير مُتكَرِّرة بأعيانها فيما بَينَ الرجل

والمرأة ، ولكنها على كل حال مُقتَسَمَةٌ بَينهما قِسمةً عادلة ، بِناءً على شركة مُتساوية في تحمّل مَسؤوليات الإصلاح وأعبائها ، وهذا هو المهم .

ومن أهم هذه الواجبات « الحجاب » ، والمقصودُ به أن تطوي المرأة ما قَد يَبدو مِن مَظاهر الفتنة والإغراء عن الرجال الأجانب عنها ، فما هي أهمية هذا الواجب الذي فَرضه الله على المرأة ؟

إن الناس إنما يجتازون إلى الله في هذه الدنيا ساعة امتحان ، سواء علموا ذلك أم جهلوا ، وربما طالت هذه الساعة أو قصرت ، ولكنها على كل حال ليست أكثر من ساعة امتحان ، وإذا كان اجتياز هذه الساعة الامتحانية قدراً مُشتركاً بين الرجال والنساء على السواء ، فإن المرأة تمتاز عن الرجل بحمل عبىء آخر شديد الخطورة في الدنيا ، وعظيم الأثر في العقبى ! فالمرأة بالإضافة إلى كونها تشترك مع الرجل في اجتياز هذه الساعة الامتحانية ، تُعَدُّ مَادةً من أهم موادها الامتحانية ذاتها ، ذلك لأن الشهوات على اختلافها هي المنزلق الامتحاني الذي بسط الله به وجه هذه الدنيا ، وإنما المرأة ـ بتقرير الله تعالى وصريح بيانه ـ أول نوع من أنواع هذه الشهوات ، أوَليس هو القائل : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران : ١٤] ، وإذًا ، فالمرأة في حياة الإنسان أخطر ابتلاءٍ دُنيوي على الإطلاق ، فالمرأة تستطيع إذا شاءت أن تجعل من شأن نفسها بلاءً صاعِقاً للرجل ، لا يكاد يَجد سبيلاً

للنجاة منه ، وتستطيع أن تجعل من شأْن نفسها عوناً له على السَّيْر في طريق السلامة والنجاة .

وكم من أمة كانت ذات شأن وسلطان بين سائر الأمم ، فتضاءل شَأنُها ثم تَهاوى سُلطانُها بما شاع بينها من الإباحية والتَّفسُّخ الأخلاقي ، ولم يَكن عامل ذلك كله إلا المرأة ! وما قصة انمحاق الدولة الرومانية والمزدكية والحضارة الهندية عن الناس ببعيد .

ومن هنا كان أخطر الوظائف الإسلامية التي كَلَّف الله بها المرأة ، أن تُغمد سلاح فتنتها أمام الرجال ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، حتى لا يَقعوا في رَهَقٍ من أمر هذا البلاء أو الامتحان .

وقد تمَّ الإجماع على أنَّ المرأة لا تُحرز رِضى الله تعالى عنها بعمل من الأعمال الصالحة ، كما تُحرزُه بالسعي في سبيلٍ يُعين الرجل على الاستقامة الخلقية ، ولا تُسبب غَضب الله تعالى عليها بعمل من الأعمال المحرَّمة ، كما تسبب ذلك بالسعي في سبيل إقصائه عن أسباب الاستقامة والعفة الخلقية .

وما كان أكثر أهل النار النساء ـ بإخبار النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح ـ إلا لجملة عوامل مِن أهمها أنّهنّ لا يتَّقين الله تعالى في هذه الوظيفة الخطيرة التي أناطها الله تعالى بهنّ(١) .

---

(١) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ : قالَ النَّبِيُّ ﷺ : (أُريتُ النَّارَ فَإذا أَكْثَرُ أَهْلِها النِّساءُ ، يَكْفُرْنَ) قيلَ : أَيَكْفُرْنَ باللهِ ؟ قالَ : (يَكْفُرْنَ العَشيرَ ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسانَ ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْداهُنَّ الدَّهْرَ ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا ، قالَتْ : ما رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب كفران العشير ، برقم : (٢٩) . وأخرجه مسلم=

إن أهم ما يُخيف الغرب بشطريه الأوربي والأمريكي مِن المسلمين إنما هو إسلامهم ! فلقد علم قادته ـ نتيجة دراسات موضوعية مستوعبة ـ أن النهضة الأوروبية لم تُشرق في حياتهم إلا يومَ أن غربت فاعلية الإسلام وقوته من حياة المسلمين .

ونتيجةً لهذا اليقين المستقر في أعماقهم ، فإنهم لا يَسعَون للمحافظة على مكاسب نهضتهم هذه بوسيلة أهم وأخطر من العمل الدائب بكل الوسائل الممكنة على أن يَظل المسلمون بعيدين عن إسلامهم ، تائهين عن تاريخهم ومصدر أمجادهم ، وعلى أن يَشغلوا عن جوهر الإسلام وحكمه بكل ما يَصلح أن يكون تَعويضاً لهم عن ذلك .

ولكن كيف اتخذ قَادة الغزو الفكري من عُنصر المرأة سَبيلاً لتحقيق الغاية التي كانوا ولا يزالون يستدفنونها ؟

والجواب باختصار : إنهم ساروا إلى ذلك في خط مُعاكس لكل ما قد قَضى به الإسلام مِن حُكمٍ في حق المرأة ! .

فمما قضى به الإسلامُ في حقِّ المرأةِ ، أن تتمتع بالصيانة والستر ، وأن لا تُبدي من مفاتنها أمام الرجال ، فكان سبيل هؤلاء هو العمل على إبعادها ما أمكن عن قيود الصيانة والستر ، واستعانوا لتحقيق ذلك بكل مُنافق عليم اللسان ، مُستعد لأن يُبدل كلام الله وحُكمه لقاء عَرَضٍ من الدنيا قليل .

= في صحيحه ، كتاب العيدين ، برقم : (٨٨٤) ، ومعنى يَكفرن : ينكرن الإحسان ، والعشير الزوج .

ومما قضى به الإسلام ، أن لا تَتبرج المرأة المسلمة كتبرجها الجاهلي المعروف ، وأن تَقَرَّ في بيتها وتبذل قُصارى جهدها في سبيل إنشاء أُسْرَةٍ صالحةٍ وتربيةِ ذرِّيةٍ طيبة .

فكان سبيل هؤلاء هو العمل على أن لا تُطيق المرأة قراراً في بيتها ، وأن تحمل من أعباء الحياة ووظائفها المختلفة ما لا يَدع لها مجالاً للنظر في بيتها أو تربية أولادها ، واستعانوا لتحقيق ذلك بالتركيز على أضعف نقطة يُعاني منها المسلمون ، وأخطر عُقدة مستحكمة ، فلقد راحوا يُروجون بأنَّ هذا هو سِرُّ تَخلُّف المسلمين ، وأن التصنيع لا يَنهض إلا بإشراك المرأة في العمل ، كما راحوا يُكررون ويعيدون على مسامع المسلمين بأن العالم الغربي إنما يَتَقدمهم بشيءٍ واحد ؛ هو التَّنبُّه إلى هذه الحقيقة ، فهم يستغلون سائر طاقاتهم الإنسانية بدلاً مما يَفعله المسلمون من إهدار نصفها ! .

ولقد انطلت هذه الحيلة التي باتت اليوم قديمة ومكشوفة ، على عقول طائفةٍ كبيرةٍ من ناشِئَة المسلمين وقادَتِهم ، حتى باتوا يَتصورون حَقّاً بأن سِرَّ تَخلُّف المسلمين إنما يَكْمُن في هذا الحجاب الذي تُسدله المرأة على وجهها ، أو تُفيض منه على مفاتنها ، وأنه ليس بيننا وبين أن نَلحق بركب الْمَدنية الحديثة ونتساوى مع من حولنا من شعوب العالم الراقي إلا أن نضاعف أيدي الرجال العاملين بمثلها من أيدي النساء العاملات .

ولقد بات الحديث بعد ذلك عن حُكم الإسلام في لباس المرأة وعملها وتَعَلُّمها مثار استهجانٍ أو محل استشكال ، بل بات ذلك دليلاً

عند هؤلاء الناس على أن الإسلام إنما يَشد أهله إلى الوراء ، بدلاً من أن يدفع بهم إلى التقدم والصعود في مدارج الرقي .

وزاد البلاء خُطورة ما ظَهر حَول وخَلف هؤلاء الناس ـ من متلاعبين بنصوص الشريعة الإسلامية وأحكامها ـ ابتغاء الحصول على مآرب دنيوية ، أو اتقاء خسارةِ مركز أو زعامة أو منصب .

❊ ❊ ❊

كل ما عدا الوجه والكفين من المرأة عورة

لما جاء الإسلام وتنزّلت أحكامه الشرعية تترى ، نزل في حقّ المرأة ولباسها قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب : ٥٩] ، ونزل أيضاً في حقِّها قوله جلَّ جلاله : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٣١] .

فطبيعة هذه التعاليم عامةٌ لسائر المسلمات ، وليس فيها ما يدعو إلى أن تكون خصوصية لنساء النبي ﷺ ، وإنما جاء الخطاب لهنَّ خاصّة تشريفاً لهنَّ ، وإلْماحاً بأنّهنّ أَولى النساء بالانصياع لهذه الأوامر والتعليمات .

وقد وضع البيان الإلهي هذا الحكم ضمن إطارٍ بارزٍ من الخطورة والاهتمام ، عندما عدّدَ أصناف الأقارب والناس الذين يُستثنون من عموم هذا الحكم صنفاً صنفاً ، وبتفصيلٍ لا مزيد عليه ، مع ما يغلب

على الأسلوب القرآني من الاعتماد على الإجمال في بيان معظم الأحكام الشرعية ، وترك التفصيل فيه لبيان السنة المطهرة ! .

فمن أجل ذلك ، أجمع أئمة المسلمين كلهم ـ لم يشذّ عنهم أحد ـ على أن ماعدا الوجه والكفَّين من المرأة داخل تحت وجوب الستر ، إذ الظاهر الذي قد تتحرّج المرأة من ستره ، لا يعدو ـ مهما أردنا التساهل ـ أن يكون الوجه والكفين على حالةٍ طبيعيةٍ لا زينة فيهما .

فلم يَقع بين أئمة المسلمين ـ من ذلك في أي عصر من العصور ـ خلاف في أنه يَحرم على المرأة أن تَكشف أمام الأجانب عنها ، وهم من عدا الأصناف الذين استثنتهم الآية شيئاً غير الوجه والكفين من أي جزء من أجزاء جسمها .

تحقيق العلماء في الوجه ذاته :

إلا أن محل البحث والنظر فيما بينهم إنما كان في أمر الوجه نفسه ، وقد انقسم العلماء في ذلك إلى فريقين :

فأما الفريق الأول : فقد فسر ما ظهر من الزينة في الآية المذكورة ، بزينة الثوب وأطراف الأعضاء وما قد يبدو معها كالخاتم ونحوه ، فبقي الوجه والكفان داخلَين في عامة ما يحظر كشفه ، وعليه فلا يجوز للمرأة أن تكشف حتى وجهها وكفيها أمام غير ما استثناهم الله تعالى من أصناف الأقارب . ويستدل أصحاب هذا التفسير ـ وهم الحنابلة وبعض الشافعية ـ على ما ذهبوا إليه بأدلةٍ كثيرةٍ نذكر منها :

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما ، عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ : (الْمُحْرِمَةُ

لا تَنْتَقِبُ وَلا تَلْبَسُ الْقُفَّازَيْن)[١] . وعن عائِشَةَ رَضيَ اللهُ عَنْها قالَتْ : (لاَ تَلَثَّمْ وَلاَ تتبَرْقَعْ ، وَلاَ تَلْبَسْ ثَوْبًا بِوَرْسٍ وَلاَ زَعْفَران)[٢] .

فما معنى نهي المرأة عن أن تتبرقع أو تتنقب أثناء الإحرام بالحج لو لم تكن في عامة أحوالها الأخرى مبرقعة ؟ .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، (أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ العَبَّاسِ كانَ رَديفُ رَسولِ اللهِ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ ـ وذكر قصَّة الخثْعميَّة التي سأَلتْ عن الحَجِّ عن أَبيْها ـ فَأَخَذَ الْفَضْلُ يَلْتَفِتُ إِلَيْها ، فَأَخَذَ رَسولُ اللهِ ﷺ الْفَضْلَ فَحَوَّلَ وَجْهَهُ مِنَ الشِّقِّ الآخَر)[٣] . قالوا : فلولا أن وجهها عورة لا يجوز نظر الرجل الأجنبي إليه ، لما فعل رسول الله ﷺ ذلك بالفضل ، أما المرأة ذاتها فقد كان عذرها في كشفه أنها كانت محرمة بالحج .

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قالَتْ : (لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب : ٥٩] ، خَرَجَ نِساءُ الأَنْصارِ كَأَنَّ عَلَى رُؤوسِهِنَّ الْغِرْبانَ مِنَ الأَكْسيَة)[٤] ، لسترهن وجوههن بفضل أكسيتهن ، وإلا لم يَتَأَتَّ تشبيههن بها .

---

(١) (١) أخرجه أبو داود في سننه ، باب ما يلبس المحرم ، برقم : (١٨٢٦) . وأخرجه الترمذي في سننه ، باب ما جاء فيما لا يجوز للمحرم لبسه ، برقم : (٨٣٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) (٢) أورده البخاري مُعلقًا بصيغة الجزم في صحيحه ، كتاب الحج ، باب ما يلبس المحرم من الثياب والأردية والأُزُر ، قبل الحديث (١٥٤٥) .

(٣) أخرجه النسائي في سننه ، باب حج المرأة عن الرجل ، برقم : (٢٦٤٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه ، باب في قوله تعالى : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ ، برقم : (٤١٠١) .

وأما الفريق الثاني : فقد فسر ﴿ما ظهر منها﴾ بالوجه والكفين ، إذ هما الظاهر الذي قد تتحرج المرأة من استدامة ستره ، وهما الظاهر الذي تكشفه المرأة في الصلاة ، فينبغي أن يكون الحكم في النظر مثله .

ولكن أصحاب هذا التفسير ـ وهم المالكية والحنفية وبعض الشافعية ـ شرطوا جواز كشف المرأة وجهها أن لا يَكون ذلك في حالة تُثير الفتنة ، بأن تكون مزينة أو بارزة الجمال ، وأن لا تظهر أمام فُساق يَغلب على الظن أنهم لا يَغضون من أبصارهم كما أمر الله ، بل ينقادون لدوافع أهوائهم وشهواتهم ، فإن فُقِد أحد الشرطين كان عليها أن تستر وجهها دَرءاً للفتنة بالنسبة للحالة الأولى ، وإزالةً للمنكر الذي تَسببت به في الحالة الثانية ، وإنما يكون إزالة المنكر في مثل هذه الحال بأن تمنع الفُسَّاق من النظر إليها ، أو بأن لا تَخرج من بَيتها إلى هؤلاء الناس ، أو بأن تحجب وجهها عنهم ، وهو أيسر الأسباب الثلاثة .

وعلى هذا فإن كل ما ورد من الأحاديث الصحيحة الدالة على الانتقاب ـ مما قد احتج به الفريق الأول ـ يُفسَّر بحالة الخوف من الفتنة ، أو يُفسَّر بالرغبة في الحيطة والورع ، والراجح أن أكثر نساء الصحابة والتابعين فيهن من الورع وحب الحيطة في دينهن ما يَدفعهن إلى الانتقاب .

محل ونتيجة الخلاف :

فقد تَحصَّل من هذا الكلام أن أئمة المسلمين كلهم قد أجمعوا على ما يلي :

أولاً : لا يجوز أن تكشف المرأة ـ أمام غير الذين استثناهم الله عزَّ وجل ـ شيئاً أكثر من وجهها وكفَّيْها .

ثانياً : لا يَجوز لها أن تَكشف الوجه والكفين أيضاً ، إذا علمت أن حولها من قد يَنظر إليها النظر المحرم الذي نهى الله عنه ، بأن يُتبِع النظرة النظرة ، ولا تَستطيع أن تُزيل هذا المنكر إلا بحجب وجهها عنه .

ثالثاً : اتفقوا على جواز كشف المرأة وجهها ترخُّصاً ، لضرورة تعلم أو تطبب أو عند أداء شهادةٍ أو تعامُلٍ من شأنه أن يَستوجب الشهادة .

فهذه النقاط الثلاث محل إجماع لدى الأئمة وعامة الفقهاء .

ثم إنهم اختلفوا فيما وراء هذه الأحوال ، وهو أن تكون المرأة بادية الوجه في مجتمع عام ، وليس ثَمَّة من يَتعمَّد النظر إليها بِرِيبَة ، وهذا فَرضٌ وَهميٌّ اليوم ، فقد ذهب البعض ـ كما رأينا ـ إلى أنه لا حرج عليها في ذلك ، وذهب آخرون إلى أنه يجب عليها أن تستر وجهها مطلقاً .

هذا هو حكم الإسلام في لباس المرأة ، اتفقت عليه كلمةُ علماء المسلمين كلهم ، معتمدين في ذلك على نصوصٍ واضحةٍ صريحةٍ في كتاب الله تعالى ، وأحاديث ثابتةٍ صحيحةٍ من سنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

فإذا عثرنا بعد ذلك على وقائع وتصرفات فَردية لبعض نساء

الصحابة أو التابعين أو غيرهم ، تخالف هذا الذي أجمع عليه الأئمة مما دَلَّ عليه صريح الكتاب والسنة ، فإنها وقائع محجوجة بالحكم المبرم الذي دَلَّ عليه إجماع الأئمة وصريح الكتاب والسنة ، وحاشا أن يكون حكم الله هو المحجوج بها .

ولا تُحدد مصادر الشريعة الإسلامية شَكلاً أو نوعاً من اللباس الذي يَجب أن تلبسه المرأة ، وإنما المطلوب أن يَكون سابغاً لجسمها ، لا يُبرز شيئاً من مفاتنه ، ولا يَحكي أي جزء من أجزائه ، وكمال الثوب طُولاً أن يصل إلى الكعبين ، فإن ارتفع عنه كُره وإن كان القدمان مَستورين بجَوْرَبٍ سميك .

عملها وتعلمها :

أما أن تُباشِر المرأة عملاً ما ، تستدرُّ به الرزق لنفسها أو لأُسْرَتِها ، أو أن تَعكف على علم من العلوم المفيدة تدرسه وتتعلمه ، فليس للإسلام فيه إلا الحكم العام الذي يَشمل المرأة والرجل على السواء .

فإن عُثرت على حالة يَنهى فيها الإسلام المرأة عن أن تَعمل خارج بيتها أو تتعلَّم ، فذلك لما قد يَصحَبُه من ارتكاب لبعض المحاظير ، كأن لا تَلتزم أحكام الستر والاحتجاب عن الأجانب من الرجال على النحو الذي أوضحناه ، أو كأن يكون عملها يَستلزم قَطع أو تَضييق سبيل لاكتساب على الرجال ، فيترتب على ذلك نشوء اضطراب في نظام المسؤوليات المنوطة بالرجال بالنسبة لقضايا الأسرة خاصة والمجتمع الإسلام بعامة .

والمسألة في ذلك محكومة بالقاعدة الأصولية المعروفة : « ما لا يتمُّ الواجِبُ إلا بِه فهو واجبٌ ، وما يترتَّب عليه مُحرَّمٌ فهو مُحرَّم » .

فالعمل مهما كان شريفاً يغدو غير شريف إذا استدعى من المرأة أن تخرج عن سلطان سَتْرِها ، وأن تتبرج أمام الأجانب من الرجال بلهوٍ مُحرَّمٍ بالنسبة لكلٍّ من الرجل والمرأة معاً ، إذ هو كما يَستلزم من المرأة الوقوع في إثم التبرج أمام الرجل ، فهو يستلزم من الرجل الوقوع في إثم مخالطتهنَّ ودوام النظر إليهنَّ والتعرض للافتتان بهنَّ .

والعمل مهما كان مباحاً في أصله ، يغدو بالنسبة للمرأة غير مباح ، إذا تَبيَّن أنه يخلق اضطراباً في نظام المسؤوليات الاجتماعية التي وزَّعها الإسلام بين الرجال والنساء .

شُبَهٌ علميّةٌ مصطنعة :

الشبهة الأولى : حديث تعلَّق به بعضهم لإثبات أن المرأةَ لها أن تختلط بالأجانب عنها من الرجال كما تشاء ، ودون أن تتكلَّف لذلك أي ستر أو احتجاب ، وهو ما رَواهُ مُسلمٌ[1] عَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ جَارًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَارِسِيّاً كَانَ طَيِّبَ الْمَرَقِ ـ كِنايةً عَنْ طيْبِ الطَّعام ـ ، فَصَنَعَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ جَاءَ يَدْعُوهُ ، فَقَالَ : (وَهَذِهِ ؟) ـ لِعَائِشَةَ ـ فَقَالَ : لا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (لا) ، فَعَادَ يَدْعُوهُ ، فَقَالَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، باب ما يفعل الضيف إذا اتبعه من دعاه صاحب الطعام ، برقم : (٢٠٣٧) .

رَسُولُ اللهِ ﷺ : (وَهَـذِهِ ؟) ، قَـالَ : لا ، قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ : (لا) ، ثُمَّ عادَ يَدْعُوهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : (وَهَذِهِ ؟) ، قَالَ : نَعَمْ فِي الثَّالِثَةِ ، فَقَامَا يَتَدَافَعَانِ حَتَّى أَتَيَا مَنْزِلَهُ . فهذا الحديث لا يَدلُّ مما نحن فيه على أكثر من شيءٍ واحدٍ ، وهو أن رسول الله ﷺ اصطحب عائشةَ معه إلى بيت الرجل الفارسي ، وهو كما دَلَّت أحاديثُ كَثيرة أُخرى على اصطحاب الصحابة نساءهم إلى المساجد ، وكما دَلَّت أحاديث أخرى على زيارة كثير من الصحابة لأمهات المؤمنين عامة وعائشة رضي الله عنها خاصة ، من أجل رواية الحديث أو أخذ الفتوى أو السؤال عن بعض أحوال النبي ﷺ ، فأيُّ تَعارضٍ بين هذه الدلالة التي لا إشكال فيها ولا نزاع ، والحكم الإلهي القاضي باحتجاب المرأة عن الرجال والآمر لهم إذا جاءوا يَسألونهن حاجة أن يَسألوهن من وراء حجاب ! .

أما أن يرفض رسول الله ﷺ الاستجابة لدعوة الفارسي إلا أن تَصحبه عائشةُ رضي الله عنها ، فشيءٌ ثابت لا إشكال فيه ولا منقصة ، بل إن فيه الصورة البارزة الحَيَّة لجميل خُلُقه ﷺ مع أهله ورحمته وعاطفته تجاهها ، فقد كانت تمرُّ الأيام الطويلة المتتابعة ولا يستوقد في بيت رسول الله ﷺ نارٌ لطعام ، وإنما طعامه ﷺ وطعام أهله ـ كما تروي عائشةُ رضي الله عنها ـ الأسودان : التمر والماء[1] ، أفيتركها

---

(١) عَنْ عائِشَةَ رَضيَ اللهُ عَنْها أَنَّها قالَتْ لِعُرْوَةَ : (ابْنَ أُخْتي ، إنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الهِلاَلِ ، ثُمَّ الهِلاَلِ ، ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ ، وَما أوقِدَتْ في أَبْياتِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نار) ، فَقُلْتُ يا خالَةُ : ما كانَ يُعيشُكُمْ ؟ قالَتْ : (الأَسْوَدانِ : التَّمْرُ والماء) أخرجه=

رسول الله ﷺ وهي إنما تَرضى بالشظف أُسوة به ليجلس مِن وَرائِهَا إلى مائدةٍ شهيةٍ عامرةٍ عند جاره الفارسي ؟! ما كان خلق رسول الله ﷺ ليرضى بذلك ! .

وأما أن يكون في ذلك ما يَدلُّ على أن عائشة رضي الله عنها ذهبت مع رسول الله ﷺ متبرجة ، وجلست أمام الفارسي سافرة ، واختلطت العائلات على نحو ما يتم اليوم في الأسر الإسلامية التي لا سلطان للدِّين على حياتها ، فهو شيء لا سبيل في الحديث لأي دلالة عليه ، وحَمل الحديث على هذا المعنى كحمل الشرق على أن يُولد من داخله الغرب .

فتلك هي قصة الشبهة الأولى ، وما هي بشبهة ، ولكنها تضليل رخيص .

الشُّبهة الثانية : ما رواه البخاري عَنْ سَهْلٍ قالَ : لَمَّا عَرَّسَ أَبو أُسَيْدٍ السَّاعِديُّ دَعا النَّبيَّ ﷺ وَأَصْحابَهُ ، فَما صَنَعَ لَهُمْ طَعامًا وَلاَ قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ إلاَّ امْرَأَتُهُ أُمُّ أُسَيْدٍ ، بَلَّتْ تَمَراتٍ في تَوْرٍ مِنْ حِجارَةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، (فَلَمَّا فَرَغَ النَّبيُّ ﷺ مِنَ الطَّعامِ أَماثَتْهُ لَهُ فَسَقَتْهُ ، تُتْحِفُهُ بِذَلِكَ)[١] .

فلقد تعلَّق بهذا الحديث أيضاً من اشتهى أن لا يكون على المرأة

= البخاري في صحيحه ، باب الهبة وفضلها والحض عليها ، برقم : (٢٥٦٧) . وأخرجه مسلم في صحيحه ، باب الزهد والرقائق ، برقم : (٢٩٧٢) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب قيام المرأة على الرجال في العرس وخدمتهم بالنفس ، برقم : (٥١٨٢) ، والتور : إناء من نحاس أو غيره ، وأماثته : هرسته وأذابته .

من حرجٌ في أن تستقبل الضيوف من أصدقاء زوجها أو أهلها ، فتخدمهم بنفسها وتقدم لهم الضيافة والشراب بيدها وتجالسهم للتفكُّه والحديث ، على نحو ما هو واقع في كثير من البيوتات التي انحسرت عنه ظلال الفضيلة وسلطان الدين .

والمنكر في الأمر ليس عبارة عن تقديم المرأة فنجان القهوة إلى الضيوف ، وإنما المنكر ما قد يُصاحب ذلك من الزينة التي تتحلى المرأة بها ، وليس الشأن فيما تعارف عليه الناس اليوم في تقديم فنجان القهوة ، وإنما الشأن كل الشأن في المظهر الخلاب الذي تتقدم به المرأة مع فنجان القهوة .

ولقد علم الفقهاء وعلماء المسلمين جميعاً ، أنه لا ضير في أن تتقدَّم المرأة بسترها الإسلامي الكامل الذي شرحنا حدوده ، فتقدِّم إلى ضيوفٍ في دارها طعاماً أو شراباً تُكرمهم به ، وزوجها أو قريبها جالس .

وهذا هو الذي وقع من امرأة أبي أسيد في حفل عرسه ، فقد قال ابن حجر عند شرح هذا الحديث : « ولا يخفى أن محل ذلك عند أمن الفتنة ، ومراعاة ما يجب عليها من الستر » .

فهذه ليست شُبهةً تحتاج إلى بحث ، ولكنها شَبكة صياد لا نَحتاج معها إلا إلى حذرٍ واتقاء .

الشبهة الثالثة : أن في شهيرات نساء الإسلام ـ على اختلاف طبقاتهن ـ كثيراً ممن لم يضربن على وجوههن الحجاب ، على الرغم مما عُرِفنَ به من شدة الاختلاط بالرجال .

ولقد عمد المروجون لهذه الشبهة إلى التاريخ وكتب التراجم ، ينقبون فيهما بحثاً عن مثل هؤلاء النساء ، حيث التقطوا أسماء عدد من النساء لم يَكنَّ يُبالين في ما نقلته الأخبار عنهن أن يَظهرن سافرات أمام الرجال ، وأن يَلتَقين معهم في ندوات علمية وأدبية دون أي تحرزٍ أو تحَرُّج ، فذكروا منهن عائشة بنت طلحة التي لم تكن تستر وجهها عن أحدٍ مطلقاً ، والسيدة سكينة بنت الحسين التي كان لها مَجلسها وندواتها الأدبية التي كان يَلتقي فيها صفوة الأدباء والشعراء ، وهند بنت النعمان بن بشير التي كانت تَبرز في كثير من المناسبات أمام الرجال سافرة الوجه ، والسيدة زوجة عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، والسيدة خرقاء العامرية وفاطمة بنتها اللتان كان لهما مجلسهما المشهود أثناء موسم الحج ، حتى أحبَّها ذو الرمة وأنشد فيها من عيون روائعه الشعرية ، وولاَّدة عَشيقة ابن زيدون الذي كان يَغشى مُنتداها الأدبي المشهور .

بأخبار مثل هؤلاء النساء ، احتجّ صاحب هذه الشبهة على أن الشريعة الإسلامية لم تُقيد المرأة بأي ستر أو احتجاب ، ولم تَمنعها من أن تُخالط الرجال في مجالسهم وأنديتهم دون أي فارق بينها وبينهم ، فأي مصدر من مصادر الشريعة يُعدُّ مثل هذه الأخبار ؟ أي كتاب ، أم سنَّة ، أم إجماع ، أم قياس ، وما علمنا وراء هذه المصادر الأربعةِ دَليلاً يَثبت به تشريع ! .

وإذا كانت تراجم آحاد الناس وأحوالهم دليلاً شرعياً متَّبعاً ، فما لنا لا نقول بحلِّ شرب الخمر ، وقد وُجِد في الصحابة والتابعين وخلفاء

المسلمين مَن شَرِبَها ؟ بل ما لنا لا نَقول بحلِّ الفاحشة ، وقد وُجِد في الصحابة والتابعين ومن بعدهم مَن قد ارتكبها ؟ وما لنا نُردد ما قاله رسول الله ﷺ (كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاء)[1] ، إذا كنا نَعدّ أخطاء بني آدم حُجَّة وتشريعاً ؟ .

إن من بديهيات الإسلام أن تصرفات أحد من الناس لا تُعتبر دليل تشريع إلا أن يكون رسولاً أُوحي إليه بشرعٍ من الله عزَّ وجل ، فإن كُلاً من أعماله وأقواله وصفاته وإقراره يُعتبرُ مصدر تشريع ، فهل كان هؤلاء النساء اللاتي التقط صاحب الشبهة أخبارهن ، رسولات من الله إلى الناس ؟ ومهما يكن من شأنهن ، فلينظر صاحب الشبهة ، فقد كان إلى جانب كل منهن سوادٌ عظيم من النساء المتحجِّبات الساترات لزينتهن عن سائر الأجانب من الرجال ، فلماذا لا يكون حال هذه الجمهرة العظيمة هي الحُجَّة في هذا الشأن بدلاً من حال أولئك القلة اللاتي جمعهن صاحب الشبهة من شتى الطبقات والعصور ؟ .

أجل ، لقد كانت عائشة بنت طلحة تأبى أن تَحجب وجهها ، وقد كان زوجها مُصعب بن الزبير يَلومها على ذلك بين الحين والآخر ، وإنا لنرى في إِنكار مصعب عليها من الدليل على الحقِّ الذي نقول ، أضعاف ما في تصرفها من الدليل على الباطل الذي يُروِّجون له .

ولقد كانت فاطمة العامرية أيضاً ـ كما قالوا ـ تكشف وجهها أمام

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، باب صفة القيامة ، برقم : (٢٤٩٩) . وأخرجه ابن ماجه في سننه ، باب ذكر التوبة ، برقم : (٤٢٥١) . وصححه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤/ ٢٤٤) .

الرجال ، حتى افتُتِنَ بها ذو الرمة وصاغ كثيراً من قصائده تغزُّلاً أو تشوقاً إليها .

ولقد كانت وَلاَّدة أيضاً لا تُبالي أن تَستقبل الأدباء والشعراء في مُنْتداها الأدبي بادية الوجه والمحاسن ، حتى تَوَلَّه بها ابن زيدون .

ولكنَّا نرى والله في افتتان ذي الرمة بالأولى ، وتَوَلُّه ابن زيدون بالثانية ، من الدليل على الحقِّ الذي شرعه أحكم الحاكمين ، أضعاف ما في استهتار كل منهما من الدليل على ما يَشتهيه المبطلون ، إن صحَّ بينهما وجه للمقارنة والمفاضلة الشكلية ! .

وحصيلة هذا الكلام كله ، أن الدليل الشرعي إنما هو آيةٌ من كتاب الله ، أو حديثٌ عن رسول الله ﷺ ، أو إجماعُ أهل الحَلِّ والعَقْد من المسلمين ، أو قياسٌ على حكم ثبت بدليل من تلك الأدلة الثلاثة ، فهذه الأدلة هي التي تتحكم في تصرفات الناس وشؤونهم ، وليست تصرفات الناس هي التي تتحَّكم فيها بأي نسخ أو تحويرٍ أو تفسير .

الشبهة الرابعة : دليل اجتهادي يعتمد في الشكل على قاعدةٍ أصوليةٍ مشهورة ، وهي : « تتبدَّل الأحكام بتبدُّل الأزمان » ، ويسير في النظر والاجتهاد على الطريقة التالية :

لم تكن الحياة فيما مَضى قائمة على أساس التصنيع وسلطان الآلة ، فلم تَكن الحاجةُ مَاسّةً إلى تكاثر الأيدي العاملة وتضافرها ، وقد كان التشريع ـ سواء فيما يتعلق بشأن المرأة وغيرها ـ متفقاً مع طبيعة تلك الحياة ، ومُتَّسقاً مع مقتضيات تلك المرحلة الحضارية .

هذه القاعدة هي كل ما يحفظه ويعرفه المفتونون بالحياة العصرية الجديدة من قواعد الشريعة الإسلامية وأصولها ، فلم يَكن ثَمة ما يدعو إلى خروج المرأة من بيتها إلا في حالات اضطرارية نادرة .

ولكن الحياة لما تطورت بعد ذلك تطورها الهائل العجيب ، وأصبحت الآلة محور النمو الحضاري عند سائر الأمم والشعوب ، وإذا التصنيع ضرورة لا بُدَّ منها لمقاومة أسباب التخلف ، أصبحنا بحاجة ماسة إلى حشد كل يدٍ عاملةٍ والاستفادة من كل طاقةٍ إنسانيةٍ لِلَّحاقِ بحركة الآلة وإدارة عجلة التصنيع ، وإنما يكون ذلك باشتراك المرأة التي هي نِصف المجتمع مع الرجل في قيادة هذه الحياة الجديدة والاستفادة من طبيعتها ، ولا يُمكن أن تَشترك المرأة معه في شيءٍ من مَرافق الحياة الجديدة وهي مُقيدة بقيود الستر والحجاب .

وهكذا تَبدَّل الزمن الذي نَشأ في ظِلِّه الحكم الشرعي السابق ، فاقتضى الأمر أن يَتبدل الحكم معه تطبيقاً لقاعدة : « تتبدَّلُ الأَحكامُ بتبدُّلِ الأَزمان » .

فهذه شبهة اجتهادية يُرَدِّدُها اليوم كثيرٌ من الناس ، وبعضهم يُدرك وجه المغالطة فيها ، ولكنه يُخادع المسلمين بها ، وبعضهم يَحسبها دَليلاً شرعياً صحيحاً ، فَيَمضي يَحتجُّ بها ويُفتي بين الناس على أساسها ! .

والحقيقة أنه لا القاعدة الأصولية التي يَحتجُّون بها ذات صلة أو علاقة بهذا الموضوع ، ولا التطور الصناعي المزعوم مُستوجب لكل هذا الذي يَدَّعون .

مثل هذا الكلام يُقال في أمَّة تَشكو مَصانعُها الوفيرة العامرة الفراغ من الأيدي التي تديرها ، أو في أمة تَبحث فيما بيَنها فلا تَجد شاباً واحداً يَتسكَّع على ناصية شارع أو يَجترُّ البطالة في زاوية أحد المقاهي ، ومعلوم أن مِثل هذه الأمة لم تَظهر بَعدُ حتى في دول الدرجة الأولى بهذا الاعتبار .

فهذه هي الشبهات التي يَتمسَّك بها مَن يَضيقُ ذَرْعاً بحجاب المرأة وسترها ، ولا أظن أن ثمَّة مزيداً عليها ، ولو علمت أنه قد يوجد مزيد لبحثت عنه ثم عرضته للنظر والتقويم .

* * *

أقوالٌ لا رصيدَ لها

إن عفّةَ الفتاة حقيقةٌ كامنةٌ في ذاتها وليست غِطاءً يُلقى ويُسدَل على جسمها :

إن هذا صحيح ، فما كان للثياب أن تَنسج لصاحبها عِفّةً مفقودة ، ولا أن تَخلق له استقامة معدومة ، ورب فاجرة سترت فُجورها بمظهر سترها ، ولكن مَن هذا الذي زَعم أن الله إنما شرع الحجاب لجسم المرأة لِيَخلق الطهارة في نفسها أو العفة في أخلاقها ؟ ومن هذا الذي زعم أن الحجاب إنما شرعه الله لِيكون إعلاناً بأن كل مَن لم تَلتزمه فهي فاجرة تَنحط في وادي الغواية مع الرجال ؟ .

إن الله جلَّ جلاله إنما فرض الحجاب على المرأة مُحافظة على عِفة الرجال الذين قد تَقع أبصارهم عليها ، لا حِفاظاً على عِفتها من الأعين التي تراها ! ولئن كانت تشترك معهم هي الأخرى في هذه الفائدة في كثير من الأحيان ، فإن فائدتهم من ذلك أعظم وأخطر .

إن حجاب المرأة عائق عن مُشاركتها الرجل في نهضته الفكرية والثقافية والاجتماعية ، وإنما أولى الخطوات إلى أي نشاط فكري أو اجتماعي أن تسفر الفتاة عن وجهها وتحطم ما بينها وبين الرجل من حواجز واعتبارات ، كما أن أول السبيل للقضاء على مَلكاتها واستعداداتها الفكرية والاجتماعية المختلفة ، أن تحبس نفسها في

قفص هذا الحجاب ، وتضع بينها وبين الرجل حاجزاً مما تسميه الستر والآداب ! .

وما يتحدث أحدهم عن جهل المرأة وتخلُّفها ، إلا ويجعل من صورة المرأة المحتجبة مظهراً لذلك ، وما يتحدث عن ثقافة المرأة وتقدُّمها ونشاطها الفكري والاجتماعي ، إلا ويجعل من صورة المرأة السافرة مظهراً لذلك ! .

وإنني أجزم بأن هذا التلازم المختلق إن هو إلا بُهتان كبير لا أساس له ولا دليل عليه ! وإنني أقرر لك ـ وأنا شاهد عيان ـ أن في فتياتنا الجامعيات مُتحجبات بحجاب الإسلام ، مستمسكات بحكم الله عزَّ وجل ، وهن أسبق إلى النهضة العلمية والثقافية والنشاط الفكري والاجتماعي من سائر زميلاتهن المتحررات .

وإن كل مُطلع على التاريخ ، يعلم أن تاريخنا الإسلامي مَليءٌ بالنساء المسلمات اللاتي جمعن بين الإسلام أدباً واحتشاماً وستراً وعلماً وثقافة وفكراً ، وذلك بَدءاً من عصر الصحابة فما دون ذلك ، إلى عصرنا الذي نعيش فيه .

إن التخلف له أسبابه ، والتقدم له أسبابه ! وإقحام شريعة الستر والأخلاق في الأمر ، خدعة مكشوفة ثقيلة لا تَنطلي إلا على مُتخلف عن مستوى الفكر والنظر الحر .

ونحن لا نَشك أنه قد التقى في بعض الأحيان التخلف الفكري والثقافي عند المرأة بِمَظهر الستر والصيانة والاحتجاب ، كشأن بعض النساء في بَعض أطراف الجزيرة العربية والخليج العربي وغيرها من

مناطق ، ولكن مما لا شَك فِيه أن هذا التلاقي لم يَكن أمراً ضَرورياً ، وليس بَينهما أي لُزوم حتمي ، وإنما هو واقع اتفاقي سَاعدته ظروف استعمارية وفكرية مُعينة .

وليس أسهل على المصلحين ـ إذا أرادوا الإصلاح الحقيقي ـ من أن يَفصلوا بين الواقعين بوعي إسلامي سديد ، يؤيد الستر والاحتشام ، ويدفع إلى التزود من العلوم والثقافة النافعة ، ويجعل من كلٍّ منهما عوناً للآخر .

إن الفتاة التي تحبس نفسها عن الناس من وراء حجاب ، إنما تحرم بذلك شبابها بل حياتها من سعادة الزواج ، فالشاب إنما يُقبل على الفتاة التي يُعجب بها ، وإنما يعجبه منها قبل كل شيءٍ جمالها ، وما يَتَّصل به من مظاهر شخصيتها ، وأنَّى له أن يَطمئن إلى ذلك منها إذا لم يتهيأ له أن يراها ، ويخلط نفسه بطرف من شأنها وطباعها ؟ وكيف يتهيأ له ذلك إذا كانت تَأبى إلا أن تَحبس نفسها عنه وراء سُور البرقع والحجاب ؟ .

تلك هي حجَّة الأمهات لبناتهنّ ، تحسب الواحدة مِنهن أنها تَجلب الخير بذلك لابنتها ، وتُقَرِّب السبيل لها إلى اختيار فتى أحلامها ، ويزيدها في ذلك اندفاعاً إغراءات جنود الشيطان من حولها ، يستغلُّون لديها هذه الرغبة ، فيزيدون من مخاوفها إن تَزيت ابنتها بلباس الإسلام ، ويَدعمون آمالها إن هي تحررت منه وانسابت بين صفوف الشباب ، تَعرض من زينتها عليهم وتخلط نفسها بهم .

وإنها لَخدعة باطلة تُوحي بعكس الواقع والحقيقة ! خدعة يَصوغها

دعاة الباطل على علم ، وتنطلي على أفكار الفتيات وأمهاتهن جهلاً وخداعاً ! .

ولو تأمَّلت الواقع الذي نعيش فيه لرأيت نسبة الإقبال على الأسر والفتيات المحافظات للزواج منهن أكثر بما يُقارب الضعف من الإقبال على الأسر المتحرَّرة ، اللاتي يُطَبقّن الوصفة الخادعة التي اغتررن بها ، بل إن الزواج عُموماً يَشيع بين الأسر المحافظة المتدينة أكثر مما يَشيع بين الأسر الأخرى بنسبة تزيد على الضعف ، يعلم تفصيل ذلك كل مَن يَرجع إلى الإحصائيات المفصلة في هذا الشأن .

❋ ❋ ❋

وأخيراً مسألة الرق في الإسلام

هذا بحث اقتضاه اللَّغط الذي ثار في كثير من الأوساط أخيراً حول مسألة الرق والإماء في الإسلام .

ـ أحكام الطوارىء هي التي فتحت باب الاسترقاق مُعاملةً بالمثل مع الآخرين .

ـ عندما أنهى الغرب عهد استرقاقه للأسرى طويت عندنا أحكام الطوارىء ، وعاد التعامل بالأحكام الدائمة الثابتة .

ـ إعتاق الأرقَّاء هي الكفَّارة لمعظم المعاصي التي تَرتكب والحقوق التي تنتهك .

كم من مشكلة يَحسبها بعض الباحثين مُشكلة في الإسلام وحكمه، وهي ليست أكثر من مشكلة جَهلهم بحقيقة الإسلام وحكمه! .

وقد انتهى الأمر ببعض المسلمين في هذا العصر إلى حدّ أنّهم يُريدون أن يعلموا كل شيء عن الإسلام ، وكلّ شيء عن نظامه وطبيعته ، دون أن يتحرك أحدهم عن مجلسه الأرائكي الحالم ، ودون أن تَكلّفه لفهم كل ذلك إلا بقراءة ما طاب له من الجرائد والمجلاَّت وما لفّ لفّها ، ممَّا خَفّ حَمله في اليد وقَلّت مؤونته على الفكر ! .

ومسألة الرّقّ في حكم الإسلام واحدة من المسائل الكثيرة التي يَشتهي بعض الناس أن يقول فيها برأيه ، يزعم أنّه إنّما يُدافع بذلك عن

الإسلام ويكشف عن حقيقته إن كان مسلماً ، أو يُخيّل إليه أنّه يَنال بذلك من سلطانه ويضعف من قوّته إن كان ملحداً ! .

ونقول بكلمةٍ جامعةٍ وجيزةٍ :

سمح الشارع بالاسترقاق في صدر الإسلام ضمن حالاتٍ خاصة ، بمقتضى قانون الطوارىء « أحكام الإمامة » ، ثم أغلق السبيل إليه بموجب بروتوكولٍ عالمي جمع عليه محمد الفاتح مُعظم دول العالم ، وعندئذٍ تمّ العود إلى الشرائع الأساسية والدوريّة في الإسلام .

كان السماح به ضرورة اقتضاها قانون المعاملة بالمثل ـ في كل ما يتعلق بآثار الحرب ـ إذ كانت المجتمعات العربية الجاهلية والدول الغربية على اختلافها تُعرّض الأسرى الذين يَقعون تحت أيديها للقتل والاسترقاق ، وأمَّا إبطاله وإغلاق السبيل إليه فقد كان عَوداً إلى الأصل الذي تَسير عليه الشّرائع السّماوية ، وذلك عندما استطاع فَاتح القسطنطينية « محمّد الفاتح » أن يُقنع الفرنجة وسائر مجتمعات ودول العالم بالإقلاع عن استرقاق الأسرى ؛ إثر الحروب التي تقوم بينهم وبين الآخرين ، وتم توقيع وثيقة بينهم بذلك .

إذن فلا يَوجد استرقاق مُعترف به شرعاً منذ ذلك العهد ، وكل ما يُقْدِم عليه الغرب أو غيره اليوم من ذَلك قَرصنةٌ ليس لها أي مسوّغ شرعي .

ولكن أحكام الطوارىء « أحكام الإمامة » جاهزة في كلّ عصر ، ومِن ثمّ فَهي بالمرصاد لمن يُريد أن يعود لسبب ما إلى الاسترقاق عامّة

أو استرقاق الأسرى خاصّة ، أي إنّ الشّريعة الإسلامية تُعطي الحقّ لوليّ أمر المسلمين حَق معاملة الآخرين بالمثل .

والآن، إليك تفصيلاً وجيزاً لهذه المسألة التي غدت تاريخاً يُروى :

عمد الإسلام إلى ما كان مَعروفاً في العالم عند بعثة خاتم الأنبياء محمّد ﷺ من أنواع الرقّ وأسبابه ، فأقرَّ منها ما لا سبيل إلى إلغائه من طرفٍ واحدٍ ، وهو ما كان مصدره الحرب والأسر ، عملاً بالقانون المعترف به في العالم كلّه وهو قانون المعاملة بالمثل ، وألغى سائرها ممَّا كان مَصدره القرصنة أو المراباة أو نحو ذلك .

ولكن ما معنى أنّ الإسلام قد أقرّ الاسترقاق من هذا الوجه ؟ .

هذا ما يجب فهمه بدقّة ، وهذا هو الأمر الذي يَغيب عن بال كثير من المتسائلين والباحثين ! ولولا ذلك لعلموا أن حكم الإسلام في الرقّ مِن أهمّ البراهين على عظمة الإسلام وخلوده ، وعلى أنّه الشريعة الإلهية الصَّالحة لكلّ زمان ومكان .

تنقسم جملة الأمور المشروعة في الإسلام إلى قسمين :

ـ قِسم تَقوم شرعته على أساس مطلق من حكم الإباحة أو الوجوب أو الندب ، يُخاطَب به الناس جميعاً بوصف كَونهم أفراداً وجماعات ، فهي مشروعات دَورية مُتكرّرة في كل زمان وعصر ، تتعلّق بكل فرد من المسلمين على حدة ، ليس لنبيٍّ ولا لحاكم أو سلطان أن يُغيّر منها ، أو يَقضي بها على بعض الناس دون بعض ، أو في بعض العصور دون الأخرى .

ويمثَّل لهذا القسم بالواجبات والمندوبات الدينيّة المختلفة ، وبالمباحات التي لا يَعترضها أو يَشوبها شيء من المحرّمات كالطعام والشراب ، وهو ما يُسمى بالأحكام التبليغية .

ـ وقسم آخر تَقوم شرعته على أساس من إعطاء الشَّارع جلّ جلاله الصّلاحية للحاكم المسلم أن يقضي فيه بما يَرى أنّه الخير والمصلحة للمسلمين عامّة في ظروفٍ خاصّةٍ وضمن دائرة محدودة لا يتجاوزها .

ويسمى هذا الحكم بحكم الإمامة أو السياسة الشرعيّة ، وهو يَشمل ما يُسمى بأحكام الطوارىء ، أو الأحكام العُرفية فيما يَصطلح عليه علماء القانون .

والأمور التي اقتضت حكمة الباري جلّ جلاله أن يَتعلّق بها هذا النوع من التشريع ، هي تلك التي يَختلف أثرها في المجتمع ما بَين عَصرٍ وآخر أو بلدةٍ وأُخرى ، ويَتأثّر وَجه المصلحة فيها بطوارىء الظّروف والأحوال ، ويُمَثَّل لهذا القسم بإعلان حالة الحرب والسّلم ، وإتلاف أشجار العدو ومختلف ممتلكاتهم ، أو تركها دون أن تُمسَّ بأذى ، كما يُمثَّل له أيضاً بالسياسة التي يَنبغي أن تُتّبع بشأن الأسرى من قتلٍ أو استرقاقٍ أو منٍّ أو فداءٍ مُراعى في ذلك مبدأ المعاملة بالمثل ، كما يُمثّل لها بأمور كثيرة أُخرى ، منها ما هو مُتّفق على أنّه من هذا النوع ، ومنها ما هو مَحلّ خلاف بين الأئمة ، ولا مجال لسردها والحديث عنها في هذا المقام .

فالمشروعية بالنسبة لهذا القسم الثاني لا تَعني الإباحة المطلقة أو الوجوب المطلق ، على نحو ما أوضحناه بالنسبة للقسم الأول ، وإنّما

هي تَعني نَوعاً من الصلاحية يُخَوِّلُها الشَّارع جلّ جلاله لمن كانت بيده السلطة مِن رَسولٍ أو خَليفةٍ أو رَئيسٍ ، بالنّسبة لأمور قد يَختلف وجه المصلحة في مُعالجتها مع اختلاف الظّروف ، وتبعاً لما قَد يُفاجأ به المسلمون من أعدائهم من طوارىء التصرفات ، وواجب صاحب السّلطة حيال هذه الأمور تَطبيق ما تَقتضيه المصلحة حَسب كُلِّ زَمان ومكان ، في حدود الدائرة التي حدّدها له الشارع ، وتحت سلطان حقّ المعاملة بالمثل .

وربما قضى الحاكم الأعلى في هذه الأحوال بأقضيةٍ لو عُرضت على القانون وظُروفه الطّبيعيّة لاعتُبرت غاية في الوحشيّة والهمجيّة والإجرام ، ولكنّها بالنّسبة لظروفها الخاصّة ، وبالنّسبة لما تستظل به من كلمة « الأحكام العرفية » تُعتبر علاجاً طبيعياً صحيحاً لا يُعقَّب عليه بأيّ استنكارٍ أو نقد ! .

وعندما أمرنا الحاكم الحقيقي جلّ جلاله بأن نَتحوّل عن كل حُكمٍ وقانونٍ إلى حكمه وقانونه ، وضعنا أمام شريعةٍ رائعةٍ عُظمى صالحةٍ لكلّ زمان ومكان ، ومعنى ذلك أنّها صالحة في الظروف والأحوال الطبيعية التي يعتمد فيها الناس على قانونهم العامّ ، وصالحة في الأحوال والظّروف الطَّارئة التي يَهرع فيها الحكَّام إلى قانون الطوارىء.

فكيف تَكون شريعة الله جلّ جلاله صالحةً لهاتين الحالتين ؟ وما السبيل إلى ذلك ؟

السبيل هو أن تحوي نصوص الشريعة نفسها أحكاماً تبليغِّية دائمة يُمارسها الفرد والمجموع ، لا تتبدّل ولا تُنسخ إلى يوم القيامة ، ثمّ

أن تَحوي إلى جانب ذلك نُصوصاً أُخرى تتضمّن أحكاماً يُخاطَب بها الأئمة والحكّام ، يُعطَون بموجبها صلاحيَّاتٍ معيّنة ضمن موازين من المصلحة الشرعيّة الدّقيقة ، وذلك كي يُواجهوا بها طوارىء الأحوال وتقلّبات الظّروف ، فلا يَجدوا معها ما يَضطرّهم إلى التحول عن حكم الله إلى أهواء النَّاس وآراء المغرضين .

وهكذا ، فالشّريعة الإسلاميّة بقسميها اللذين شرحناهما حَاويةٌ لكلٍّ من القانون الدوريّ العام وقانون الطُّوارىء ، وهذا أروع مَظهر من مظاهر مرونته وخلوده وصلاحيّته لكلّ عصرٍ وفي كل حال .

إذا علمت هذا نقول : إنّ مسألة الاسترقاق عن طريق الأسر ، مسألة يُناط وجه المصلحة فيها بمقتضيات الحرب والسّلام ، وسياسة الأمم المتعادية بعضها تجاه بعض ، أي لا يُمكن لدولة ما أن تَقطع فيها بأمرٍ إلا في ضوء ما تلتزم به الدُّول الأخرى تجاهها .

وربّما أمكن أن تجتمع جميع الدُّول في عصر من العصور على مِيثاقٍ بَيّنٍ تتواضع عليه وتسير على نهجه ؛ وهو الذي تَمّ بجهود « مُحمّد الفاتح » واستمرّ إلى عصرنا هذا ، ولكن ليس من المضمون أن لا يأتي الغد القريب أو البعيد بظروف تُلغى فيها جميع هذه المواثيق والاتّفاقيَّات ، وتظهر على مسرح الدّنيا دُول وحكومات تَستبيح لنفسها كلّ ما تصوّرها لها أخيلة الشرّ والإجرام ، ولا تُقيم للكرامة والحريّة الإنسانيّة أيّ وَزنٍ فتفعل بالأسرى الذين يقعون تحت يدها ما هو أسوأ من الاسترقاق .

وقد تبحث الأمر دولٌ عاقلة إذ ذاك ، فترى أنّ التهديد بالمعاملة

بالمثل ، هو وحده أنجع الوسائل السياسيّة لكبح جماح البغاة والأشرار ، ولصدّهم عن اقتحام أبواب الشرّ التي يَتخيّلون أنّها قد لا يمكن أن تنفتح إلاَّ على خصومهم . ومعلومٌ أنّ هذه السياسة معتبرة اعتباراً تامَّاً من خلال ما تُجمع الدُّول جميعاً عليه اليوم ، وهو مبدأ المعاملة بالمثل فيما يتعلق بأسرى الحرب .

إذاً فمن المحتمل أن تجد الدُّولة نفسها ذات يوم من عمر الزّمن ـ مهما بَعُد الاحتمال أو قرُب ـ أمام ضرورة استعمالٍ هذا السّلاح أو التّلويح به أو اعتماده في سياسة الحروب ، ردعاً لمن قد يتصوّر أنّه وحده الذي يَستطيع أن يَهدّد الآخرين بهذا السّلاح ويَستعلي عليهم بسلطانه .

وقد تَكون احتمالات هذه الظّروف قليلة ، وقد يَكون تَصوّر ذلك داخلاً في دائرة الحيطة المجرّدة ـ والإسلام حريصٌ على الحيطة في كلّ ما يشرعه ـ ولكنَّه على كلٍّ احتمالٌ قائمٌ وأمرٌ ممكن التصوّر والوقوع .

ولا بدّ للشرائع العالميّة التي يُراد لها أن تَعيش صالحةً إلى أبعد مَدى ممكن من الزمن من تقدير هذا الاحتمال واقعاً ووضع الحلول له سلفاً .

فأمَّا حلّ ذلك من وجهة نظر القوانين الوضعيّة ، فأمرٌ مَيسور لا يَدعو إلى أي تَأمّل أو جهد ، إذ فيما تخوّله أحكام الطوارىء التي يُعلنها الحاكم الأعلى عند مُداهمة أيّ حالة استثنائية ، ما يتّسع لحلّ هذه المشكلة وكلّ ما يماثلها . هذا هو الحلّ عن طريق النّظم والقوانين الوضعيّة .

أمَّا الحلّ الذي تقدّمه الشريعة الإسلامية ، فهو أنّها ـ كما قلنا ـ تميّز مثل هذه المسائل التي يختلف وجه المصلحة فيها بتأثير الطُّوارىء والظّروف الاستثنائية ، عن سائر الأحكام الشرعيّة الثّابتة ، وتَشرَع لها أحكاماً خاصّةً بها ، تسمّى بأحكام الإمامة أو السياسة الشرعيّة .

ثمّ إنّ الشّريعة تُعطي الحاكم المسلم صَلاحيَّات مُعيّنة في معالجتها ؛ ضمن شروط مَعروفة مُحدّدة ، وعلى أساسٍ من ضوابط المصلحة الشّرعية التي تُراعي دائماً كرامة الإنسان وحرِّيته ومصالحه الدنيويّة والأخرويّة ، فهو مُكلّف في مثل هذه الحالات الطَّارئة باتِّباع ما يَراه من المصلحة ، بحيث لو تَحوّل عنها إلى سبيل أخر ، كان آثماً مُعرّضاً نفسه لعقوبةٍ إلهيةٍ صارمة ، وهو ذاته ما يُسمّى في مُصطلح القوانين الوضعيّة بالأحكام العرفيّة .

وعلى هذا ، فما دام من الممكن أن يَأتي الزّمن بحالة ـ ولو على وجه النّدرة ـ يجد المسلمون فيها خُصوماً لهم يَسترقُّون أسراهم عند الحرب ، وما دام من الممكن أن يَجد المسلمون إذ ذاك أنَّ لا سبيل تَردع أولئك الخصوم إلاَّ على أساس من سياسة المعاملة بالمثل ، وما دام الإسلام دِيناً صالحاً لِكلّ زمانٍ ومكانٍ وحالةٍ طارئة ، إذاً لا بدّ من أن يَستجيب الإسلام لمقتضيات المصلحة في هذه الحالة ، فَيُشَرِّع أحكاماً احتياطيّة لضمانها ، كما تَستجيب لذلك سائر القوانين الوضعيّة عن طريق إعلان حالة الطوارىء وتحكيم رأي الفرد ! .

ومن أعجب العجب أن تجد عاقلاً ، يَزعم أنّ له دراية بطبيعة الأنظمة والقوانين ، ثمّ يُنكر هذا الذي نقول ، أو يَجهل أنّه مِن أبسط

مُقوّمات المرونة والاستمرار لأيّ شرعةٍ أو قانون ! .

وأعجب من ذلك أن تجد عاقلاً يُسوّغ كلّ ما يُقدم عليه فرد من النَّاس من ألوان الجرائم والجنايات المختلفة التي ينزلها ظلماً وعدواناً بآلاف أو ملايين البشر بحجّة أحكام الطُّوارىء ، ثم لا يَسُّوغ أقل من ذلك بكثير تحت ضرورة التّعامل مع الآخرين بالمثل وبالحجّة القانونية ذاتها .

إذن فَفِي ظلّ « أحكام الطُّوارى » أعطى الشَّارعُ وَليَّ أمر المسلمين حقّ معاملة الآخرين بالمثل ، ولو اقتضى الأمر قتلاً أو استرقاقاً ، إن رأى أنّه الحلّ الجذريّ للمشكلة .

ثمّ في ظلّ اتّفاق دول العالم على إلغاء الاسترقاق في أعقاب الحروب ـ وهو ما تمّ بعهد محمّد الفاتح وبمساعيه ـ طُويت تلك الأحكام الطَّارئة ، وعاد المسلمون إلى الأصول الشّرعية الدوريّة الثابتة .

على أنّ مِنَ الأهميّة بمكان أن نَعلم أنّ الشريعة الإسلاميّة لم تُنشىء حُكم الاسترقاق ، ولكنّها رخّصت في صور مُحددة مِنه سَيراً مع ما لا بُدّ منه من معاملة المسترقِّين لأسرانا بمثل ذلك ، وذلك في ظلِّ أحكام استثنائية هي ـ أحكام الإمامة ـ أي أحكام الطوارىء .

وفي الوقت الذي بَرّرت فيه الشريعة الإسلاميّة معاملة الآخرين بالمثل ، فتحت أوسع الأبواب إلى إعتاق من تمّ استرقاقهم ، فأكثر المعاصي التي تُرتكب والحقوق التي تُنتهك ، إنّما تَكمن كفَّارتها في إعتاق رقيق ، والظّروف المهيأة لتحرير الفتاة أوسع بكثير من الظّروف

المهيّأة للرجل ـ انظر أحكام أمّ الولد في الإسلام ـ ولكن اعلم أنّه كما يُوجد في دنيا القوانين الوضعيّة رُكن دائم لأحكام الطُّوارىء ، كذلك يُوجد في ساحة الشّريعة الإسلاميّة ركنٌ دائمٌ لحالات الطُّوارىء ، « أحكام الإمامة » .

* * *

الخاتمة

أُدخل أيّ صيدليّة من صيدليَّات العالم ، تجد بين الزجاجات والعقاقير المنثورة على الجدران جاماً صغيراً قد صُبغ باللون الأحمر ، فوقه كلمة : « سموم » ! ومهما طُفت في الدنيا ، فلن تجد عاقلاً يُمسك بتلابيب الصِّيدلانيّ يَتّهمه بالجناية والإجرام ، لأنّه قد هيّأ للمرضى سُموماً قاتلة بدلاً من الأدوية الشّافية .

ذلك لأنّ أيّ عاقل يَعلم بأنّ المريض قد يُؤدي به الأمر في بعض الأحوال إلى ضرورة استعمال نوع من السّموم على أساس من استشارة الطّبيب ، بمقادير معيّنة وضمن ظروف محدّدة .

ومهما كانت هذه الحالة نادرة ، فإنّ الصيدليّة لا تَكون شاملةً وافيةً مُستجيبةً لمختلف الظّروف والأحوال إلاَّ إذا كان لهذه السّموم ركنٌ خاصٌّ متميّز فيها ، ونُقش عليه باللون الأحمر : « سموم » .

* * *

الفهرس العام

مقدمة الكتاب ٧

١ـ التعامل مع غير المسلمين في الشريعة الإسلامية

مقدمة البحث ١٧

تمهيد حول مفهوم الحَربيّ والذِّمِّيّ والمُستأمِن ١٩

مفهوم الحرابة ١٩

مفهوم أهل الذمة ٢٠

مفهوم المستأمن ٢١

أحكام أهل الذِّمَّة في الإسلام ٢٣

نماذج من الحقوق التي يَحفظها عَقدُ الذِّمَّةِ لأهل الكتاب ٢٥

إذاً .... ما حقيقة الجزية التي تُؤخذ من الذِّمِّيِّين ؟ ٢٦

مشكلات واجتهادات تخضع لحاجة التصحيح والبيان ٢٩

أثر الفتوحات الإسلامية في رعاية حقوق أهل الكتاب ٣٢

الدولة الإسلامية وموقع غير المسلمين فيها ٤١

ليس في الإسلام أقلية أو أكثرية ٤٦

الأقنية التي تَصنع لنفسها الإرهاب ٥٥

ضوابط التعامل مع غير المسلمين ٦٠

الخاتمة ٦٨

٢ـ دعاة إلى الله لا دعاة على أبواب جهنم

مقدمة البحث ٧٣

السنن العامة في الدعوة إلى الدين ٧٤

الصفات التي يجب أن يتحَلَّى بها الداعي إلى الله عزّ وجلّ ٨٠

آثار يحققها الحب في مسلك الدعوة إلى الله ٨٧

دُعاةٌ فَتَّانُون ومُتَطَرِفُون حَمقَى ٩٦

كيف يجب أن تكون علاقة الدعاة مع ولي الأمر ؟ ١٠٣

كيف السبيل لإيجاد الصلة بين العالم وولي الأمر للقيام بالواجب ؟ . ١٠٨

آداب النصيحة لوليّ الأمر ١١٠

الفرق بين الحركية الإسلامية والدعوة إلى الله ١١٥

ضَابِط الخُروج عَلَى الحَاكِم ١٢٢

عُلَمَاءُ السُّلطَة ١٢٥

ما هي خطورة من يُسمَّون بـ « علماء السلطة » على الإسلام ؟ ١٢٨

مسؤولية الدعاة في الفتن ١٣٠

موقف العلماء الربانيين في الفتن ١٤٠

فوائد من فتنة ابن الأشعث ١٤٧

موقف الحسن البصري من الفتنة ١٥٥

الخاتمة ١٥٨

٣ـ الإسلام بين التطرف والاعتدال

مقدمة البحث ١٦٥
خطر التَّطرُّف على الإسلام ١٧٠
الإرهاب بين صناعته وسماسرته ١٧٧
متى يكون الجهاد عُنفاً ؟ ١٧٧
شركات أمريكية لتصنيع وتصدير الإرهاب ١٨٧
كيف نحمي المجتمعات العربية من التطرّف ؟ ٢٠١
الوسطية في الاعتقاد والسلوك هي الحل الوحيد لمشكلة التَّطرُّف ... ٢٠٣
أصل الوسطية في اللغة والمراد بها ٢٠٣
وسطية الإسلام في الفروع والأحكام السلوكية ٢١٣
الخاتمة (الأخلاق) ٢٣١

٤ـ أفعال شرعها الإسلام وأنكرها متنطعو الوهابية

مقدمة البحث ٢٣٩
حكم زيارة قبر النَّبيِّ ﷺ ٢٤٧
جَوَازُ الاستِغَاثَةِ وَالتَّوَسُّل ٢٥٤
حياة الأنبياء وعدم انقطاع أعمالهم بالموت ٢٦٧
جواز تصرُّفِ الأَنبياءِ والأَوْلياءِ بالأُمورِ المعنوية كالمرض والضيق .. ٢٧٧
التَّبرُّك بآثار الأَنبياءِ والصَّالِحين ٢٨٦
الاحتفال بالمولد النبوي ليس بدعة ضلالة ٢٩١
الرد على دعاة الجهة والتجسيم لله تعالى ٢٩٩
الخاتمة ٣٠٣

٥ـ في سبيل النهوض بالأمة

مقدمة البحث ٣١١
هموم المجتمع مع نفسه هو العلاج الأول ٣١٥
الانحراف الفكري والنفسي والغريزي ٣٢٠
التيارات الاجتماعية الصغيرة ٣٢٣
المرض في المجتمع وليس في الشبان ٣٢٤
ما هو العلاج الذي يُصلح المجتمع ؟ ٣٢٥
لا مكان لمثل هذه الحرية بين عوامل التربية ٣٢٧
ما هو البديل عن الإسلام ؟ ٣٢٨
مأساة السلوك الخلقي في مجتمعنا ٣٣٠
مأساة الوعي الخلقي في مجتمعنا ٣٤٠
السبيل إلى خلق وحدة وطنية في الأمة ٣٤٦

٦ـ الفرق الإسلامية قديماً وحديثاً

مقدمة البحث ٣٥٣
تعريف الفِرَق الإسلامية ٣٥٩
عوامل نشأة الفرق ٣٦٠
موقع هذه الفرق من الإسلام ٣٦٣
موقف الدولة الإسلامية من الفرق ٣٦٧
أهم الفرق الإسلامية وما اختص به كل منها من اجتهادات وآراء ... ٣٦٩
أولاً : الفِرَق السياسية ٣٦٩
١ـ الشيعة ٣٧٠
٢ـ الخوارج ٣٧٨
ثانياً : المذاهب الاعتقادية ٣٨١
١ـ المعتزلة ٣٨١
٢ـ المرجئة ٣٨٦
ما هي العوامل التي أدت إلى زوال هذه الفرق ٣٨٩
الخاتمة ٤٠٤

٧ـ ممارسات بحق المرأة يرفضها الإسلام

مقدمة البحث ٤٠٩
كيف ينظر بعضهم إلى المرأة ؟ ٤١٣
الميراث والمهر ٤١٩
فوضى تعدد الزوجات ٤٢٥
التحيز في الهدايا والأعطيات ٤٣١
مشاطرة الزوج زوجته في مالها ٤٣٦
كل ما عدا الوجه والكفين من المرأة عورة ٤٤٩
تحقيق العلماء في الوجه ذاته ٤٥٠
محل ونتيجة الخلاف ٤٥٢
عملها وتعلمها ٤٥٤
شُبَهٌ علميّةٌ مصطنعة ٤٥٥
أقوالٌ لا رصيدَ لها ٤٦٤
وأخيراً مسألة الرق في الإسلام ٤٦٨
ونقول بكلمةٍ جامعةٍ وجيزة ٤٦٩
الخاتمة ٤٧٨
الفهرس العام ٤٧٩